

الدعوة الإسلامية

في عهد الدولة الأيوبية

تأليف

زلفى بنت أحمد بن محمد بن الخطاط



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ

تأليف

زلفى بنت أحمد بن محمد الخراط

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير
في الدعوة والاحتساب

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر

أسَّسَهَا:
مُحَمَّدُ سَيِّدُ وَوَلَدُهُ
سنة ١٢٨٧هـ - ١٩٦٧م

دار القلم
دمشق

حُقوق الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

طبعة خاصة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر - ص.ب.: ٤٢٢

بريد إلكتروني: turathuna@islam.gov.qa

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب.: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب.: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

ص.ب.: ٢١٤٦١ هاتف: ٢٨٩٥ فاكس: ٦٦٥٧٦٢١ ٦٦٠٨٩٠٤

تقديم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد، فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر - وقد وفقها الله لأن تضرب بسهم في نشر الكتب النافعة للأمة - لتحمد الله ﷻ على أن ما أصدرته قد نال الرضا والقبول من أهل العلم.

والمتابع لحركة النشر العلمي لا يخفى عليه جهود دولة قطر في خدمة العلوم الشرعية ورفد المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب القديمة والمعاصرة وذلك منذ تسعة عقود، عندما وجّه الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر آنذاك بطباعة كتابي (الفروع) و(تصحيح الفروع)، سنة ١٣٤٥هـ، وكان المؤسس الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني رحمته الله قد سنّ تلك السنة من قبل.

وقد جاء مشروع إحياء التراث الإسلامي والنشر العلمي الذي بدأته الوزارة في السنوات الأخيرة امتداداً لتلك الجهود وسيراً على تلك المحجة التي عُرفت بها دولة قطر.

ومنذ انطلاقة هذا المشروع المبارك يسّر الله جلّ وعلا للوزارة إخراج مجموعة من أمهات كتب العلم والدراسات المعاصرة المتميزة في فنون مختلفة، تُطبع لأول مرة، نذكر منها:

• ففي التفسير وعلوم القرآن:

أصدرت الوزارة عدة كتب منها: (فتح الرحمن في تفسير القرآن) للعلمي، و(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لابن عطية في طبعته الثانية.

وفي علم رسم المصحف أصدرت الوزارة: كتاباً منها (مرسوم المصحف) للعقيلي، و(الدرة الصقيلة في شرح أبيات العقيلة) لأبي بكر اللبيب.

وفي علم القراءات أصدرت الوزارة كتاباً منها: (البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة) لأبي حفص النشار، و(معاني الأحرف السبعة) لأبي الفضل الرازي.

• وفي السُّنة النبوية وشروحاتها:

أصدرت الوزارة عدة كتب، منها: (التقاسيم والأنواع) لابن حبان، و(مطالع الأنوار) لابن قرقول، و(التوضيح شرح الجامع الصحيح) لابن الملقن، و(حاشية مسند الإمام أحمد) للسندي، وشرحين على موطأ الإمام مالك؛ لكلٍّ من (القنازعي)، و(البوني)، و(المخلصيات) لأبي طاهر المخلص، و(شرح مسند الإمام الشافعي) للرافعي، و(نخب الأفكار شرح معاني الآثار) للعيني، و(مصاييح الجامع) للدِّماميني. ومما تشرفت الوزارة بإصداره في تحقيق جديد متقن: (صحيح ابن خزيمة)، و(السُّنن الكبرى) للإمام النسائي المحقِّق على عدة نسخ خطية، و(جامع الأصول في أحاديث الرسول)، و(النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير.

• وفي الفقه وما يتصل به:

أصدرت الوزارة عدة كتب في المذاهب الأربعة، منها: كتاب: (الأصل) لمحمد ابن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ) كاملاً محققاً على أصول عدة، و(التبصرة) للخمي، و(حاشية الخلوئي)، و(نهاية المطلب في دراية المذهب) للإمام الجويني بتحقيقه المتقن للأستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب رحمته الله عضو لجنة إحياء التراث الإسلامي، كما أصدرت الوزارة: (الأوسط من السُّنن والإجماع والاختلاف) للإمام ابن المنذر بمراجعة دقيقة للشيخ الدكتور عبد الله الفقيه عضو لجنة إحياء التراث الإسلامي، و(بغية المتتبع لحل ألفاظ روض المربع) للعوفي الصالحي، و(منحة السلوك في شرح تحفة الملوك) للعيني.

• وفي السيرة النبوية:

أصدرت الوزارة كتاب: (جامع الآثار في السُّير ومولد المختار) لابن ناصر الدين الدمشقي، وغيرها.

• وفي العقيدة والتوحيد:

أصدرت الوزارة كتاباً نفيساً لطيفاً هو: (الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد) لابن العطار تلميذ الإمام النووي رحمهما الله تعالى، كما أعادت نشر كتاب (الرد على الجهمية) للإمام أحمد رحمته الله، وغير ذلك من كتب عقيدة أهل السُّنة والجماعة.



• وفي مجال الدراسات المعاصرة المتميزة:

أصدرت: (القيمة الاقتصادية للزمن)، و(نوازل الإنجاب)، و(مجموعة القره داغي الاقتصادية)، و(التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي)، و(صكوك الإجارة)، و(الأحكام الفقهية المتعلقة بالتدخين)، و(التورق المصرفي)، و(حاجة العلوم الإسلامية إلى اللغة العربية)، و(روايات الجامع الصحيح ونسخه دراسة نظرية تطبيقية)، وغيرها.

كما قامت الوزارة بشراء وتوزيع بعض الكتب المطبوعة لما لها من أهمية منها: (مسند الإمام أحمد)، و(صحيح الإمام مسلم)، و(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، و(الجامع لشعب الإيمان) للبيهقي، و(تاريخ الخلفاء) للسيوطي، و(التاريخ الأندلسي) لعبد الرحمن علي الحجي، و(الإقناع في مسائل الإجماع) لابن القطان الفاسي، و(شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي، و(قواعد الأحكام في إصلاح الأنام) للعز ابن عبد السلام، و(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي، وغيرها.

واليوم يسرنا أن نقدم للقارئ الكريم دراسة جديدة بعنوان: (الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية) للباحثة: زلفى بنت أحمد بن مُحَمَّد الخراط، وقد تميزت هذه الدراسة بإبراز الجهود الدعوية التي بذلها الملوك والدعاة في عهد الدولة الأيوبية، كما وضحت الوسائل والأساليب الناجحة التي استُخدمت في عهد الدولة الأيوبية، والمعوقات التي واجهت الدعوة والدعاة في هذه الحقبة، لتكون نبراساً للداعية في نجاح دعوته، لذلك رأت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر أن تسهم في نشر هذه الدراسة ليستفيد منها الدعاة وطلبة العلم والله الموفق، وهو من وراء القصد.

والحمد لله على توفيقه ونسأله المزيد من فضله.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإهداء

أرى نفسي تقف حائرة أمام عظيم صنعك..
وأرى مداد قلمي يعجز عن وصف فضلك..
ما فتئت منذ أن شببت عن الطوق.. خير المعين..
وخير الأنيس..
وخير الصديق..
والدي..
سيدي..
يا صاحب القلب الكبير..
أشرف هنا.. بأن أهديك باكورة إنتاجي العلمي..
علي أرد لك بها قطرة من بحارك التي جدت بها علي..

ابنتك..
زلفى

شكر وتقدير

أشكر الله تعالى على ما يَسَّره لي من إتمام هذه الرسالة، ثم الشكرُ موصولٌ لوالديَّ الكريمين اللذين لم يألوا جهداً في توجيهي وتشجيعي على طلب العلم، والدعاء الدائم لي بالتوفيق والسداد، أسأل الله العلي العظيم أن يبارك في عمرهما ويوفقهما إلى ما يحبُّ ويرضى.

والشكر الجزيل لزوجي ورفيق دربي الدكتور زبير عبد الحميد ولي الذي وقف إلى جانبي، وكان لي خير المعين والمشجّع على الرغم من كثرة الأعمال والمشاكل المنوطة به.

كما أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي أتاحت لي فرصة مواصلة الدراسات العليا بمرحلة الماجستير.

وأخضُّ بالشكر والتقدير فضيلة الدكتور سليمان بن عبد الله الحبس المشرف على رسالتي الذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته، ومنحني من وقته الثمين الكثير، وكان نعم المشرف العلميّ أيامَ سفري إلى الخارج مع زوجي وبعد عودتي إلى المملكة، وقد استفدت الكثير من علمه وخلقه النبيل الكريم لي طوال رحلتي العلمية في هذه المرحلة.

والشكر لجميع من أعانني بالحصول على بعض المراجع، وعلى كل مساعدة قُدِّمت لي من أجل إخراج هذه الدراسة على النحو المطلوب.

ولا يفوتني أن أشكر الأستاذين الفاضلين: الدكتور سعد الجريد والدكتور علي الأحمد على تكريمهما وموافقتهما على مناقشة هذه الرسالة، وبذلهما الجهد الكبير لخدمة العلم وأهله، ولا شك أنني سأستفيد كثيراً من توجيهاتهما وإرشاداتهما الكريمة.

أسأل الله العلي العظيم أن يبارك عملي هذا، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

المقدمة



إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال جلَّ وعزَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا • يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فقد خلق الله تعالى عباده مفظورين على حب الخير، ميالين إلى سلوك الرشد، ولكن الانحراف طراً عليهم، والأهواء تنازعَتْهم، فضلوا طريق الحق، وتاهوا في ظلمات الجهل، فأرسل الله رسله مبشرين ومنذرين، داعين إلى صراط الله القويم، مُرْشِدِينَ العباد إلى الهدى والرشاد.

وقد ختم الله الرسالات السماوية برسالة الإسلام، فأكمل ﷺ الرسالة، وأتمَّ الله النعمة، ورضي لنا هذا الدين منهجاً قويمًا. وقد حمل لواء الدعوة

من بعده رجال أكفاء ساروا على دربه، واقتفوا أثره، ففتحوا البلاد، ونشروا الدين، وصحّحوا المعتقدات، واضعين نُصْبَ أعينهم حقيقة هامة وهي وجوب حمل مشعل الهداية في هذه الأمة ليعمّ الخير والفضيلة.

ولقد كان لأولئك الرجال الأفاضل عبر التاريخ مناهجهم الفريدة، وأساليبهم المتميزة في الدعوة إلى الله، والتصدي لما يواجهونه من عقبات ومشكلات في هذا الطريق.

ولا يخفى على أحد أهمية دراسة مسيرة الدعوة إلى الله عبر التاريخ الإسلامي، وسبب ما مرّت به من ازدهار، وما واجهته من عقبات وعوائق، والعناية بهذه الدراسة تحقّق رصيماً طيباً من الخبرة وسعة الأفق، والإفادة من التجارب التي مرّت برجال الدعوة والمحتسبين.

ويجدر بالدعاة اليوم أن يطلّعوا على تجارب مَنْ سبقهم من الدعاة لتذليل العقبات، ونشر معالم الدعوة التي عزموا على إرسالها مع مدعوّيهم.

أولاً: تعريف مصطلحات البحث:

في هذا الكتاب عدة مصطلحات تحتاج إلى إيضاح؛ من أهمها: الدعوة، الإسلام، العهد، الدولة.

١ - الدعوة:

أ - التعريف اللغوي للدعوة:

مصدر للفعل الثلاثي: دعا، يدعو، دعوة. ولها معان متعددة كلها تدور حول: الطلب والسؤال والنداء والتجمع والدعاء والاستمالة والاستغاثة^(١).

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة (دعا): ٢٥٧/١٤.

ب - التعريف الاصطلاحي للدعوة:

للدعوة في الاصطلاح معنيان:

المعنى الأول: الإسلام الذي هو موضوع الدعوة.

فالدعوة هي الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك^(١).

المعنى الثاني: عملية نشر الإسلام وتبليغه للناس.

فالدعوة هي نَشْرُ الإسلام وتبليغ أحكامه فهي تبليغ الإسلام للناس، وتعليمهم إياه، وتطبيقه في واقع الحياة^(٢).

والمعنى المراد في هذا الكتاب هو النشر والبلاغ.

٢ - الإسلام:

أ - الإسلام لغة:

الإسلامُ والاستسلام لغة: الانقياد، والإسلامُ في الشريعة إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي ﷺ^(٣).

ب - الإسلام اصطلاحاً:

هو مجموع ما أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ من أحكام العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات في القرآن والسنة، وقد أمره بتبليغها إلى الناس^(٤).

(١) ثلاثة الأصول وأدلتها، الإمام محمد بن عبد الوهاب، ص ٨.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة، الدكتور أبو الفتح البيانوني، ص ١٧.

(٣) لسان العرب، مادة (سلم): ٢٨٩/١٢.

(٤) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص ١١.

وقد جاء تعريف الإسلام في حديث جبريل عليه السلام، فقد جاء بهيئة أعرابي يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيُسمع الحاضرين، ويتعلموا أمور دينهم. جاء في الحديث: (فأخبرني عن الإسلام) فقال: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)^(١).

٣ - العهد:

العهد: الزمان، وعهدٌ دولةٌ كذا: زمانها ووقتها الذي كانت فيه^(٢).

٤ - الدولة:

هي جمع من الناس مستقرون في إقليم معين الحدود مستقلون وفق نظام خاص^(٣).

ومن خلال ما تقدم يتبين أنني سأتناول في بحثي ما يتعلق بجذب الناس إلى الإسلام وتقويم سلوكهم وفقاً هديه القويم في زمان الدولة الأيوبية.

ثانياً: أهمية الموضوع:

تعدُّ المدَّة التي عاشها المسلمون في ظل الدولة الأيوبية مهمة، عَزَّ فيها المسلم ودولة الإسلام، وأعني الدولة الأيوبية.

ومن يطلع على حال الأمة قبل زمن صلاح الدين الأيوبي رحمته الله يعجب لحالها وما أصابها من التمزُّق والهوان، وغلبة أهل الصليب عليها، وهيمنة المبتدعة.

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان: ١ / ١٣٤ برقم (٥٩).

(٢) لسان العرب، مادة (عهد): ٣ / ٣١٥؛ القاموس المحيط، مادة (عهد): ١ / ٣٢٠.

(٣) المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى وزملاؤه، بإشراف:

عبد السلام هارون: ١ / ٣٠٤.



ومن هنا فإنّ الكشف عن جهود هذا الملك الصالح وملوك هذه الدولة في الدعوة إلى الله والاحتفاء بمذهب أهل السنة أمر ضروري، لاسيما أن الدارسين القدماء والمحدثين قد أجمعوا على أنّ صلاح الدين الأيوبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد أحدث في عصره نُقْلةً كبيرةً في عزّ الدولة المسلمة، وقَمَعَ المبتدعة، والوقوف أمام الزحف الصليبي، ورعاية العلم وأهله ورفع شأنهم.

والدراسة العلمية من جانب الدعوة وقضاياها ستكشف عن أبعاد ما تمّ إحكامه وبناءؤه في هذا العصر، وهو ما ستتمّ دراسته بإذن الله.

ثالثاً: أسباب اختيار الموضوع؛

- تتعدّد أسباب اختيار هذا الموضوع، ولعل من أهم هذه الأسباب ما يلي:
- ١ - أهمية التعرف على تاريخ الدعوة، لما ينضوي تحت هذه المعرفة من استخلاص الدروس والعبر الدعوية للحاضر.
 - ٢ - ندرة تناول الدراسات السابقة للجوانب الدعوية في هذا الموضوع.
 - ٣ - التعرّف على الجهود الدعوية التي بذلها الملوك والدعاة زمن العهد الأيوبي، وتقويم هذه الجهود وفق ضوابط علم الدعوة.
 - ٤ - قد يواجه بعض الدعاة عدداً من العقبات في طريق الدعوة، فيصاب بالملل والكسل، ويفتر عن خدمة هذا الدين، فلعل هذه الدراسة تقدم أنموذجاً رائعاً لجيلٍ جادت نفوس أصحابه بفيضٍ من الجهود التي عزّزت الدعوة الإسلامية وأعلت من شأنها، على الرغم من المصاعب الجمّة التي واجهوها في سبيل هذا الدين. والمُطلّع على ذلك ستشّحذ همته، وتنشط عزيمته، بغية محاكاة رجالات هذا العصر والافتداء بهم.

- ٥ - بيان التحديات التي واجهت الدعوة من جانب المخالفين في العقيدة، وبيان ما قام به ولاة الأمور من نشر لمذهب السُّنة.
- ٦ - التعرف على جهود أبرز الدعاة والمحتسبين في هذا العصر.
- ٧ - الرد على الشبهات التي تُثار حول رجالات هذا العصر.

رابعاً: أهداف الموضوع:

- ١ - التعرف على السمات والمراحل التي مرّت بها الدعوة الإسلامية في الدولة الأيوبية.
- ٢ - الوقوف على تجربة الدعاة والمحتسبين في العصر الأيوبي ودورهم في مواجهة البدع والمنكرات، ونشر الدعوة، وتقييم جهودهم في ضوء الكتاب والسُّنة.
- ٣ - التعرف على الجهود العلمية والدعوية المبذولة في هذا العصر لخدمة علوم السُّنة المتعددة.
- ٤ - تبصير الداعية المعاصر بمرحلة تاريخية مهمة من مراحل التاريخ الإسلامي، ظهر فيها عزّ المؤمنين، وتمكنوا من قهر الطوائف المعادية المختلفة.

خامساً: تساؤلات البحث:

- يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات، تُمثّل الإجابة عنها أهداف الدراسة، وهذه التساؤلات هي:
- ١ - ما السمات والمراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية؟.
 - ٢ - ما موضوعات الدعوة في عهد الدولة الأيوبية؟.

- ٣ - ما أصناف الدعاة؟ وما أصناف المدعويين في عهد الدولة الأيوبية؟.
- ٤ - ما الوسائل والأساليب والميادين الدعوية التي استخدمت في عهد الدولة الأيوبية؟.
- ٥ - ما المعوقات التي واجهت الدعوة والدعاة في هذه المدة؟ وما الأساليب التي اتُّبعت للتغلب عليها؟.
- ٦ - ما نتائج الدعوة الإسلامية في الدولة الأيوبية؟ وما العوامل التي ساعدت في نجاح الدعوة في تلك الدولة؟.
- ٧ - ما أوجه الاستفادة من الدعوة في عهد الدولة الأيوبية في العصر الحاضر؟.

سادساً: الدراسات السابقة:

- لم أقف على دراسة علمية تخصصت بدراسة الجانب الدعوي في زمن الدولة الأيوبية (٥٦٤ - ٦٤٨ هـ)، وما وقفت عليه هو:
- رسائل علمية تحدثت عن الدولة الأيوبية، أو عن صلاح الدين الأيوبي، ولكن من زاوية محددة، عيَّنها الباحث تبعاً لتخصصه كما سيتضح معنا، ومن هذه الرسائل:
- ١ - (دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية)^(١).

وقد قسّمت الطالبة بحثها تقسيماً زمنياً وموضوعياً معاً مراعيةً فيه

(١) الطالبة: آسيا سليمان نقلي، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في قسم التاريخ، كلية التربية للبنات، الرياض، عام ١٤١١هـ.

التسلسل الزمني للأحداث والوقائع، مع إبراز دور الفقهاء والعلماء تجاه كل حدثٍ من هذه الأحداث تبعاً لموقعه الزمني في التسلسل التاريخي للبحث.

ويحتوي البحث على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة:

جاء عنوان الفصل الأول: (الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين إبان الحركة الصليبية) وفيه ألقى الباحثة نظرة على أوضاع العالم الإسلامي والنصراني قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، ثم تقدّم هذه الحملة إلى بلاد الشام، وموقف الخلافتين العباسية والعبيدية من الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ثم ألقى المزيد من الضوء على جهاد الروّاد الأوائل للوحدة الإسلامية منذ وصول الصليبيين الشام، وحتى نهاية الأسيرة الزنكية، ثم استعرضت جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين، ثم انتقلت إلى الجهاد الإسلامي في عهد سلاطين المماليك حتى نهاية الحركة الصليبية من سنة (٦٤٨هـ) حتى سنة (٦٩٠هـ).

أما الفصل الثاني فجاء عنوانه: (دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام حتى موقعة حطين) وقد تناولت الباحثة فيه استنكار العلماء والفقهاء المسلمين للغزو الصليبي، ودورهم في إثارة حماسة المسلمين للجهاد، ثم موقفهم من تحالف بعض الحكّام المسلمين مع الصليبيين، بالإضافة إلى مواقفهم من تعاطف بعض الحكّام المسلمين مع طائفة الإسماعيلية، ودورهم البارز في زمن حكم كلّ من: عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي.

أما الفصل الثالث فقد جاء عنوانه: (جهود العلماء والفقهاء في الجهاد ضد الصليبيين حتى نهاية الحركة الصليبية عام ٦٩٠هـ) وقد تحدثت فيه



الباحثة عن اشتراك الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين بعد معركة حطين، ودورهم في بيت المقدس بعد استردادها من الصليبيين، ثم دورهم في القضاء على فتور حركة الجهاد بعد استرداد بيت المقدس، ثم درست علاقتهم بأبناء البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين، ثم ناقشت موقف الملك الكامل من الحملة الصليبية السادسة، واستنكار العلماء والفقهاء لتسليمه بيت المقدس للصليبيين، ثم انتقلت للحديث عن جهود العلماء والفقهاء في العصر المملوكي ضد الصليبيين.

أما الفصل الرابع فكان بعنوان: (موازنة بين دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي ورجال الدين المسيحي في الغرب الأوروبي وبلاد الشام أثناء الحروب الصليبية) وقد فصّلت الباحثة في هذا الفصل عن موقف كلٍّ من الفقهاء والعلماء المسلمين، وموقف رجال الدين النصراني من الحملات الصليبية وتطور أحداثها.

وبهذا نخلص إلى أنّ الباحثة هدفت من رسالتها إلى: إبراز دور العلماء والفقهاء المسلمين في ميادين الجهاد ضد الصليبيين، ذلك الدور الذي كان له التأثير الكبير والخطير في الحياة العامة في المجتمع الإسلامي آنذاك، إذ شاركوا مشاركةً إيجابيةً فعّالة في ذلك الجهاد العظيم.

ولقد نهجت الباحثة في جمّعها للمعلومات وعرضها لها المنهج التاريخي - تبعاً لتخصصها - ومن زاوية محددة؛ وهي ميادين الجهاد الإسلامي، دون تفصيل للمسائل الدعوية من مناهج ووسائل وأساليب ومعوقات، وغيرها مما هو متفقٌ عليه في علم الدعوة، إلا أنني استفدت من هذه الرسالة في التمهيد التاريخي لرسالتي، وفي إرشادي إلى المصادر التاريخية التي نُثرت في بطونها قضايا الدعوة؛ لأستنبطها وأوظفها التوظيف الدعوي المناسب.

وبناءً على هذا اختلف تناولني للأحداث التاريخية عن تناول الباحثة اختلافًا جذريًا، فهي تناولتها من منظور تاريخي بحت، علاوةً على اقتصرها على قضايا الجهاد، بينما عالجت رسالتي قضايا الدعوة المختلفة في أزمان العهد الأيوبي المتتابعة معالجةً تحليلية استنباطية بهدف إبراز كل ما يتعلق بهذا العلم وقضاياه الرئيسة.

٢ - (الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي)^(١).

وقد قام الباحث بتقسيم رسالته إلى أربعة فصول:

تحدث في الفصل الأول عن الأصول التاريخية لنظام الإقطاع الحربي، عرض فيه بدايةً ما عُرف في الإسلام من الإقطاع في عهد رسول الله ﷺ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين، ثم في عهد الأمويين من بعدهم، ومن ثم الإقطاع في العصر العباسي، ثم انتقل في الحديث بعد ذلك عن الإقطاع في الدويلات التي قامت في فترة لاحقة من عهد الدولة العباسية والتي بدأت ببني بويه، ثم السلاجقة من بعدهم، وعرض من بعد ذلك للإقطاع الزنكي ونشأته، وكيف كان له أثرٌ مهمٌ في تشجيع الجند، ودفعهم إلى القتال والاستبسال فيه، ثم بيّن الباحث سياسة الإقطاع الحربي عند الأيوبيين.

أما الفصل الثاني فقد تحدث فيه الباحث عن الدولة الأيوبية وصلة صلاح الدين الأيوبي وأبيه وعمه بالدولة الزنكية، ثم فصّل في نظام الإقطاع عند الأيوبيين، ثم أجرى موازنة بين الإقطاع الأيوبي والإقطاع الأوروبي في العصور الوسطى.

(١) الطالب طلال العصيمي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، عام ١٤٠٤هـ.



أما الفصل الثالث فقد تناول فيه الباحث حقوق المُقَطَّع في العصر الأيوبي، وبيّن ما كان يُؤدّي من الخراج، وعرض أسباب تأثر الضريبة الخراجية زمن صلاح الدين، وتخصيصه ديوان الجيش للإنفاق على الشؤون العسكرية، كما بيّن أنواع الضرائب المختلفة، كما ناقش كيفية التصرف في الإقطاع بعد وفاة صاحبه، وما قيل من آراء في هذا الشأن.

أما الفصل الرابع فقد كان عن كيفية توزيع الأراضي في ظلّ النظام الأيوبي، والتنظيمات والأسس التي قام عليها الإقطاع الحربي الأيوبي، كما عرض الفصل أنواع الوثائق التي تُسجّل الإقطاع وتُثبتته في ديوان الجيش، وللمراحل التي تمرّ بها، وتناول أيضاً أساليب التوقيعات السلطانية التي تُمنح التوقيعات بمقتضاها، وانتقل بعد ذلك إلى تقييم الإقطاعات في النظام الأيوبي، ثم تناول انتقال الإقطاع من مقطعٍ لآخر، ثم درس ديوان الجيش دراسة مفصّلة؛ إذ كان هو المختص بالإقطاعات، كما تناول الأعمال المنوطة بديوان الإقطاع، وعرض في نهايته تنظيم ديوان المقطع في الإقطاع، وبيان أهم الوظائف في الإقطاع.

وبهذا يتبيّن لنا جليّاً أن هدف الباحث الرئيس من هذه الرسالة هو الحديث بإسهابٍ تاريخي عن نظام الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي نظراً للأهمية البالغة لهذا النظام؛ فقد كان عاملاً رئيساً في حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزو الصليبي للبلدان الإسلامية. ولا نلمح في هذه الرسالة أي تطرّقٍ دعوي من الباحث من قريبٍ أو بعيد، بل كانت الرسالة تاريخية محضة - انعكاساً لتبعيتها لقسم الحضارة والنظم الإسلامية - إلا أنني استفدت منها في التمهيد التاريخي لبحثي.

سابعاً: منهج البحث:

جمعت المادة العلمية من المظان الأصلية التي عاصرت الدولة الأيوبية، أو كتَبها رجالٌ كانوا من مسؤولي هذه الدولة، ولم أتوسع في التفصيلات التاريخية البحتة.

وقد تمّ استخدام المنهجين التاليين:

١ - المنهج التاريخي:

وهو عبارة عن النظر في الماضي بواسطة جمع الأدلة وتقييمها، ومن ثمّ تمحيصها، وأخيراً تأليفها؛ ليتّم عرض الحقائق أولاً عرضاً صحيحاً في مدلولاتها وفي تأليفها، وحتى يتمّ التوصل حيثئذ إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة^(١).

لذا قمتُ في هذا البحث بدراسة تاريخ العصر الأيوبي وما شهدته من أحداثٍ دعوية، وما رافقه من تقلبات وتطورات، لمعرفة مدى تأثيرها في مسيرة الدعوة الإسلامية. واجتهدتُ في استقراء المادة العلمية استقراء تاماً لكيلا أتحيز إلى جانبٍ دون جانب، والقاعدة العامة: أنّ رجال العصر ليسوا معصومين، وينبغي ذكُر ما لهم وما عليهم.

٢ - المنهج الاستنباطي:

وهو الذي يقوم على التأمل في أمور جزئية ثابتة لاستنتاج أحكام منها^(٢)، واستفدتُ منه في التعامل مع القدر الكبير الذي حشده

(١) المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، الدكتور صالح بن حمد العساف، ص ٢٨٢.

(٢) البحث العلمي، عبد العزيز الربيع: ١ / ١٧٨.



المؤرخون وأصحاب التراجم والمواقف من أحداث العصر؛ للوقوف على الجهود الدعوية المبذولة، وهي القضية الرئيسة التي عزمْتُ على إجلائها وسبرها في هذه الرسالة.

وفي مرحلة كتابة البحث اجتهدتُ للوفاء بقائمة الموضوعات لرصد ما يتعلق بالدعوة في العصر الأيوبي، معتمدة الأسلوب العلمي في الكتابة، لكيلا تسيطر على البحث العاطفة والمنحى الإنشائي، واجتهدتُ كذلك في توثيق المادة العلمية وعزوها إلى مظانها في الحواشي، للتمييز بين النقول التي أقتبسها، والاستنباطات والتحليلات التي قمتُ بها^(١).

ومن أهم الأمور التي راعيتها في هذه الرسالة:

- ١ - عزوتُ الآيات إلى مواضعها في المصحف الشريف بكتابة رقم الآية واسم السورة معتمدةً الرسم العثمانيّ وفق برنامج الحاسوب.
- ٢ - العناية بتخريج نصوص الأحاديث والآثار التي وردت في البحث من مصادرها الأصلية، وإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيتُ بعزوه إلى أحدهما، متجاوزة الحكم عليه؛ لإجماع العلماء على صحة ما فيهما من أحاديث، أما إذا لم يكن في الصحيحين فخرّجته من مصنفات الحديث كالسنن والمسانيد، وحرصتُ على بيان الحكم على الحديث ممّن خدمه ودرس رجاله، واستبعدتُ الأحاديث الضعيفة؛ لأن لي في الصحيحة والحسنة غنية. وغنيت بضبط نص الحديث، وشرح غامضه، والتفصيل في بيان توثيقه؛ لتيسير العودة إليه في حال اختلاف الطبعات.

(١) انظر: مناهج البحث وتحقيق التراث، د. أكرم العمري، ص ٦٨.



- ٣ - عُنيَتْ بتوثيق النصوص والشواهد من مصادرها المعتمدة.
- ٤ - عزوتُ النصوص المقتبسة من غير الكتاب والسنة إلى مصادرها في الحاشية، وإذا كان هناك اختصار أو تصرّف، فيما يُعرف بالاقْتباس المعنويّ كتبتُ في الحاشية: «انظر» أمام المصدر أو المرجع.
- ٥ - أغفلتُ ترجمة الأعلام الذين ذكروا في البحث في الحواشي؛ نظراً لكثرتهم، ولكيلا تطول الرسالة، وتُثقل بالحواشي.
- ٦ - شرحتُ الألفاظ الغريبة أو المصطلحات التي تردُّ في ثنايا البحث على نحوٍ موجز.
- ٧ - عُنيَتْ باستخلاص الدروس الدعوية من الوقائع التاريخية وسير الحكام والدعاة؛ لإبراز طابع التخصص، وتوجيه هذه الوقائع وفق الكتاب والسنة.
- ٨ - التزمتُ بالفقرات التي اعتمدتها المجالس العلمية بالجامعة، واجتهدتُ في الوفاء بكلّ تقسيماتها.
- وأودّ أن أشير في بيان منهجي أنني أوردتُ أخباراً عن مؤسس الدولة صلاح الدين أكثر ممّا أوردته عن باقي الملوك من إخوانه وأبنائه الذين تسلّموا إدارة الدولة من بعده، ولم يأت هذا من طريقٍ مباشرٍ، وإنّما أنا مرتبطةٌ بما أصادفه في المصادر والمراجع التي رصدتُ أخبار العصر، وحفلتُ ببيان ما جرى فيه، وهذه المصادر والمراجع في الحقيقة تحرّص على ملك الدولة الأول أكثر من حرصها على الملوك الآخرين.



ثامناً: حدود الدراسة:

١ - الحدود الزمانية للبحث:

نظراً لأن البحث يهدف إلى الحديث عن الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية فإن الإطار الزمني للدراسة يتحدد بالمدة الواقعة بين عامي: (٥٦٤-٦٤٨هـ).

٢ - الحدود المكانية للبحث:

شملت الدراسة المناطق التي كانت واقعة تحت حكم الدولة الأيوبية في مدة حكمها، ويمكن تحديدها بالمناطق التالية: مصر، بلاد الشام، الحجاز، اليمن، خلاط، والجزيرة الفراتية.

تاسعاً: تقسيمات البحث:

• المقدمة:

أولاً: أهمية الموضوع.

ثانياً: تحديد مصطلحات البحث.

ثالثاً: أسباب اختيار الموضوع.

رابعاً: أهداف الموضوع.

خامساً: تساؤلات البحث.

سادساً: الدراسات السابقة.

سابعاً: منهج البحث.

ثامناً: حدود الدراسة.

• الفصل التمهيدي:

المبحث الأول: الموقع الجغرافي للدولة الأيوبية.

المبحث الثاني: الأحوال السائدة قبيل الدولة الأيوبية.

المبحث الثالث: نشأة الدولة الأيوبية والأحوال السائدة فيها.

• الفصل الأول: سمات الدعوة الإسلامية ومراحلها في عهد الدولة

الأيوبية:

المبحث الأول: سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الثاني: مراحل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

• الفصل الثاني: موضوع الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية:

المبحث الأول: في مجال العقيدة.

المبحث الثاني: في مجال الشريعة.

المبحث الثالث: في مجال الأخلاق.

• الفصل الثالث: أصناف الدعاة والمدعوين في عهد الدولة الأيوبية:

المبحث الأول: أصناف الدعاة في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الثاني: أصناف المدعوين في عهد الدولة الأيوبية.

• الفصل الرابع: وسائل الدعوة الإسلامية وأساليبها وميادينها في عهد

الدولة الأيوبية:

المبحث الأول: وسائل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الثاني: أساليب الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الثالث: ميادين الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

• الفصل الخامس: معوقات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
وسبل التغلب عليها:

المبحث الأول: عوائق داخلية.

المبحث الثاني: عوائق خارجية.

• الفصل السادس: نتائج الدعوة الإسلامية وعوامل نجاحها في عهد
الدولة الأيوبية:

المبحث الأول: نتائج الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الثاني: عوامل نجاح الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

• خاتمة: وفيها نتائج البحث والتوصيات.

• الفهارس: أ - فهرس الآيات.

ب - فهرس الأحاديث.

ج - فهرس الأعلام.

د - فهرس الموضوعات.

هـ - قائمة المصادر والمراجع.

* * *



الفصل التمهيدي

موقع الدولة الأيوبية ونشأتها

- الموقع الجغرافي للدولة الأيوبية.
- الأحوال السائدة قبيل نشأة الدولة الأيوبية.
- نشأة الدولة الأيوبية والأحوال السائدة فيها.

* * *

المبحث الأول الموقع الجغرافي للدولة الأيوبية



امتدّ حكم الأيوبيين على رقعة واسعة شملت بلاد مصر من حدودها مع ليبيا، بما في ذلك الوجه البحري مع مصر، واستولوا على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس سنة (٦٥٨هـ)، كما وصل نفوذهم إلى بلاد النوبة والسودان، وشملت أيضاً رقعة حكمهم بلاد الشام، والجزء الجنوبي الشرقي من تركيا، وكذلك الجزيرة الفراتية الواقعة اليوم بين نهر الفرات غرباً، ونهر دجلة شرقاً مع الموصل.

وكانت الجزيرة في نظرهم مهمة لأسباب سياسية واقتصادية، إلى جانب موقعها الجغرافي بين بلاد الشام والعراق، فنجحوا في ضمّ بعض مدن الجزيرة كالرها، ونصيبين، وسنجار، وآمد، وكيفا، وميافارقين^(١)، فقد كانت الجزيرة إبان الحكم الأيوبي مركزاً لإعداد الجيوش ضدّ الصليبيين فضلاً عن كونها تُمثّل جسراً بين طرق المواصلات البحرية في جنوبي آسيا^(٢).

وامتدّ حكمهم أيضاً في الإقليم الغربي من الجزيرة العربية المحاذي للبحر الأحمر ممتدّاً حتى اليمن جنوباً، كما وصل حكمهم زمناً محدوداً إلى الجزء الجنوبي من بلاد القوقاز، وهو بلاد أرمينية اليوم^(٣).

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، د. محمود ياسين التكريتي، ص ١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١١.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي: ١٧٨/٥، ١٩١.

قال صاحب «شفاء القلوب»: (وقد خُطب له - لصالح الدين - على المنابر من باب همذان إلى الفرات، ومن الفرات إلى حضرموت، ومن الغرب إلى إفريقية، وفتح ستين حصناً، وفتح البلاد الفرنجية، ولو عاش لفتح الدنيا)^(١).

وقال صاحب «الأعلام»: (دانت لصالح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً، وبرقة غرباً، إلى بلاد الأرمن شمالاً، وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً)^(٢).

وقد اعترف الخليفة العباسي بحكم هذه الدولة، فأرسل من بغداد إلى صلاح الدين يُقلِّده البلاد المصرية والشامية واليمينية، وذلك في خطاب مُطوّل^(٣).

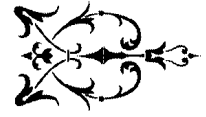
* * *

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق: ناظم رشيد، ص ١٨٧.

(٢) الأعلام، خير الدين الزركلي: ٢٢٠/٨.

(٣) انظر نص الخطاب في: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي، ص ٩.

المبحث الثاني الأحوال السائدة قبيل نشأة الدولة الأيوبية



شهدت الأحوال السائدة قبيل نشأة الدولة الأيوبية فوضى عارمة، وحروباً دامية في كثير من جوانبها.

• أما مصر فقد حكمها العبيديون، ودعوتهم باطنية إسماعيلية، ومنهم انتشر دعاة الباطنية، وكانوا يُنزلون القرآن الكريم على معانٍ موافقة لرأيهم، ويصرفونه عن ظاهره^(١)، وكان آخر خلفائهم أبو محمد عبد الله العاضد بالله، وهو الخليفة الحادي عشر من بني عبيد، بويح بالخلافة سنة (٥٥٥هـ)، وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة^(٢)، وكانت الخلافات قد استبدت بين الوزراء^(٣)، وتعددت الثورات، وتدخل نور الدين الزنكي والفرنجة في شؤون مصر، وتطور التنافس على الوزارة في أواخر العهد العبيدي إلى الاستعانة بأمراء الدول المجاورة والإفرنجية، فاستعان الوزير شاور بنور الدين محمود صاحب دمشق ليساعده على الإفرنج وإعادة نفوذه، فأرسل إليه أسد الدين شيركوه^(٤)، عمّ صلاح الدين، فلما دخل شيركوه مصر وانتصر على الصليبيين، تصالح شاور مع العاضد، وتسلم الوزارة، وطلب من شيركوه العودة إلى بلاد

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق: جمال الدين الشيتال: ٢٠٦/١.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين بن تغري بردي: ٣٣٥/٥؛ بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس، تحقيق: محمد مصطفى: ٢٣٠/١.

(٣) الدولة الفاطمية في مصر، الدكتور محمد جمال الدين سرور، ص ١٣١.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ٥٨٧/٢٠؛ التاريخ الإسلامي، محمود شاكر: ٣٠٣/٦.



الشام، وظهرت منه أمارات الغدر به، فلما لم يستجب شيركوه لطلبه، حالف شاور الصليبيين فحاصروا شيركوه في بلبيس، فاضطر للعودة إلى بلاد الشام.

• وفي الشام قام شيركوه مدة عامين بإعداد حملة قوية، وسار إلى مصر بجيش كبير، وتمكّن من هزيمة المصريين، ثم هزم الصليبيين في عدة وقائع في السنوات التالية حتى تمكّن من دخول مصر والاستقرار فيها، ثم بدأ بالتفكير في التخلص من شاور؛ لأنه أدرك أن الأمور لن تستقر إلا بذلك فقد تبين له أن شاور كان سبباً لدخول الإفرنج، فكان يُكاتبهم بالسرّ، فاستشار شيركوه صلاح الدين، وكان لا يقطع أمراً دونه، فأشار عليه بالقضاء على شاور فأمر بشنقه^(١).

ولما علم العبيديون بقدم جيش شيركوه تحالفوا مع الفرنجة لصدّه، وانتصر شيركوه، وبدا أن مصر ضعيفة مع هذه الانقسامات^(٢)، إلى أن تسلّمها صلاح الدين كما سيتبيّن لنا.

وكان شيركوه يعتقد أنه لن يستطيع ملك مصر ما بقي الوزير العبيديّ شاور فيها، ولكنه استطاع القضاء عليه سنة (٥٦٤هـ)، وأصبحت البلاد ضعيفة، واستمر الاختلاف والتنافس بين الوزراء إلى أن توطّدت أقدام صلاح الدين في مصر، واستولى على القصر، وبدأ بالدعاء للخليفة العباسي^(٣) المستضيء بالله. وبعد وفاة العاضد وتولّي صلاح الدين الخلافة بدأ يسعى سعياً حثيثاً إلى إضعاف المذهب الشيعي، وإعلان مذهب السنة^(٤).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٢٣٢/١، وانظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ١١ / ٢٩٨، ٣٣٦؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٥ / ٣٤٨؛ التاريخ الإسلامي، ص ٣٠٤ - ٣٠٦.

(٢) انظر: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٣١.

(٣) الكامل في التاريخ: ١١ / ١٤٩.

(٤) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المقريزي: ١ / ٣٥٨؛ وانظر: الحروب الصليبية، رفيق التميمي، ص ١٢٣.

وكان العاضد آخر خليفة عُبيديّ بعد أن حكمت الدولة العبيدية مصر قرنين وثمانين سنين^(١).

ثم قُتل عماد الدين زنكي سنة (٥٤١هـ)، وانقسمت أملاكه بين أبنائه، فتولّى نور الدين محمود حلب، وسار على سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، وتولّى سيف الدين غازي الموصل وبلاد الجزيرة، ثم عمل محمود على توحيد البلاد الشامية ليستطيع محاربة الصليبيين.

وقد سعت الدولة العبيدية في جمع الضرائب من الحجّاج الذين يأتون من المغرب، ومنّ عجز عن الأداء حُبس، وربما فاته الوقوف بعرفة^(٢)، وقد أثرى القائمون على أمور الدولة العبيدية إثراءً كبيراً، وقد ذكر ابن خلكان أنّ ثروة هائلة وُجدت عند الوزير العبيدي بدر الجمالي بعد وفاته^(٣).

واقْتَفَى الجند آثار الأمراء والوزراء، فكانوا إذا ما نشبت الفتن بين الأمراء والسلّاطين انتهزوا الفرصة، ونهبوا المدن والمحلات والبيوت، وكذلك تفتّن التجار في رفع الأسعار، ولاسيما خلال نُدرة الأقوات^(٤).

وتمسّك العبيديون باعتقاداتهم الباطلة، فعملوا على لعن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان؛ لأنهم كانوا في نظرهم أعداء لعلي، وكان الخطباء يلعنون الصحابة على منابر مصر كافة^(٥)، وألزم جميع الموظفين اعتناق المذهب العبيدي، وحُتّم على القضاء أن يكون حكمه وفق المذهب العبيدي، وكانت العقوبة الصارمة تنزل بمنّ تمّدح بذكر الخلفاء السُّنين،

(١) الكامل في التاريخ: ٣٧٠/١١.

(٢) البداية والنهاية، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د. عبد الله التركي: ٢٩٩/١٢؛

هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ٧٥ - ٧٦.

(٣) وفيات الأعيان، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس: ١٦٠/٢ - ١٦٢.

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٧٦.

(٥) الفاطميون في مصر، د. حسن إبراهيم حسن، ص ٢١٨.



وأبطل الخليفة الفاطمي العزيز صلاة التراويح، وعندما أنكر عليهم أبو القاسم الواسطي سجنوه، وقطعوا لسانه وضربوه خمسمئة سوط ثم صلبوه. وفي عهد هذا الخليفة ضرب رجلٌ، وطيف به؛ لأنهم وجدوا عنده كتاب «الموطأ»، وأمر بنقش سب الصحابة على الجدران والمقابر والحوانيت، ولوّن ذلك بالذهب، وكان لهذه السياسة أثر في تحويل كثير من الشُّنّيين إلى المذهب العبيدي، وقُبض في القاهرة على رجالٍ يُصلّون الضحى، وكان العبيديون لا يعترفون بها^(١)، وعزم الخليفة الحاكم على إرسال مَنْ يَبْشُ قبر أبي بكر وعمر بالمدينة النبوية، وكان آخر الخلفاء العبيديين العاضد من عُلاتهم، وكان له ولعٌ بلعن الصحابة وقتل أهل السنة^(٢).

• أما الموصل والجزيرة والشام فكانت تحت حكم الدولة الزنكية، وقد أظهر عماد الدين شجاعة نادرة أمام الزحف الصليبي، وبذل جهوداً كبيرة في قتالهم^(٣)، واستطاع أن يكسب رضا سلاطين السلاجقة، وأن يُسيطر على مساحةٍ واسعةٍ يعُمُّها الأمن والأمان^(٤)، وكانت هذه الدولة منارة خير تشعّ بالعدل والتمسك بمذهب السنة والجماعة، فكان نور الدين بن عماد الدين مثلاً وقدوة للحاكم المسلم، وقد فضّل صاحب «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»^(٥) أخبار مملكة نور الدين، وتحدّث عن جوانب تمسّكه بالسنة والعدل والعناية بالرعية.

• أما بلاد اليمن فقد أرسل العبيديون دعواتهم إليها ليقوموا بالدعوة لإمامهم أبي عبد الله المهدي، وكانت مقسّمة إلى دويلات تحكمها أسر،

(١) الفاطميون في مصر، ص ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٣) الحروب الصليبية، ص ١٠٥.

(٤) تاريخ الإسلام السياسي: ٧٠/٤.

(٥) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٦٧/١ - ٤٤٠، ٣١١/٢ - ٣١٦.

ولم تشهد الاستقرار قبيل زمن الأيوبيين، ولقد كان للدعوة العبيدية نفوذ في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي^(١)، والذي كتب إلى الخليفة العبيديّ مُعلنًا ولاءه له، ولم تأتِ سنة (٤٥٥هـ) حتى كان علي الصُّليحي قد ملك معظم اليمن^(٢).

وعندما توفي الصليحي هذا تسلَّم ابنه المكرم، وتابع الدعوة العبيدية في اليمن، بل وأوصلها إلى الحجاز، وأعاد الخطبة للخليفة العبيدي علي منابرها، فأشاد المستنصر بفضله، وخلع عليه لقب عمدة الخلافة، وتابعت زوجته أروى الحرة الصليحية من بعده سياسة الولاء للعبيديين، وكانت ترسل دعاة ينشرون الدعوة في البلاد^(٣).

• أما الحجاز فكان تابعاً للخلافة العبيدية، وذلك لأن الحجاز عادة كان مرتبطاً بمصر واليمن اللتين كان الولاء فيهما للعبيديين. وقد تنافس العباسيون والعبيديون على السيادة في بلاد الحجاز إلى أن رجحت الكفة للعبيديين سنة (٥٥١هـ)، وأصبح أمراء مكة والمدينة يحرصون على كسب رضاهم^(٤).

وقد تابع الصليبيون هجماتهم على بلاد المسلمين قبيل نشأة الدولة الأيوبية، ولكنهم كانوا يواجهون مقاومة شرسة من طرف نور الدين الزنكي، الذي قوي مركزه في الشام باستيلائه على دمشق أولاً سنة (٥٤٩هـ)، ثم حلب سنة (٥٥٤هـ)، واضطر الصليبيون إلى التقهقر، فاستولى نور الدين على حصونهم، وهدد بيت المقدس، ثم انتقل مسرح القتال إلى مصر بسبب ضعف الدولة العبيدية.

(١) انظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ٤٥٣/٧.

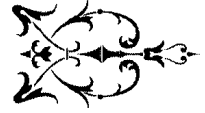
(٢) تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن: ٢٤١/٤.

(٣) المصدر السابق: ٢٤٢/٤.

(٤) بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، عائشة عبد الله باقازي، ص ٢٨.

المبحث الثالث

نشأة الدولة الأيوبية والأحوال السائدة فيها



اختلف المؤرخون في أصل الأسرة الأيوبية^(١)، فقيل: إنهم من الأكراد الروادية، وقيل: إنهم عرب نزلوا عند الأكراد وتزوجوا منهم^(٢).

وترتبط الدولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨هـ) بمؤسسها الأول صلاح الدين الأيوبي، الذي وُلد سنة (٥٣٢هـ) بقلعة تكريت^(٣)، وهي بلد بين بغداد والموصل، ثم خرجت الأسرة الأيوبية من تكريت ليلة ولادة صلاح الدين، ولحقت بعماد الدين، فأحسن إلى هذه الأسرة، وأولاهها رعاية كاملة، وأقطعها أراضي شاسعة.

ثم انتقل نجم الدين والد صلاح الدين إلى الموصل، فبعلبك، وأصبح والياً عليها^(٤)، فقد كان من الرجال المعروفين بالعقل والخبرة^(٥)، وكان كثير البذل، حسن النية والطوية^(٦).

(١) انظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١ / ٣.

(٢) انظر: الأعلام: ٨ / ٢٢٠.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: جمال الدين الشيتال، ص ٦.

(٤) انظر: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٤؛ وانظر: الأعلام: ٨ / ٢٢٠؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٨.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٥٨٩.

(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١ / ٢٣٠.

وفي بعلبك تربى صلاح الدين في خدمة والده وتحت حجّره، وارتضع ثدي محاسن الأخلاق، حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدّم والسيادة^(١).

و لما بلغ عمر صلاح الدين (١٤) عاماً في سنة (٥٤٦هـ) غادر بلاد بعلبك إلى حلب، ودخل في خدمة عمه أسد الدين شيركوه؛ لاستكمال تربية أبناء الأمراء من أمثاله من الناحية العسكرية الميدانية، وقدمه بين يدي نور الدين، فقبله، وأقطعته إقطاعاً حسناً، وكانت هذه هي بداية خبرته العسكرية، واستقلاله المالي^(٢).

وقد وثقَ نور الدين بصلاح الدين، فألحقه بخواصّه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر^(٣).

وتعاقبت الأحداث لصلاح والد صلاح الدين نجم الدين وأخيه أسد الدين شيركوه، فقد كُلفا من طرف نور الدين زنكي بمهامّ عسكرية في دمشق؛ وذلك لأن نور الدين كان يعلّمهما من أمراء الدولة الزنكية، وقادتها العسكريين.

وكان الحكم في مصر آنذاك للوزراء، وحدث أن وصل وزير الخليفة العبيدي العاضد، واسمه شاور، إلى دمشق وطلب التّصيرة من نور الدين على منافسه ضرغام، على أن يكون شاور تحت أمر نور الدين ونهيه^(٤). فاستجاب نور الدين، وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٦.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، الدكتور مصطفى الحيارى، ص ٢٥؛ وانظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة، تحقيق: إبراهيم الزبيق: ١/٨٣-٨٤.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٤.

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١/١٣٨.

صار له نفوذ كبير، وإلى جانبه ابن أخيه صلاح الدين الذي لمع صيته^(١)، وصار يباشر الأمور بنفسه، ثم قتل الوزير العبيدي شاور^(٢)، وتولّى أسد الدين شيركوه الوزارة، إلا أن المنية عاجلته وتوفي بعد ثلاثة أشهر من تولّيه الوزارة، فتقلّدها بجدارة صلاح الدين بأمرٍ من العاضد، فقد كان قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله، وسداد رأيه، وشجاعته، وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره، ولم يترّث ولا توقّف، فسارع إلى تقليده الوزارة، ولقّبه بالملك الناصر، وذلك في سنة أربع وستين وخمسة^(٣).

وتمرّ الأيام، وصلاح الدين يزداد نفوذه في الديار المصرية، وصار يتقرّب إلى الناس، ثم إن نور الدين زنكي كتب إليه يأمره بقطع خطبة العاضد^(٤)، وابتداء الخطبة للخليفة العباسي. وكان صلاح الدين قد اتّبع سياسة الحذر والمداراة، فبدأ بالدعاء للخليفين العبيدي والعباسي، إلى أن اكتفى بالدعاء للخليفة العباسي، وساعده على ذلك مرض الخليفة العاضد^(٥)، وكان مبدأ انقطاع الخطبة العباسية بمصر سنة (٣٥٨هـ)، وعادت إليه سنة (٥٦٧هـ)، فكانت مدّة الانقطاع (٢٠٩ سنوات)^(٦).

وأحسّ صلاح الدين بنظرات نور الدين المفعمة بالرغبة والخوف من اتّساع نفوذه، ونسيان فضل البيت الزنكي عليه وعلى أبيه وعمه، ولكن

(١) انظر: تاريخ الإسلام السياسي: ١٠٥/٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣٣٥/١١؛ وانظر: الأعلام: ٢٢٠/٨؛ وانظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٣٣٨/٥.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦/٦؛ الأعلام: ٢٢٠/٨؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١١٥/٢.

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٠٠/١.

(٥) انظر: الكامل في التاريخ: ٣٦٨/١١.

(٦) المصدر السابق: ٣٧١/١١.

صلاح الدين ما يزال مقرراً بهذا الفضل^(١)، ولم يشأ أن يدخل مع نور الدين في أي نزاع عسكري، ثم قرّر إرسال حملة عسكرية إلى اليمن لتكون له عدّة وملاذاً وقوة^(٢).

ثم توفي نور الدين، فتملّك بعده صلاح الدين، وصفت الأمور لصالحه، واتّسعت بلاده^(٣)، وصار يخطّط لجمع شمل الأمة، وإصلاح البلاد، ومحاربة الصليبيين الذين حقّق عليهم لاحقاً انتصارات مشهورة.

ولا تزال شمس العبيديين تنحو نحو الغروب، فالعاضد الخليفة يئنّ في مرض الموت، وأصبح للقائد الأيوبي اليد الطولى، حتى إذا ما توفي العاضد، وصار صلاح الدين على رأس الوزارة، استحوذ على القصر بما فيه، ووجد فيه أشياء لا توصف من النفائس والتحف^(٤)، ثم بدأ يخطّط للقضاء الباتّ على البيت العبيديّ، ليحلّ مذهب السُنّة مكانه، ونشط في إعمار المدارس السنيّة، وتعيين القضاة من الشافعية، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي بعد أن قُطعت من مصر أكثر من مئتي سنة بسبب استيلاء العبيديين عليها^(٥).

واستطاع القضاء على المؤامرات التي دبرها ضده فلول العبيديين وبقاياهم^(٦)، ومن هذه الثورات تمرد الشاعر عمارة اليمني، والذي استنجد بالصليبيين، وحركة العبيد السودانيّين^(٧).

(١) الكامل في التاريخ: ٣٧١/١١.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢١٨/١.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٧٩/٢١.

(٤) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، بدر الدين العيني، تحقيق: فهم شلتوت، ص ١٩٧.

(٥) العبر في خبر من عبر، الذهبي، تحقيق: محمد السعيد زغلول: ٤٩/٣.

(٦) انظر: الكامل في التاريخ: ٣٦٨/١١.

(٧) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ١٧٤/٥.

ثم استدعى أمراء دمشق صلاح الدين بعد أن فشلت الخلافات بينهم، وعرضوا عليه تسلّمها، فاستولى عليها سنة (٥٧٠هـ)^(١)، فصار صاحب الأمر في دمشق ثم حمص ثم حماة، واستعصت عليه في المرحلة الأولى حلب، فعاد إلى مصر، وتابع تنظيم أمورها وفق السياسة الجديدة، كما شرع في تحصينها ضدّ الصليبيين ومؤامرات العبيديين الذين كانوا يُدبّرون له المكائد لإعادتها إلى سابق عهدها. إلا أنه انقطع عن مصر بعد رحيله عنها سنة (٥٧٨هـ)، إذ تتابعت أمامه حوادث الغارات، وصدّ الاعتداءات الفرنجية في الديار الشامية، فشغلته بقية حياته^(٢).

وبعد وفاة الملك الصالح إسماعيل بسط صلاح الدين سلطانه على حلب^(٣)، ثم اتّجه نحو الموصل سنة (٥٧٩هـ)، ودخل في طاعته حكام الجزيرة، وبذلك ملك الأراضي الممتدّة بين النيل والفرات^(٤).

ثم كان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي يوم حطين التاريخي، وفيه انهزم الصليبيون، وكادت هذه المعركة تقضي على النفوذ الصليبي في سورية، ومهدت لفتح بيت المقدس، وسائر البلاد السورية التي كانت خاضعة لهم، وكانت سنة (٥٨٣هـ)^(٥)، وظلّ صلاح الدين يطارد حصون الصليبيين حتى تسلّم بيت المقدس في تلك

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٤٢/٢؛ وانظر: الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٨١.

(٢) الأعلام: ٢٢٠/٨.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٥٦/٣؛ وانظر: الكامل في التاريخ: ٤٩٦/١١؛ والأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ١٠٢.

(٤) انظر: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، أحمد سعيد سليمان: ١٤٠/١؛ وانظر: الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٩.

(٥) الحروب الصليبية، ص ١٦٢.

السنة. ومضى يُرَّمم ما دمّرتة الحروب من مبانيها، وأعاد تشييد المساجد والمدارس، وتثبيت مذهب أهل السنة^(١).

ثم سَيرَ عسكرياً لابن أخيه تقيّ الدين بن عمر، فأخذوا أوائل المغرب، وخطبوا بها لبني العباس^(٢).

واستولى الأيوبيون سنة (٦٠٤هـ) على مدينة خِلاط عاصمة أرمينية، وأقام الملك العادل ابنه الأوحّد أميراً عليها، ثم خلفه أخوه الأشرف. ولمّا مات العادل استقلَّ الأشرف بحكم هذه البلاد، ووسَّع رقعة مُلكه حتى بلغت بلاد الأكراد^(٣).

وفي سنة (٦٤٢هـ) سقطت هذه المملكة الإسلامية، وكان يحكمها المظفر غازي، الذي يُعدّ آخر ملوك الأيوبيين، باستيلاء هولاءكو عليها.

• أما اليمن فقد دخلت تحت الحكم الأيوبي، وكان فيها منازعات، وتقلُّبات، كما كانت أقاليم موزَّعة بين الأمراء المختلفين، الذين كتبوا إلى صلاح الدين يستنجدون به، فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة (٥٦٩هـ).

ويُعدُّ الفتح الأيوبي لليمن أعظم حدث في تاريخ العرب الوسيط^(٤)، فقد تمَّ توحيد اليمن ومصر وسورية وبلاد الجزيرة تحت راية الأيوبيين، وفتح توران شاه زبيد وصنعاء وعدن، وتوالى ولاية الأيوبيين على بلاد اليمن نصف قرن (٥٦٩-٦٢٥هـ)، بدءاً من الملك توران شاه وانتهاء

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٤٠/٣؛ والكامل في التاريخ: ٥٣٤/١١.

(٢) الكامل في التاريخ: ١٢/١٢٦.

(٣) المصدر السابق: ١٢/١٢٦.

(٤) تاريخ الإسلام السياسي: ٢١٤/٤.

بالمملك المسعود يوسف بن الكامل^(١)، إلى أن زال مُلك الأيوبيين، وخلف بعدهم بنو رسول سنة (٦٢٦هـ)^(٢)، وقد حكم الأيوبيون اليمن من سنة (٥٦٩هـ) إلى سنة (٦٢٦هـ)^(٣).

• أما بلاد الحجاز التي كان ولاء حكامها للخلافة العبيدية، فقد بدأت الأمور تتغير باستلام الأيوبيين مقاليد الحكم، فقد جاء رسل صلاح الدين إلى الحجاز سنة (٥٦٧هـ)، وعاد الدعاء للخليفة العباسي، وتطلّع الأيوبيون لحكم الحجاز^(٤). وكانت أسرة بني هاشم حاكمة لمكة والمدينة، ولم يتدخل الأيوبيون في السياسة الداخلية لحكام الحرمين، فكان حكمهم للحجاز على نحو غير مباشر، وكلّما أحسّوا بتمرد حاكم أرسلوا إليه حملة لتأديبه^(٥)، وقد حذف الأيوبيون الجمل الزائدة من الأذان الشرعي وهي: (حيّ على خير العمل)^(٦).

وقد بقي السلطان الأيوبي على الحجاز حتى سنة (٦٥١هـ)، وذلك عندما جعل الملك المسعود مكة لنائبه ابن رسول اليمني، وكان الأيوبيون في الحجاز يتبعون سياسة متوازنة بين حكام المدينة ومكة، ولا يُريدون أن يغلب أحدهما الآخر^(٧).

ثم توفي صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ)^(٨)، وكان قد حكم مصر (٢٤) سنة،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٢/٣.

(٢) تاريخ الدول الإسلامية: ١٤٠/١.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٨١/٢١.

(٤) بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص ٣٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٦) بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، الدكتور سليمان عبد الغني مالكي، ص ١٥.

(٧) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، الدكتور جميل حرب، ص ٤٠.

(٨) انظر: وفيات الأعيان: ٦٦/٢.

والشام (١٩) سنة^(١)، ولقد كانت وفاته خسارة عظيمة لمجد مؤنثل، وتوفيق كبير حظي به التاريخ الإسلامي في هذه الحقبة^(٢).

وبعد وفاته قُسمت مملكته إلى:

- ١ - مصر: للملك العزيز.
- ٢ - فلسطين مع سورية الوسطى: للملك الأفضل.
- ٣ - سوريا الشمالية: للملك الظاهر.
- ٤ - اليمن: لتوران شاه أخي صلاح الدين^(٣).

ثم بدأ يدب الشقاق بين أولاده وأحفاده، وآلت هذه الدولة المترامية الأطراف إلى الانحسار، وقد بقيت سلطة الأيوبيين في مصر حتى سنة (٦٤٨هـ)، ثم آل الأمر إلى المماليك، كما أن سلطانهم في الشام تحوّل إلى المماليك سنة (٦٥٨هـ)، وكان آخر الأيوبيين في الحجاز سنة (٦٢٥هـ)^(٤).

ويُقسّم المؤرّخون^(٥) عهد صلاح الدين إلى ثلاثة أطوار:

- ١ - طور الدفاع: وهو الطور الذي كان فيه صلاح الدين متربّعاً على أرض مصر، وقد واجه الصليبيين والعبيدين، وكان حريصاً في هذا الطور على إرضاء نور الدين، فلم يُظهر التفرد بالحكم، وقطع العلاقة معه، ولكنه سعى إلى تقوية سلطانه السياسي والحربي.

(١) الحروب الصليبية، ص ٢٠٥.

(٢) انظر في أحوال الدولة بعد وفاته: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٠٦/٤.

(٣) الحروب الصليبية، ص ٢١٢.

(٤) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ١٨٤/٥.

(٥) تاريخ الإسلام السياسي: ١٠٧/٤.



- ٢ - طور الإعداد والتأهب: وهذا بعد وفاة نور الدين، إذ ظهر صلاح الدين على أنه أكبر حاكم إسلامي، ونشر نفوذه في الشام والجزيرة، وبدأ يُعدُّ العدة ضدَّ الصليبيين.
- ٣ - طور الهجوم على الصليبيين في فلسطين.

وبعد صلاح الدين استؤنفت المعارك بين المسلمين والصليبيين في عهد الملك العادل وابنه الكامل الذي حقق عليهم انتصاراتٍ ملحوظةً إلى أن عقد الهدنة معهم.

وقد حكم أبناء صلاح الدين وأحفاده المملكة الأيوبية من بعده، فحكم الأفضلُ دمشق، وحكم العزيزُ القاهرة، وحكم الظاهرُ حلب، وكان آخر ملوكهم على مصر هو الأشرف موسى، وهو من أحفاد الكامل، وكان صبيّاً، فخلعه آيبك المملوكي سنة (٦٥٠هـ)، وبخلعه انقرض الأيوبيون في مصر^(١)، لتبرز بعدهم دولة المماليك البحرية.

ولم يُعمّر من شعب الأيوبيين إلا شعبتان: أيوبية حماة، وقد حكموا حتى سنة (٧٤٢هـ)، وأيوبية حصن كيفا في أرض الجزيرة حتى سنة (٩٣٠هـ)^(٢).

* * *

(١) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة: ١٤١/١؛ وانظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،

أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين: ٤٩٨/٣.

(٢) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة: ١٤١/١.



الفصل الأول

سمات الدعوة الإسلامية ومراحلها

في عهد الدولة الأيوبية

- سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.
- مراحل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الأول

سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية



الدعوة الإسلامية رسالة ربانية، جاءت لهداية البشرية جمعاء، وإخراجها من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقد اتّصفت هذه الدعوة بعدد من الصفات، من مثل: ربانية المصدر والعالمية والشمولية والوضوح والتوازن، إلى غيرها من صفات الدعوة^(١). كما أن هذه الدعوة لها سمات خاصة اتّسمت بها في كلّ عصر من العصور الإسلامية.

ويحسن بي في هذا المقام أن أبيّن الفرق بين السمة والصفة:

فالسمة هي: الأثر، وَسَمْتُ الشَّيْءِ وَسَمًا: إذا أَثَرَتْ فِيهِ بِسْمَةٍ، وَالسِّمَةُ أَيضًا: الْعَلَامَةُ^(٢).

والمتوسّم: المتحلّي بالسّمة، ويقال: فلان موسومٌ بالخير، وَتَوَسَّمْتُ فِيهِ خَيْرًا، أَي: رَأَيْتُ فِيهِ أَثْرًا مِنْهُ، وَمَأْخُذُهُ مِنَ الْوَسْمِ، أَي: عَرَفْتُ فِيهِ عِلْمَهُ^(٣).

أما الصفة فهي: ذَكَرَ الشَّيْءَ بِجَلِيلَتِهِ وَنَعْتِهِ، وَالصِّفَةُ هِيَ: الْحَالَةُ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّيْءُ مِنْ نَعْتِهِ وَحَلِيلَتِهِ^(٤).

(١) انظر تفصيلاً لهذه الصفات في كتاب: الخصائص العامة للإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي؛ وكتاب: خصائص الدعوة الإسلامية، لمحمد أمين حسين؛ وكتاب: خصائص الشريعة الإسلامية، لعمر سليمان الأشقر؛ وكتاب: أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٥٢٤.

(٣) لسان العرب، مادة (وسم): ٦٣٦ / ١٢.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٥٢.

ويُتضح مما سبق أن الفرق بين السمة والصفة واضح، فصفات الدعوة الإسلامية هي حالتها التي عليها هذه الدعوة، مثل كونها خاتمة الدعوات السماوية، وكونها إلى الناس كافة. أما السمات فهي العلامات التي عُرفت بها الدعوة في تلك الحقبة من الزمن، وما نجم عنها من آثار تميّزت بها على نحو خاص.

وقد اتسمت الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية بعدد من السمات، تكوّنت انعكاساً لطبيعة العصر والظروف المحيطة بالدعوة في ذلك الوقت.

ومن أهم سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية:

– وجود نموذج الداعية الأمثل.

– الفتوحات.

– الجهاد ضد الصليبيين.

– النشاط العلمي.

– دعوة غير المسلمين.

* * *



المطلب الأول وجود أنموذج الداعية الأمثل

الدعوة الإسلامية مهمة سامية كلف الله بها الأنبياء ﷺ وأتباعهم؛ لذا فإن على القائمين بها من الدعاة في كل زمان ومكان أن يسعوا ليكونوا أنموذجاً أمثل في كل جوانب حياتهم: عبادتهم، وعلمهم، ومسؤولياتهم، وجهادهم، وتعاملاتهم، إلى غير ذلك.

وقد وُجد في التاريخ عددٌ من الشخصيات الإسلامية الرائدة التي استطاعت بفضل الله تعالى التميّز في جوانب حياتها كافة، فكانوا نماذج مثلى للدعاة من بعدهم يقتفون أثرهم، ويهتدون بهديهم، ويسيروا على خُطاهم في أشرف مهمة، وأعظم وظيفة.

ومن سمات الدعوة البارزة في هذا العصر وجود أنموذج أمثل للداعية الحقّ، ففي عهد الدولة الأيوبية رزق الله المسلمين هذا الأنموذج الفريد الذي لم يتكرّر في الأجيال التي تلتها، وقد تمثّل في شخصية مؤسس الدولة صلاح الدين الأيوبي، إذ توافرت في شخصيته ﷺ ما يحتاج إليه الداعية من صفات أساسية وصفات لازمة.

إن ما يتصف به الداعية من صفات حميدة يعد من أبرز العوامل الهامة المؤثرة على نجاح الدعوة، وذلك لأن الصفات التي يتصف بها الدعاة تعكس للمدعوين ماهية تعاليم الإسلام والتطبيق العملي لها، وإنّ حرص الداعية على الاتّصاف بهذه الصفات له أثر كبير في تقدم الدعوة الإسلامية وانتشارها، والتأثير بالمدعوين.

وسأحاول إلقاء الضوء على ما تميّز به هذا السلطان من صفات أهّلته لهذه المكانة المرموقة في التاريخ الإسلامي، راجية أن أوفّيه حقه في الوصف والتحليل.

أولاً: صفات الداعية الأساسية^(١):

١ - قوة الصلة بالله:

الداعية الحق قويّ الصلة بالله تعالى، مجتهد في العبادة، مُكثر من الطاعات؛ لتكون دعوته نابعة عن قوله وفعله، وليفوز برضا الله وسعادة الدارين.

ولقد كان صلاح الدين مثلاً يُحتذى به في هذا المجال؛ ومن الشواهد على ذلك: ما روي أنه كان شديد المواظبة على الصلاة جماعة، حتى إنّه ذكّر يوماً أنّ له سنين ما صلّى إلا في جماعة. وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده، ويكفّف نفسه القيام، ويصليّ جماعة. وكان يُواظب على السنن الرواتب، وكان له صلوات يُصليها إذا استيقظ في الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى^(٢).

٢ - الإخلاص:

الإخلاص هو تخليص القلب من شائبة ما يُكدر توجّهه لله، فلا يطلب المرء شاهداً للعمل غير الله^(٣).

والداعية المخلص لله تعالى لا يريد بدعوته إلا وجه الله تعالى، فلا يَأْبَهُ ولا يلتفت لأي غرض آخر دنيوي، لذا فهو متحمّس في أداء مهمّته هذه، باذل في سبيلها كل غالٍ ونفيسٍ من مال وجهد ووقت وفكر وإمكانات، مستجيباً لأمر الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

(١) أفدّت من كتاب: الدعوة، للدكتور حمد العمار، في تفاصيل الصفات الأساسية والصفات اللازمة.

(٢) النوارد السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٧ - ٨؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧.

(٣) التعريفات، الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ص ٢٨.

وبالاطلاع على رسائل صلاح الدين يتضح لنا جلياً حرصه ﷺ على إخلاص النية لله تعالى، وسموّ غايته في الجهاد، وهاكم إحدى رسائله للخليفة العباسي في بغداد والتي جاء فيها: (إنّ مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا مُنحها؛ ثلاثة مقاصد: الجهاد في سبيل الله، والكفّ عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله، والله العالم أنّه لا يُقاتل لعيش أّلين من عيش، ولا لغضب يملأ العنان من نزقٍ وطيش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسّم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يُسَطّر في الصحيفة ويرقم)^(١).

٣ - العلم:

الداعية الحصيف دائم الحرص على تثقيف نفسه، والرقي بها في مجال العلم؛ وذلك ليدعو إلى الله على علم وبصيرة ودراية، استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩٠].

وطلباً للخيرية التي ذكرها رسول الله ﷺ في قوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢).

وقد اهتم صلاح الدين بطلب العلم اهتماماً واضحاً مع كثرة أشغاله ومسؤولياته، فقد روي أنه شرع في قراءة «الموطأ» ثاني يوم دخوله إلى الإسكندرية^(٣)، ودرس على الشيخ قطب الدين النيسابوري الذي كتب عقيدة الإسلام له ولأولاده^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٧٩/٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب الكسوف، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين: ٣٩/١، برقم (٧١).

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تحقيق: محمد مصطفى زيادة: ٧٦/١.

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٧؛ سير أعلام النبلاء: ٢١/٢٧٨.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شديد الرغبة في سماع الحديث، ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد^(١)، فإذا سمع عن شيخ رواية عالية استحضره، وسمع عليه، وأسمع أولاده ومماليكه، وإن لم يحضر الشيخ تردّد هو إليه، وقد تردّد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية، وروى عنه أحاديث كثيرة^(٢). وقد سمع من القاضي بهاء الدين بن شداد واستحضره وأكرمه وسأله عن جزء حديث ليسمع منه، فأخرج له جزءاً فيه أذكار من البخاري، فقرأه عليه بنفسه، ثم جمع كتاباً مجلّداً في فضائل الجهاد وأحكامه وآدابه وقدمه له ولازمه^(٣).

وبالجملة فإن كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» للقاضي ابن شداد كلّه في الحديث عن مآثره وفضائله، وهو كتاب موثوق مهم في هذا المجال؛ لأن مؤلّفه كان مُعاصراً لصلاح الدين، إذ يقول: «ومن تاريخ صلاح الدين ما أسطرّ إلا ما شاهدته، أو أخبرني به مَنْ أثقُّ به خبراً يُقارب العيان»^(٤).

٤ - القدوة الحسنة:

القدوة هي: طلب موافقة الغير في فعله^(٥).

ولقد دعا الإسلام أتباعه إلى الاقتداء بالأنبياء والصالحين، قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وعلى هذا ينبغي للداعية ألا يخالف فعله قوله، فيتعدّى ضرره إلى المجتمع، فيكون قدوة سيئة، فيُفسد بدل أن يُصلح.

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٢؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨ - ٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٣٨٥؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣ - ٤، ٨٦؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٩.

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨٧.

(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي الشوكاني: ٢ / ١٣٧.

ولقد اقتدى أصحاب صلاح الدين به في كثيرٍ من المجالات، فكان لهم خير قدوة، يوجههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة. وشهد معاصرو صلاح الدين بذلك، وأبرز مثال على هذا ما كتبه الموفق عبد اللطيف - أحد معاصري صلاح الدين - في وصف تطبيق صلاح الدين لأسلوب القدوة الحسنة فقال: (رأيت صلاح الدين على القدس، فرأيته ملكاً عظيماً، يملأ القلوب روعةً، والعيون محبة، سهلاً ومحبباً، وأصحابه يتشبهون به، ويتسابقون إلى المعروف، وكان ﷺ مهتماً في التفقه في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ولقد كان يعتني ببناء سور القدس وحفر خندقه، ويتولّى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء)^(١).

٥ - الرفق:

الرفق صفة لازمة للدعاة، امثالاً لأمر الله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

[البقرة: ٨٣].

وتطبيقاً لحديث رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»^(٢)، وحديث: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»^(٣)، واقتداءً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والدعاة الصالحين من السلف الصالح.

ولقد كان صلاح الدين رفيقاً ليناً حريصاً على التعامل الحسن مع أفراد المجتمع كافة، ومن الشواهد على ذلك ما رواه ابن شداد: (فما أُحْضِرَ

(١) كتاب الاعتبار، أسامة بن منقذ، تحقيق: قاسم السامرائي، ص ١٥١.

(٢) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق: ١٦/١٢٥، برقم (٦٥٥٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الرفق في الأمر كله: ٥/٢٢٤٢، برقم (٥٦٧٨).

بين يديه يتيم إلا وترحّم عليه، وجبّر قلبه، وأعطاه، وجبّر مصابه، وإن كان له من أهله كبير يُعتمد عليه سلّمه إياه، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته، وسلّمه إلى من يعتني بتربيته ويكفله، وكان لا يرى شيخاً إلا ويرقّ له ويعطيه، ويُحسن إليه^(١).

وكان ﷺ يحترم كلّ من خدمه، ويعاملهم معاملة ليّنة، فإذا وقع من أحدهم ما يُسيئه كتّمه ولم يُظهره^(٢).

أما جنده فكان يتعهّدهم بالعناية، ويسمح للمحارب أن يُحارب ساعات ثم يستريح، أو يذهب إلى ذويه كما هو الحال في أرقى الجيوش الحديثة^(٣).

٦ - الصبر:

الصبر هو: ترك الشكوى لغير الله من ألم البلوى^(٤).

ولقد أمر الله عباده بالصبر وحثّهم عليه مبشراً أنه جلّ وعزّ مع الصابرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وبيّن الرسول ﷺ منزلة الصبر ومكانته فقال: «ما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(٥).

والصبر صفة ملازمة للدعاة إلى الله تعالى، وهي الزاد المُعين لهم، فالدعوة إلى الله طريقها صعبة وعرة مليئة بالأشواك والمصاعب. وإذا كان

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٤.

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، الدكتور محمد رجب البيومي، ص ٢٧٢.

(٣) الحروب الصليبية، ص ٢٠٣.

(٤) التعريفات، ص ١٧٢.

(٥) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الاستغفار عن المسألة: ٥٣٤/٢، برقم (١٤٠٠).



الصبر ضرورياً لكل مسلم فهو بالنسبة للداعية أشدّ ضرورة؛ وذلك لأنّ الداعية يعمل في ميدانين: ميدان نفسه يجاهدها ويحملها على الطاعة، ويمنعها من المعصية، وميدان الدعوة الفسيح ومخاطبة الناس، ومخالطتهم، وَتَحْمَلُ أَذَاهُمْ^(١).

ولقد ضرب لنا صلاح الدين أروع الأمثلة في الصبر والتحمل في سبيل الدعوة، من ذلك:

لما فتح صلاح الدين حلب أخذ يحتفل مع الناس بفتحها، وبينما هو على لذته بالدعوة، والأخذ والعطاء والإنعام؛ إذ حضر إليه مَنْ يُعَرِّفه وفاة أخيه تاج الملوك، فصبر على مصيبته واحتسب، ولم يتغيّر لذلك ولا اضطرب، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح والإحسان، وأمر بستر ذلك، وتوعّد عليه إن ظهر، وكظّم حزنه، ولم يُرد أن يُفسد على الناس فرحهم، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر، فلما انقضت الدعوة، وتفرّق الناس قام ﷺ واسترجع، وبكى على أخيه، ثم أمر به فغُسل وكُفّن، وصلى عليه ودَفَنه، وكان يقول: «ما أخذنا حلب رخيصة، أخذناها بقتل تاج الملوك»^(٢).

إنّ هذا التصبر العظيم، والتجلّد عند الصدمة الأولى لوقوع المصيبة لا يستطيعه إلا مَنْ لديه نفس عالية، وذلك تطبيقاً لحديث رسول الله ﷺ: «الصبر عند الصدمة الأولى»^(٣).

ومثال آخر يدلّ على صبره وتحمله: ما زوي أن صلاح الدين أرسل إلى ريتشارد كتاباً عندما هدّده بالاستمرار في الحرب حتى نهاية الشتاء

(١) الدعوة، الدكتور حمد بن ناصر العمار، ص ١٢٦.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٦٦/٣؛ وفيات الأعيان: ٢٩٢/١.

(٣) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الصبر عند الصدمة الأولى: ٤٣٨/١، برقم (١٢٤٠).

القادم، وقد جاء في ذلك الكتاب: (وأنا ما يُسَهِّل علي أن أشتي وأصيف، وأشتي وأصيف، وأنا في وسط بلادِي، وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات [الجهاد]، ولا أزال كذلك حتى يُعطي الله النصر لمن يشاء)^(١).

ثانياً: صفات الداعية اللازمة:

١ - التخطيط للدعوة:

تحتاج الدعوة إلى الله تعالى إلى تخطيط قويم يُعنى به دعاة اليوم، كما عُني بها دعاة الأمس ابتداءً بالنبِيِّ ﷺ وسلف هذه الأمة رضوان الله عليهم. إن ذلك التخطيط الواعي للدعوة هو الذي يُوصل إلى النتائج المثمرة بأقصر الطرق بعد توفيق الله تعالى، وهو الذي ينقل الدعوة من قلبها التقليدي الجامد إلى روح عصريّة جديدة تُستخدم فيها أفضل الوسائل، وأرقى الأساليب لتصل إلى هدفها المنشود^(٢).

والداعية في تخطيطه لدعوته مقتدٍ برسول الله ﷺ، والذي كان لا يُقدم على شيء إلا بعد تخطيطٍ مُحكمٍ؛ ومن الأمثلة على ذلك السريّة التامة للدعوة مدّة ثلاث سنوات، فلمّا ثبتت جذور هذه الدعوة في المجتمع المكي أعلنها رسول الله ﷺ دعوةً إسلاميّةً على الملأ ضمن خطة مدروسة متقنة.

ولقد عُني السلطان صلاح الدين بعنصر التخطيط للدعوة عناية بالغة، فلم يكن يخبط خبُط عشواء، لذا آتت دعوته أُكلها، وأثمرت نتائج طيبة، وقد نقلت المراجع الكثير من الشواهد على تخطيطه المحكم.

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٣٩.

(٢) الدعوة، ص ١٣٢.



من ذلك أن صلاح الدين بدأ مشروع إحياء الشُّنة في مصر بالتخطيط للقضاء على الدولة العبيدية، ومهّد لذلك بالتدرُّج في إلغاء الخطبة للخليفة العبيدي، وعزل قضاتهم، وإبطال الأذان بحَيِّ على خير العمل، وساعده على ذلك مرضُ آخر ملوك العبيديين العاضد لدين الله. ولقد نجح صلاح الدين في الوصول إلى هدفه المنشود بزمن قياسيٍّ بعون الله، ثم بفضل تخطيطه المُتقن^(١).

ومثال آخر على حرصه على التخطيط: أنه في سنة (٥٧٩هـ) خرج الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين إلى معسكر جسر الخشب، ثم توجّهوا إلى بيسان، وقد احتار الصليبيون في الجهة التي سيوجّه المسلمون حملتهم إليها، فقاموا بتحسين المدن والقلاع القريبة من الحدود، ولكن قائد الجيش صلاح الدين كان يعرف إلى أين سيّتجه؛ لأن المبادرة في التخطيط والقتال بيده، وتقدّمت القوات الإسلامية إلى موقع الفوّار القريب من نهر الأردن، وهناك تعبأ الجيش ليعرف كلُّ مكانه أثناء وقوع القتال، فالأمر الأساس في القتال عند المسلمين ليس رهن الظرف نفسه أثناء القتال، وإنّما هو تخطيط سابق مرّنٌ قابلٌ للتعديل إذا اقتضى الحال^(٢).

٢ - انتهاء الفرص:

الداعية الحصيف يتحَيّن الفرص، ولا يدعُها تضيع منه هدرًا، بل يُوظّفها لمصلحة الدعوة التوظيف المناسب الذي يوصله إلى أهدافه الدعوية المرجوة. والداعية في هذا المجال متأسّ بنبي الله يوسف عليه السلام وموقفه مع صاحبيه في السجن، وذلك عندما سألوه عن الرؤية التي رأوها، فانتهاز يوسف عليه السلام

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٨٤/٢ وما بعدها.

(٢) انظر: صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

الفرصة في نشر الدعوة، وبدأ يعرض عليهم توحيد الله ﷻ وضلال الآلهة التي يعبدوها، ثم فسّر لهما الرؤية، وذلك في الآيات: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِي أَخَصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثْنَا بِنَاوِيلِهِ ۗ إِنَّا نُرَبِّكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ۗ إِلَّا بِنَاؤِكُمَا بِنَاوِيلِهِ ۗ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۗ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۗ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَصْحَجِي السِّجْنَ ۗ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۗ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ۗ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۗ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۗ ذَلِكَ الَّذِي أُنزِلَ فِي الْقُرْآنِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَصْحَجِي السِّجْنَ ۗ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۗ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۗ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦-٤١].

ولصلاح الدين قصب السبق في انتهاز الفرص، ومن الأمثلة على ذلك: أن صلاح الدين لمّا تولّى الوزارة بمصر بعد وفاة عمه شيركوه بدأ يعمر أسوارها وأبراجها ويرتّب أمورها، ثم انتهز فرصة مرض العاضد، فقبض على من بالقصور، وسلّم القصور لقراقوش الخادم، وعزل أمراء دولة العاضد، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية، وقطع من الأذان (حيّ على خير العمل)، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس.

ولمّا عَلم العاضد بعزل صلاح الدين لأمره أرسل يسأله عن السبب، فبعث إليه صلاح الدين بأنّ هؤلاء كانوا عُصاة لأمرك، والمصلحة بقتلهم، وإقامة غيرهم ممن يمثل أمرك، فسكت العاضد^(١).

(١) انظر: الكامل في التاريخ: ٣٦٨/١١؛ وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٨٤/٢.

ومن الأمثلة على انتهاز صلاح الدين للفرص: أنه لما فَشَّت الخلافات بين أمراء دمشق استدعى كبيرهم شمس الدين بن المقدم صلاح الدين، وعرض عليه تسلُّمها، فانتهاز صلاح الدين الفرصة التي كان ينتظرها منذ زمن لتوحيد قواته ضد الصليبيين، وسارع واستولى على دمشق سنة (٥٧٠هـ)^(١).

٣ - ترتيب الأولويات:

ينبغي للداعية مراعاة الأولويات في دعوته، فيبدأ بالأهم ثم الأقل أهمية، كما يعتني بالأصول قبل الفروع، وبالكلِّيات قبل الجزئيات، فترتيب الأولويات في الإسلام له عنايته، فالعبادات المفروضة مقدمة على السنن، ويوضح ذلك الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»^(٢).

وقد علّمنا رسول الله ﷺ ترتيب الأولويات، وذلك في وصيته لمعاذ بن جبل ؓ عندما بعثه إلى اليمن: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى، فإن عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلّوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقرّوا بذلك فخذ منهم، وتوقّ كرائم أموال الناس»^(٣).

ولقد راعى صلاح الدين الأولويات في دعوته وجهاده، فكان مثلاً يُحتذى به في هذا المجال، والمثال التالي يوضح ذلك بجلاء: فقد رُوي أنه لما قرّر تقي الدين عمر - أبرز رجال الدولة وقائد العسكر - التوجّه إلى

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٤٢/٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الجماعة والإمامة، باب: التواضع ٢٣٨٤/٥، برقم (٦١٣٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام: ١٧٢/١، برقم (٨٩).



المغرب، والسيطرة عليه، وإقامة ملك فيه، أرسل إليه صلاح الدين قائلاً له: (لعمري إن فتح المغرب مهم، لكنَّ فَتَحَ بيت المقدس أهم، والفائدة منه أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا فتحنا القدس والساحل طويينا إلى تلك الممالك المراحل)^(١).

وأستشهد هنا بأقوال بعض معاصريه التي تؤكّد استحقاق هذا القائد لأن يكون أنموذجاً أمثل في كلِّ جوانب حياته، فهذا أبو شامة يقول عنه: (ومن حين استتبَّ له الأمر غشي الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرِّخ غير تلك الأيام، وهو إلى جانب ذلك مُقَوِّ لمذهب السنَّة، غارس في البلاد أهل العلم والفقهِ والدين، والناس يُهرعون إليه من كلِّ صوب، ويفدون عليه من كلِّ جانب، وهو رَضِيَ اللهُ لا يُخَيِّب قاصداً، ولا يعدم وافداً)^(٢).

أما صاحب «شفاء القلوب» فيقول عنه: «كان صلاح الدين حسن العشرة، طيب الخلق، حافظاً لأنساب العرب، لا يلتفت للمنجمين، طاهر اللسان والقلم، ما شتم أحداً، ولا كتب بيده أذى مسلم، ولا حضر عنده يتيمٌ إلا أعطاه، وقد يكفله»^(٣).

ويصف الذهبي حُزن الناس لموته فيقول: «وَجَدَ الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء، وما رأيت مَلِكاً حَزِنَ الناس لموته سواه، لأنه كان مُحِبِّباً، يُحِبُّه البرُّ والفاجر، والمسلم والكافر»^(٤).

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٥٦/٣ - ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق: ٦٩/٢.

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٨٣/٢١.



المطلب الثاني الفتوحات

كان فتح الأيوبيين لعدد من البلاد الهامة سمة بارزة من سمات الدعوة الإسلامية في العصر الأيوبي؛ ففتَحُ الأيوبيين لتلك البلاد، وضمَّها للدولة الأيوبية يُوسِّع رقعة الدولة المسلمة، ويقوِّمها لمواجهة أعدائها، بزيادة مواردها وإمكاناتها؛ لأن هذه الدولة تواجه ظروفاً حربية خاصة، وتحديات صعبة من مناوئتها، كما أسهم في نشر الإسلام في بلاد لم يصلها من قبل.

كانت مصر هي أول مدينة يفتحها الأيوبيون، فقد استطاعوا القضاء على الدولة العبيدية، وتسلمَّ صلاح الدين زمام الأمور سنة (٥٦٤هـ)، وأحيوا فيها السُّنَّة، واستقرُّوا فيها، ورتَّبوا أمور دولتهم، وتحوَّل الناس من بيئة رافضية إلى مناخ سُني قويم^(١).

ولما استتبَّت الأمور للدولة الأيوبية امتنع أهل النوبة عن دفع الجزية، وأغاروا على أسوان، فأراد الأيوبيون فتَح بلاد النوبة لحماية مصر من الناحية الجنوبية، ولتأمين طريق قوافل الحجاج والتجارة، فذهب توران شاه إلى بلاد النوبة عام (٥٦٨هـ)، ففتح إبريم، وسبى وغنم^(٢).

ثم توفي نور الدين، وبوفاته اضطربت البلاد الشامية، فدُعي الأيوبيون بقيادة صلاح الدين لضبطها، ودخل إلى دمشق سنة (٥٧٠هـ)، فاستقبله أهلها بحفاوة، ومَلَكَها الأيوبيون من غير مُدافع، ثم انطلقوا

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٦٨/٢ - ٦٩.

(٢) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الشام، الدكتور محمد سهيل طقوش، ص ٤٩.

بقيادة صلاح الدين يزحفون على مدن الشام، فتوجهوا إلى حمص، واستولوا عليها وعلى حماة وبعبك^(١).

ثم توجه الجيش الأيوبي إلى حلب سنة (٥٧٠هـ)؛ وكان صلاح الدين مُصرّاً على ضمّها إلى أملاكه بغرض توحيد القوى الإسلامية، وإمداد الثغور مع الصليبيين بالعساكر والمؤن^(٢)، وقد وقعت عدد من المعارك والمعاهدات، انتهت بدخول الأيوبيين إلى حلب سنة (٥٧٩هـ)، وضمّها إلى الدولة الأيوبية، مما ترتّب عليه تقوية الجبهة الإسلامية وتماسكها، والتفرُّغ بعدها لقتال الصليبيين^(٣).

وفي جمادى الأولى سنة (٥٨١هـ) استطاع الأيوبيون فتح مدينتي خِلاط وميافارقين، ودخلت ضمن أملاك الدولة الأيوبية^(٤).

وتتابعت فتوحات الأيوبيين للبلاد الشامية، ثم جدّوا في فتح بيت المقدس، واستطاعوا تسلّمه بالأمان، وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم بحيث إنه لم يتخلّف رجل معروف عن الحضور^(٥).

وفي أثناء فتوحات الأيوبيين لبلاد الشام ظهر باليمن دَعِيّ اسمه عبد النبي بن مهدي، زاعماً أنه المهدي المنتظر، فوجه صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه في سنة (٥٦٩هـ) إلى اليمن فوصل إلى زيد، وملكها، وقتل عبد النبي بن مهدي، وأقام الخطبة العباسية، كما ضمّ

(١) الحروب الصليبية، ص ١٤٤؛ الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٨٤، الأعلام: ٢٢٠/٨.

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ١١٤ - ١٢٣.

(٣) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص ٥٩ - ٧٥.

(٤) انظر: تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر، المؤيد بن أيوب، تحقيق: محمود ديوب: ١٣٩/٢.

(٥) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/٣٣٠ - ٣٥٣؛ وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق: محمد محمود صبح، ص ٨٨ - ١١٧.



بعض بلاد اليمن إليه^(١)، ثم وجه صلاح الدين أخاه الملك العزيز فملك جميع اليمن. وكان آخر عهد الأيوبيين باليمن هو الملك المسعود سنة (٦٢٥هـ)^(٢).

وقد فصلت في أمر هذه الفتوحات في مكان آخر من هذا الكتاب تحت عنوان: وسيلة الجهاد^(٣).

* * *

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٤٦؛ انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص ٤٨.

(٢) بلوغ المرام فيمن تولّى اليمن، القاضي حسين أحمد القرشي، ص ٤٠ - ٤٢؛ سير أعلام النبلاء: ٣٣٣/٢١؛ تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر: ١٣٣/٢.

(٣) انظر: ٢٦٧ - ٢٧٩.



المطلب الثالث الجهاد ضد الصليبيين

كان جهاد المسلمين ضد الصليبيين سمة واضحة من سمات الدعوة في هذا العصر، فقد بذلوا في جهادهم ذلك جهوداً حثيثة عظيمة حفظها التاريخ لهم؛ لتأثيرها البالغ في مستقبل الأمة الإسلامية^(١).

وقد اتّسمت الدعوة الإسلامية بقوة جهادها ضدّ الصليبيين في عهد الأيوبيين - ولا سيما في عهد صلاح الدين -، وأكبر دليل على تلك القوة ما شهد به العدو الصليبي من قوة المسلمين وشدة بأسهم، بل وصل الأمر بهم إلى الاستسلام وطلب الأمان؛ خوفاً من بطش المسلمين وبأسهم، وكما قيل: (الحق ما شهدت به الأعداء).

ومن تلك الشهادات:

- قال ملك الفرنج لمن معه من الفرنج الشاميين: (مدينة القدس لا يمكن حصارها ما دام صلاح الدين حياً، وكلّمة المسلمين مجتمعة).. وأشار لهم بالعودة إلى الرملة، فعادوا خائبين^(٢).

- كان من جملة ما قاله ملك الفرنج عن صلاح الدين: (هذا السلطان عظيم، وما في الأرض للإسلام ملك أكبر ولا أعظم منه، والله إنه لعظيم، والله ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف يأخذها في يومين؟!).. ثم قال للرسول: (تسلّم على السلطان، وتقول له: بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمرٌ لا بدّ له من آخر، وقد هلكت بلادنا وراء البحر، وما دوام هذا مصلحة لنا ولا لكم).

(١) انظر: مبحث «الوسائل» في هذا الكتاب، للاطلاع على تفاصيل جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٧٥ / ١٢.



فأرسل السلطان إليه في الجواب: (إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن قد خربت هذه يافا، فيكون لك من قيسارية إلى صور)^(١).

- ونتيجة للتطوّرات المتسارعة، والتّجارات المتكرّرة التي حقّقها الأيوبيون في جهادهم ضدّ الصليبيين بدأ يظهر في مملكة الصليبيين تحوّل جذريّ في أفكارهم عن الدولة الأيوبية، وقوّتها وسياستها الهجومية، وتمثّل هذا التحوّل بخوف وقلق متزايد من قوة قائد هذه الدولة الذي ركّز كل جهوده العسكرية ضدّ الصليبيين، إضافة إلى تمكّنه من توحيد الشام مع مصر في جبهة متماسكة تحت قيادة واحدة، لها هدف رئيس واحد، وهو استعادة الأراضي المقدّسة وقلبها القدس من أيدي الصليبيين، محقّقاً نبوءة برناردي بلاكفورت مقدّم الجيش في رسالة بعث بها إلى البابا في روما قبل تولّي صلاح الدين وزارة مصر، وقد قال فيها: إنّ أعظم همّ يشغله هو: «أن يتمكّن أمير مسلم واحد من توحيد الإقليمين العظيّمين مصر والشام، وبذلك سيّقضى على اسم المسيحيين في الشرق كلياً»^(٢).

إنّ أقوال الصليبيين السابقة تعطينا صورة واضحة عن مدى القوة التي وصل إليها المسلمون في عهد الدولة الأيوبية، وعن التأثير البالغ الذي تركوه في نفوس أعدائهم من خوف وقلق واضطراب من تلك الدولة وقائدها. فما أحوجّ الأمة الإسلامية اليوم إلى اتحاد الكلمة ووحدة الصف لحماية بلادهم من أطماع الطامعين، وكيد الكائدين، وما أحوجها أيضاً إلى مَنْ ينهض بها، ويوقد في أبنائها جذوة الجهاد، فتعود كما كان أسلافها: عزيزة، قوية، مُهابة؛ لتستطيع إعادة مجدها وعزتها المسلوبة.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٢٠.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٥٠.

المطلب الرابع النشاط العلمي

ازدهر النشاط العلمي في العصر الأيوبي ازدهاراً واسعاً، وكان ذلك النشاط سمة واضحة لهذا العصر، فقد ضمّ بين جنبه جمعاً غفيراً من العلماء المتبحّرين المتخصّصين: من فقهاء، ومحدّثين، وأدباء، ومؤرّخين، ومفسّرين، ولُغويين، وأطباء، وانتشرت فيه المدارس والمساجد ودور العلم والمكتبات، وألّفت فيه الكثير من المؤلّفات الضخمة في شتى العلوم، أسهمت كثيراً في رقيّ تراث الأمة الإسلامية، وحفظه للأجيال القادمة من الضياع.

ولم يكن الاهتمام بالعلم من جانب العلماء فحسب، بل مجّد الملوك الأيوبيون العلم، واهتمّوا به اهتماماً كبيراً، وجعلوا لأهل العلم الرّيادة والسيادة في دولتهم، ودعموا العلماء وطلاب العلم، وشجّعوا العلم والتعليم، وسخّروا الإمكانيات اللازمة كافة، ووفّروا ما يحتاج إليه العلماء وطلبة العلم، ولاسيما المأكل والمسكن.

ولم يتوقف دور الملوك عند هذا فحسب، بل كان منهم عدد لا بأس به ممّن طلبوا العلم وجالسوا العلماء، وحرصوا أشد الحرص على نشر العلم وتعلّمه، فجمعوا بين طلب العلم وقيامهم بتدبير شؤون المُلْك، واختار بعضهم النخبة من العلماء ليكونوا بطانة صالحة لهم لاستشارتهم في شؤون المُلْك، فكانوا بحقّ مثلاً عالياً في تقديس العلم والاهتمام بالعلماء، وصاروا بارزين في هذا المجال.

ولم يكن الاهتمام بالعلم مقتصرأ على الرجال فحسب، بل شاركت النساء في الحركة العلمية، وكانت لهنّ البصّمات الواضحة في هذا المجال.



وهكذا يتضح أن المناخ العام في العصر الأيوبي كان مُهَيَّأً وملائماً
للنهضة العلمية وازدهارها.

وسأتحدّث بإذن الله بالتفصيل عن النشاط العلمي، واهتمام الدولة
الأيوبية به ملوكاً وعلماء في ثنايا هذه الرسالة عموماً، وفي مبحث (وسائل
نجاح الدعوة) خصوصاً.

* * *

المطلب الخامس دعوة غير المسلمين

استطاع المسلمون في عهد الدولة الأيوبية توسيع رقعة دولتهم، ووصلوا إلى بلاد لا تحكمها الشريعة الإسلامية، كما تمكّنوا من فتح بيت المقدس، وفيه الكثير من الإفرنج الصليبيين.

وقد نشط المسلمون - ملوكاً وعلماء وعامة - في ذلك العصر في مجال دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، فوجّهوا الدعوة الإسلامية إلى غير المسلمين، سواء كان أولئك المدعوون من فئة الرؤساء أو من العامة، وذلك بمخاطبتهم مباشرة بقبول الإسلام والانقياد له، أو بشكل غير مباشر وذلك ببذل جهود دعوية تخدم الإسلام وتدعو إلى اعتناقه.

أولاً: توجيه الدعوة إلى الرؤساء:

كان السلطان صلاح الدين من أبرز الملوك الأيوبيين الذين حرصوا على دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وقد بذل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سبيل ذلك قصارى جهده ووقته، فكان كلما وفد إليه أحد من رؤساء النصارى للزيارة أو لاه غاية الإكرام والإحسان؛ تأليفاً لقلوبهم، ورغبة في أن يدخل في قلوبهم شيء من الإيمان^(١).

وكان يستغلّ علاقاته الحسنة مع بعض قادتهم من أجل التمكين للدعوة، ومن ذلك تفاهمه مع صاحب طرابلس الصليبي بأن يوعز الأخير لأتباعه باعتناق الإسلام، لكن أدركته المنية قبل إتمام ذلك^(٢).

(١) البداية والنهاية: ٦٤٦/١٦؛ وانظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة: الدكتور حسن

إبراهيم حسن وآخرين، ص ١١٠.

(٢) انظر: الدعوة إلى الإسلام، ص ١١١.



وكان حُسن خلقه ونبل شمائله من أبرز الأسباب التي دفعت كثيراً من الإفرنج ليغيّروا صورة الإسلام التي علقت في أذهانهم، بل وليعتنق عدد كبير منهم الدين الإسلامي! ومن الشواهد على ذلك ما حدث بعد معركة حطين، ومثّه على كثير من أسرى الصليبيين، ورحمته بنسائهم وضعفائهم مما جعل أعداداً كبيرة منهم يعتنقون الإسلام^(١)، بل وانضمَّ أعداد كبيرة منهم إلى معسكر المسلمين بعد إسلامهم ليقاتلوا معه ضد أقوامهم^(٢).

ومن الشواهد على دعوة الرؤساء غير المسلمين إلى الإسلام أنه لما وصل أمير أنطاكية الصليبي بوهمند إلى بيروت استقبله صلاح الدين واعتنى به^(٣). ولما وصل صاحب صيدا السابق رينالد برسالة إلى معسكر المسلمين، استقبله السلطان صلاح الدين بحفاوة مناسبة، واحترمه، ونُصبت له خيمة خاصة ليستريح، ثم اجتمع بالسلطان، وأكل معه الطعام، وعرض عليه الإسلام، فذكر له طرفاً من محاسنه وحثّه عليه^(٤).

وقد روي أنه جيء بالملوك الأسرى إليه بعد حطين ومعهم صليب الصليبوت، فلما رآهم نزل وسجد شكراً لله. ولما رأى ملكهم أجلسه عن يمينه، وأمر له بقدر من ماء ثلج - وقيل: ماء ممزوج بالورد - لَمَّا رآه يلهث عطشاً^(٥).

وهذا ترغيباً له في الإسلام، ومن باب مراعاة منزلة كبار القوم، وإنزال الناس منازلهم، امتثالاً للحكمة الشهيرة: (أنزلوا الناس منازلهم).

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٧١.

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٢.

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢١؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ١٩٤.

ومن الملوك الذين حرصوا على دعوة غير المسلمين الملك العادل، فقد روي أنه وَزَّر له أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال، مدة يسيرة، وكان نصرانياً، فأسلم على يده بعد عودته مع الأفضل علي بن صلاح الدين إلى مصر^(١).

ومن الجهود التي بذلها الملك العادل محادثاته ومراسلاته واجتماعاته مع قادة الفرنج ورسلمهم، وقد نتج عن هذه الجهود ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين. ومن الأمثلة على ذلك: لقاءاته بملك الإنجليز، والتفاوض معه للوصول إلى الصلح وفق الشروط التي وضعها المسلمون^(٢).

وقد أسفرت هذه اللقاءات عن تنازل الصليبيين عن القدس، وعدم مطالبتهم بها، والاكتفاء بالزيارة والحج إلى بعض الأماكن المقدسة لديهم فيها^(٣).

ومن الملوك الذين كانت لهم جهود في هذا المجال الملك الكامل ابن العادل، فقد روي أنه بعد أن انتصر على الفرنج في دمياط وسيطر المسلمون عليها، حضر مجموعة من قادة الفرنج عند الملك الكامل الذي أعد لهم سِباطاً عظيماً، فاجتمع عليه المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، ثم قام أحد شعراء الملك الكامل أثناء ذلك، وهنأه بقصيدته، ثم وجه الكلام فيها إلى قادة الفرنج الموجودين على سفرة الملك قائلاً^(٤):

أعْبَادَ عيسى إِنَّ عيسى وحرْبَه موسى جميعاً يَخْدِمون محمداً^(١)

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٩٢.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٧٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٤) البداية والنهاية: ١٧ / ١٠٧.



وفي هذا الموقف دعوة لقادة النصارى إلى الإيمان بنبوّة محمد ﷺ، وبطلان اتخاذهم لعيسى ﷺ إلهاً، وبيان لهم بأن موسى وعيسى ﷺ لو كانا حيّين ما وسعهما إلا اتباع الرسول محمد ﷺ.

وللملك الكامل مراسلات عديدة مع بعض قادة الفرنج في شؤون مختلفة، وكان من أهمها مراسلاته مع فريدريك الثاني ملك صقلية، فقد أرسل هذا الملك إلى الملك الكامل عدة أسئلة، فأجاب عنها أحد علمائه، ثم أرسلت إليه^(١). كما أوفد إليه الملك الكامل عدة سفارات؛ منها ما قام به أحد علماء مصر في ذلك الوقت^(٢)، حيث دارت بين هذا العالم وبين الملك الصقلي عدة محاورات علمية^(٣).

وقد ظهرت نتائج حسنة لدعوة الملك الكامل على الملك الصقلي، فقد روي أنه لما زار القدس، وتجوّل بالأماكن المقدّسة الإسلامية أبدى إعجابه بالمسلمين، وكان من قوله: «والله إن أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين، وتسبيحهم بالليل»^(٤).

ومن الملوك الذين اشتهروا بدعوة غير المسلمين عن طريق المعاملة الحسنة: الملك الظاهر، فقد روي أنه لما فُتح حصن بُرزية كانت صاحبة الحصن أميرة إفرنجية، فُسببت وأحضروها للظاهر، فمنّ عليها بالإعتاق، وحلّ عنها وعن زوجها قيد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنة لهما وزوجها وعدّة من أصحابهم، وأدخلهم معهم في الإطلاق، وأشبعهم وقد تجوّعوا، وسيرّ معهم إلى أنطاكية من أوفدهم^(٥).

(١) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ٢٣٠/١.

(٢) العالم هو: فخر الدين بن شيخ الشيوخ يوسف بن حمويه.

(٣) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ٢٣١/١.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٢٣١/١.

(٥) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

وقد طبقت الدولة الأيوبية الحكم الشرعي على مَنْ أُسِرَ من الصليبيين، فقاموا بقتل من استحق القتل، ولكنهم قبل ذلك حرصوا على عرض الإسلام عليهم، فمَنْ أبى قتلوه.

ومن الشواهد على ذلك ما روي أنه لَمَّا وقع (أرناط) - أحد قادة الصليبيين - في الأسر بعد معركة حطين، قتله صلاح الدين بعد أن عرض عليه الإسلام فأبى^(١).

وفي إحدى المعارك أحضر بين يدي قائد المسلمين إفرنجي قد أُسِرَ من القوم، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد أن عرض الإسلام عليه وأبى^(٢).

كما روي أنه بعد فتح حطين أمر صلاح الدين بقتل أسرى الكفار جميعاً، وتطهير الأرض منهم، ومن خيانتهم وغدرهم ورجسهم، ولكنه ما قتل إلا مَنْ عُرِضَ عليه الإسلام وأبى أن يُسلم، وما أسلم إلا آحاداً حَسَنَ إسلامهم^(٣).

ثانياً: توجيه الدعوة إلى العامة:

ومن الشواهد على توجيه الدعوة إلى غير المسلمين من العامة ما يذكره صاحب «النوادر» أنه كان إلى جانب صلاح الدين في بعض حروبه مع الفرنجة، وقد وصلت إلى عَتَبَتِهِ امرأة منهم كانت شديدة التخوف، كثيرة البكاء، متواترة الدق على صدرها، وقد سألت الحضور بين يدي السلطان، فأمر صلاح الدين الترجمان بأن يسألها عن قصتها، فقالت: «للصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي، وبثُّ البارحة أستغيث

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٧٥/٣ - ٢٩٧؛ والفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٧٦ - ٨٧.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٩٠ - ٢٩١.



إلى بكرة النهار، فقال لي جند السلطان: هو أرحم، ونخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني إليك وما أعرف ابنتي إلا منك».. فرق لها صلاح الدين ودمعت عينه وحركته مروءته، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب وهي ترفع وجهها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول، فسُلمت إليها ابنتها وأُعيدت إلى عسكر الفرنجة^(١).

ومن هنا فإن تعامله الحسن مع هذه المرأة الإفرنجية، وتقديم المساعدة لها؛ دعوة إلى الإسلام بإظهار محاسنه، وبيان للأخلاق الإسلامية السمحة. ومن ذلك أيضاً: أنه كانت امرأة إبرنس أنطاكية عيناً للسلطان على العدو، تهاديه وتناصحه وتُطلععه على أسرارهم، والسلطان يُكرمها لذلك، ويهدي لها أنفس الهدايا. فلما فتح السلطان حصن بُرزية، وحصل في أسره جماعة، خلّصهم من الأسر، وأنعم عليهم، وجهّزهم، وسيّرهم إلى أنطاكية؛ لأجل امرأة الإبرنس، فشكرته على ذلك، وداومت مودّتها ونفعها للمسلمين^(٢)، وقد منّ السلطان على صاحب القلعة وأهله وكانوا سبع عشرة نفساً^(٣).

ومن الشواهد: أنه كان قد استأمنه من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلى المسلمين، ثم قالوا له: نحن نخوض البحر في مركب، ونكسب من العدو، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين. فأذن لهم السلطان، وأعطاهم المركب، فركبوا وكسبوا، وأحضروا ما كسبوه من

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٣، وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٨٠.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٥.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

بضاعة وفضة، فأعطاهم ﷺ كل ما غنموه، فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المُنعمة، وأسلم منهم شطرهم، وأهدوه هدايا ثمينة^(١). وإسلامهم هذا كان بفضل الله ثم بفضل المعاملة الحسنة والأخلاق الكريمة التي عوملوا بها.

وقد روي: أنه في سنة (٥٨٨ هـ) عُقدت هدنة بين المسلمين والفرنج مدتها ثلاث سنين وثمانية أشهر، ونودي: ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً عمّ فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب، فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم المسلمون بأمر من السلطان، ومدّوا لهم الأطعمة وباسطوهم^(٢).

وكان هذا دأبه ﷺ مع مَنْ يردّ عليه، يمدّ لهم الطعام ويكرمهم، ويُنعم عليهم بما تطيب به قلوبهم^(٣).

وبعد الهدنة وصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج، وفتح السلطان لهم الباب في ذلك، وأرسل معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردّوهم إلى يافا، وكان غرض السلطان بذلك أن يُريهم حقيقة الإسلام وأخلاقه، ويقضوا وطهرهم من الزيارة، ويرجعوا إلى بلادهم، فيأمن المسلمون شرّهم.

وشرع المسلمون في إكرام مَنْ يردّ، ومدّوا لهم الطعام وباسطوهم

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٢٣٦.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٠.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٢١.



وحادثوهم، وقد طلب الملك الإفرنجي من السلطان منع الزوّار، واقترح ألا يؤذن لأحد إلا بعد حضور علامة منه، إلا أن السلطان اعتذر إليه، وكتب له: «إن قوماً قد وصلوا من ذلك البعد، ويُسّر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا أستحلُّ مَنَعَهُمْ»^(١).

ويحرص المسلمون على إعطاء الفرنج صورة راقية عن الإسلام، وحسن تعامله مع الأعداء، ترغيباً لهم في الدخول إلى الإسلام، وذلك أنه لما حاصر المسلمون القدس استقرّت المفاوضات بينهم وبين الفرنج على أنهم يدفعون عن كلّ رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير أو صغيرة دينارين، وكانت هذه المهلة أربعين يوماً، ومن عجز عن أداء ما عليه ضرب عليه الرّق بحكم الشريعة الإسلامية. وقد قيل للسلطان بشأن ذلك: إنهم لم يحفظوا العهد. فكان السلطان يقول: نحن نجزيهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بمحاسن الإسلام^(٢).

والملك الكامل من الملوك الذين اشتهروا بالمعاملة الحسنة مع غير المسلمين، فقد روي: أنه في سنة (٦١٣هـ) اختلفت فرقة من النصارى على تنصيب أمير عليهم، فلم يُرد الكامل أن يعظّم الشقاق بينهم، فأمر بتطيب قلوبهم^(٣).

ثالثاً: جهود العلماء في دعوة غير المسلمين:

ولم يقتصر أمر دعوة غير المسلمين على الملوك الأيوبيين فحسب، فقد بذل العلماء في ذلك العصر جهوداً عظيمة في هذا المجال، ومن العلماء

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ٤٠١.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٨٤.

البارزين في دعوة النصارى من الإفرنج إلى الإسلام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، فقد بذل جهده في بيان ضلالهم، ونقّد بعض عقائدهم، والتحذير منها^(١).

وقد قال عن آثار دعوته للنصارى: (وأسلم على يديّ نحو مئتين من أهل الذمة)^(٢)، وفي رواية أخرى: (وأسلم على يدي عشرون ألفاً)^(٣).

وقد نشط العلماء في مناظرة النصارى، وتأليف الكتب في الردّ عليهم، وبيان بطلان مذهبهم، ومن أولئك العلماء علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي، الذي ولد بمصر، وسكن حلب، وتولّى قضاءها أيام الملك الظاهر، ثم تولّى الوزارة للملك العزيز^(٤)، وله كتاب: «الردّ على النصارى»^(٥).

ومن العلماء الذين كان لهم جهد واضح في هذا المجال الشيخ صالح بن الحسين الجعفري^(٦)، ومن جهوده تأليفه لكتابه: «الرد على النصارى»، وقد بيّن أن ما دفعه إلى تأليف هذا الكتاب هو الردّ على أسئلة وردت من الفرنج يمتحنون بها المسلمين، فيقول: (... ووقفْتُ على مسائل ذُكر أن الفرنج بعثوا بها يمتحنون أهل الإسلام، فنظرت فيها فإنها خالية من الفوائد الدينية، عاطلة عن المنافع الدنيوية)^(٧).

(١) انظر: تلبس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دراسة وتحقيق وتعليق: الدكتور السيد الجميلي، ص ٩١ - ٩٢؛ كيد الشيطان لنفسه قبل خلق آدم، عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ص ٨٨.

(٢) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود ابن عبد الرحيم، ص ٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٢٧.

(٥) انظر: علم دراسة الأديان عند المسلمين، الدكتور محمود قدح، ص ١٢٩.

(٦) انظر: دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، الدكتور سليمان الرومي، ص ٤٠٩ - ٤١١.

(٧) الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: الدكتور محمد محمد حسانين، ص ٥٦.



وللجعفري كتاب «تخجيل من حَرْف التوراة والإنجيل»، وقد بيّن فيه أن من أسباب تأليفه لهذا الكتاب رجاء هداية أهل الكتاب، إذ يقول: (فعسى الله أن يُقدّر هداية بعضهم، ونحن مأمورون بدعائهم إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة).

كما دفعه للتأليف تعليم الحجّة في الردّ عليهم، فيقول: (وهذا مما يُعين على دعوتهم)^(١).

ومن جهود الجعفري في دعوة غير المسلمين مناظرة رهبان النصارى، وقد دلّ على ذلك بعض الإشارات في كتبه، ومن ذلك مثلاً قوله: (ولقد فاوضني بعض الرهبان ممّن يُدعى بناناً في البيان...)^(٢).

وقوله: (لقد فاوضت بعض النصارى فيما يتعلّق بألفاظ النبوة...)^(٣).

وقوله: (قلت لنصراني من عقلائهم...)^(٤).

ومن العلماء الذين كان لهم جهود في دعوة غير المسلمين الشيخ أحمد ابن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي القرافي، والذي ناظر النصارى، وردّ على شبههم، ودعم الحاكم في مواجهتهم، ومما يدلّ على ذلك قوله في أحد كتبه: (...اتفق لي مع كثير منهم في المناظرة أني أطلبه بتصوير مذهبه كيف يمكن إقامة الدليل عليه...؟)^(٥).

وقد خصّص باباً في كتابه «الأجوبة الفاخرة» في الردّ على شبههم

(١) تخجيل من حَرْف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: الدكتور محمود قذح: ١٠٣ / ١.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٢٠٥.

(٣) المصدر السابق: ١ / ٢٣٣.

(٤) المصدر السابق: ١ / ٢٥٣.

(٥) الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، أحمد بن إدريس القرافي، ص ١١١.

وتفنيدها، فقال: (الباب الثاني في أسئلة لأهل الكتاب النصارى واليهود عادتهم يتولّعون بإيرادها، والجواب عنها...) (١).

أما دعمه للحاكم في مواجهته للنصارى ودعوتهم فقد روي أنه ألّف كتاب «أدلة الوجدانية في الرد على النصرانية»، وأهداه للملك الكامل الذي كان في خضمّ جهاده مع الصليبيين، وقد قال القرافي في ذلك: (... فرأيت أن أوّل لمولانا السلطان أعزّه الله في الرد عليهم كتاباً أتخفه فيه بغريبة، وأنفرد فيه بطريقة عجيبة، أجمع فيه مذاهبهم على جليتها، وأخاطبهم بفصوص نصوصهم، وأجادلهم بها مجادلة الأقران، وأبارزهم على نقضها مبارزة الشجعان) (٢).

رابعاً: جهود العامة من المسلمين في دعوة غير المسلمين:

المقصود بالعامة: ما سوى الحكام والعلماء، والذين لا يتميّزون بسلطة أو علم، ويمثّلون السواد الأعظم من المجتمع، ويتفاوتون فيما بينهم في النواحي المختلفة إلا أنهم يجمعهم اعتناقهم للدين الإسلامي، والتزامهم بتعاليمه وتشريعاته؛ لذا فإن هذه الطبقة من المجتمع إن أحسن العلماء توجيهها أثرت تأثيراً إيجابياً في الآخرين على نحو ملموس.

وهذه الطبقة لا يُتصوّر منها أن تقوم بواجب الدعوة على الوجه الصحيح المطلوب، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والدعوة تحتاج إلى علم وبصيرة، وهذا في الغالب محدود في العامة.

لذلك فإن المقصود بقيامهم بدعوة غير المسلمين هو تأثيرهم في

(١) الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، ص ٣.

(٢) أدلة الوجدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: عبد الرحمن دمشقية،



النصارى؛ سواء بإسلام بعضهم تأثراً بالتعامل الإسلامي، والأخلاق القويمة، أو بنقل الإسلام لهم^(١).

ومن الأمثلة على قيام العامة بواجب الدعوة: ما روي أن صلاح الدين بعد أن فتح حلب أراد صاحب حصن حارم القريب منها مكاتبة الفرنج ضد صلاح الدين، فقبض عليه عامة أهل حارم، ونادوا بالبيعة لصلاح الدين^(٢).

ويظهر دور العامة أيضاً في دعوة النصارى عن طريق المجاورة، وذلك بالإحسان إلى الجيران وإظهار محاسن الإسلام وتشريعته أمامهم، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الشيخ عبد الله بن أبي الحسن الجبائي الطرابلسي المتوفى سنة (٦٠٥هـ)، والذي كان نصرانياً فأسلم، وكان والده من علماء النصارى، فقد قال عن نفسه: «كنا نصارى، فمات أبي ونحن صغار، فقدر الله أن وقعت حروب، فخرجنا من القرية، وكان فيها جماعة مسلمون يقرؤون القرآن فأبكي إذا سمعتهم، قال: فأسلمت وأنا عمري إحدى عشرة سنة»^(٣).

وبين توماس آرنولد أثر العامة في تحوّل الكثير من النصارى إلى الإسلام بسبب الضغط الاجتماعي، فقال: (...وكان عدد المرتدّين عن المسيحية كثيراً كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يُطلق عليها مجالس قضاء بيت المقدس... وقد لا يكون من الممتع أن تعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحوّلوا إلى الإسلام)^(٤).

(١) انظر: دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية: ١ / ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٧٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٨٨/٢١.

(٤) الدعوة إلى الإسلام، ص ١١٠.



ومما يدل على أثر العامة في دعوة غير المسلمين ما ذكّرته بعض المصادر النصرانية من تحوّل أعداد كبيرة من نصارى الصليبيين إلى الإسلام في مدن القاهرة والشام، فقد قدّرته بعض المصادر بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً في القاهرة وحدها^(١).

وبعد هذا العرض لسّمات الدعوة الإسلامية في العصر الأيوبي، أوّد أن أُبيّن بأنّ من المعلوم أنّ خير الناس من عاش في عصر قريب من ضياء النبوة، ثم يتعدّد الناس عن هذا الضياء شيئاً فشيئاً كلما ازداد بعدهم عن عصر النبوة؛ لما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء من بعدهم قوم: تسبق شهادتهم أيمانهم، وأيمانهم شهادتهم»^(٢).

وفي الزمن الذي سبق العصر الأيوبي نجد أن الفتن والضلالات بدأت تعشّش في بلدان العالم الإسلامي، فقد أصبح لها كيان متمثّل في الدولة العبيدية التي كان لها نفوذ جغرافي واسع، كما أن هيبة الخلافة العباسية السنيّة ضعفت، وتقطّعت أوصالها إلى دويلات.

وقد ورث الأيوبيون تركةً مثقّلة بالهوى، وإعجاب كلّ ذي رأيٍ برأيه، بالإضافة إلى تهديد سيادة الدولة بالاحتلال الصليبي، وأطماعه الواسعة في حكم الشرق، واحتلال المناطق المقدّسة.

وقد نجح الأيوبيون - ولاسيما في أوائل حكمهم - في الاعتداد بحكم الكتاب والسنة، وإعلاء شأنهما، وتشجيع العلم والعلماء، والوقوف أمام

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ١١٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا شهد: ٩٣٨/٣، رقم (٢٥٠٩).



الزحف الصليبي.. بيد أن الطرق الصوفية التي لا تستند إلى الأدلة الشرعية، والابتداع الذي ناء بكله على أصقاع الدولة الأيوبية جعل التطبيق العملي لمعالم العقيدة والشريعة والأخلاق الإسلامية على غير ما يُرام، وإن كان الخير الذي حقّته هذه الدولة خيراً جمّاً، ولكن اختلط الحق بالباطل، ولم نعد نلمس الصفاء المنشود في الصلة العلمية بالكتاب والسُّنة سواء عند الحاكم أو عند الرعية.

ولكن وجود أنموذج أمثل للداعية الحق في هذا العصر، وتوسّع رقعة الدولة الإسلامية بفضل الله ثم بفضل فتوحات الأيوبيين، وجهادهم ضدّ الصليبيين، والنشاط العلمي الواسع، والحرص على توجيه الدعوة لغير المسلمين كانت معالم بارزة مميّزة للدولة الأيوبية، أهلتها لأن تكون دولة من أكابر الدول الإسلامية على مرّ التاريخ.

* * *

المبحث الثاني
مراحل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية



مرّت الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية بعدد من المراحل نتيجة الظروف الدينية والسياسية التي كانت محيطة بها في ذلك الوقت، ويمكن أن نُجمل تلك المراحل في الآتي:

- ١ - مرحلة المداراة.
- ٢ - مرحلة الجهر.
- ٣ - مرحلة الانكماش.

* * *

المطلب الأول مرحلة المداراة

المداراة تعني ملاينة الناس وملاطفتهم، والرفق بهم، وحسن صحبتهم، واحتمالهم؛ لئلا ينفروا، وأصله من دَرَيْتَ الظَّبْيَ، أي: احتلتَ عليه، وختلته حتى تصيده^(١).

وذكر الحافظ ابن حجر رحمته الله أَنَّ المراد بالمداراة: الدفع برفق^(٢).

ونظراً لأهمية المداراة بَوِّبَ البخاري رحمته الله باباً كاملاً في كتاب الأدب وأسماءه (باب المداراة مع الناس)^(٣).

والدليل على مشروعية المداراة من القرآن الكريم قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨].

قال السعدي: (وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن موالاته الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، إلا أن يخاف المسلمون على أنفسهم، فحينها يحلّ لهم أن يفعلوا ما يعصمون به دماءهم من التقية باللسان، وإظهار ما به تحصل التقية)^(٤).

(١) أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، مادة (دري)، ص ١٢٩؛ لسان العرب، مادة (دري): ١٤ / ٢٥٥.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي ومحَب الدين الخطيب: ١٠/٥٢٨.

(٣) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله: ٥/٢٢٧١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص ١٢٧ - ١٢٨.



وقال جل وعز: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال القرطبي: (إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه، وقلبه مطمئن بالإيمان)^(١).

أما من السُّنَّة النبوية الشريفة فالدليل عليها ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال: «اأذنوا له فبئس ابن العشيرة - أو بئس أخو العشيرة»، فلما دخل الآن له الكلام، فقلت له: يا رسول الله قلت ما قلت ثم أَلنَّتَ له في القول؛ فقال: «أَيُّ عَائِشَةَ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَه - أَوْ وَدَعَه - النَّاسِ اتِّقَاءً فَحْشِهِ»^(٢).

وقد علّق الحافظ ابن حجر رحمته الله على هذا الحديث بقوله: (قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفضُ الجناح للناس، ولينُ الكلمة، وتَرْكُ الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك)^(٣).

وعلى هذا فالمداراة: لين الكلام، والبشاشة للفَسَّاق وأهل الفحش؛ اتِّقَاءً لُفْحَشِهِمْ، ولعل في مداراتهم ترغيباً لهم وكسباً لقلوبهم.

ومرحلة المداراة هي مرحلة مهمة للداعية، فالذي يخالط الناس، ويصبر

(١) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي: ٨٧/٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب: الأدب، باب: المداراة مع الناس: ٢٢٧١/٥، برقم (٥٧٨٠).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٥٢٨/١٠.

على أذاهم، خير من الذي يعتزلهم، ويترك تعليمهم، وأمرهم ونهيمهم، كما أخبر رسولنا الكريم ﷺ، ولا بد لمن يخالط الناس أن يُداريهم ليدفع شرّهم، ويوصل الدعوة إليهم، فلولا مداراة الرسول ﷺ للأعداء من اليهود والمنافقين، وصبره على الأعراب الغلاظ الجفافة لما تمكّن من نشر دعوته، ولا سيما في بداية أمره، ولهذا كان ﷺ يأمر أصحابه بالترّيث والصبر، ويحدّثهم من الاستعجال، وينهاهم عن العجلة والتهور.

وقد كانت المرحلة الأولى التي مرّت بها الدولة الأيوبية عند بداية نشأتها هي مرحلة المداراة، فصلاح الدين مؤسس هذه الدولة لم يُعلن عن قيام دولته صراحة منذ اليوم الأول من قيامها، بل آثر العمل مع أصحابه في الخفاء، ومداراة العبيديين في العلن خوفاً من غضب الدولة العبيدية واثقاً لشرّها، وليتمكّن من إرساء قواعد دولته وتأسيسها على نحوٍ قوي.

ولمداراة الأيوبيين للعبيديين شواهد عدّة لعل من أبرزها:
أولاً: التقرب من الناس والإحسان إليهم:

لم يعمل صلاح الدين بدايةً على تقوية مركزه في مصر، بل عمِل على توطيده تدريجياً، لكي يكسب قلوب المصريين، ولا يفقد ثقتهم، فعمل أولاً على اكتساب ثقة عامة الناس، ثم أسند مهامّ الدولة إلى أنصاره، وأضعف نفوذ الخليفة^(١).

وقد بدأت سلطة الأيوبيين تصفو لهم في مصر ابتداءً من سنة (٥٦٤ هـ)، ولكنهم مع ذلك ظلّوا في مرحلة المداراة والترقّب ثلاث سنوات كاملة، فكانوا خلالها يُظهرون الودّ للناس.

(١) الفاطميون في مصر، ص ٣٠٨.



وقد رفع السلطان صلاح الدين عن المصريين المظالم، ولم يتجزأ على الخطوات العملية في القضاء على الخلافة العبيدية إلا سنة (٥٦٧هـ)، وبعدها أمر القاضي الفاضل بإحراق الكتب الشيعية في مكتبة القصر^(١).

وقد أظهر صلاح الدين الوُدّ والمعاملة الحسنة لجميع المصريين بمختلف دياناتهم، ومن هؤلاء: الأقباط، إذ فسح لهم الحرية الدينية، وقضى حوائجهم، ورفع عنهم المظالم، وكان الأقباط يحبونه حباً جمّاً، ويُعلّقون صورهم في كنائسهم^(٢).

ولم يكتفِ صلاح الدين بمداراة الناس والتقرب إليهم، بل دارى أيضاً الخليفة العاضد، آخر الخلفاء العبيديين، وأحسن إليه، ومن مداراته للعاضد: إشارته بمعاونة العاضد له بقوله: «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار، سوى ما أرسله إليّ من الثياب»^(٣).

ومن الإحسان إلى العاضد ما ذكره أبو شامة أنه - أي أبا شامة - اجتمع بأبي الفتوح بن العاضد، وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر، فأخبره أنّ أباه العاضد استدعى صلاح الدين، فلما حضر أوصاه بأبنائه، وهم جماعة صغار، فالتزم صلاح الدين إكرامهم واحترامهم^(٤).

ولما علم العاضد بعزل صلاح الدين لأمره أرسل يسأله عن السبب، فبعث إليه صلاح الدين بأن هؤلاء كانوا عُصاة لأمرك، ومن المصلحة قتلهم، وإقامة غيرهم ممن يمثل أمرك.. فسكت العاضد^(٥).

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ٥ / ١٧٢.

(٢) المصدر السابق: ٥ / ١٦٨.

(٣) الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٣٤.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٩٢.

(٥) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٤٥.

ثانياً: جلوس صلاح الدين لعزاء العاضد:

روي أنه بعد موت العاضد جلس صلاح الدين وبطانته للعزاء^(١). وقد ندم ﷺ على الاستعجال بقطع خطبة العاضد وهو مريض، وقال: «لو علمت أنه يموت من هذا المرض في هذه الجمعة، ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، وما قطعناها إلى أن يموت»^(٢).

ثالثاً: تأخير الخطبة للعباسيين:

لم يسارع صلاح الدين إلى إقامة الخطبة للمستضيء بنور الله العباسي على الرغم من تمكّن صلاح الدين من أمور مصر وثبات قدمه فيها، بل أعرض في بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين الذي أرسل إليه يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة العبيدي، واعتذر بتخوّفه من أن يثير هذا العمل غضب المصريين، غير أن نور الدين أبقى قبول هذا العذر، وبعث إليه يُلزمه بذلك رغبة منه في تحقيق المداراة المنشودة قبل الشروع في مرحلة إعلان الدولة السُّنِّيَّة، والقضاء على الخلافة العبيدية، فرأى صلاح الدين أن يُشاور أمراءه، وكان متردداً خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى نتائج غير مُرضية^(٣)، فاكتمى بأن أمر بذكر اسم نور الدين في الخطبة بعد الخليفة العبيدي^(٤) مترقباً الوقت المناسب لإعلان الدولة الجديدة.

* * *

(١) تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر: ٢ / ١٢٩.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٩٢.

(٣) الفاطميون في مصر، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٤) الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٣٢؛ وانظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١ / ١٧٣.



المطلب الثاني مرحلة الجهر

لمّا رأى صلاح الدين أن الوقت غداً مناسباً لإعلان قيام الدولة المسلمة، والجهر بالمذهب السُّنِّي؛ بدأ يرتّب نفسه ليقوّي مركزه، ورأى أن يُحيط نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه، فجهّز نور الدين نجم الدين والد صلاح الدين وأهله، وأرسلهم إلى القاهرة.

وقد سلك صلاح الدين مع والده من الأدب ما هو اللائق بمثله، فجمع إخوته والكبار من أسرته، وأخبرهم أنه اعتزم أن يتنازل عن الحكم لوالده فهو أدري منه وأولى.

وقد أكبر نجم الدين ما سمع من ولده، فقد رأى فيه من أمارات الوفاء، ودلائل الإخلاص ما أثلج صدره، وأبهج نفسه، وأبى ذلك العرض قائلاً له: (يا ولدي، ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر إلا وأنت أهلٌ له، ولا ينبغي أن تُغيّر موضع السعادة، وأنا مستشارك الأمين وناصرحك الودود)، ولم يزل عنده حتى استقل صلاح الدين بالبلاد^(١).

وبعد ذلك بمدة يسيرة نهض أحد المستشارين وهو الشيخ الخبوشاني في المحرم سنة (٥٦٧هـ)، ودعا لكلّ من الخليفة العباسي مع الخليفة العبيدي، وكان العاضد مريضاً، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء بإسقاط اسم العاضد، وذُكر الخليفة العباسي^(٢).

(١) وفيات الأعيان: ٢٥٨/١؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي: ٤ / ٢٢٧؛

صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٨٧ - ٨٨.

(٢) الفاطميون في مصر، ص ١٣٥ - ١٣٦.



ولمّا أيقن الأيوبيون أن سلطتهم قد استقرّت وجه صلاح الدين اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي^(١)، ثم تمكّن - كما سنرى لاحقاً - من فتح بعض من بلاد الشام، وانصرف بعدها إلى عمليتين جديدين:

أحدهما: الإصلاح الداخلي في مصر والشام، بحيث كان يتردّد بين القطرين.

والثاني: دفع غارات الصليبيين، ومهاجمة قلاعهم في بلاد الشام^(٢).

ولتحقيق أهدافه هذه سعى إلى تقوية الجيش الإسلامي^(٣) لحماية الدولة الأيوبية، وتوسيع زعقتها، وتحقيق الوحدة الإسلامية؛ استعداداً لمواجهة أعداء الأمة الإسلامية ولاسيما الصليبيين.

وقد حقق الأيوبيون في هذه المرحلة الكثير من الانتصارات ضدّ أعدائهم، وفتحوا العديد من البلاد، وانتقلوا من نجاح إلى آخر بفضل الله تعالى ثم سياستهم الحكيمة، وتخطيطهم المتقن كما سيتبيّن لنا في ثنايا هذا البحث.

* * *

(١) الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٣٥.

(٢) الأعلام: ٨ / ٢٢٠.

(٣) انظر مبحث: عوامل نجاح الدعوة، ص ٥٥٨ - ٥٦٤.



المطلب الثالث مرحلة الانكماش

سعى صلاح الدين في توحيد سورية ومصر، واسترداد بيت المقدس، وإنجاز بطولات متميزة إلى أن توفي سنة (٥٨٩هـ)، ثم انقسمت الدولة إلى دويلات يتآمر بعض أمرائها على بعض، فالعزیز على مصر، والأفضل على دمشق، والظاهر على حلب، وطغتكين على اليمن، والعاذل على الكرك والشوبك، أما بقية أبناء صلاح الدين وإخوته فكانت لهم مناطق ثانوية صغيرة في أملاك الدولة الأيوبية^(١).

وبعد وفاة صلاح الدين رَضَّلَهُ تنازع أولاده واختلفوا، فكانوا فرقاً وأحزاباً متفرقين^(٢)، وقد أثرت هذه النزاعات والخلافات بين أبناء البيت الأيوبي في وحدة دولتهم، وأدى بها إلى الانهيار في نهاية المطاف سنة (٦٥٠هـ) في مصر، وبانهيارها يُسدل الستار عن مسرح حياة تلك الدولة التي كان لها أثر كبير في توحيد الدولة الإسلامية والوقوف في وجه الصليبيين.

وهكذا تتضح لنا المراحل التي مرّت بها الدعوة في عهد الدولة الأيوبية، فمن المداراة قبل الدعوة، إلى الجهر والقوة والتمكين، ثم ختاماً إلى الانكماش والانهيار والغياب! وما ذقت الدولة الأيوبية هذه النهاية

(١) السيف المهندس، ص ١٩٨؛ الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٦٢٩ - ٦٣٦؛ زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين ابن العديم، تحقيق: سامي الدهان؛ ١٢٤/٣؛ العز بن عبد السلام، الدكتور محمد الزحيلي، ص ٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٣؛ البداية والنهاية: ١٧ / ١٧٤.

سأتحدّث عن صور من هذه النزاعات والخلافات في مبحث: معوقات الدعوة الداخلية، ٤٦٧ - ٤١٧.

السيئة إلا لتهاون أبنائها بأمور الدعوة الإسلامية وعدم تمسكهم بها،
 فالدعوة كالبذرة إن لم تجد لها تربة صالحة خصبة، أو لم تُسَقِّ بماء صاف
 رقيق، أو انشغل عنها، ولم يُعتنِ بها؛ فإنها لن تثمر ما يُراد جَنِيئِهِ من ثمار،
 ولن تحقِّق ما يُنتَظَر تحقيقه من نتائج.

* * *



الفصل الثاني

موضوع الدعوة

- موضوع العقيدة.
- موضوع الشريعة.
- موضوع الأخلاق.

* * *



تمهيد

تبوّأت الدعوة الإسلامية زمن الدولة الأيوبية مكانةً عظيمةً، فاهتم ملوكها وعلماؤها بموضوع هذه الدعوة المباركة - عقيدة وشريعة وأخلاقاً - اهتماماً كبيراً. وإن أول ما ينبغي للداعية الاهتمام به ومعرفته وفهمه هو الدعوة إلى العقيدة الإسلامية، ثم الاهتمام بدعوة الناس إليها لإخراجهم بها من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧].

فالدعوة إلى هذه العقيدة هي الأساس والمنطلق، فلا يُدعى إلى شيء قبلها من فعل الواجبات وترك المحرمات، حتى تقوم هذه العقيدة وتتحقق؛ لأنها هي الأساس المصحح لجميع الأعمال، ومن دونها لا تصح الأعمال ولا تُقبَلُ ولا يثاب عليها، ومن المعلوم بداهة أن أيّ بناء لا يقوم ولا يستقيم إلا بعد إقامة أساسه.

والدعوة إلى العقيدة الإسلامية هي أول ما دعا إليه الرسل جميعاً، فلم

يكونوا يبدؤون بشيء قبلها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكان كل رسول يقول لقومه أول ما يدعوهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وكان النبي ﷺ عندما يبعث الدعوة يوصيهم ابتداءً بالدعوة إلى تصحيح العقيدة: فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةَ اللَّهِ ﷻ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»^(١).

فمن هذا الحديث الشريف، ومن استقراء دعوة الرسل في القرآن، ومن استقراء سيرة الرسول ﷺ، يؤخذ منهج الدعوة إلى الله، وإن أول ما يدعى الناس إليه هو العقيدة المتمثلة بعبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه.

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة يدعو الناس إلى تصحيح العقيدة بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، قبل أن يأمر الناس بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وترك المحرمات من الربا والزنى والخمر والميسر.

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام: ١٧٢/١، برقم (٨٩).



لذا يجب على الدعوة إلى الله أن يركزوا على جانب العقيدة تركيزاً هادفاً، ويُقبلوا على دراستها وتفهمها أولاً، ثم يعلموها لغيرهم، ويدعوا إليها من انحرف عنها أو أخلّ بها، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالآية الكريمة تدل على أهمية معرفة العقيدة الإسلامية والدعوة إليها، وبيّنت أن أتباع الرسول ﷺ هم من اقتدى به في ذلك واتصف بالصفتين: العلم بالعقيدة، والدعوة إليها؛ فمن لم يتعلم أحكام العقيدة ويهتم بها ويُحسن الدعوة إليها فليس من أتباع النبي ﷺ على الحقيقة.

ولقد اعتنى دعاة الدولة الأيوبية بالعقيدة الإسلامية وتصحيحها في نفوسهم بداية، ثم الدعوة إليها وتصحيحها في نفوس الناس.

وفي هذا المبحث سألقي الضوء بإذن الله على اهتمام الملوك والعلماء الأيوبيين بعقيدة أهل السنّة، والدعوة إلى تدرّسها وتطبيقها ومحاربة من يقف ضدها.

* * *



المطلب الأول محاربة الباطنيين

ابتليت البلاد المصرية بحكم دولة باطنية هي الدولة العبيديّة مدة (٢٧٢) سنة^(١)، ويذكر صاحب «النجوم الزاهرة» أنّ بني عبيد يعود نسبهم إلى القداح الملحد المجوسي. قيل: إن والد عبيد هذا كان يهوديّاً من أهل سلمية، ودخل المغرب وتسمّى بعبيد الله وادّعى نسباً ليس بصحيح^(٢).

وتعاقب ملوك هذه الدولة الرافضة على حكم البلاد بالحديد والنار، ونشروا عقائدهم الباطلة بين الناس، وأضافوا إلى شعيرة الأذان جملة (حي على خير العمل)، إلى أن استطاع صلاح الدين الأيوبي إزالة آخر ملوكهم - العاضد - وجعله صورةً من غير أي نفوذ تمهيداً لإزالة ملكه. والعاضد هذا كان ذا سيرة مذمومة، فقد قال عنه ابن كثير: (وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كلّ من قدير عليه من أهل السنة)^(٣).

وبعد موت العاضد اعتقل صلاح الدين أقاربه، فقبض على أولاده وحبسهم في مكان واحد بالقصر، وعقّى آثارهم، وقمع مواليهم وسائر نسائهم، وفرّق بين رجالهم ونسائهم لينقرضوا؛ قال صاحب «النجوم الزاهرة»: (وكانت هذه الفعلة من أشرف أفعاله، فلنعم ما فعل؛ لأنهم كانوا زنادقةً دعوا إلى مذهب التناسخ واعتقاد حلول الجزء الإلهي في أشباحهم)^(٤).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٧٦.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٣٤٠/٥.

(٣) المصدر السابق: ٣٤١/٥.

(٤) البداية والنهاية: ٤٥١/١٦.

ويقيناً كان صلاح الدين عارفاً بخباياهم ونيحتهم، وما عانى منهم أهل السنة، وكيف أرادوا أن يُحوّلوا مصر إلى بيئةٍ غريبة عن عقيدة أهل السنة والجماعة.

واستولى صلاح الدين أيضاً على قصر العاضد، وكان عنده من الجواهر ما لا يملكه خلقٌ مثله، وأخرج جميع ما في القصر، فباع بعضه، ووهب بعضه، وأعتق من أعتق من عبده^(١)، وأمر بتغيير شعارهم، وألغى من الأذان جملة (حي على خير العمل)، وشرع بتمهيد أسباب الخطبة لبني العباس^(٢).

وقد بدأ علماء السنة يجترئون على التنديد بالعبديين من يوم بروز صلاح الدين الأيوبي في مصر، ولكنهم كانوا يتهيبون من إعلان شيء حاسم ضدهم؛ نظراً لاستحكام قوتهم السالفة، وطول عهدهم بالحكم، ولكن الجميع كانوا على فوهة بركان؛ ومن هؤلاء الذين صرّحوا بكراهيتهم للدولة العبيدية زمن نفوذها: الشيخ نجم الدين الخبوشاني، والذي عُرف بالجرأة، فكان يشتم العبيديين، ويعدّد مساوئهم، ويسلب عنهم الإيمان^(٣)، فوصل خبره إليهم، فأرسلوا إليه أربعة آلاف دينار رشوةً ثمناً لسكوته، فردّ الشيخ المبلغ بين يديه، وضرب الرسول على رأسه، وكان يقول بملء فيه: أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عبّيد اليهودي.. وجعل تسبيحه سبهم^(٤).

وبعد أن انقضت الدولة العبيدية وتمكّن صلاح الدين من زمام الأمور، وقف الخبوشاني بعصاه أمام المنبر، وطلب من الخطيب قطع الخطبة للعاضد وتحويلها للخليفة العباسي المستضيء^(٥).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٧٦.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٨٤/٢.

(٣) وفيات الأعيان: ١١١/٣؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٣٤٣/٥.

(٤) تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق: عمر تدمري، ص ٢٧٩، وفيات سنة (٥٨١ - ٥٩٠هـ).

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٠٤ / ٢١.

وقد حاول نفر من رؤوس العبيدية إعادة الدولة العبيدية، فاتفقوا على مكاتبة الفرنجة واستدعائهم؛ ليتقّوا بهم على صلاح الدين ومملكته السُّنيّة، فعلم صلاح الدين بذلك وقتلهم جميعاً، وكان منهم رئيس القضاة زمن العبيديين واسمه المفضّل^(١).

وممّن قتلهم في هذه الواقعة الشاعر عمارة اليميني الذي قال شعراً وهو يتأسّف على ذهاب الدولة العبيدية:

يا عاذلي في هوى أبناءِ فاطمةٍ لك الملامةُ إن قصّرتَ في عذلي
بالله زُرْ ساحةَ القصرينِ وابكِ معي عليهما لا على صفيينِ والجمالِ
وقل لأهلِهما والله ما التحمتُ فيكم قروحي ولا جرحي بمُندملِ^(٢)

أما الخطوة الثانية لصلاح الدين فهي السعي إلى إصلاح القضاء، وعزل القضاة العبيديين الذين كانوا يُجبرون الناس على عقائدهم الباطلة ويحكمون بها، فتمّ له ذلك في عام (٥٦٦هـ)^(٣)، واستبدل بهم قضاة أهل السُنّة على مذهب الشافعية، وعيّن الشيخ صدر الدين بن درباس الشافعي بمنصب رئيس القضاة^(٤).

ثم مضى صلاح الدين في هدم المعالم العبيدية الفكرية، فأمر بمصادرة تراثهم العلمي المُودع في المكتبات، وقرر إتلاف بعض هذا التراث وبيع بعضه^(٥).

ووصل ضرر العبيديين إلى مكة، فقد مضت مدة من الزمن كان الأذان

(١) البداية والنهاية: ١٦ / ٤٧٢.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني ، ص ٧٨؛ البداية والنهاية: ١٦ / ٤٧٩.

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٢٣٣/١.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٧٤؛ البداية والنهاية: ١٦ / ٤٤٨؛ حسن المحاضرة، ص ٧.

(٥) مكتبات المساجد، الدكتور محمد مكي الرفاعي، ص ٢٥٢.

في الحرم المكي يتردد بحَيٍّ على خير العمل^(١)، إلى أن دخل سيف الإسلام أخو صلاح الدين إلى مكة، وقضى على نفوذ العبيديين فيها.. ومثل هذا الصنيع كان يجري في المدينة المنورة أيام امتداد نفوذ الصليبيين إلى الحرمين، وكان يحكم المدينة آل مهنا، وهم من الروافض، ولكن صلاح الدين استطاع إقناع أمير المدينة - واسمه القاسم - بحذف عبارة (حي على خير العمل) من الأذان^(٢).

وبهذا يتضح لنا أن من أبرز الطوائف التي حرص صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على محاربتها: الباطنية، إذ تذكر كتب التاريخ أنه حاصر قلاع الباطنية وضيق عليهم، وذلك سنة (٥٧٢هـ)^(٣)، وما ذلك إلا لإدراكه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعلمه بعظم خطرهم على الأمة الإسلامية.

وتعود الحركة الباطنية إلى القرن الرابع الهجري، فقد ضمت بين صفوفها جماعات مختلفة يجمعها هدف مشترك هو إفساد العقيدة الإسلامية، وتدمير المؤسسة الحكومية التي تمثل هذه العقيدة، ولقد وضعت الباطنية للعبادات والعقائد الإسلامية قاموساً يناسب التأويلات التي ابتدعوها^(٤).

ولقد انتشر دعاة الباطنية في غرب العالم الإسلامي وشرقه، وأخذوا يدعون إلى إسقاط الحكومات السُّنِّيَّة وعلى رأسها الخلافة العباسية، واستطاعوا من خلال ذلك أن يفسدوا عقائد الأمة، ويثيروا الفتن والقلاقل، ومضوا يغتالون الشخصيات المعارضة لهم، فقتلوا مئات القادة من الوزراء والعلماء والسلاطين^(٥).

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ١٠٣.

(٢) التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الدكتور عبد الباسط بدر: ٢ / ١٨٣.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: ١ / ١٥٨.

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٦٣ - ٦٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٦٥.

وكما أعلن صلاح الدين الحرب على الدولة العبيدية لكونها دولة رافضية باطنية، أعلن أيضاً الحرب على فئة باطنية أخرى تُعرف بالإسماعيلية^(١)، وكانت حصونهم في سورية محصورةً ببيئة جبلية في مدينة مصيف^(٢)، ويُعرف أميرهم بأبي الحسن سنان بن سلمان^(٣).

وكان الإسماعيليون هؤلاء من أكثر الناس تشيّعاً لآل عليّ، ويعتقدون أن الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق هو المهدي المنتظر الذي سيعود إلى الأرض بعد اختفائه عن الأنظار؛ ليملاًها عدلاً كما ملأها غيره جوراً، واستطاع هؤلاء إنشاء إمارة إسماعيلية في المغرب، ثم استطاعوا أن يستولوا على مصر بقيادة جوهر، ونقلوا مركز الخلافة إلى القاهرة سنة (٣٦٢هـ)، ثم استولوا على الحجاز والشام، وبقوا في السلطة حتى سنة (٥٧٦هـ)^(٤).

ولقد كان من أمراء الإسماعيلية في عهد صلاح الدين: راشد الدين سنان الملقّب بشيخ الجبل، صاحب مدينة سلمية، فأراهم تخيل أشخاص من مات منهم على طاعة أئمتهم أنهم في جنات النعيم، وأشخاص من مات منهم على عصيان أئمتهم أنهم في النار، فثبت عندهم ذلك، واعتقدوه حقاً^(٥).

(١) الإسماعيلية: فرقة ثغالية تُثبت الإمامة لإسماعيل بن جعفر، ويقولون: إنه لم يمّت، وأظهر موته تقيّة، ويؤمنون بالأئمة المستورين الذين يسرون في البلاد سرّاً، وأشهر ألقابهم الباطنية، وخلطوا كلامهم بالفلسفة. انظر: الملل والنحل، الشهرستاني: ١ / ١٩٩.

(٢) مصيف: مدينة حصينة اتخذها الإسماعيلية مقراً لهم في الساحل الشامي قرب طرابلس. معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي: ٥ / ١٤٤.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٢٩٤/٤، البداية والنهاية: ١٦ / ٥١٦.

(٤) الحروب الصليبية، ص ١٢٨.

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٣ / ٢٤٧.



وقد تحدّث الذهبي عن أبي الحسن سنان راشد الدين بن سلمان ووصفه بأنّه كبير الإسماعيلية، وصاحب الدعوة النّزارية، وكان له نظر في علوم الفلسفة، وفيه دهاءٌ ومكر وغمور، ودعوته سُمّيت بالنّزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر الخليفة العبيدي، وأصبح له أتباعٌ غلّوا فيه، واعتقدوا فيه الإلهية، واستغواهم بسحرٍ وسيمياء^(١)، وكان له مطالعات في الكتب، وأحلّ وطء الأمهات والأخوات والبنات، وأسقط عن أتباعه صوم رمضان، ودام له الأمرُ نيفاً وثلاثين سنة، وهلك سنة (٥٨٩ هـ)^(٢).

وحارب السلطان هؤلاء الإسماعيلية وحاصر قلعة مصياف، فأرسل سنان زعيمهم يطلب الأمان^(٣).

ولما حاول هؤلاء الإسماعيلية الوثوب على صلاح الدين، وأرادوا قتله أكثر من مرّة، قصد صلاح الدين بلادهم في المحرم سنة (٥٧٢ هـ) ليقاتلهم، فنهب بلادهم وخزّبه وأحرقه، وحاصر قلعة مصياف، فنصب عليها المجانيق، وضيق على من بها^(٤).

وتكررت الجولات بين جيش صلاح الدين وفلول الإسماعيلية، ولم تنته إلى نتيجة حاسمة نظراً لانشغال صلاح الدين بحروب أخرى، وكون مناطقهم في تحصينات جغرافية حصينة.

وفي سنة (٦٠٤ هـ) توفي داود بن العاضد في محبسه، وكانت الإسماعيلية

(١) السيمياء: السحر، وحاصله إحداث خيالات لا وجود لها في الحس. انظر: المعجم الوسيط، ص ٤٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ١٨٢.

(٣) الكامل في التاريخ: ١١ / ٤٣٦؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٩٢؛ تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر: ٢ / ١٣٩.

(٤) الكامل في التاريخ: ١١ / ٤٣٦.

ترزعم أن العاضد عهد إليهم، وأن منهم الإمام من بعده، فاستأذن أصحابه من الملك الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه فأذن لهم، فخرجت النساء حاسرات والرجال في ثياب الصوف والشعر، وأخذوا في ندبه والنياحة عليه، واجتمع معهم مَنْ كان في الاستتار من دعائهم، فلَمَّا تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم من الأجناد، وقبضوا على المعروفين منهم فملاً بهم السجون، واستصفى أموال ذوي اليسار منهم، ففرَّ مَنْ بقي، وزال من حيثئذ أمر الإسماعيلية من ديار مصر، ولم يجسر أحدٌ بعدها أن يتظاهر بمذهبهم^(١).

* * *

المطلب الثاني دعاة باطل

شهد العصر الأيوبي قيام رجال عُرفوا بالغلُوّ والعقائد الفاسدة، وكان ملوك الأيوبيين يواجهون هؤلاء بالحزم والحرب الشعواء، ومن ذلك:

١ - ما حدث سنة (٥٧٠هـ)، فقد ظهر رجلٌ من قرى دمشق وأدعى النبوة، وقام بأعمال تنتمي إلى السحر، فافتتن به طوائف من العوام، فتطلبه السلطان، فهرب^(١).

٢ - ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة (٥٩٥هـ)، حيث ظهر داعية فاسد في دمشق زعم أنه عيسى ابن مريم، وأضلّ طائفة من أتباعه، وأفتى العلماء بقتله^(٢)، فأمر صلاح الدين أميره على دمشق - صارم الدين برغش - بالقبض عليه وصلبه أمام الناس.

٣ - وكان وراء فتح صلاح الدين لليمن سبب يتصل بالدعوات الباطلة، ففي سنة (٥٦٩هـ) بلغ صلاح الدين أن في اليمن رجلاً زنديقاً من دعاة الباطنية يقال له: عبد النبي بن مهدي، دعا لنفسه في الخطبة بدعوات غالية، وزعم أنه سيملك الأرض كلها، وكان سيئ العقيدة والسيرة، روي أنه بنى على قبر أبيه قبّةً عظيمةً وزخرفها، وعمل أستار الحرير عليها وقناديل الذهب، وأمر الناس بالحج إليها، وأن يحمل كل أحد إليها مالاً، وكان لا يسمع عن أحدٍ يعارض ما دعا إليه إلا قتله، كما منعهم من حج بيت الله، فتجمّع له من ذلك أموالٌ

(١) البداية والنهاية: ١٦ / ٥٠٧؛ كنز الدرر وجامع الغرر، دواداري، تحقيق: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: ٧ / ٥٦.

(٢) العبر في خبر من عبر: ٣ / ١١١؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٥، وفيات سنة (٥٩١ - ٥٩٥هـ).

لا تحصى. فما كان من صلاح الدين إلا أن وجّه إليه أخاه شمس الدولة توران شاه فقتله، وامتلك زبيد وعدن وصنعاء^(١).

٤ - وذكر صاحب «الروضتين» أنّ داعيةً خبيثاً ظهر في الإسكندرية يسمّى: قديد القفاص، وفشت دعوته ووصلت إلى الشام وعموم الديار المصرية، وكان أرباب المعاش يحملون إليه جزءاً من كسبهم، وكانت النساء يبعثن إليه الأموال، ووجد في منزله بالإسكندرية عند القبض عليه كُتب فيها صريح الكفر، وقد تمّ القضاء عليه^(٢).

٥ - كما عاش في زمن الأيوبيين داعية الضلالة الكبير إلى نحلة وحدة الوجود، نزيل دمشق: محيي الدين بن العربي، الذي توفي سنة (٦٣٨ هـ)^(٣)، والعجب كل العجب من الملوك الأيوبيين الذين عاصروه: كيف يدعونهم يدعو إلى ضلاله وإلحاده؟ مع أنّ علماء السُّنة أفتوا بضلاله، ويقيناً إنّ هذا يُمثّل ضعف هؤلاء الملوك غفر الله لهم.

٦ - وإن كان الأيوبيون قد أخطؤوا حين لم يتصرفوا ضدّ ابن العربي التصرف السليم ولم يقتلوه، إلا أنهم أحسنوا حين قضوا على القاضي عبد العزيز بن عبد الواحد، فقد ذكر صاحب «النجوم الزاهرة»: أنه في سنة (٦٤٢ هـ) قُتل القاضي عبد العزيز بن عبد الواحد لأنه كان دهرياً مُسْتَهْتَرًا بأمر الشريعة، يخرج إلى الجمعة سكران، وكانت داره حانة، فقبض عليه والي وباع أملاكه^(٤).

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٥٨٢، ٢١ / ٥٣؛ البداية والنهاية: ١٦ / ٤٧٢؛ وفيات الأعيان: ١ / ٣٠٦؛

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٧١.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٩٠.

(٣) العبر في خبر من عبر: ٣ / ٢٣٣.

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٣٥٠.



المطلب الثالث علوم المنطق والأوائل

ذهب بعض علماء العصر مذهباً جافياً بعيداً عن المناهل الأصيلة التي نهل منها السلف الصالح، فَعَبَّوا من علوم العقل والفلسفة والمنطق متأثرين بعلوم اليونان والمعتزلة وأهل الكلام وغيرهم.

وقد وضع الفلاسفة في هذا العصر - أتباع ابن سينا مؤسس هذا الاتجاه - الفيلسوف في مستوى النبي، وجعلوه أعلى من العلماء الدينيين والمجتهدين الفقهاء، وفتحوا الباب إلى استنتاج وجوب تَوَلِّي الفلاسفة مركز الإرشاد والتوجيه في المجتمعات طالما أنّ النبوة انتهت وختمت بنبي الإسلام ﷺ^(١).

وقد سُئِلَ الإمام عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري عمّن يشتغل بالمنطق والفلسفة فأجاب: «الفلسفة أشُّ السّفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثال الزندقة والزيغ، ومَنْ تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيَّدة بالبراهين، ومَنْ تلبّس بها قارن الخُذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأظلم قلبه عن نُبوّة محمد ﷺ، وليس في الأحكام الشرعية افتقار إلى المنطق أصلاً، وهو فقاّع قد أغنى الله عنها كلّ صحيح الذهن، فالواجب على السلطان - أعزّه الله - أن يدفع عن المسلمين شرّ هؤلاء المشائيم، ويُخرجهم من المدارس ويُبعدهم»^(٢).

وما هذه الحملة الشديدة التي شنّها الإمام الشهرزوري إلا دليل على أنّ

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٦٨.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ١٨٧، وفيات سنة (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ).

هذه الفئة من الناس قد صار لهم مراكز يتقوّون بها ويبثّون فيها أفكارهم، وفي طليعة هذه المراكز: المدارس العلمية، ومن أبرز الذين كانوا يُدرّسون الجيل على طريقة المُتكلّمين وبرّعوا في المنطق والفلسفة: عليّ بن أبي عليّ الأمدي؛ يقول الذهبي: «وكان أولاد العادل كلّهم يكرهونه؛ لما اشتهر عنه من الاشتغال بالمنطق وعلوم الأوائل»^(١)، وكان يدخل على العادل والمجلس غاضّاً بأهله، فلا يتحرّك له، ويقول: «ما يقبله قلبي»^(٢).

أما الملك الأشرف فقد بلغه عِظَم خطر هذه الفئة وتمكّنها من ناصية كثيرٍ من المدارس فاضطر إلى أن يُنادي: (مَنْ ذكر غير التفسير والفقّه أو تعرّض لكلام الفلاسفة - أمثال الأمديّ - نفيته)، وقد نفّذ الأشرف تهديده، فطرّد الأمديّ من التدريس في مدرسة العزيزية، وأُحمد ذكره إلى أن مات^(٣).

ويذكر ابن كثير أنّه لَمَّا ملك الأشرف موسى ابن الملك العادل دمشق سنة (٦٢٦هـ) نادى مناديه فيها ألا يشتغل أحدٌ من الفقهاء بشيءٍ من العلوم سوى التفسير والحديث والفقّه، ومَنْ اشتغل بعلوم الأوائل نُفي من البلد^(٤).

وكان الشيخ المحدث أبو عمرو بن الصلاح شديد التنديد بعقائد الفلسفة، ويبيّن خطرَها في إفساد العقائد السليمة؛ قال في فتاويه: (الفلسفة رأسُ السفه والانحلال، ومادةُ الحيرة والضلال، ومثاّرُ الزيغ والزندقة، وأمّا المنطقُ فهو مدخلُ الفلسفة، ومدخلُ الشرِّ شرٌّ، واستعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المُنكرات المستبشعة)^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٣٦٥؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٢٨٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٣٦٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٧/٢٣٣؛ سير أعلام النبلاء: ٢٢/٣٦٥؛ الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر ابن محمد النعيمي، تحقيق: جعفر الحسني: ١ / ٣٩٢.

(٤) البداية والنهاية: ١٣ / ١٥٨.

(٥) فتاوى ابن الصلاح، تحقيق: عبد المعطي قلعي: ١ / ٢٠٩.



وذكر الشيخ ابن تيمية في فتاواه أنّ الشيخ ابن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من الأمدي هذا، وقال مبيناً خطر الأمدي على الناس: «أخذها من الأمدي أفضل من أخذ عكا»^(١).

أما السهروردي الساحر فقد أشاع نخلته التي تنصّ على التعطيل والإلحاد، وكان يعتمد مذهب الحكماء المتقدمين، وذاع شأنه في حلب، وناظر الفقهاء، وحاول أن يغلبهم، ولقد خاف العلماء أن يُفسد اعتقاد الملك الظاهر بن صلاح الدين، فبعثوا إلى السلطان صلاح الدين محاضر بكفره، وخوفوه أن يُفسد الساحرُ اعتقادَ ولده، فكتب السلطان إلى ولده بخطّ الفاضل يأمره بقتله؛ لأنه متهمٌ بالانحلال والتعطيل، كما أن كُتبه ليست من علوم الإسلام^(٢)، فنقذ الظاهر أمر والده وقتله صبراً، وأحرق جثته^(٣). وما تصرّف صلاح الدين هذا مع ذلك الساحر إلا مظهرٌ لسلامة عقيدته، وبغضه الشديد لكتب الفلاسفة والمنطق^(٤).

وقد عُرف عن الملك الكامل هذا الاتجاه نفسه، فكان يُعادي من يشتغل بعلوم الأوائل والفلسفة^(٥).

ومن العلماء الذين يُذكرون بالشدة على من يشتغل بكتب المنطق والجدل والفلسفة: محمد بن عليّ الزكي أبو الفضل القرشي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة (٥٩٨هـ)^(٦).

* * *

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن قاسم: ٧ / ٩.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٠؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٣؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٠٨؛ تاريخ الإسلام، ص ٧٤، وفيات سنة (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)؛ العبر في خبر من عبر: ٣ / ٩٦؛ الدارس في تاريخ المدارس: ٣٩٢/١؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٢٩٠/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٢١٤.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٣.

(٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٢٨٥.

(٦) تاريخ الإسلام، ص ٣٦٩، وفيات سنة (٥٩١ - ٦٠٠ هـ).



المطلب الرابع المنجمون

تعلق كثير من الناس في هذا العصر بما يتنبأ به المنجمون، وتابعوا أخبارهم وتطلعاتهم بشغفٍ واهتمام، ولقد كان لهم بضاعة رائجَةٌ وتأثيرٌ كبيرٌ في العقول.

ومن ذلك أن المنجمين أجمعوا على أن شهر جمادى الآخرة سنة (٥٨٢هـ) سيكون فيه نهاية للعالم، وأنه سوف يُصيبه الخراب والدمار، وسوف تقترن الكواكب السيارة في برج الميزان، فتؤثر تأثيراً مباشراً يُؤدّي إلى اضمحلال العالم، وسوف تهبّ سَمومٌ مُحرقةٌ تحمل رملاً أحمر، بل إنهم عَيّنوا يوماً لِمَا أَسْموه رِيح عاد، وشرعوا في حفر مغاراتٍ في التخوم، وتعميق بيوتٍ في الأسراب وتوثيقها، وسدّ منافذها على الريح، ونقلوا إليها الماء والأزواد وانتقلوا إليها^(١)، فتأثر الناس من ذلك كثيراً، وخافوا منه خوفاً عظيماً.

ولكنّ صلاح الدين تبرّأ من أباطيلهم، وقابل تنبؤاتهم بالرفض، ولم تؤثّر تنبؤاتهم فيه، وفعلاً مرّت السنة كلّها هادئةً راسخةً، ولم يحصل شيءٌ من كلامهم^(٢). يقول أبو شامة: (وقد شارفنا الميعاد ونحن جلوس عند صلاح الدين في فضاء واسع، وما تحرك نسيم، وما رأينا مثلها في ركودها وركونها وهدوئها)^(٣).

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ١٠١/٦؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٦٣.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ١٠، وفيات سنة (٥٨١ - ٥٩٠ هـ).

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٦٤.

وقد يواجه هؤلاء المنجمون صلاح الدين في تحركاته الحربية، ويحذرونه من عاقبتها، فعندما نزل المسلمون مدينة صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: (أنا أجيء إليكم) فقال له المنجمون: (إنّ رؤيتنا تنصّر على أن تذهب عينٌ واحدة منك)، فأجابهم مُصراً على موقفه الشجاع: (قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد)^(١).

وقد عرف المحيطون بصلاح الدين أنه لم يكن يُصغي إلى المنجمين^(٢).

وفي هذه المناسبة قال الشاعر أبو الغنائم محمد بن المعلم، وهو يخاطب المنجم المعروف بأبي الفضل:

قل لأبي الفضل قولٌ معترفٍ مضى جمادى وجاءنا رجبٌ
وما جرت زعزع كما حكموا ولا بدا كوكب له ذنبٌ^(٣)

وعندما وصل السلطان صلاح الدين إلى دمشق من بعلبك فأقام فيها، كان العام عامَ جدب، فقيل للسلطان: (هذا العام ليس عام جهاد، فإن استمنحوك السلام فامنحهم، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها)، فقال السلطان: (إنّ الله أمر بالجهاد وتكفل بالرزق، فأمره واجب الامثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلّفنا به لنفوز بما كفله لنا، ومن أغفل أمره أغفله)^(٤).

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/٣٢٩؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٤/٢٧٥؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢٨.

(٢) الفتح القسبي في الفتح القدسي، ص ٦٥٩.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦/١٠١.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٩.

المطلب الخامس الوقوف أمام المنكرات العقديّة

تمرّ بنا في عصر الدولة الأيوبية نماذج كثيرة تُمثّل الوقوف أمام المنكرات ومحاربتها بشتّى الوسائل لأنها غريبة عن مذهب أهل السُّنّة والجماعة، كما أن سرّياتها في أوساط المجتمع يجلب لهذا المجتمع انقطاعه عن منهج الوحي الذي جاء بالعقيدة الصحيحة البعيدة عن كلّ ما يشوبها.

ومن ذلك: ما حدث مع الملك الأمجد بعد وفاة الإمام اليونيني، فقد أخذته الحماسة، وهَمَّ ببناء بِنْيَانٍ على قبره؛ ليشاهد الناس منه آية، ولكنّ فئة من علماء عصره راجعوه في هذه الغفلة، ووصفوها بأنّها ليست من السُّنّة^(١).

ولمّا توفي صلاح الدين الأيوبي هَمَّ الكثيرون من المشيِّعين بحمّله على أعناقهم، تعبيراً عن حبّهم له وإكبارهم، فقال ابنه الأفضل: كَفَّته أدعيّتك الصالحة التي هي في المعاد جنته^(٢).

وقد يَعرِض أحد المُبتدعة مشهداً يجذب العامة ويثير اهتمامهم، وقد يجعلهم ينساقون إلى ما معه من الأباطيل والشبهات، فقد نقل صاحب «بدائع الزهور» أنّ صلاح الدين قد نزل الميدان، فجاءه رجلٌ أعجميٌّ وطلب من صلاح الدين أن يُريَه بعض العجائب، وهي أن يصعد في الهواء، ويُنزل جسمه قطعة قطعة، فأثار إعجاب العامّة وأذهلهم، فما كان

(١) البداية والنهاية: ١٧ / ١٠٤.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٦٨.

من أحد أمراء صلاح الدين المعروف بسنقر إلا أن حنق عليه، وجرد سيفه، وضرب عنق هذا المشعبد وقال: (مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوساً للفرنج)، كما هم سنقر أن يضرب عنق رفيقه إلا أنه زعم أنه لا يعرف شيئاً عن صاحبه، فطلب منه الجند أن يخرج^(١).

ومن البدع التي كان لها سوق رائجة ما سمي بصلاة الرغائب، وصلاة النصف من شعبان، فوقف الإمام العز بن عبد السلام - وهو أحد العلماء الذين عاصروا الدولة الأيوبية - من ذلك موقفاً شديداً، فأفتى بمنع ذلك وقال: (إن صلاة الرغائب موضوعة على النبي ﷺ وكذب عليه)^(٢).

ومن المواقف المشهورة للعز بن عبد السلام في حرب مظاهر البدع: أنه لما ولي خطابة دمشق خطب خطبة بليغة خالية من البدع، فقد كانت البدع تكتنف البلاد من كل جانب، وأزال الأعلام المذهبة، وأقام عوضها أعلاماً سوداً بيض، ولم يؤذن قدامه سوى مؤذن واحد^(٣).

وقد صاغ العز قاعدة ذهبية في رد البدع فقال: (وليس رد البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن، فإن الله أمر العلماء بذلك، وأمرهم ببيان ما علموه)^(٤).

وقال أيضاً: (القيام للمصحف بدعة لم تُعهد في الصدر الأول)، مع أن الإمام النووي كان يستحب ذلك ويرى أن في هذا القيام شيئاً من التعظيم^(٥). وكان العز يُعرف بقامع البدعة^(٦).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٤٥.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب السبكي: ٨ / ٢٥١.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٣٧، وفيات سنة (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ).

(٤) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢٧٣.

(٥) العز بن عبد السلام، ص ١١٥.

(٦) ذيل الروضتين، للحافظ أبي شامة المقدسي، ص ١٧٠.

ومن العلماء الذين وقفوا أمام مدّ الابتداع الذي عشش في أوكار كثيرٍ من البيئات في هذا العصر: الإمام الطرّاز، فقد أوصى ألا يُقرأ على قبره ولا يُبنى عليه، وكان هذا الإمام ممن وضع الله له وُدّاً في قلوب العباد، كما كان مُعظماً عند جميع الناس^(١).

ومن الأئمة الفضلاء الذين عُرفوا برفض البدعة وردّها: الإمام السَّلَفِيّ، فقد ذكر الذهبي أنّه كان أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر حتى إنه أزال من جواره منكرات كثيرة، وقد رآه الذهبي يوماً وقد جاءه جماعةٌ من المُقرئين بالألحان، فأرادوا أن يقرؤوا، فمنعهم وقال: (هذه القراءة بدعةٌ، بل اقرؤوا ترتيلاً)، فقرؤوا كما أمرهم^(٢).

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق: ٢١ / ٢٥.



المطلب السادس الحرص على العقيدة الصحيحة

كان من بين ملوك العصر الأيوبي رجالاً عُرفوا بحسن الاعتقاد والحرص على طلب العقيدة الصحيحة، واجتهدوا في دراستها دراسة علمية تتسم بالحرص على كسبها، ومن ثمّ تطبيقها وتعليمها.

وأول الملوك الذين يُشار إليهم بالبنان في حُسن الاعتقاد: صلاح الدين، فقد وصفه المؤرّخون بأنه: (كان حسن العقيدة، كثير الذكر لها، أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وكان بعيداً عن كَدَر التشبيه، وبعيداً عن التعطيل)^(١).

كما كان أيضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثير التعظيم لشعائر الدين، يقول ببعث الأجسام ونشورها، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار، مُصدّقاً بجميع ما ورد به الشرع، مُنشرحاً بذلك صدره، مبغضاً للمُعَطَّلة ولكلِّ مَنْ يُعاند الشريعة^(٢).

وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدّة حرصه عليها يُعلّمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصّغر^(٣).

يقول ابن شدّاد: (ورأيتُه وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم)^(٤).

كما ذكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أنّ السلطان كان يُلّم بكل ما يدور في مجلسه من

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٧؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٢.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٠.

(٣) وفيات الأعيان: ٥ / ١٩٥ - ١٩٦؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٤٢؛ شفاء القلوب في مناقب

بني أيوب، ص ٦٢.

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٧.

أحاديث الفقه، فيشارك فيها برأيه ويقول قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل له من ذلك سلامة عقيدته من كدر التشبيه^(١).

كما أن أسامة بن منقذ - أحد معاصريه - كان يقول عنه: (أحيا سُنَّة الخلفاء الراشدين)^(٢).

أما الملك المعظم بن العادل فذكر الذهبي أنه كان يقول: (اعتقادي في الأصول ما سطره الطحاوي)، وأوصى ألا يُبنى على قبره، ولَمَّا مَرَضَ مَرَضَ الموت كان يقول: (لي في قضية دمياط ما أرجو به الرحمة)^(٣)، كما أمر أن يُكفَّن في البياض، وأن يُلحد له، ويُدفن في الصحراء^(٤)، وأمر أن يُرتَّب له مسند الإمام أحمد بن حنبل^(٥). وقد وُصف أبوه الملك العادل بأنه كان حسن العقيدة، وكان يُحافظ على أداء الصلوات في أوقاتها، ويحرص على نشر السُنَّة^(٦).

ومن الملوك الذين كان لهم نفس الاتجاه العقدي الحسن: الملك الصالح، فقد وُصف بأنه كان حسن العقيدة، كثير الميل إلى العلماء، وكان لا يُسمع منه شتيمة^(٧).

وكذلك الحال بالنسبة للملك الأشرف، فقد قيل: إنه كان حسن العقيدة، جميل الطويَّة، يميل إلى أهل الدين والصلاح والعلم^(٨).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٥.

(٢) كتاب الاعتبار، ص ١٨٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٠.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٥٨٠.

(٥) البداية والنهاية: ١٧ / ١٦٧.

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٩٤.

(٧) كنز الدرر وجامع الغرر: ٧ / ٣٧١.

(٨) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٩٢.



كما وُصف الملك الكامل بأنه كان مُعظماً للسُنَّة، راغباً في نشرها والتمسك بها^(١).

والأمير مظفر الدين كوكبوري أيضاً منهم، فقد كان حسن العقيدة، سالم البطانة، شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة، لا يعطي أرباب العلوم شيئاً سوى الفقهاء والمحدثين، ومن عداهما لا يعطيهم شيئاً إلا تكلفاً^(٢).

وكان يعيش في هذا العصر أئمة من أتباع منهج الهدى والصلاح، حرصوا أشد الحرص على التمسك بالعقيدة النقية الصافية، والدعوة إليها وتعليمها، ومن هؤلاء الحافظ العماد المقدسي، قال عنه الذهبي: (كان داعية إلى السُنَّة، يُمرّ آيات الصفات من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل)^(٣).

ومنهم أيضاً الشيخ ابن قدامة الذي كان حسن الاعتقاد، على قانون السلف^(٤).

ومنهم أيضاً الشيخ موفّق الدين المقدسي، فقد وصفه الحافظ ابن كثير بأنه كان مُتبعاً لطريقة السلف الصالح^(٥).

ومن هؤلاء: الشيخ إبراهيم بن عبد الواحد، والشيخ الطرّاز فقد وصفه الذهبي بأنه: (كان من أشد الناس بُغضاً لأهل الأهواء والبدع)^(٦).

أما خطيب دمشق الدّولعي فقد عُرف عنه أنه كان شديداً على الرافضة^(٧).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٧ - ١٢٩.

(٢) وفيات الأعيان: ٤ / ١١٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٥١، ١٦٥.

(٤) تاريخ الإسلام، ص ١٨٢، وفيات سنة (٦١٠ - ٦٢٠ هـ).

(٥) البداية والنهاية: ١٧ / ١١٦.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٦٠.

(٧) المصدر السابق: ٢٣ / ٢٥.

وعلى نهج هؤلاء الأفاضل كان ابن القابلة الحنبلي، فقد كان شديداً على أهل البدع، أثاراً بالمعروف^(١).

كما سار على نهجهم أيضاً الضياء المقدسي الذي وصفه الذهبي بأنه: (كان أثاراً بالمعروف، مجتهداً في نشر السنّة)^(٢).

ومن المبرزين منهم: محمود بن همام الدمشقي الذي وُصف بأنه كان لأهل السنّة مناصراً^(٣).

وممن وُصف أيضاً أنّه كان أثاراً بالمعروف داعية إلى السنّة: الحافظ عبد الغني، والذي ابتلي بفتنة الأشاعرة في سنة (٥٩٥هـ)، فقد قاموا عليه وأفتوا بقتله، فأخرج من دمشق طريداً^(٤)، وما داري^(٥).

وعندما رُفع أمر الحافظ عبد الغني المقدسي للملك الكامل - وقد اتهمه بعض أهل العلم باتهامات عقديّة باطلة - أمره أن يكتب اعتقاده الذي يعتقده، فكتب الحافظ يقول: (أقول كذا وكذا لقول الله تعالى: كذا، وأقول كذا وكذا لقول النبي ﷺ: كذا) حتى فرغ من كلّ المسائل التي يُخالفه فيها بعض أعدائه، فلما اطّلع الملك الكامل على ما كتبه الحافظ عبد الغني قال: (أيش أقول في هذا، يقول بقول الله تعالى وقول رسوله ﷺ) وخلّى سبيله^(٦).

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٤ / ٢٤٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ١٢٦.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٨٥، وفيات سنة (٦٣١-٦٤٠ هـ).

(٤) العبر في خبر من عبر: ٣ / ١١٠؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٣١٩/٤؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٤٣.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٥٥، ٤٦٣، ومعنى ما داري: أي إنه لم يُدار، ولم يتهاون في الثبات على قوله.

(٦) تاريخ الإسلام، ص ٤٥٦، وفيات سنة (٦٠٠ - ٦١٠ هـ).

وقد ذُكر أنّ الموفق ابن قدامة لما بلغه عمّا يُشاع عن الحنابلة في موضوع التشبيه قال: (التشبيه مستحيل؛ لأنه من شرط التشبيه أن نرى الشيء ثم نُشَبِّهه، من الذي رأى الله ثم شَبَّهه لنا)^(١).

وقد ذكر الذهبي عن الحافظ اليونيني أنه لما سمع ما يُقال عن الحنابلة قال: (عزمت على سؤال الشيخ الموفق، وبقيت أشهراً أريد أن أسأله، فقال لي: التشبيه مستحيل)^(٢).

* * *

(١) تاريخ الإسلام، ص ٤٩٢، وفيات سنة (٦١٠ - ٦٢٠ هـ).

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٦٥.

المطلب السابع

مخالفات بعض ملوك الدولة الأيوبية

يلحظ المتأمل في النصوص التاريخية التي تتحدث عن ملوك العهد الأيوبي وأمرائه: وقوع جانب من المخالفات العقديّة التي تُخالف منهج السلف في الاعتقاد والتطبيق، وقد يكون سبب هذا عُمق هذه المخالفات في نفوس بعض الأمراء والعلماء، والذهاب إلى جوازها والسكوت عنها، بل الدعوة إلى إقامتها، وضعف من يُعارضها.

ومن ذلك: ما روي أن صلاح الدين هو أول من اتخذ قيام المؤذنين أواخر الليل، وطلوعهم إلى المآذن للتسبيح حتى يطلع الفجر^(١).

وإذا ثبت ذلك، فإن الكمال لله، ولا يجوز أن نتقرب إلى الله بما لم يشرعه، وكل عمل لم يكن عليه الهدي النبوي فهو مردود على أصحابه، ولا ندرى ما الذي جعل العلماء في عصره يسكتون على أمثال هذه الزيادات في العبادات، وهذا ما لم يعرفه السلف.

وقد ذكر ابن واصل في «مُفْرَج الكروب» أنّ الملك المظفر كوكبوري قد أحيا بدعة المولد النبوي^(٢)، وكان في يوم المولد يُخرج المواشي، ويُرَقِّها بالطبول والمغاني، ويُشعل الشموع^(٣).

وقد روي أنه أول من احتفل بالمولد النبوي، وجمع له أبو الخطاب ابن دحية أخبار المولد، فأعطاه ألف دينار، وكان ينفق في كل سنة على الاحتفال بالمولد النبوي ثلاثمئة ألف دينار.

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٤٧.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥ / ٥١.

(٣) المصدر السابق: ٥ / ٥٥.

قال ابن خلكان - وقد كان والده في ديوانه -: (وأما احتفاله بالمولد، فإنّ الوصف يقصر عن الإحاطة به، كان الناس يقصدونه من الموصل وبغداد وسنجار والجزيرة وغيرها خلائق من الفقهاء والصّوفية والوعاظ والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل ربيع الأوّل، ثمّ تنصب قباب خشب نحو العشرين، منها واحدة له والباقي لأعيان دولته، وكلّ قبة أربع أو خمس طبقات، ثمّ تزيّن في أول صفر، ويقعد فيها جوق المغاني والملاهي وأرباب الحَيَال، ويبطل معاش الناس للفرجة. وكان ينزل كلّ يوم في العصر، ويقف على قبة قبة، يسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم، ويبيت في الخانقاه يعمل السماع، ويركب عقيب الصبح يتصيّد، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر، هكذا يفعل كل يوم إلى ليلة المولد.

وكان يعمله سنة في ثامن الشهر وسنة في ثاني عشر منه للاختلاف، فيخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً زائداً عن الوصف ترافقها الطبول والمغاني إلى الميدان، ثم تنحر وتطبخ الألوان المختلفة، ثمّ ينزل وبين يديه الشموع الكبيرة، وفي جملتها شمعتان أو أربع من الشموع الموكبية التي تحمل كلّ واحدة على بغل يسندها رجل، حتى إذا أتى الخانقاه نزل.

وإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع على القلعة على أيدي الصوفية في البقج، فينزل شيء كثير، ويجتمع الرؤساء والأعيان وغيرهم، ويتكلم الوعاظ، وقد نصب له برج خشب له شبايك إلى الناس وإلى الميدان - وهو ميدان عظيم يعرض الجند فيه يومئذ - ينظر إليهم تارة وإلى الوعاظ تارة، فإذا فرغ العرض مدّ السّماط في الميدان للصعاليك وفيه من الطعام شيء لا يحدّ ولا يوصف، ويمدّ سماطاً ثانياً في الخانقاه للناس المجتمعين

عند الكرسي، ولا يزالون في الأكل ولبس الخلع وغير ذلك إلى العصر، ثم يبيت تلك الليلة هناك، فيعمل السّماعات إلى بكرة^(١).

أما الملك الظاهر فقد كان مُولعاً بالنجوم، فأخبر أنه سيموت ملكاً في هذه السنة بالسّم، فوجَمَ لذلك^(٢).

ولعلنا نذكر الحرب الشعواء التي شنّها أهل التأويل على الحافظ عبد الغني الجماعيلي المقدسي إلى درجة أنهم أباحوا دمه، وقالوا فيه قولاً شديداً حتى حملوه على الخروج من دمشق إلى مصر^(٣)، واتهمه فقهاء مصر بالتجسيم والتشبيه، وقالوا عنه: (يُفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم)، فكتب الوزير بنفيه إلى المغرب، فمات الحافظ قبل وصول الكتاب. ولكن الذهبي استبعد موضوع تكفيره وإباحة دمه، واتهم مَنْ يذكر ذلك عنه بقلة الورع فيما يُورَخ^(٤).

وقد يتصرّف الملك بتصرّفٍ قد يراه هو ومَنْ حوله من مستشاريه تصرّفاً سليماً، مع أنّه في ميزان العقيدة الصحيحة باطل، ومن ذلك: ما ذكروه عن الملك الكامل أنّه عمّر قبةً على ضريح الشافعي^(٥).

أما الملك الأشرف فقد حدثت بينه وبين العز بن عبد السلام واقعةٌ انتصر فيها العز، وأظهر الله الحقّ، وخذل الباطل.

وتتلخص هذه الواقعة في أن جماعة من المبتدعة أوغروا صدر الملك

(١) وفيات الأعيان: ٤ / ١١٧.

(٢) المنهل الصافي، يوسف بن تغري بردي، تحقيق: الدكتور محمد أمين: ٧ / ٣٦٤.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٤٤٣، وفيات سنة (٥٩١-٦٠٠ هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٦٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٦٣.

(٥) تاريخ الإسلام، ص ٢٥٤، وفيات سنة (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)؛ السيف المهدّد في سيرة الملك المؤيّد،

الأشرف على الشيخ عز الدين بن عبد السلام، واستطاعوا أن يُقنعوه بأن العز مبتدع يتكلم في مسائل عقدية كلامية، ويُخالف أهل السُنَّة فيها! فما كان من الملك الأشرف إلا أن أرسل إلى العز يسأله عن رأيه في مسائل الكلام، فقدم الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للملك كتاباً كتب فيه مذهبه واعتقاده في هذه المسائل، والذي هو بلا شك الاعتقاد الموافق لمذهب أهل السُنَّة، فلم يقتنع الملك الأشرف بكتاب العزِّ، وأمره بلزوم بيته ومنعه من الفتيا والاجتماع بأحد. عندها قام العلماء والقضاة المعاصرون للعز بإعداد منشور بيّنوا فيه صحة ما ذهب إليه العزِّ، وموافقته لمذهب أهل السُنَّة، وأنَّ ما عداه بدعة وضلالة، وقدّموه للملك الأشرف، فاقتنع الملك، وعاد إلى صوابه، وكشف الله عن بصيرته، وأدرك الفتنة التي حرّكها المبتدعة، وأرسل إلى الشيخ واسترضاه وطلب محالّته، فاجتمع الشيخ عز الدين بالأشرف وعنّفه قائلاً له: (تساوي بين أهل الحقِّ وأهل الباطل؟! وتمنع أهل الحقِّ من الأمر بالمعروف والتّهي عن المنكر؟! وكان الطريق أن تُمكن أهل السُنَّة أن يُلحّنوا بحُججهم، وأن يُظهِروا دين الله، وأن تُمكن الموحّدين من إرشاد المسلمين، وأن يُبيّنوا طريق المؤمنين)^(١).

وفي المقابل وقعت فتنةٌ بين بعض علماء الشافعية والحنابلة بسبب الاختلاف في العقائد، وكتب عز الدين بن عبد السلام إلى الملك الأشرف يقع فيهم، فكتب له الأشرف: (يا عز الدين الفتنة ساكنة، لعن الله مثيرها)^(٢).

ومما تقدّم يتبيّن لنا كثيرٌ من الجوانب المشرقة في جانب العقيدة في عهد الدولة الأيوبية، فقد عزّت عقيدة أهل السُنَّة في أرجاء هذه الدولة المباركة بعد أن قضى ملكهم الصالح صلاح الدين على الدولة العبيدية

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢٣٣ - ٢٣٧.

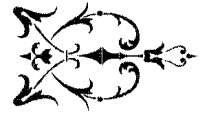
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٦.

الباطنية التي عششت ما يُقارب من ثلاثمئة سنة، وفي القضاء عليها تنحسر عقائدها التي راموا أن يفرضوها على الشعب.

كما مرّ بنا أيضاً مقاومة الدولة الأيوبية لنحلّ باطنية أخرى، كما شهد العصر الأيوبي جهود كثيرٍ من العلماء الذين عُرفوا بسلامة العقيدة، فكانوا يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر.

كما أننا لا نعدم في هذا العصر مظاهر سيئة للعقيدة غير الصحيحة متمثلة بانتشار التنجيم والكهانة وإحياء البدع، وظهور الاحتفال بمظاهر ما أنزل الله بها من سلطان، كما أنّ مظاهر سيئة للتعصّب المذهبي أسفرت عن وجهها وأدّت إلى شحناء وبغضاء بين أهل العلم، ولكنّ العصر في الجملة كان أقرب إلى سلامة العقيدة، وكان حُكّامه أقرب إلى مساندة عقيدة أهل السُنّة والجماعة ودراستها وتطبيقها وتدريسها والدعوة إليها، ويكفي ملوكُ هذه المدة فخراً أنّهم قضوا على دولة الروافض، وفساد عقائدهم بعد استحكامهم ردها من الزمان.

* * *



تمهيد

تبيّن في المبحث السابق الاهتمام الكبير الذي أولته الدولة الأيوبية لموضوع أساس الدعوة وهو العقيدة، وحرص هذه الدولة على تثبيت دعائم العقيدة وتوطيد ركائزها.

ومما يلاحظ على هذه الدولة في باب موضوع الدعوة اهتمامها - ملوكاً وعلماء - بالشريعة، وتعظيمها لركائز هذا الدين القويم، وسعيها الحثيث إلى الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه، والدعوة إلى تطبيق أحكام الكتاب السنّة، واستفتاء العلماء والرجوع إليهم في الفتاوى والأحكام، وحرصهم على مجالستهم والاستماع إليهم.

يقول الدكتور ماجد الكيلاني: (ومما يدل على تعلقهم بالدين اختياريهم لأسمائهم على نحو يتفق مع هذه النزعة، فكانوا يختارون عماد الدين وسيف الدين وصلاح الدين وهكذا.. كما يدل على ذلك التعلق حرصهم على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يُكتب لهم الاستشهاد، أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين)^(١).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٦.



ومن يتتبع نشأة الدولة الأيوبية وقيامها على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية يلمس بوضوح الأساس الشرعي الذي قامت على أساسه هذه الدولة السُّنية، فقد كان مؤسسها الرجل الصالح صلاح الدين الأيوبي معنياً كل العناية بإقامة دولة مسلمة قائمة على نهج الكتاب والسُّنة، وكان معنياً طوال مدة حكمه بازدهار الشرع الحنيف، ولا ننسى أنه ورث ميراثاً عريضاً من الجهل المطبق، والبعد الشاسع عن ينابيع الشريعة الصافية، ولذلك كان أمامه طريق طويل من الإصلاحات المتنوعة، وقد ساعده في ذلك انتقاؤه للبطانة الصالحة من أمثال القاضي الفاضل وطبقة العلماء الذين كان يعتد بمشورتهم، وفي الصفحات التالية سوف أبين مظاهر عناية الدولة الأيوبية بجانب الشريعة.

* * *

المطلب الأول تعظيم أوامر الشريعة الإسلامية

أولاً: الاهتمام بأصول الدين الإسلامي وركائزه الأساسية:

اهتم الأيوبيون اهتماماً كبيراً بأصول الإسلام العظيمة من صلاة وصيام وزكاة وحج.

ويذكر صاحب «النوادر السلطانية» - وكان قاضياً لعسكر صلاح الدين ولازمه ملازمةً تامةً، ويروي سيرته عن مشاهدة مباشرة - أن صلاح الدين كان شديد المواظبة على الصلاة بالجماعة، حتى إنه ذكر يوماً أن له سنين ما صَلَّى إلا في جماعة. وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده، ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة. وكان يُواظب على السنن الرواتب، وكان له صلوات يُصَلِّيها إذا استيقظ في الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح. كما ذكر أنه رآه يُصَلِّي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي غاب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصَلَّى^(١).

أما صاحب كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» فذكر أن صلاح الدين كان شديد التمسك بالشريعة، وله إمام راتب^(٢).

إنّ وليّ أمر المسلمين هذا شأنه: مداومة على صلوات الجماعة، وقيام ليل، وحرص أكيد على أداء النوافل، وعدم ترك الصلاة إلا عند غياب الذهن، وهو مقتدٍ برسول الله ﷺ، مُسْتَقٍ من توجيهاته الكريمة حين حض المسلمين على هذا الركن العظيم.

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٧ - ٨؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٣.



أما الملك المعظم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فكان يقول: «ما فاتتني صلاة قط»^(١). وكذلك الأمر بالنسبة للملك المظفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد ذكر عنه ابن واصل أنه: كان قائماً بوظائف الصلوات في أوقاتها^(٢).

ومثلهم كان شيركوه أمير حمص، فقد روي أنه كان يلزم الصلاة في وقتها^(٣).

وهكذا نلاحظ أن أولاد السلطان وأقرباءه سائرون على منهجه من حيث الالتزام الكامل بهذه الفريضة العظيمة وهذا نتاج التربية الإسلامية واليقظة في تطبيق أحكامها، على الرغم من أن شأن المُلْك أن تفتتح الدنيا بمباهجها على الحاكم، مما يجعله أحياناً ينسى واجبه تجاه ربّه.

أما اهتمام ملوك الدولة بالزكاة فتذكر كتب التاريخ أن صلاح الدين كان أول مَنْ جباها في مصر، فسرى نظامها إلى الشام وبلاد الجزيرة، وجرى توزيعها حسب الوجوه المقررة في الشريعة^(٤)، وهذا يعني أن هذه الفريضة كانت غائبة عن التطبيق العملي قبل تمكّن هذه الدولة.

ومما يُروى في ذلك أنه في سنة (٥٧٧هـ) ورد إلى السلطان طائفة من تجار عدن، فطلب منهم زكاة أربع سنين^(٥).

وقد ذكر صاحب «النوادر السلطانية» أن صلاح الدين مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه ملك ما ملك ولم يُخَلَّف في خزانته من الذهب والفضة

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٨٥.

(٢) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب: ٥ / ٥١.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٣٢٨، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ).

(٤) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٣٨٠.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧٢.

إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك^(١).
 أما صوم رمضان فقد تحدث عن حاله فيه أبو شامة فقال: (كان السلطان إذا دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحفظه، واشتغل بالصيام والتقليل من الطعام)^(٢).

كما روى ابن شداد حرص السلطان ﷺ على قضاء ما فاته من رمضان مع ما به من تعب ومرض فقال: (كان على صلاح الدين منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام، وشرع ﷺ في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه، ألهمه الله تعالى الصوم، وأقدره على ما قضاء من تلك الفوائت، فكان يصوم، وأنا أثبت الأيام التي يصومها لأن القاضي كان غائباً، وكان الطبيب يلومه، وهو لا يسمع ويقول: لا أعلم ما يكون، فكأنه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى)^(٣).

ولعل مقصوده من قوله: (ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه): أن ضعف جسم السلطان ونحوه في هذه المرحلة من العمر بعد الشدائد التي لاقاها، تجعل الصيام يحتاج منه إلى جهد ومصابرة وطاقة كبيرة.

أما عن الحج الركن الخامس لشرع الله القويم، فبعد أن وقّع صلاح الدين الصلح والهدنة بين المسلمين والفرنجة، أشاع ﷺ أن طريق الحج قد

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٣٥.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨.



فُتِحَ من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وصمّم على إبراء الذمّة منه^(١).

وشرع ﷺ يُرتّب الأمور لأداء هذا الركن العظيم، فأمر أن يُحمل له في المراكب كلّ ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات والثياب والكِسوات، فقليل له: (هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث، وهذه المعازل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتَر بعقد الهدنة فإن القوم على ترقّب المُكَنة والغدر دأبهم)، وما زال به الجماعة حتى حلّوا عزمه على الحج^(٢).

وهكذا كان السلطان قاب قوسين أو أدنى من أداء فريضة الحج هذا العام لولا أن مستشاريه، وهم طائفة من علماء الشريعة ورجال الحرب، أثنوه عن عزمه بسبب ظروف الحصار وصدّ الفرنجة، وحالة التعبئة التي كانت الدولة الإسلامية تمر بها.

ولقد حرص قاضي السلطان الخاص القاضي الفاضل على أداء هذه الشعيرة المباركة، فبعث إلى السلطان يستأذنه في السفر إلى مكة للحج، فأذِن له وبعث له برقعة في سطر البسملة بخط السلطان ﷺ ما صورته: (على خيرة الله تعالى، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً)^(٣)، والسلطان هنا صادق في حسرته على فوات الحج، وعدم لحاقه بركب إخوانه من الحجاج إلى بيت الله العتيق، فكُتِب التاريخ تذكر أن السلطان حزن كثيراً لعدم إقامته لهذا الركن العظيم من أركان الدين الإسلامي، فقد اجتمع مع الحُجَّاج بعد عودتهم من الحج وبكى وتأسّف لفوات الحج^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٢٩ - ٣٣١.

(٢) المصدر السابق: ٤ / ٣٣٩.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ٢٤.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٧٩.

ويوضح لنا القاضي ابن شداد السبب الذي منع السلطان من أداء الحج فيقول: (وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه وناوياً له سيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صمم العزم عليه، وأمر بالتأهب، وعملنا الرفادة، ولم يبق إلا المسير، فعدل عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وخلو اليد، عما يليق بأمثاله، فأخر إلى العام المقبل، ففضى الله ما قضى، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام)^(١).

ثانياً: الحرص على استفتاء العلماء:

إن الفتوى من الأمور الجليلة الخطيرة، التي لها منزلة عظيمة في الدين، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّغُونَ أَنَّ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿النساء: ٥١﴾.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿النساء: ١٧٦﴾.

والنبي ﷺ كان يتولى هذا الأمر في حياته، وكان ذلك من مقتضى رسالته، وكلفه ربه بذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿النحل: ٤٤﴾.

والمفتي خليفة النبي ﷺ في أداء وظيفة البيان. وقد وعى دعاة العصر الأيوبي هذا الأمر جيداً، فكانوا حريصين على استفتاء العلماء، والرجوع إليهم فيما يُشكل عليهم في أمورهم.

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨ - ٩.

وبالمقابل كان علماء الدولة الأيوبية حريصين على إصدار الفتاوى عند الحاجة إليها كالعز بن عبد السلام، ومن الأمثلة على فتاويه:
(لا يجوز ترك السنّة بحجة أن بعض المبتدعة يطبقونها، إذ لا يُترك الحق لأجل الباطل)، و(لا خير في ورع يؤدي إلى إسقاط فرائض الله)^(١).

ومن أبرز الحكّام الذين حرصوا على استفتاء العلماء السلطان صلاح الدين، فقد روي أنّه لمّا استولى على الديار المصرية، وعزم على قبض العاضد وأشياعه، استفتى الفقهاء في ذلك فأفتوه بجوازه لما كان عليه من انحلال العقيدة، وفساد الاعتقاد، وكثرة الوقوع في الصحابة والاشتهار بذلك، وقد كان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفيّ المُقيم بالمسجد، الشيخ نجم الدين الخبوشاني^(٢).

ثم إن صلاح الدين استطاع - كما مرّ - إنهاء حكم هذه الدولة الشيعية في مصر، وإقامة دولة سنيّة مكانها، فأدى ذلك إلى حقد أتباع العاضد على صلاح الدين، وتآمرهم على قتله والقضاء عليه، إلا أنّ الله فضّحهم وكشّف مؤامرتهم، واستطاع السلطان أن يقبض عليهم ليتصرّف إزاءهم التصرّف المناسب.. ولقد استفتى صلاح الدين العلماء في أمر هؤلاء المتآمرين، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردّد صلاح الدين في التنفيذ طالب أهل التقوى والمشورة بالإسراع في التنفيذ، فصدر الأمر بقتلهم وصلّبهم، وشُنقوا على أبواب قصورهم، وصلّبوا على الجذوع المواجهة لدورهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم^(٣).

وممن حرص على استفتاء العلماء ومشورتهم الملك العادل، فقد رُوي أنّه لمّا توفي الملك العزيز، خَلَف بنين صغاراً، وكان ولده البكر ناصر الدين محمد قد أنافت سنونه على العشر، فاجتمع الأمراء الصلاحية وعقدوا الأيمان

(١) العز بن عبد السلام، ص ٢٤٩.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٥ / ٣٤٣.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٧٢ - ١٧٣.



لولده ناصر الدين، فأحضر الملك العادل جماعةً من الفقهاء والقضاة، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: (هذا مؤلّى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لا تنجاب ولا تنجلي).

فقال الملك العادل: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر ويرتّب الأمور بحكم النيابة ويُدبّر؟ فقالوا: (إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لا سيّما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حقّ فيه إلا للكبير الذي يُعيّن على الحقيقة).

فلما عرّف الملك العادل رأي الشارع الحكيم، أحضر الأمراء والتمس منهم السمع والطاعة، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم فأبوا، فخاطبهم بما راعهم، وملاً بالتقريع أسماعهم، ثم قال: (قد علمتم ما هو الواجب في التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمراً يُناط بالصّبيان)، فأذعنوا وأطاعوا، وحصل الائتلاف، ورُفِع الخلاف.

فلما قدم الملك العادل إلى مصر أمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده، وليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز^(١).

ثالثاً: الحرص على إزالة المنكر:

كان من أبرز القضايا التي حرص الدعاة في عصر الدولة الأيوبية على التركيز عليها إزالة المنكرات المنتشرة في المجتمع، والتي كانت إما نتيجة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس أو بسبب القوانين التي وضعها حكام الدولة العبيدية.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٦٠-٤٦١؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٥٢.



١ - إنكار منكرات تتعلق بالجانب الاقتصادي:

وكان من أهم هذه المنكرات تلك المتعلقة بالجانب الاقتصادي، ومن أبرز من اعتنى بذلك: صلاح الدين الأيوبي، وظهر هذا الاهتمام قبل توليه مسؤوليات الحكم والخلافة، فقد رُوي أنه في عام (٥٥٠هـ) لما تولّى أسد الدين شيركوه دمشق عيّن على إشراف ديوان أموالها أبو سالم بن همام الحلبي، كما عيّن توران شاه على الشحنكية، ثم إن أسد الدين غاب إلى حلب فعزل نجم الدين ابنه توران شاه، وولّى مؤقتاً صلاح الدين مكانه. وبعد أيامٍ قلائل من ولايته اصطدم صلاح الدين مع أبي سالم بسبب خيانات مالية وسوء إدارة، وتوجّه مباشرة إلى حلب لإعلام نور الدين وأسد الدين بذلك، فقام نور الدين بعزل أبي سالم، وعاقبه عقاباً شديداً، ونفاه إلى حلب، وعيّن صلاح الدين على الشحنكية أصالةً على الرغم من صغر سنه، فقد كان عمره لم يتجاوز العشرين عاماً^(١)، إلا أنه عيّن بسبب ملكاته الخاصة، ولحزبه الشديد على الإنكار.

وبعد تولّى صلاح الدين أمور الحكم أولى الحياة الاقتصادية عنايةً فائقةً اقتداءً بسابقه نور الدين، فأزال الضرائب والمكوس عن البلاد كافة. وكان لهذه السياسة أثرها في تشجيع النمو الاقتصادي وإقبال الناس على الإسهام في العمل والبناء^(٢). يقول صاحب الروضتين: (قرأت نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة، عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين)^(٣).

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٨٥.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٣٢.



ولقد كان إسقاط الضرائب عن الحُجَّاج من أبرز الخدمات التي قدَّمتها صلاح الدين للأمة الإسلامية، فقد كان الحجاج يدفعونها زمن العبيديين، وكانوا يلاقون بسببها ضغوطاً كثيرةً إلى حدِّ الضرب والتعذيب بأليم العذاب والحبس وفوات عَرَفة. كما أبطل ما يزيد على مئة ألف دينار تُردُّ إلى الخزائن^(١)، وعوَّض أميرها بألفي دينار، وألف إردبِّ قمح، سوى إقطاعات بصعيد مصر وباليمن، وقرَّر للمجاورين غلات وصلات^(٢).

وفي سنة (٥٦٦هـ) رفع ﷺ جميع المكوس بديار مصر وأبطلها^(٣)، كما أبطل المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج في البحر إلى مكة عن طريق عيذاب في سنة (٥٧٢هـ)، وكانت سبعة دنانير مصرية ونصفاً على كل إنسان، وعوَّض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف إردبِّ قمح تُحمل إليه في البحر، وقرَّر للمجاورين غلات، وأقام للحجاج أماكن يأوون إليها خلال إقامتهم، ويُقدِّم لهم فيها الغذاء^(٤).

كما أبطل صلاح الدين أيضاً ما يؤخذ من حجاج المغاربة من المكوس، وعوَّض أمير مكة عنها أشياء كثيرة^(٥).

وفي حلب كشف صلاح الدين المظالم وأزال المكوس^(٦).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٣٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٦ / ٤٩٥، ٥٢٨؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٦٤.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٢٠ - ١٢١.

(٤) رحلة ابن جببر، ص ٣٠؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٢٠-١٢١؛ حسن المحاضرة، ص ٢٠؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٧٨؛ إتحاف الوري بأخبار أم القرى، النجم عمر بن فهد بن محمد، محمد، تحقيق: فهيم محمد شلتوت: ٢ / ٥٣٨-٥٣٩؛ التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ١٨٣/٢.

(٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٤٩.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٤٧؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ١٤٧.

ومن الملوك الذين اهتموا برفع المكوس عن الحجاج: الملك المعظم، إذ تروي كتب التاريخ أنه لما ولي أبطل المكوس، وردّ المظالم، وكسر الإفرنج غير مرة^(١).

وعلى هذا النهج القويم سار الملك الظاهر، فأسقط بحلب كثيراً من المكوس^(٢).

ومن الملوك المهتمين بذلك: الملكة الصالحة ضيفة خاتون بنت الملك العادل؛ فقد رُوي أنها أزالَت المكوس والمظالم في حلب^(٣).

وبهذا يتضح لنا جلياً اهتمام ملوك بني أيوب بإجراء إصلاحات في نظام ضرائبهم، مما يدلّ على مدى اهتمامهم بمصلحة شعوبهم^(٤)، وذلك على الرغم من أن الدولة كانت تمر بظروف حربية صعبة، وكانت حاجتها إلى الأموال والدعم المادي المتنوع حاجة شديدة.

ولقد سار على نهج الملوك الأيوبيين أمير مكة مُكثّر بن عيسى الهاشمي، الذي رفع المكوس عن الحجاج لقاء المبالغ التي أرسلها إليه صلاح الدين، كما ألغى عبارة (حي على خير العمل) من الأذان في مكة^(٥).

٢ - إنكار منكرات تتعلّق بالمساجد:

بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس كانت أكثر الأمور إلحاحاً بالنسبة له هو إعادة الطابع الإسلامي إليها، والحرص على إزالة ما أحدثه الصليبيون

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: ٢٨١.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٣ / ٢٣٩.

(٣) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة: ٥ / ٣١٢.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص ٣٨٢.

(٥) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٩٥.



من رسوم ومنكرات كثيرة في منطقة الحرم الشريف؛ لذا طلب ﷺ من أمرائه ورجاله إزالة كل الإضافات العمرانية التي أدخلها فرسان الفرنج في المسجد الأقصى، ورهبان الكنيسة في قبة الصخرة خلال مدة السيطرة الصليبية^(١)، وأزال آثار الشرك ببيت المقدس، وأمر بإقامة شعائر الدين فيه، وخطب أحد القضاة عن صلاح الدين، فكان ﷺ فاتحاً له ثانياً بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢).

وقد أشهد ﷺ الفتح للقدس أهل العلم، وارتفعت الأصوات بالدعاء والتهليل، ودخل السلطان الصخرة وهو يبكي، ومحا الصور منها، وكسر الصلبان، وعمر المسجد الأقصى، وخلّص الأسرى، وكان على رأس قبة الصخرة صليب عظيم من الذهب، فتسلّق المسلمون وقلعوه^(٣).

وإنّ بكاء الملك المجاهد صلاح الدين في هذا الموقف الجليل دليل ساطع على صدقه وشكره لخالقه على ما أنعم به وتفضل بهذا النصر المؤزر، وفي المقابل كان ثمة فاتحون لا يشغلهم سوى الغرور والتكبر وجمع الغنائم، وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء.

ولم يكن اهتمام الملوك الأيوبيين منصباً على إزالة المنكرات من المسجد الأقصى فحسب، بل حرصوا على إزالة المنكرات الأخرى من المناطق التي فتحوها وانتصروا فيها على الصليبيين، ومن ذلك: تحويل صلاح الدين لبيت الأحران - وهو بيعة نصرانية - إلى مسجد^(٤)، كما حوّل كنيسة صندحتة إلى مدرسة للفقهاء الشافعية ووقف عليها وقوفاً جليلاً وعين دار البطريرك رباطاً للفقهاء^(٥).

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٣٥.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ٢١٧.

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٦.

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ٢٣٠.

كما سار ﷺ إلى عكا، واستنقذ ما فيها من الأسرى، وكانوا أربعة آلاف، وجعل الكنيسة جامعاً^(١).

وفي دمشق كان خان ابن الزنجاري يُعمل فيه الفسوق، فبلغ خبره الملك الأشرف فاشتراه وهدمه وبناه جامعاً وسماه جامع التوبة، وولاه الجمال السبتي الذي عُرف بالصلاح^(٢).

ولمّا سيّر صلاح الدين حسام الدين بن لاجين نحو نابلس وبلادها، استولى في طريقه على سبسطية^(٣)، وحوّل مشهد زكريا فيها إلى مسجد بعدما حوّله الصليبيون من قبل إلى كنيسة^(٤). وفي رواية أن الملك الأشرف هو من هدمه وبنى موضعه مسجداً^(٥).

ومن المساجد التي اهتم بها صلاح الدين ﷺ المسجد النبوي، فعمل جاهداً على إزالة ما فيه من منكرات، ومن ذلك ما روي أنه لما كان صلاح الدين على حرّان^(٦)، توجه جماعة من فرنج الكرك لينبشوا الحجرة النبوية وينقلوه إليهم، ويأخذوا من المسلمين جُعلاً على زيارته، فقام صلاح الدين لذلك وقعد، ولم يمكنه أن يتزحزح من مكانه، وكان على حرّان، فأرسل إلى نائبه بمصر أن جهّز لؤلؤ الحاجب، فتداركهم وأوقفهم، وسلّموا أنفسهم، فصفّدهم وقدم بهم القاهرة، وتولّى قتلهم الفقهاء^(٧).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٦؛ بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٤٦.

(٣) سبسطية: بلدة من نواحي فلسطين، من أعمال نابلس. انظر: معجم البلدان: ٣ / ١٨٤.

(٤) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٠٤.

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥ / ١٤٣.

(٦) حرّان: مدينة عامرة قديمة بالجزيرة على حدود العراق. انظر: معجم البلدان: ٢ / ٢٣٥.

(٧) تاريخ الإسلام، ص ٣٦٤، وفيات (٥٩١ - ٦٠٠ هـ).

٣ - إنكار منكرات تتعلق بجوانب متفرقة:

رُوي أن صلاح الدين أبطل الخمر والمكوس ونفى المغاني عن البلاد^(١)، كما ذكر العماد - وزير صلاح الدين - أنه رأى معه يوماً دواءً مُحلّلاً بفضة فأنكر عليه حيازتها وقال: هذا حرام، فقال العماد: (في جوازه وجه ذكره أبو محمد الجويني، ولم أعد أكتب بتلك الدواة)^(٢).

أما الملك العادل بن أيوب فقد رُوي عنه أنه كان مُجاهداً دينياً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، طهر ولايته من الفساد والخمر والمكوس والمظالم والفواحش^(٣). كما رُوي أنه أبطل ضمان الخمر والقيان في (٢٤ جمادى الآخرة سنة ٦١١هـ)، وظل الأمر إلى وفاته سنة (٦١٥هـ)^(٤).

ومن الملوك الذين اعتنوا بإزالة المنكر أمير حمص شيركوه بن محمد، والذي كان شجاعاً يباشر الحرب بنفسه، وقد حفظ المسلمين من الفرنج، وبلاده طاهرة من الخمر والخواطئ والمكوس، وهو دين عاقل يعاشر العلماء، ومنع النساء أن يخرجن من باب حمص مدة ولايته حفظاً لهن^(٥).

ومنهم الملك العزيز الذي شرع في نسخ مصحف بيده، وأزال المنكرات، وكان كثير الخير، روي أنه جاء إليه رجلٌ وعرض عليه مالاً ليؤليه الصعيد فقال: (والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الدنيا)^(٦).

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٣٠٤.

(٢) الفتح القسبي في الفتح القدسي، ص ٦٥٩؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ٤٢٩؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٢؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١١٦؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٦٩، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ).

(٤) ذيل الروضتين، ص ٨٧؛ الأيوبون في شمال الشام والجزيرة، ص ٣٢٠.

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٣٢؛ تاريخ الإسلام، ص ٣٢٨، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ).

(٦) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٤٠.

ومثله الملك الجواد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد رُوي أنه أبطل الخمر والمكوس ونفى المغاني عن البلاد^(١).

أما الكامل ناصر الدين فقد روى صاحب «بدائع الزهور» أنه لما أمر ببناء دار الحديد في القاهرة حُفر أساسها فوجد فيه صنم كبير من الذهب، فأمر الملك الكامل أن يُسبك دنانير ويُصرف على بناء المدرسة، فبُنيت من حلال^(٢).

مما تقدم نخلص إلى أن العصر الأيوبي شهد جوانب من عزّ الإسلام ونهضته في كثير من أصقاعه وأزمته، وكان هذا العهد نجماً أضاء بنور عميم على الرغم مما أحيط به من ظلمات.

* * *

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٢٧٣.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٥٨.



المطلب الثاني تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية

أولاً: الحرص على تنفيذ الأوامر الشرعية والدعوة إليها:

فرض الله تعالى علينا في الكتاب والسنة أوامر شرعية فيها صلاح ديننا ودياننا، وأمرنا بتطبيقها والدعوة إليها، ووعد من التزم بتطبيقها بالجنان كما توعد من خالفها بالنيران.

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد حرص كبراء الدولة الأيوبية ملوكاً وعلماء على تنفيذ أوامر الشرع الإسلامي والدعوة إليها.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تذكره كتب التاريخ عن السلطان صلاح الدين أنه (كان يتلقى الأمور الشرعية بأحسن انقياد)^(١).

وهذا يُعطينا أنموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه المسلم الحق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

ولنلاحظ جملة «بأحسن انقياد»، فهي تُظهر انشراح صدره للحكم الشرعي، كما تظهر ارتياحه له، وحرصه على تنفيذه، وهذا قبس من دروس قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهذا أبو شامة رحمته الله صاحب «كتاب الروضتين» يصف لنا حال صلاح الدين في شهر رمضان، وحرصه على تنفيذ ما أمر به الشارع الحكيم

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢١٧؛ تاريخ الإسلام، ص ٨٣، وفيات (٥٨١ - ٥٩٠هـ).

فيقول: (عُدنا من الإسكندرية في شهر رمضان، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة، والسلطان متوقّف في ليله ونهاره على نشر العدل وانتشاره، وإفاضة الجود وإعزازه، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإعدام أعلام الباطل وإنكاره)^(١).. فولّي أمر المسلمين مرتبط بإقامة الشرع ليله ونهاره، حريص على إقامة أعلامه، وهو مباشر لذلك بنفسه.

كما ذكر ابن واصل أنه رَضِيَ اللهُ تَأخَّرَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَذَكَرَ دَيْنًا، فَأَحْضَرَ غَرَمَاءَهُ، وَتَفَاهَمَ مَعَهُمْ^(٢)، وما ذاك إلا لحرصه - غفر الله له - على إيصال الحق لأصحابه وإبراء ذمته منه، انقياداً لأوامر الشرع وتعاليمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، ولأن مال المسلم محترم محفوظ في الشريعة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه»^(٣).

وقد مرّ معنا في المبحث السابق كيف تبّه ابن نجية على الفقيه عمارة اليميني وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من إثارة الفتنة وإعادة الباطنية العبيدية، وكيف طبّق صلاح الدين حكم الشرع عليهم وقام بشنقهم^(٤).

وعلى نهج السلطان صلاح الدين سارت زوجته الفاضلة: عصمة الدين بنت معين الدين أنر، فقد كانت من أعفّ النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة وأحزمهن، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، ولها معروف

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٤٥٠.

(٢) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب: ٢ / ٤٧٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وحذله واختياره ودمه وعرضه وماله: ١٠٣/١٦، برقم (٦٤٩٣).

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٤، سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٣٩٤.

وصدقاتٌ ورواتبٌ للفقراء^(١)، وملتزمة بشرع الله، وقد كان هذا هو ما دفع صلاح الدين إلى الزواج منها بعد أن توفي زوجها السابق نور الدين محمود. وممَّن عُرِف بالاستقامة في هذا العصر الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، فقد روي أنه لما اشتدَّ به المرض وصف له الأطباء شرب الخمر تداوياً بها، فقال: لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء، فأفتاه أحد العلماء بجواز شربها، فقال له الملك الصالح: (إن كان الله قد قَرَّبَ أَجْلِي فهل يُؤَخِّرُهُ شُرْبُ الخمر؟ قال: لا والله. فقال: والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملتُ ما حَرَّمَهُ عَلَيَّ)^(٢).

ومعروف عند أهل العلم حرمة التداوي بالخمر لورود أحاديث صحيحة عن الرسول ﷺ تحرَّم ذلك، منها: أن طارق بن سويد الجعفي سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الخَمْرِ؟ فَنهَاهُ، أَوْ كَرِهَهُ أَنْ يَصْنَعَهَا. فَقَالَ: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ. فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ»^(٣).

لم يكتف دعاة هذا العصر - من ملوك ودعاة - بتنفيذ الأوامر الشرعية، بل سارعوا إلى دعوة الناس إليها؛ فهذا صلاح الدين رَّكَزَهُ يرسل إلى أحد ولاته بقلم القاضي الفاضل رسالة جاء فيها: (البلاد لك فيها عدة سنين، وأنت فيها مؤتمنٌ على مال الله، فأدِّهِ إِلَى مَنْ يُجَاهِدُ بِهِ أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَيُقِيمُ كَلِمَةَ اللَّهِ، وَيَحْفَظُ بِهَ النَّيْضَةَ، وَيَذَبُّ فِيهِ عَنِ المَلَّةِ، وَيُقَاتِلُ بِهَ أَعْدَاءَ القِبْلَةِ، وَيَضْرِبُ بَيْنَ الكُفْرِ والإِسْلَامِ، وَمَا نَطْلُبُ مِنْكَ البَاطِلَ الَّذِي لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَطْلِبَهُ وَلَا لَكَ أَنْ تَدْفِعَهُ، وَلَا نُرِيدُ إِلَّا الحَقَّ الَّذِي لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَتْرَكَهُ وَلَا لَكَ أَنْ تَمْنَعَهُ)^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ٧٦.

(٣) رواه مسلم في كتاب: الأشربة، باب: تَحْرِيمُ التَّدَاوِي بِالخَمْرِ: ١٣/١٢٨، برقم (٥٠٩٧).

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٩٧ - ٩٨.



كما كتب ﷺ لأخيه سيف الإسلام باليمن يُشّره بفتح الموصل، ويروي له كيف تمّ تطبيق شرع الله على أهل الموصل، فيقول في رسالته: (ونزل لنا صاحب الموصل عن جميع البلاد والقلاع، والحصون والضّياع، وقرّنا عليه الموصل وأعمالها على أن يكون بحكمننا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا، وتكون الخطبة والسكّة باسمنا، وأن يُطلق المظالم، ولا يرتكب المآثم. وقد حصل لنا منهم الطاعة والسكّة والخطبة، وعمّت الهيبة والرهبّة والعزائم إلى الجهاد في سبيل الله، وقد زالت العوائق، وارتفعت الموانع)^(١).

أما العلماء فقد صدعوا بالدعوة إلى دين الله، وتنفيذ أوامره، ومن أبرز من قام بهذه المهمة الجليلة: سلطان العلماء العز بن عبد السلام، وكان له مواقف نبيلة يعتز بها كل مسلم غيور حريص على إعزاز كلمة الله وشرعه في الأرض، ومما قاله في هذا المجال: (والشرع ميزانٌ يوزن به الرجال، وبه يتبين الربح والخسران، فمن ربح في ميزان الشرع كان من أولياء الله، وإن رأيت إنساناً يطير في الهواء أو يمشي على الماء أو يُخبر عن المغيبات ثمّ يُخالف الشرع بارتكاب المحرّمات بغير سببٍ ويترك الواجبات بغير سببٍ، فاعلم أنّه شيطانٌ نصّبّه الله فتنةً للجهلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وضّعها الله للضلال)^(٢). فلنقف وقفة تأمل مع هذا الالتزام الدقيق بشرع الله الذي لا تستهويه المظاهر الشيطانية التي تشجع على الانحراف والضلال، ولنأخذ من ذلك التأمل أبلغ المواعظ والعبر.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٣٦.

(٢) العز بن عبد السلام، ص ١٢٦.

ثانياً: الابتعاد عما نهى الشارع الحكيم عنه والدعوة إلى ذلك:

كما فرض علينا الشارع الحكيم واجبات أمرنا بالالتزام بها، نهانا عن أشياء وأمرنا بالابتعاد عنها، وما ذلك إلا لحكم عظيمة علمناها أو جهلناها. وبالقدر الذي اهتم به الأيوبيون بتنفيذ الأوامر، كان اهتمامهم بالابتعاد عن النواهي والدعوة إلى اجتنابها.

فهذا صلاح الدين الأيوبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يتوب عن الخمر^(١) بعد أن هداه الله بفضل التوجيه الإسلامي من قِبَلِ نور الدين، واتخذ موقفه صريحاً من الارتباط بأحكام الشرع القويم.

ويصف ابن شداد هذا التحول في حياة صلاح الدين واستقراره على النهج الإسلامي بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وتولييه أمر مصر: (وَفُوضَ الأمر بعده إلى السلطان، واستقرت القواعد، واستتبّت الأحوال، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتَقَمَّصَ بلباس الجد والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّاً إلى أن توفاه الله إلى رحمته)^(٢). ويؤكد الذهبي تحوّل صلاح الدين إلى المنهج الإسلامي فيقول: (منذ تَسَلَطَنَ طَلَّقَ الخمر واللذات)^(٣). ويشهد على ذلك الدواداري بقوله: (كان صلاح الدين في مبتداه قليل المال والرجال، صاحب أكل وشرب وطرب، فلما فتح الله عليه بالملك تاب عن جميع ذلك)^(٤).

وقد ربّى صلاح الدين أبناءه على الاستقامة والابتعاد عما نهى الله عنه،

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٧٩.

(٤) كنز الدرر وجامع الغرر: ٣٥/٧؛ وانظر: تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر:

١٣٩/٢؛ الدارس في تاريخ المدارس: ١٨٠/٢.



فهذا الملك المجاهد ابن صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحكي عنه ابن واصل أنه لم يشرب الخمر، ولم يُقبل على اللهو، بل أوقاته كلها مصروفة إلى الجند والنظر في المصالح^(١). وعلى غِراه كان الملك المُظفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد كان لا يُمكن أحداً من إدخال الخمر إلى بلده^(٢). ومثله شيركوه أمير حمص فقد كانت بلاده طاهرة من الخمر والمكوس^(٣).

ولم يكتف السلطان صلاح الدين وأبناؤه بالابتعاد عن المناهي فحسب، بل قاموا - رحمهم الله - بدعوة الناس إلى ذلك، فقد رُوي أنّ صلاح الدين لما حاصر مدينة آمد وفتحها، وهبها إلى صاحب حصن كيفا، واستحلفه أن يُظهر العدل ويقمع الجور، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان على معاداة أعدائه، وموالة أوليائه، وأنه متى استمدّه لقتال الفرنج سارع إليه^(٤).

كما ألغى السلطان صلاح الدين المكوس (الضرائب غير الشرعية) في كل البلاد التي خضعت لسلطته مباشرة أو غير مباشرة، فهذا هو دأب السلطان في جميع البلاد، يقتصر منها على ما يُبيحه الشرع وهو: الخراج والأجور والزرع^(٥)، كما روي أن الملك العادل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أبطل سنة (٦١٢هـ) ضمان الخمر والقيان^(٦).

ويروي ابن واصل أنّ رجلاً اشتكى من سوء عشرة زوج ابنته لابنته وحبسه لها، وأثبت للحاكم ضرره، فمضى القاضي بنفسه إلى الدار التي فيها الزوجة المحبوسة، ورام فتح باب الدار التي هي فيه فلم يقدر،

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥ / ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق: ٥ / ٢٥٥.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٣٢٨، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ).

(٤) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٩٧.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٥٢.

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٨١ - ١٨٢.

فأحضر شهوداً ونقّاباً، ونقب جانب الدار، واستخرج المرأة، وسُلِّمَتْ إلى أبيها، ثم أحضر بناءً فسدّ النقب. فما كان من زوج المرأة إلا أن قدّم للعزیز خمسة آلاف دينار ليؤلّي قضاء الإسكندرية نكايَةً بالقاضي الأول، وكان العزیز مُحْتاجاً للمال، ولكنّه سأل عن جهة المال، فلمّا عَرَفَ القِصَّةَ قال لوزيره: (أعدّ المال إلى صاحبه وقل له: إيّاك والعود إلى مثلها، فإنني إذا قبلتُ المال أكون قد بعثتُ أهل الإسكندرية، وهذا لا أفعله أبداً)^(١).

وخير شاهدٍ على حرص السلطان على الابتعاد عن المناهي، ذلك الكتاب الذي خطّه يراع القاضي الفاضل، لصيق السلطان وملازمه في غالب جلّه وترحاله، فقد جاء فيه وصف السلطان صلاح الدين: (هل يُعرف راية يُقاتل تحتها إلا رايته؟ هل يُعرف مال يُنفق في سبيل الله إلا ماله؟ هل يُستمع في مجلسه إلا كتاب الله يُتلى، وسنّة رسوله تُقرأ؟ أو يرى به إلا الخيل تُعرض والسلاح يُقلّب؟ لا أقداح الشاربين، ولا أصوات المغنّين، ولا رقائع الكذّابين، ولا سعايات النّمّامين)^(٢).

ولقد سار كثير من العلماء الأفاضل على هذا المنهج الإسلامي المبارك في عهد الدولة الأيوبية، فحضّوا على الابتعاد عن المناهي، ومن هؤلاء الأفاضل: الإمام اليونيني الذي يُروى عنه أنه لم يقيم لأحدٍ تعظيماً له، ولما أظهر العادل قراطيس سوداً لغاية في نفس يعقوب، قال الشيخ اليونيني: (يا مسلمون، انظروا إلى هذا الفاعل يُفسد على الناس معاملاتهم)، فبلغ العادل ذلك فأبطلها^(٣).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٣ / ٨٤؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٤٤.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٢١٥.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٣٤٢، وفيات (٦١١ - ٦٢٠هـ).

ثالثاً: تطبيق أحكام السُّنة النبوية الشريفة:

عُني ملوك الدولة الأيوبية وعلماءها عناية كبيرة بالمصدر التشريعي الثاني وهو السُّنة النبوية، وحرصوا على إحيائها وتطبيقها والدعوة إليها في دولتهم العامرة، ولا سيما مصر، فقد كانت السُّنة غامرة مِيَّتةً فيها بسبب الدولة العبيدية التي أحيت البدعة وقمعت السُّنة، فلما تمكَّن صلاح الدين من القضاء على دولتهم، أظهر السُّنة^(١).

وتروي لنا كتب التاريخ نماذج من حرص صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على تطبيق السُّنة وأحكامها في حياته، ومن ذلك أنه كان لا يلبس إلا ما يحلّ لبسه كالكتان والقطن، وكانت مجالسه مُنَزَّهة من الهزل، ومحافله أهلة بالفضلاء^(٢).

كما ذكر ابن شداد في «النوادر»: أن صلاح الدين بنى مستشفى بالقاهرة ومدرسة بالقدس وجدّد أماكن كجامع عمرو، إلا أنه لم ينسب ذلك لنفسه إدراكاً منه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالفضل العظيم والأجر الجزيل لصدقة السر^(٣)، وذلك لقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمٌ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ»^(٤).

كما ذكر أبو شامة أنموذجاً رائعاً لهذا التطبيق فقال: (رزق الله مولانا ذريةً تودّ لو قدّمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت أجفانها بغبار قدميه، ولهم أولاد مدّ المولى لهم الآمال، كما قال مولى الأمة لها: «تناكحوا

(١) تاريخ الإسلام، ص ١٤٠، وفيات سنة (٦٣٠ - ٦٤٠هـ).

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢ / ٢٨٧.

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب: الجماعة والإمامة، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل

المساجد: ١ / ٢٣٤، برقم (٦٢٩).

تناسلوا فإني مُكاثِر بكم الأمم»^(١)، لطالما قال لهم المولى: لِدُوا وَعَلَيَّ تجهيز الإناث، وغنى الذكور)^(٢).

ولقد سار أبناء السلطان على نهج أبيهم في إحياء السُّنَّة وتطبيقها، ومنهم الملك المظفر الذي رُوي عنه أنه كان شديد الميل إلى السُّنَّة^(٣)، ومثله الملك الأفضل الذي كان حريصاً على حث العلماء على الدعاء لوالده بعد وفاته ليغفر له تعالى ذنوبه، ولتزيد تلك الأدعية من رصيد حسناته، فقد روي: أنه بعد وفاة صلاح الدين أراد العلماء حمله على أعناقهم، فمنعهم ابنه الملك الأفضل، وقال لهم: (يكفيه أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته)^(٤)، وكأته بذلك يلفت انتباههم إلى ما هو خيرٌ وأنفع لوالده المتوفى، والذي هو الدعاء له بالمغفرة، فالدعاء الشرعي ينفع الميت بإجماع أهل السُّنَّة والجماعة، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، ولقوله ﷺ: «إذا زار المقابر: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»^(٥).

وحذا حذوهم الملك الكامل فقد وُصف بأنه كان مُعظماً للسُّنَّة وأهلها، راغباً في نشرها والتمسك بها^(٦).

(١) المستدرک علی الصحیحین، کتاب النکاح: ٢ / ١٧٥، برقم (٢٧٢٧)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد».

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٦١.

(٣) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب: ٥ / ٥٥.

(٤) المصدر السابق: ٢ / ٤٢٣.

(٥) رواه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها: ٣٦٧، برقم (٢٢٠٨).

(٦) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٧ - ١٢٩.



ومن كبراء القوم الذين اهتموا بسُنَّة المصطفى ﷺ: الأمير عز الدين موسك الهذباني، وهو من أقارب السلطان صلاح الدين ومقدمي كتائبه، فقد كان للقرآن حافظاً، وعلى الإحسان محافظاً، ولقضاء حقوق الناس ملاحظاً^(١)، اقتداءً برسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فقد جاء في الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(٢).

ولم يكن أمر إحياء السُنَّة وتطبيقها مقصوراً على الملوك والأمراء فحسب، بل أسهم العلماء في ذلك إسهاماً كبيراً، من ذلك ما رُوي عن الحافظ العماد أنه كان جوهرة عصره، أحيا السُنَّة ببلاد الشام، وجمع بين العلم والعمل، وكان صاحب ليل واجتهاد، وكان يتألف الناس، ومن إكرامه لأصحابه يظنّ كل أحد أن ما عنده مثله من كثرة ما يُكرمه^(٣).

وفي هذا الموقف من هذا العالم الجليل تنبيه هام للداعية، ودرس عظيم في الاهتمام بالمدعو بالإقبال عليه، والاحتفاء به، وحسن الخلق معه؛ وذلك اقتداءً بمعلمنا ﷺ، والذي وصفه خادمه أنس بن مالك ﷺ بقوله: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا)^(٤).

وأبو عمر المقدسي الجماعيلي ممن حرص على تطبيق السُنَّة، فكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يسمع دعاءً إلا ويحفظه في الغالب، ويدعو به، ولا حديثاً إلا وعمل به، ولا صلاة إلا صلاحها^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٠٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه: ٨٦٢/٢، برقم (٢٣١٠).

(٣) تاريخ الإسلام، ص ١٨٧، وفيات (٦١١ - ٦٢٠ هـ).

(٤) رواه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن خلقاً: ٦٠/١٥، برقم (٥٩٧٠).

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٥.



رابعاً: التطبيق العملي لأحكام الشريعة الإسلامية:

لم تكن الشريعة الإسلامية في أيّ حقبة من حقب التاريخ مجرد مثاليات يتشدد بها أبنائها، بل هي نظام ومنهج وضعه الله تعالى لسعادة الإنسانية شريطة تطبيقهم لهذا النظام وسيرهم عليه في حياتهم.

ولقد كانت الدولة الأيوبية من الدول التي جعلت الشريعة الإسلامية دستوراً لها الأساس الذي يُنظّم أمور حياتها، وطبقته تطبيقاً عملياً في شؤونها وقضاياها كافة.

وكان من أبرز مظاهر التطبيق العملي لأحكام الشارع الحكيم في العهد الأيوبي حرص القضاة على الحكم بموجب أحكام الشريعة الإسلامية، بل والإشراف المباشر على تطبيق هذه الأحكام، فمما يلاحظه المؤرخون احتفاظ القضاة بنزاهته ومكانته في هذا العهد^(١).

أما في دمشق فقد كان أول من ولي قضاء الحنابلة الإمام أبو محمد شيخ الجبل شمس الدين ابن أبي عمر، ولقد كان رحمة للمسلمين، ولولا الله وعيّن ثم هذا القاضي لراحت أملاك الناس؛ إذ قام فيها خير قيام، وعاداه جماعة من الحكام وتحدثوا فيه بما لا يليق، وقد نصره الله بحسن نيته^(٢).

ومن القضاة الذين عُرفوا بالعدل والصرامة واتباع طريقة السلف الشيخ عبد الصمد بن محمد بن الحرساني، فقد روي أنه ثبت عنده حقّ لامرأة على بيت المال، فأحضر وكيل بيت المال الجمال المصري، وأمره أن يُسلم لها ما ثبت لها، وكان بُستاناً، فاعتذر بال مساء، وقال: في غدٍ أسلمه إليها فقال: (ربما أموت أنا إلى الغد ويتعوق حقها)، فما برح حتى تسلّمت حقها^(٣).

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٣٤١.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: ٢ / ٣٣.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٢٠٦، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ).



وقد يتعرّض بعض القضاة إلى ضغوط خارجية تُجبرهم على الحُكم بما يُخالف بعض أحكام الشريعة إلا أنّهم يُبدون ثباتاً وتمسكاً بكلمة الحقّ والقضاء بما شرع الله وأمر به. ومن ذلك ما رُوي أن رئيس القضاة شمس الدين بن عطاء لمّا وقعت الحوطة على أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم بما يقتضي مذهبه، فغضب من ذلك وقال: (هذه الأملاك بأيدي أربابها وما يحلّ لمسلم أن يتعرّض لها)، ثم نهض من المجلس وذهب، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً، ثم سَكَن غضبه، فكان يُثني عليه بعد ذلك ويمدحه ويقول: (لا تُثبتوا كتاباً إلا عنده)^(١).

ومن الشواهد على ذلك أيضاً ما تذكّره كُتب التاريخ عن القاضي عبد الصمد الحرستاني كان يقول للعادل: (أنا ما أحكم إلا بالشرع، وإلا فأبْصِرْ غيري) ويقول: (الشرع ما يكون فيه وصية، لا فرق بين السلطان وغيره في الحق)، وقد روي أنّ الملك العادل كتب إليه يوصيه في حكومته، فقال القاضي: (كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب)، فبلغ العادل قوله فقال: (صَدَق، كتاب الله أولى من كتابي)^(٢). أرأيت إلى هذا الموقف النبيل من هذا الملك الجليل، فهو لم تأخذه العزة بالإثم، ولم ينتصر لنفسه مع أنّ المجال مفتوح للمنافقين والمتزلفين لكي يُسوّلوا له ألف باب وباب على أن ينحرف أو يطيش.

وهاتان الحادثتان تُعطيان الداعية درسين مهمين جدّاً؛ وهما: أهمية الثبات على الحق، والرجوع عن الخطأ عندما يتبيّن هذا الخطأ ويتّضح، فثبات كلا القاضيين على الحق، وإصرارهما على العمل بمقتضاه، كان بمنزلة المبتّه للسلطان من الوقوع في الخطأ والمحدّر له منه.

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٣٠.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٢٠٧، وفيات (٦١١ - ٦٢٠هـ).

ومن أبرز المواقف التي تعكس لنا صورةً مشرقةً عن إصرار الداعية على تطبيق شرع الله القويم؛ موقف الشيخ العز بن عبد السلام من المماليك وإصراره على بيعهم لصالح بيت المال، وذلك أن الملك نجم الدين أيوب اشترى المماليك الأتراك لتقوية جيشه، وهم في حُكم الرِّقِّ لبيت المال، وكانوا أمراء، فولايتهم لا تجوز، فتعطلت مصالحهم^(١)، فانزعجوا وساءموا الشيخ، ولكنه أصرَّ على بيعهم لصالح بيت المال، ثم يُعتَقون ليُصبحوا أمراء، فرفضوا، فتدخل نجم الدين، فقرر الشيخ عز الدين الرحيل عن القاهرة، وحمل أغراضه على حمار، فلحقه الناس، فقبل للسلطان: أدرك ملكك، وإلا ذهب بذهاب الشيخ، فاسترضاه السلطان، ووقف العزّ ينادي على أمراء الدولة، ورفع سعرهم، واشتراهم نجم الدين من ماله، ثم أعتقوا، وقبض ثمنهم لصالح بيت المال^(٢).

وللعز موقف قويّ آخر في الإصرار على الحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية، وهو موقفه في رفض ولاية شجرة الدرّ على المسلمين، فقد قال للخليفة المستعصم بالله: أرسل إليهم من يقول لهم: (أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم حديث رسول الله ﷺ: لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ فَارِسًا مَلَكُوا ابْنَةَ كِسْرَى قَالَ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»^(٣)، وأنكر عليهم. فلما سمعت شجرة الدرّ بذلك جمعت الأمراء والقضاة، وخلعت نفسها من السلطنة برضاها، وكانت مدتها ثلاثة أشهر إلا أياماً^(٤).

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢١٦.

(٢) المصدر السابق: ٨ / ٢١٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب: الفتن، باب: الفتنة التي تموج كموج البحر: ٦ / ٢٦٠٠، برقم (٦٦٨٦).

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٨٦.

ومواقف العز بن عبد السلام هذه تُعطي درساً عظيماً في ضرورة ثبات الداعية على ما يؤمن به من أسسٍ ومبادئٍ وقيمٍ شريطة أن تكون مستقاة من ينبوع الشريعة وأحكامها مهما تعرّض لمصاعبٍ ومحنٍ فهو المنتصر - بإذن الله - في نهاية الطريق لأن الله معه وآخذٌ بيده، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ولم يكن التطبيق العملي لأحكام الشرع حكراً على العلماء والقضاة فحسب، بل كان الملوك والولاة من المبرزين في ذلك المسارعين إلى حيازة هذا الفضل العظيم. من ذلك ما يُروى أنّ صلاح الدين لما افتتح صيدا وجبيل وبيروت صدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وقرئ القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست الفوانيس، ورفع المسلمون رؤوسهم^(١).

وبهذا يتضح لنا جلياً الدور العظيم الذي قام به هذا السلطان في إعادة العزّ والسؤدد للدين الإسلامي العظيم بتطبيق أحكامه وتنفيذها على أرض الواقع، كما ظهر ذلك جلياً في إقامة الجهاد في سبيل الله تعالى الذي هو ذروة سنام الإسلام.

ومما يؤكد حرص صلاح الدين على تنفيذ أوامر الشارع ما يرويه لنا أبو شامة أن السلطان كتب إلى الملك العادل في شأن الوقف الخاص بوالدهم نجم الدين فقال: (الأخ الأجل الملك العادل أدام الله دولته، غير خافٍ عنك قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين على الشيخ الفقيه ابن الصابوني، وأنه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه الخبوشاني ما جرى اقتضت المصلحة انتقاله لموضع آخر لقطع الكلام، وتسكين الفتنة والخصومة بينهم، مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/٣٢٢ - ٣٢٤.

والأخ الأجلّ العادل يتقدّم بمراعاة وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار إليه، ومنع ما يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات، وحسّم مادة الشكوى منه ممن يتعدّى عليه إن شاء الله تعالى^(١).

واقتنى إخوة صلاح الدين به فاهتموا بتطبيق أحكام الشرع، وساروا في الطريق الذي سار فيه، فهذا الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب صاحب اليمن يقدم في رمضان إلى مكة، ويستولي عليها، ويخطب لأخيه صلاح الدين، ويقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس، وقد شرط على العبيد ألا يؤذوا الحاج، ومنع من الأذان في الحرم بحي على خير العمل^(٢).

ومن الملوك الذين يشهد لهم التاريخ بالشدة والصرامة في تطبيق الأحكام الشرعية: الملك الكامل، فقد رُوي أن الإنسان كان في عهده يمرّ بالصحراء ومعه الأحمال من البضائع فلا يخاف سارقاً ولا قاطع طريق، وقد سُرق في الصحراء الرملية بساط، فأحضر العرب الذين يحرسون الطريق وقال: (أريد البساط بعينه وأريد سارقه وإلا أذهبت نفوسكم ونهبت أموالكم)، فبذلوا في عوضه الكثير، فأبى إلا إحضار البساط نفسه^(٣).

ومن الولاة الذين اهتموا بهذه القضية اهتماماً كبيراً صاحب سنجار عماد الدين زنكي صهر نور الدين، فقد رُوي أنّ عدله عمّ البلاد وعمّر العباد، وأريقّت الخمور، وحُدّ شاربها، كما كانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد^(٤).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٣ / ٢٥٠.

(٢) إتحاف الورى بأخبار أم القرى: ٥٥٣/٢.

(٣) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب: ١٥٦/٥.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤١٧/٤ - ٤١٨.

ومن أبرز الحوادث التي حدثت في عهد الدولة الأيوبية والتي تُظهر على نحو جليّ غيرة السلطان صلاح الدين على حرّمات الله، واهتمامه بتطبيق ما شرعه الله تعالى: حادثة أرناط صاحب الكرك والشوبك.

وملخص ما حدث أنّ السلطان كان وقّع على هدنة بينه وبين أرناط، فقد أخذ هذا الأخير الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي ملتزماً بالهدنة حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، واستخفت بالنبي ﷺ، وقال: (قولوا لمحمدكم يخلّصكم)، فأرسل إليه السلطان مذمماً فعّاله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فحمل السلطان الدين والحميّة، وغضب غضباً شديداً، وأقسم ونذر ليقتلته بيده إن ظفر به^(١).

ولمّا انتصر صلاح الدين في حطين وقى بنذره، وقام إليه، وتلقاه بالسيف، فحلّ عاتقه بالنيمجاه^(٢)، ثم أمر برأسه ففُطِع وجُرّ برجله فُدام الملك ورُمي على باب الخيمة، فارتاع الملك وانزعج وما شكّ في أنّ صلاح الدين سيُثني به، فأمنه السلطان وطمأنه وقال له: (لم تجر عادة الملوك أن تقتل الملوك، ولكن ذاك غدار كذاب جاوز حدّه فأردته رداءته، وعَدْرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيّه وبغيّه وجرى له ما جرى)^(٣).

وقد وقعت واقعة مشابهة لهذه مع الملك الكامل، وذلك عندما انتصر على الصليبيين في معركة دمياط سنة (٦١٦هـ)، فقد علم الملك أنّ أحد الصليبيين كان يسبُّ النبي ﷺ جهاراً نهاراً، فلمّا أسر هذا الصليبي في

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٩٠ - ١٩١.

(٢) خنجر مقوس يشبه السيف القصير. التوثيق من المصدر التاريخي نفسه وهي مشروحة فيه وليس من كتب اللغة لأنها ليست عربية.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٣؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢٠؛ سير أعلام النبلاء: ٢١/٢٨٥؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/٢٧٤،

المعركة أمر الكامل بإرساله إلى أمير المدينة كي يُقتل فيها، فلمّا وصل الأسير إلى المدينة أُقيم قريباً من قبر الرسول ﷺ، فقيل: (يا رسول الله هذا عدو الله وعدوك) فتهادته أيدي الناس ضرباً بالسيوف^(١).

ومن الأحكام التي طبّق فيها الأيوبيون حكم الشريعة الإسلامية أحكام أسرى الحرب وأهل الذمّة، فبعد فتح حطين طلب صلاح الدين الأسرى من الكفار، وأمر بقتلهم جميعاً، وتطهير الأرض منهم ومن خيانتهم وغدرهم ورجسهم، ولكنه ما قتل إلا مَنْ عُرِضَ عليه الإسلام وأبى أن يُسلم، وما أسلم إلا آحادٌ حَسَنَ إسلامهم، وتأكّد بالدين غرامهم، وكان بحضرته جماعة من الممتطّوعة المتورّعة والمتصوّفة والمتعمّمة، ومَنْ تَمَّتْ له المعرفة بالزهد، فسأل كلّ واحد منهم في قتل واحد، فسئل وحسر عن ساعده، والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس^(٢).

كما ذكر أبو شامة أنه أغارت طائفة من الفرنج على بلدة حماة، فخرج إليها عسكر حماة، فأسر المُقدّمين، وسفك بسيفه دم الباقيين، وجاء بالأسرى إلى السلطان صلاح الدين بظاهر حمص، فأمر السلطان بضرب أعناقهم، وأن يتولى ذلك أهل التّقى والدين من الحاضرين، فتقدم الإمام الضياء الطبري، وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي ثم الأمير أبطغان بن ياروق^(٣).

ومثل ذلك حدث أيضاً عندما وصلت مراكب صليبية إلى عيذاب، واستولوا على أموال بعض التجار، ثم توجّهت إلى رابغ بقصد التوجّه إلى الحجاز، وفي هذه الأثناء جهّز العادل - نائب صلاح الدين في مصر

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢٠٦/٢-٢٠٧، نقلاً عن وفيات الأعيان: ٩١/٥.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٩٠ - ٢٩١.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ١٥.

- المراكب، ونقلها إلى خليج السويس، فساروا وراء المراكب الصليبية، واستولوا عليها، وأسروا مَنْ فيها، ولاحقوا مَنْ هَرَبَ إلى البرّ، فقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم الآخر، وكان عدد المأسورين مئة وسبعين رجلاً، فصدر الأمر السلطاني إلى العادل بقتلهم جميعاً؛ لأنهم - كما يقول القاضي الفاضل -: (ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها، وتطرّقوا بلاد القبلة وتطوّفوها، ولو جرى في ذلك سببٌ لضاقت الأعدار إلى الله والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الشرق والغرب، ولا بدّ من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لا يعود منهم مُخبِرٌ يدلّ الكفار على عورات المسلمين)^(١).

أما تطبيقهم لأحكام أهل الذمة فقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان صلاح الدين لما فتح بيت المقدس أخذ الجزية من أهل الذمة البالغين دون النساء والرهبان والعبيد والمجانين والشيوخ والفقراء وحسب قدرة الشخص، فالشخص من الطبقة العليا يدفع أربعة دنانير، والذي من الطبقة الوسطى يدفع دينارين، أما مَنْ كان في الطبقة السفلى فيدفع ديناراً واحداً^(٢). وقد فُرِضت عليهم هذه الجزية على أن يسكنوا ولا يُزعجوا، ويؤمّنوا ولا يُخرجوا، فأقرّوا بوساطة الفقيه عيسى الهكاري^(٣).

وبعد، فإن القارئ لتاريخ الدولة الأيوبية، والمتأمل فيه يدرك المكانة الكبيرة، والمنزلة الرفيعة التي أوّلتها هذه الدولة لموضوع الشريعة، تعظيماً لأوامرها، وتطبيقاً لأحكامها. فأدّى ذلك التعظيم والتطبيق بفضل الله تعالى إلى استمرار مسيرة الدعوة الإسلامية المباركة، ونجاحها، وتقدّمها.

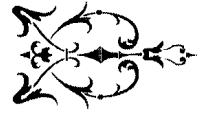
* * *

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٥٥.

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٣٧٨.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٠٢ / ٣.

المبحث الثالث موضوع الأخلاق



جاءت الشريعة الإسلامية بمنهج شامل للحياة؛ لإصلاح مفاصلها، وتقويم اعوجاجها، وذلك بالدلالة على محاسنها، والتحذير من مساوئها.

وإن من نواحي الحياة المهمة التي اعتنى هذا الدين العظيم بها، واهتم بتربية أبنائه عليها، موضوع الأخلاق، فلقد صرح الرسول ﷺ بالهدف الأساس لهذا الدين فقال: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(١).

ولقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بالكثير من الشواهد الدالة على أهمية الأخلاق، فقد مدح الله نبيه محمداً ﷺ بأخلاقه الحسنة فقال ﷺ: ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويتبّه الله تعالى نبيه ﷺ على أهمية التعامل مع المدعوين بالخلق الحسن، فقال تبارك وتعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَأُنْفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن^(٢). والأخلاق الإسلامية المنبثقة من الكتاب السُّنَّة وتطبيقاتهما تؤلف

(١) رواه أحمد في المسند: ٥١٣/١٤، برقم (٨٩٥٢)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ١/١١٢، برقم (٤٥).

(٢) رواه أحمد في المسند: ١٨٣/٤٢، برقم (٢٥٣٠٢)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

مَعْلَمًا كبيراً من موضوعات الدعوة في العهد الأيوبي؛ وذلك لأن طائفة كبيرة من أعلام هذه الدولة عُرِفوا بالتمسك بالخلق الإسلامي في تعاملهم مع أنفسهم ومع الآخرين.

وكان هؤلاء الأعلام دعاة إلى الله ﷻ بهذه الأخلاق التي عُرِفوا بها. ولعلهم بهذا ينتهجون منهج النبي ﷺ الذي وَصَفْتَهُ الأثار بأنه قرآن يمشي على الأرض؛ وذلك لأنه بأخلاقه العملية أعطى للأجيال من بعده درساً في هذه الأخلاق يفيد بأن المسلم من دون تطبيق عملي لِمَا سمعه من الهُدَى، لم يُفد مما قرّره هذا الدين من خلال نصوصه.

والفارق بين العصرين النبوي والأيوبي أنّ غُثَاءً كبيراً وفساداً عريضاً لَحِقَ جماهير الأمة من خلال تتابع القرون، وتمكّن الغفلة من القلوب والسير مع الهوى، وألْفَةُ الابتداع، ولكن تبقى النماذج الحية التي نلقاها في هذا العصر الأيوبي متمثلة بالعلماء والدعاة نماذج سامية تُنبئ بخير وتمسك بالينبوع الصافي السالف.

ومن هذه الأخلاق الإسلامية التي تستوقف المتأمل في هذا العصر:

- ١ - خلق العدل.
- ٢ - خلق التواضع.
- ٣ - خلق الكرم.
- ٤ - خلق الحلم.
- ٥ - خلق الوفاء.
- ٦ - خلق الورع.
- ٧ - أخلاق متنوعة.

المطلب الأول خلق العدل

العدل هو أسمى الأخلاق وأعظمها؛ وذلك لأنه يجمع بين الإنصاف والصدق والمروءة والنبيل وحفظ العهد وأداء الأمانة، قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ءَلْمَنَنَاتِ إِلَىٰ ءَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وأمر الله تعالى نبيه بالعدل والقسط فقال جل وعز: ﴿وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وإن من أشنع الأخلاق وأرذلها الظلم الذي هو نقيض العدل؛ وذلك لأن العدل ميزان يضبط حياة الناس، ويحقق أسمى المعاني في المجتمع، أما الظلم فهو يهدم كل هذه المعاني الفاضلة، ويحدث هوة سحيقة بين أفراد المجتمع الاسلامي.

ومن شدة شناعة الظلم وبشاعته أن حرّمه الله على نفسه، فقد جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١).

ولخلق العدل شواهد متعددة عند دعاة الدولة الأيوبية - علمائها وملوكها - ومنها:

(١) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم: ١١٢/١٦، برقم (٦٥٢٤).

أولاً: مظاهر من عدل صلاح الدين:

عُرف رأس ملوك هذه الدولة صلاح الدين بالعدل، فقد كان يعيش في عصر سادت فيه أساليب ظالمة من الجور وعدم إحقاق الحق، وللغالب أن يتصرف بالمغلوب كيف يشاء، ومع كل ذلك لم تأخذه أبهة الظفر، وعاملَ خصوصته معاملة قلما جاد بمثلها الزمان^(١).

وقد ذكر صاحب «السلوك لمعرفة دول الملوك» عنه أنه كان يسوي في المحاكمة بين أكبر الناس وخضمه^(٢). كما وصفه المؤرخون الذين عاصروه وكانوا قريبين منه، وشهدوا مجالسه وقاصديه من الرعية، فلاحظوا مواقفه فيها.

يقول صاحب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»: (كان ﷺ عادلاً رؤوفاً رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سقراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يُعرض عليه من القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردّ قاصداً)^(٣).

وقد روي أنه لما استقرَّ ﷺ بدمشق بعد فتح بيت المقدس ابتداء بالجلوس في دار العدل، وبحضرتة القضاة والعلماء من أهل الفضل^(٤).

ويُفهم من ذلك تخصيص هذا الملك الصالح يومين لعموم الرعية في السفر والحضر، كما كان لا يعرف التمييز بين أصناف الرعية، فيقبل بعضها ويردّ بعضها، وذلك خلق نبوي كريم طالما ترددت الآثار والنصوص لتؤكدده.

(١) الحروب الصليبية، ص ٢٠٢.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٣.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٣؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ١٠.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١١.

ويذكر صاحب «شفاء القلوب» أن رجلاً يقال له: ابن زهير الدمشقي؛ استغاث بصلاح الدين من أجل مَظْلَمَةٍ اقترفها ابن أخي السلطان واسمه المظفّر، فلما بلغه نبأ هذه المظلمة لم يتردد أن يطلب من ابن أخيه أن يحضر معه مجلس الشرع، على الرغم من أن المظفّر كان من أعزّ الناس عند الملك صلاح الدين، ولكنه لم يُحَابِه على الحق^(١). وهذا يُدكّرنا بالخلق الإسلامي في إنصاف المظلوم، وكون الرعيّة سواسية أمام القاضي المسلم.

ويذكر المؤرخون أن جلسة صلاح الدين فيما يُعرف بدار العدل استمرّت طوال مدة حكمه التي تُعدّ زمناً طويلاً، ولم يُقَعِدْ عنها إلا مرضه الأخير الذي توفّي فيه^(٢).

كما يذكرون أنّ همّ مظالم الناس ودعاويهم كان يُشغله أثناء فتوحاته المتتابة، فهو مثلاً عندما أراد أن يفتح نابلس استقبله أهلها بالترحاب، وعرضوا عليه الظلم الذي كانوا يلقونه من واليها، فبدأ بصلاة الجمعة في هذا البلد، ثم شرع يُصلِح أمور الرعيّة، وكشّف مظالمها، وإسقاط رسومها الجائرة^(٣).

وعندما فتح السلطان دمشق يوم الأربعاء سنة (٥٨٨هـ) توجه إلى قلعتها واستقرّ فيها، وفي اليوم التالي جلس في مجلس المظالم، وعمّ ذلك المجلس العام والخاص، وأقام ينشر جناح عدله، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، وعُرف عنه أنه حدّد لذلك يومي الإثنين والخميس، فكان يستقبل رعاياه في هذين اليوميين^(٤).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٣؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٤٠.

(٢) انظر: صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٧٦.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٤٦٩.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٤٤؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٤١.

وقد أشاد معاصروه بجانب عدله وإشفاقه على رعيتته، وأن كثيراً منهم أنصفهم وكشف عنهم ظلم المظالم، يقول أسامة بن منقذ: (أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله، والرحمة التي تدارك بها العباد، وأحيا سنة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماءه، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع، ومن عدله في أنوارٍ تكشف عنهم ظلم المظالم)^(١).

وحدث عند حصار عكا أن هُزم المسلمون أول الأمر، فتحركت نوازع الطمع لدى فريق طائش من غلمان السلطان، فقاموا بنهب أموال عظيمة من الخيام، ومنها الأقمشة التي كانت من أموال الناس وممتلكاتهم، وأخبر السلطان صلاح الدين بهذا، فأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان الذين نهبوها، وأعادها إلى أصحابها بنفسه احتساباً لله تعالى، وقد لقي في ذلك مشقة عظيمة، يقول ابن شداد: (ولقد حضرت يوم تفرقة الأقمشة على أربابها، فرأيت سوقاً للعدل قائمة، لم يُر في الدنيا أعظم منها)^(٢).

ويذكر ابن شداد أيضاً إنصاف الملك صلاح الدين لدعوى تاجر يُدعى عمر الخلاطي، وذلك في مجلس الحكم الذي كان يعقده بالقدس الشريف^(٣).

والأمر اللافت للنظر إصرار صلاح الدين على مباشرة هذا المجلس بنفسه على الرغم من كثرة أشغاله، وسعة فتوحاته، وتعدد المهمات الجليلة التي كان عليها، وما ذاك إلا لأن إنصاف المظلومين أمرٌ من مهام الدولة الإسلامية بما تتخذه من أنظمة إدارية، قال العز بن عبد السلام: (والغرض

(١) كتاب الاعتبار، ص ١٨٤.

(٢) النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٩١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦.

من نصب القضاة إنصاف المظلومين من الظالمين، وتوفير الحقوق على المستحقين، فلذلك كان سلوك أقرب الطرق في القضاء واجباً على الفور؛ لما فيه من إيصال الحقوق إلى المستحقين، ودرء المفسدة عن الظالمين^(١).

ثانياً: مظاهر من عدل الملك الكامل:

ومن ملوك الدولة الأيوبية الذين عُرفوا بالعدل الملك الكامل^(٢)، فكان لا يتجاسر أحد أن يظلم أحداً في دائرة مملكته، قيل: إنه حكم بالتعزير بالشنق على أجناده له اغتصبوا شعيراً بأرض آمد^(٣).

كما روي أنه كان في حال إقامته وسفره لا يقدر أحد أن يأخذ من فلاح عِلافة تبن. ولعدله البالغ كانت الطرق في أيامه آمنة بحيث يسير الراكب وحده بلا عِدَّة^(٤).

ويذكر الذهبي في ترجمة الملك الكامل أن أحد العمال استخدمه أستاذه ستة أشهر بلا راتب، فاشتكى إلى الكامل فأمر بإنصافه طوال المدَّة^(٥).

ثالثاً: مظاهر من عدل الملك العزيز:

ومن الملوك الأيوبيين العادلين: الملك العزيز، فقد رُوي أنه عندما استقرَّ له الأمر بدمشق في الرابع عشر من شعبان سنة (٥٩٢هـ) أظهر العدل وأبطل عدة مكوس^(٦).

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام: ٢ / ٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٧.

(٣) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٠٠: تاريخ الإسلام، ص ٢٥٧، وفيات (٦٣١ -

٦٤٠هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٩.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٠٠.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٧.

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٥٣.

كما يُذكر عنه أيضاً أنه نال محبة الرعية وعُرف بعدله^(١).

كما روي أنه كان يجلس للمظالم في يومي الإثنين والخميس^(٢).

وثمة حادثة حدثت معه تؤكد لنا اهتمام هذا الملك بخلق العدل، فقد روي: أن كمال الدين العجمي طلب القضاء بحلب، وبذل الأموال، فردّه ولم يلتفت إليه، ورأى أنّ ذلك يكون ذريعة إلى الجور، فمَن يدفع مالا ليصير قاضياً لا يكون مأموناً، وعيّن بدله القاضي ابن شداد المعروف بالنزاهة^(٣).

رابعاً: مظاهر من عدل القضاة الأيوبيين:

وقد لمع في الدولة الأيوبية بعض القضاة الذين تميّزت سيرتهم بالعدل والبعد عن المحاباة، فكان القاضي ابن الشيرازي الدمشقي يتصف بذلك، ويستوي عنده الخصمان في النظر والإقبال عليهم بالتساوي^(٤).

ومنهم جمال الدين بن الحرستاني، فقد ذُكر عنه أنه كان عادلاً في ولايته صارماً، وكان عديم الالتفات إلى شفاعة الأكابر عنده^(٥). وثمة حادثة وقعت معه تؤكد حرصه البالغ على العدل، فقد روي: أن الملك العادل كتب لبعض خواصّه يوصيه به في خصومة بينه وبين آخر، فجاء إلى جمال الدين بن الحرستاني ودَفَع إليه الكتاب، فقال: أيُّ شيء فيه؟ قال: وصية بي، قال: أحضر خصمك، فأحضره، والكتاب بيده لم يفتحه، وادّعى على الرجل، فظهر الحق لغريمه ففضى عليه، ثم فتح الكتاب، وقرأه، ورمى

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٤٤.

(٢) المصدر السابق: ١ / ١٣٦.

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥ / ١١٦.

(٤) تاريخ الإسلام، ص ٢٦٢، وفيات (٦٣١ - ٦٤٠هـ).

(٥) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٣٨٩.

الكتاب لحامله، وقال: (كتاب الله تعالى قد قضى وحكم على هذا الكتاب)، فمضى الرجل إلى العادل، فبكى بين يديه، وأخبره بما قال، فقال العادل: (صدق، كتابُ الله أُولَى من كتابي)^(١).

وهذه القصة في الحقيقة مصداق حي لما وصل إليه هذا القاضي النَّزِيه من سموّ ورفعة في خلقه الإسلامي الذي صاغته التوجيهات النبوية التي سرت في كيانه، وما أشدَّ حاجتنا في كل عصر إلى مثل هؤلاء القضاة الذين يقضون بقضاء الله، ولا يلتفتون إلى شفاعة حاكم أو وجيه أو مسؤول أياً كان، إذن والله لساد العدل بين الرعية، ونال كل ذي حقّ حقه، وذلك بمقولة هذا القاضي الذي شفع لخصمه الملك نفسه، ولكنه أجاب: (كتاب الله تعالى قد قضى وحكم).

خامساً: مظاهر من عدل النساء في العصر الأيوبي:

ولم يكن هذا الخلق النبيل مقصوراً على الرجال فقط، فقد اتصفت به نساء كريمات فضليات، ومن هؤلاء النساء صاحبة ضيفة خاتون بنت الملك العادل وزوجة الملك الظاهر، فقد كانت تتصرف تصرف السلاطين، وتنهض بالملك أتم نهوض: بعدلٍ وشفقة، وأزالت المظالم والمكوس في بلاد حلب، وآثرت الفقراء والعلماء^(٢).

* * *

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٣٩١.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٤٣٧، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ).

المطلب الثاني خلق التواضع

التواضع خلق نبوي كريم، وجليّة جذابة، وشيمة عظيمة، يستهوي القلوب ويستثير الإعجاب والتقدير، وقد حثّ عليه الإسلام، ورغب فيه، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

و ضد التواضع الكبر، وهو خلّة مذمومة، وحسبنا أن نعلم أنه السبب في طرد إبليس من الجنة، وذلك عندما رفض السجود لآدم ﷺ، تكبراً واستعلاءً، فكانت النتيجة أن حلّ عليه الغضب الإلهي: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

ولقد توعدّ الله تعالى المتكبرين عذاب النار يوم القيامة، فقال جل وعز: ﴿الْيَسْ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

ولقد تمثّل رسول الله ﷺ خلق التواضع، واتخذ منهجاً عملياً في حياته، ومع صحابته، فقد كان ﷺ مع علو قدره، ورفعة منصبه أشد الناس تواضعاً، وألينهم جانباً، وقد روي عنه أنه قال ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(١).

والتواضع من الأخلاق الإسلامية التي نجد لتطبيقاتها أمثلة عند دعاة الدولة الأيوبية، ومن ذلك:

(١) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع: ١٦/١٢٠، برقم (٦٥٤٤).

أولاً: مظاهر من تواضع صلاح الدين:

وقد عُرف عن صلاح الدين هذا الخلق العظيم حتى إنّه اشتهر به^(١).

فقد روي: أنه لما تولّى أمور الملك وشرع في ترتيب الأمور، أحبه من كان تحت ألوّيته وراياته، وما زالت محبته غالبية على مهابته، وهو يباليغ في تقريبهم كأنهم ذوو قرابته، وما زاده المُلْك ترفُّعاً، وما أفاده إلا تأصُّلاً في السماح وتفرُّعاً^(٢).

وروى عنه معاصروه ممّن كانوا قريبين منه في السفر والحضر روايات كثيرة تُؤكِّد أنه كان قريباً من الناس كثير الاحتمال، ومن هؤلاء الذين ذكروا كثيراً من الأمثلة عن خلق التواضع ابن شدّاد؛ إذ يقول: (لقد كانت طرّاحته تُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر بذلك)^(٣).

وذكر عنه أيضاً أنه زاحم وركه حتى ألمه ذلك، فما كان منه إلا أن تبسّم، ويقول أيضاً: (ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ریحٍ مطيرٍ إلى القدس الشريف وهو كثير الوُحْل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يبتسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني)^(٤).

أية سعة صدرٍ هذه التي اتّسم بها صلاح الدين! لقد جعلته يستوعب خطأ صديقه غير المقصود في وقتٍ عزيز، فلم يُعاتب، وإنّما تبسّم على الرغم مما جرّ عليه من بأسٍ وإتلاف، إنّه والله خُلِقَ شبيهه بأخلاق الصالحين من عباد الله.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٣.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٧٣.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٩.

(٤) المصدر السابق نفسه.

ويذكر الذهبي أن صلاح الدين لم يتكبر على أحدٍ من أصحابه، وكان يعيب على الملوك المتكبرين، وكان يحضر عنده الفقراء، فإذا قام أحدهم يؤدي أمراً بين يديه قام صلاح الدين، فلا يقعد حتى يفرغ^(١).

إنَّ تصرُّف صلاح الدين مع الفقير يُعدُّ أمراً طبيعياً عند مَنْ تربَّى في محراب الإسلام، ولكننا في الحقيقة نعدم هذا الخلق عند الكثير من ملوك التاريخ الذين يأنفون أن يكونوا بقرب الفقير والمسكين، ناهيك عن تقديم العون لهما مباشرة.

وكان ﷺ يدور على الجيش ويقول: أنا واحد منكم، وكان في الشتاء يعطي العساكر إجازة، ويقيم هو مع نفر يسير^(٢).

ومن تواضع صلاح الدين: ما رُوي أنه لما دخل دمشق سنة (٥٧٠هـ)، مشى بنفسه إلى دار القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فأسرع القاضي لتلقّيه، ولكن السلطان دخل البيت وبأسطه قائلاً: طب نفساً، فالأمر أمرك، والبلد بلدك^(٣).

كما ذكر ابن الأثير في «الكامل» أن بناء أسوار بيت المقدس اقتضت جَمْع الحجارة، وعندما قَلَّتْ كان صلاح الدين يركب، وينقل الحجارة بنفسه على دابّته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به الجند، وقد جمع في اليوم الواحد ما يجمعه الآخرون عادة في عدّة أيام^(٤).

أليس في تصرف هذا الملك الصالح ما يذكرنا بمشاركة نبينا محمد ﷺ في جَمْع الحجارة، فقد روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه: (لما كان يوم الأحزاب، وخذق رسول الله ﷺ، رأيتُه ينقل من تراب الخندق، حتى وارى

(١) الكامل في التاريخ، ص ١٢ / ٩٧؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٥٧.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٥٧.

(٤) الكامل في التاريخ: ١٢ / ٧٤؛ انظر: سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢.

عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعتة يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب يقول:

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا
قال: ثم يمدُّ صوته بأخرها^(١).

ولا يعيب هذا عظماء النفوس، والذين يشعرون أنهم قدوة لجندهم وأصحابهم، وكأنني بصلاح الدين بذلك الموقف يتابع منهج النبوة، ويقتفي أثره. ويذكر صاحب «شفاء القلوب» أن صلاح الدين كان يلين لمن جالسه، فلا يعلم جليسه أنه مع سلطان، ويظن أنه مع أخ من الإخوان^(٢). وصفة القرب من الناس، وكثرة الاحتمال لهم صفة بارزة من صفات صلاح الدين^(٣).

ولقد مدحه الموفق عبد اللطيف - أحد معاصريه - بذكر عدد من محاسنه، ومنها التواضع؛ فقال عنه: (أتيت وصلاح الدين بالقدس، فرأيت ملكاً يملأ العيون روعة والقلوب محبة، قريباً بعيداً، سهلاً محبباً، وأصحابه يتشبهون به، ويتسابقون إلى المعروف، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّنْقَلَبِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧])^(٤).

وقد شهد الأعداء أيضاً على تواضع صلاح الدين، فقد روي: أن أحد الرسل قال: (رأيت صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف، وتحتة سجادة، وبين يديه مصحف، وهو مستقبل القبلة، وإلى جانبه سيفه، وجعبته

(١) رواه البخاري في كتاب: القدر، باب: وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله: ٢٤٤١/٦، برقم (٦٢٤٦).

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢.

معلّقة في عمود الخيمة، ولقد فارقت الأمراء وهم على طنافس الحرير، والخمور تُراق، والطبول تُقرع، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المحرمات، فأدّيت إليه الرسالة، وجاء وقت الظهر، فضجّ العساكر بصوت الأذان، وفي كل خيمة إمام^(١).

وأود أن أقف قليلاً أمام موازنة واردة: المشهد الأول فيها ملوك عليهم سيماء البطر والأشر والبذخ والترف، في أسرّة رفيعة، وحشود مزدحمة تحرص على راحتهم، وفي المشهد الثاني ملكٌ يحمل مصحفه، ويفترش سجّادته في خيمة متواضعة، وهذا هو الفرق بين مَنْ هم أحرص الناس على حياة، وبين مَنْ هم أحرص الناس على رحمة الله.

وذكر الذهبي أنّ بطانة السلطان كانوا على شاكلته في التواضع، فكان القاضي الفاضل والعماد يحملون الحجارة لبناء سور بيت المقدس^(٢). ويشارِكهم في ذلك أولاده وأمرأؤه وأجناده، ومعهم القضاة والولاة.

ويذكرون عن القاضي الفاضل كثيراً من الروايات التي تؤكد تواضعه، وعيادته للمرضى، والإحسان إلى الفقراء^(٣). وخيرٌ كبيرٌ للأمة إذا كانت بطانة السلطان تُظهر صلاحه، وتساعد على تحقيق مصالح رعيته.

ثانياً: من مظاهر تواضع الملك الأشرف:

ومن ملوك الدولة الأيوبية الذين عُرفوا بالتواضع: الملك الأشرف، فقد زُوي أنه كان يُبالغ في الخضوع للفقراء، ويزورهم ويبعث في رمضان بالحلوى لهم^(٤).

(١) الحروب الصليبية، ص ١٤٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٢.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٢.

ويروون عنه قصة تحكي تواضعه، فقد جاءه رجلٌ بخيارٍ، فقصّره وأكله، ولم يُطعم أحداً منه، فتعجبوا منه فقال: (والله ما قشّرت منه واحدة إلا وجدتها مُرّةً، فما أمكنني أن أذكر ذلك، وأن أرمي منه واحدة؛ لئلا أكسر قلب الذي جاء به، فكنت كلما تطعمت بواحدة التزمت أكلها حتى أتيت على الجميع)^(١).

ثالثاً: من مظاهر تواضع الملك المعظم:

ومنهم أيضاً الملك المعظم^(٢)، فقد كان مع هيئته قليل التكلّف، وكان يركب في بعض الأحيان وحده، ثم يلحقه بعض غلمانته^(٣)، ولما زار القدس كان الرجال والصبيان يُزاحمون ولا يردّهم أحدٌ عنه، ولما كثر ذلك منه ضرب به المثل، فكان الإنسان إذا فعل فعلاً لا تكلف فيه يقولون: فعلاً مُعظّماً^(٤).

ومن الملوك المتواضعين الملك المحسن، فقد مدحه المؤرخون لآتصافه بالتواضع^(٥).

رابعاً: من مظاهر تواضع العلماء:

— من الأعلام المتواضعين الذين عاصروا الدولة الأيوبية القاضي الفاضل، فقد كان متقللاً في مطعمه ومنكحه ولباسه، ولا يبلغ جميع ما عليه من ثياب دينارين، ويركب ومعه غلام وركابي^(٦).

— ومنهم الشيخ عماد الدين المقدسي الجماعيلي، وقد أقام بدمشق يُعلّم

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: ٥ / ١٤٠.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٢٦٨.

(٣) المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٨٠.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٨٢؛ المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٨٢.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٠٣.

(٦) المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٩٢.

الفقراء ويُقرِّئهم ويُطعمهم ويتواضع لهم، وكان من أكثر الناس تواضعاً واحتقاراً لنفسه وخوفاً من الله^(١).

— ومن هؤلاء الأعلام الموفق بن قدامة، فقد عُرف بالتواضع الشديد مع أهل بيته، فلا يُكَلِّفهم بشيء من غسيل أو طعام، فإن جاؤوا بشيء أكل وإلا سكت^(٢).

— ومنهم القطب النيسابوري الشافعي، ويروى أنه كان حسن الأخلاق، قليل التصنع، مُطَّرِح التكلُّف^(٣).

— ومنهم أيضاً: ابن العديم الحنفي، فقد روي أن الملك الظاهر حضر، وهو لم يأت بعد، فطلبه فقبل له: حتى يُنهي ورد الضحى، ثم جاء وقد تكامل الناس، فقام كلهم ولم يقم هو لأحد، ثم ولي قضاء دمشق ولم يعبأ بالمنصب، ولم يُغيِّر زيَّه، ولا وسَّع كُمَّه^(٤).

— وممن اشتهر بالتواضع جمال الدين بن الحرستاني، فقد ذُكر عنه أنه كان مقتصداً في ثيابه ومعيشته، ولم يدع أحداً من غلمان القضاة يمشي معه^(٥).

إن تواضع هؤلاء الدعاة يذكّرنا بوصف الله تعالى لعباده المؤمنين في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فلقد طبق هؤلاء الأفاضل هذه الآية الكريمة، وتمثلوا هذا الخلق العظيم في تعاملهم مع الناس، ويظهر أنّ دعوتهم كان لها أثر كبير؛ فقد أزال التواضع ما بينهم وبين المدعويين من حواجز، فصار تبليغهم للرسالة أبلغ وأيسر.

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٤٩.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٤٩١، وفيات (٦١١ - ٦٢٠ هـ).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٢ / ٢٦٣؛ وفيات الأعيان: ٥ / ١٩٦.

(٤) المنهل الصافي: ٧ / ٢٠٣.

(٥) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٣٩١.

المطلب الثالث خلق الكرم

الكرم والسخاء خلق نبوي كريم، وفضيلة قويمه، تنبى عن سمو صاحبها، ونبل أصله؛ وذلك بترفعه عن الزائد من حطام الدنيا وأموالها، ببذلها بطيب نفس لغيره من المسلمين، ولقد اشتهر نبي الله إبراهيم عليه السلام بالكرم واليد المعطاء، فكان يستضيف الضيفان دائماً ويكرمهم، قال تعالى عنه: ﴿ هَلْ أُنكِّحُ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤].

ولقد ربى الله تعالى نبيه محمداً عليه السلام على هذا الخلق العظيم، ومدحته زوجته خديجة عليها السلام به، وعدت تلك الصفة من الخلال التي تميز بها، وبها استحق معونة الله له وإكرامه، وقد جاء في الصحيح قولها عليها السلام للنبي عليه السلام: (أبشر، فوالله لا يُخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)^(١).

ونلاحظ في سيرة أعلام الدولة الأيوبية أن من أبرز الأخلاق الإسلامية التي اتصفوا بها: الكرم، وتوزيع الهبات الكثيرة على العباد، والبعد عن ملء الخزائن الشخصية بالغانم أو حبسها على النفقات الخاصة بالقصور، ومن الشواهد على ذلك:

أولاً: من مظاهر كرم صلاح الدين:

ومن أبرز من اشتهر بذلك الخلق القويم صلاح الدين، فقد كان في مكنته أن يجمع من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة؛ نظراً لكثرة فتوحاته وغانمته، واتساع موارد الدولة، ولكنه - كما يقول ابن الأثير -

(١) رواه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة اقرأ: ٤/١٨٩٤، برقم (٤٦٧٠).



(كان كثير البذل لا يقف في شيء يُخرجه، ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يُخلف في خزائنه غير دينار واحد صوريٍّ وأربعين درهماً ناصريّة، وبلغني أنه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة، وأما العين والثياب فإنه لا يدخل تحت الحصر، ولما انقرضت الدولة العبيدية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرّقه جميعه)^(١).

وهذا ابن شداد يقول: (هو كلما استولى على خزانة من المال وهبها، وكلما فُتح له خزائن ملك أنهبها، ولا يُبقي لنفسه شيئاً)^(٢).

وما كان أسهل على هذا الملك أن يُبقي لنفسه ما يريده من حرّ المال وصفوته، ولا سيما مع سعة موارد الدولة، وما كان أسهل عليه أن يكون له من الثروات العينية ما يفوق الحصر، ولكنه أعرض عن هذا، وآثر توزيع هذه الثروات على مستحقيها.

وذكر الذهبي أن صلاح الدين لم يُخلف مُلكاً ولا عقاراً^(٣)، وأن أكثر ما يصل عطاؤه إلى العلماء، وأرباب البيوت، والذين يُظهرون شجاعة في المعارك، ولم يكن يصل مُبتلاً أو مَرّاحاً^(٤).

كما زُوي أنه كان يُكارم الناس مكارمةً عظيمةً^(٥).

ولم يكن من عادة هذا الملك الصالح أن يستأثر بالغنائم التي يصل

(١) الكامل في التاريخ: ١٢ / ٩٧.

(٢) النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٤٥؛ وانظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٢٤/٢.

(٣) انظر: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٨.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٠٣.

إليها في حروبه، فقد ذكر المؤرخون أن صلاح الدين عندما استولى على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزانها، بل وزّع ما وجد على الأهالي^(١).

وعندما فتح دمياط بالغ - كما يقول أبو شامة - في الهدايا والعطايا والهبات^(٢)، كما يُؤكّد ﷺ أن صلاح الدين كان إذا عرف في خزانته شيئاً لا يستطيع له تلك الليلة المقام حتى يُفرّقه جوداً^(٣).

وما أشبه هذا الموقف بموقف رسول الله ﷺ الذي حث على هذه الخلة العظيمة في قوله: «إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفافها»^(٤)، كما وصفه ابن عباس قائلاً: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)^(٥). وهذا صلاح الدين ممن تربى على هذه المدرسة النبوية: (لا يستطيع له تلك الليلة المقام حتى يفرّقه جوداً).

ومن المواقف الرائعة في حياة السلطان صلاح الدين والتي تحكي كرمه وجوده: ما حصل أثناء حصاره لآمد، حيث رُوي أنه لم يزل الحصار عليها حتى استسلم أهلها، وخرجت نساؤهم سَحراً إلى المخيم الفاضلي يطلبن الأمان، فأقنهم السلطان على أن يخرجن بعد ثلاث، ويحملن ما يقدرن عليه من المال والأثاث، وقد أعانهم السلطان على نقل الأموال بالدواب والرجال، فلما انقضت مدّة الأمان تسلّمها السلطان، وسلّمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان وأعمالها ومن فيها^(٦).

(١) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٢٧٢.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٤١.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ٢٦٩.

(٤) المستدرک علی الصحیحین، کتاب الإیمان: ١١١/١، برقم (١٥١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير: ٥٨/١٥، برقم (٥٩٦٢).

(٦) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٤٨ - ١٤٩.

ومن مواقفه الكريمة أيضاً: أنه لما وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود نائباً عن أبيه، فرح به السلطان فرحاً عظيماً، وتلقاه من بعيد هو وأهله، وأنزله عنده في الخيمة، وكرمه مكارمة عظيمة، وقدم له تحفاً حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر.

ثانياً: من مظاهر كرم الملوك الأيوبيين:

ومن ملوك هذه المدة الذين يصفهم المؤرخون بالكرم وكثرة الخير والبذل والعطاء أسد الدين شيركوه^(١)، والملك المعظم^(٢)، والملك العادل^(٣)، والملك الناصر^(٤)، وتوران شاه بن أيوب^(٥).

ومنهم أيضاً الملك العزيز الذي قيل عنه: إنه بلغ من كرمه أنه لم تبق له خزانة إلا وأنفق ما فيها^(٦)، كما روي أنه كان يعطي العشرة آلاف دينار، ويعمل سماطاً عظيماً يجمع الناس لأكله^(٧).

أما المظفر فيذكرون عنه: أنه لم يكن شيء أحب إليه من الصدقة، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز تُفَرَّق على المحاويج، ويجتمع خلق كثير عند بابه، فيدخلهم إليه، ويدفع لكل واحد منهم كسوة على حسب الفصل من الشتاء أو الصيف^(٨).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١١٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٠.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ١٦٧.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٠٤.

(٥) المصدر السابق: ٢١ / ٥٣.

(٦) المصدر السابق: ٢١ / ٢٩١ - ٢٩٣.

(٧) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٤٤.

(٨) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٥ / ٥٤.



والملك الأشرف أيضاً عُرِفَ عنه الكرمُ، فكان يزور الفقراء ويُعطيهم، ويبعث بالحلاوات لهم في رمضان^(١)، كما رُوي أنه لم يكن في خزائنه مالٌ مع اتساع ملكه، ولا تزال عليه ديون للتجار^(٢).

ويذكر المؤرخون عن الملك عز الدين بن فرخشاه أنه كان من أكرم الناس يداً، ومما يُحكى عن كرمه أنه رأى رجلاً قد افتقر بعد غنى، فأمر له بثياب وركوب وبألف دينار، وأجرى له راتباً عشرين ديناراً كل شهر^(٣).

ومن أمراء الدولة المشهود لهم بالكرم: عماد الدين الهكاري بن المشطوب^(٤).

ثالثاً: من مظاهر كرم العلماء:

أكثر ما وجدت من أمثلة الكرم كانت عند الملوك، ولم أقف على الكثير منه عند العلماء، وأعتقد أن سبب ذلك هو توفر الأموال عند الملوك أكثر منها عند العلماء، إضافة إلى اشتهاهم بالزهد والقناعة، وعدم الالتفات إلى جمع الأموال.

ومن الشواهد التي حصلت عليها عن كرم العلماء في هذا العصر: كرم الحافظ ابن عبد الغني، فقد روي: أنه أهدي إلى بيته مشمش ففرقه قائلاً: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^٥ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٢.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٩٨.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٢٧.

(٤) وفيات الأعيان: ١ / ١٨٠.



وقد فتح له بكثير من الذهب وغيره، فما كان يترك شيئاً، ولقد كان الحافظ في الغلاء بمصر ثلاث ليال يؤثر بعشائه ويطوي على الجوع، وكان الحافظ يؤثر بما تصل يده إليه سرّاً وعلانية، قال بدر بن محمد الجزري: ما رأيت أحداً أكرم من الحافظ، كنت أستدين يعني لأطعم به الفقراء، فبقي لرجل عندي ثمانية وتسعون درهماً، فلما تهيأ الوفاء أتيت الرجل فقلت: كم لك؟ قال: ما لي عندك شيء! قلت: من أوفاه؟ قال: قد أوفي عنك، فكان وفاه الحافظ، وأمره أن يكتب عليه^(١).

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٥٧.

المطلب الرابع خلق الحلم

الحِلم: هو كَظْم الغيظ، والبعد عن الغضب، ومقابلة السيئة بالحسنة، والترفع عن شتم الناس وسبِّهم، وهو صفة من صفات الله تعالى على ما يليق به جلَّ وعزَّ، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

ولقد مدح الله نبيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لاتصافهما بهذه الصفة العظيمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

ولقد كان الرسول ﷺ من أحلم الناس، فكان لا يضيق صدره بما يصدر عن بعض أصحابه من أخطاء، كما أنه كان يعلمهم الحلم وكظم الغيظ.

ولقد أثنى رسول الله ﷺ على أحد الصحابة - أشج عبد قيس - لاتصافه بالحلم؛ حيث قال له: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»^(١).

وبين رسول الله ﷺ أن الحلم يُظهر قوة إرادة صاحبه، وتحكّمه في انفعالاته، فقد جاء في الحديث: «ليس الشديدُ بالصُّرْعَةِ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢).

والحلم وسعة الصدر والتغافل عن هفوات الآخرين وإعذارهم، من الأخلاق السامية التي اشتهر بها دعاة هذا العصر، ومن الشواهد على ذلك الخلق الكريم:

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين: ١٦٤/١، برقم (٨٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الأداب، باب: الحذر من الغضب: ٢٢٦٧/٥، برقم (٥٧٦٣).

أولاً: من مظاهر حلم صلاح الدين:

كان صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أبرز مَنْ تميّز بالحلم، وتزخر كتب المؤرّخين بكثير من الروايات التي تؤكّد ذلك، وهذا الخلق خلقٌ نبوي أصيل استقى منه هذا الملك الصالح، فقد ذكّر عنه أنه كان كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع ما يكره فلا يتغيّر على صاحبه^(١).

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحترم كل مَنْ خدمهم، ويعاملهم معاملة لينة، فإذا وقع من أحدهم ما يُسيئه كتمّه ولم يُظهره^(٢). كما رُوي أن صلاح الدين لما واجهه الملك الصالح بالاتهامات لأطماع شخصية لم يُقابلهُ إلا باللين والرفق والتبسّم^(٣).

وقد حكى القاضي شهاب الدين ما يدلّ على حلم صلاح الدين فقال: (نفرت بغلتي فزحمت وركّه وأوجعته، فما كان منه إلا التبسّم)^(٤).

وكان يوماً جالساً وإلى جانبه بعض الغلمان يلعبون، فرمى أحدهم بحذاء، فأخطأته، ووقعت بالقرب من السلطان، فالتفت صلاح الدين إلى الجهة الأخرى، وكأنّه تغافل عنها وعن صاحبها^(٥).

ويتحدث عنه ابن شداد الذي كان جليسه في الحضر والسفر فيقول: (كان متجاوزاً، قليل الغضب^(٦))، ولا يرى الإساءة إلى أصحابه وإن أفرط في الخيانة، ولقد أُبدل في خزائنه كيسان من ذهب بكيسين من الدراهم، فما عمل بالمسؤولين شيئاً سوى أن صرّفهم من عملهم)^(٧).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩٢؛ وانظر: سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٨.

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٢٧٢.

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ٢١.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩٢.

(٥) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٦) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٨.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٣؛ وانظر: صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٢٧٢.

ويذكر عنه ابن شداد أيضاً أنه مرّ به وقت كان فيه مُتضجراً، وفي حالة ضيق نفسي، فتقدّم إليه أحد مماليكه بمعروضٍ فقال صلاح الدين: أنا الآن ضَجِرٌّ، أخّر معروضك بعض الوقت. ولكن المملوك أصرّ وتقدّم إليه بالمعروض من طريقٍ آخر، فوقف صلاح الدين على المعروض فعرفه فقال: رجل مستحقّ، وكانت الدّواة التي سيُوقَّع بها بعيدة عنه، ولكنه امتدّ على يده اليسرى، ومدّ يده اليمنى، فأحضرها ووقَّع بها وقال: ما ضرنا شيئاً، قضينا حاجته وحصل الثواب، يقول ابن شدّاد: (ولو وقعت هذه الواقعة لأحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يُخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك؟! وهذا غاية الإحسان والحلم)^(١).

ويذكر أبو شامة أنه كان لصلاح الدين إمام يصلي به، وهو يكتب له مثل خطّه، فاستغلّ الإمام ثقة صلاح الدين، وزوّر لأصدقائه أوامر سلطانية بمنحهم أموالاً، وكان صاحب الديوان ومُتولّي الخزائن يشكّ في أنّ التوقيع صحيح، ودام هذا الأمر سنين طويلةً، ثمّ انكشف أمره لدى السلطان، وجلسُ أمراء السلطان يُغرونه به، فقال له مستشاره العماد سرّاً: تهبه للقرآن، فقال: نعم، ونفّس من خناقِهِ، وأمر بإطلاقِهِ^(٢).

ومن المواقف الدالّة على حلمه ﷺ، ما ذكر أبو شامة: أنّ مدينة حلب استسلمت لصلاح الدين بعد حصارٍ طويلٍ، فعرف أهلها أنّ العقوبة أليمة والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلّل، وخاطبوه في التفضّل، وطلبوا الصلح، فأجابهم صلاح الدين، وعفا وعفّ وكفى وكفّ، واستقرى كلّ عثرةٍ لهم وأقالها^(٣).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٨؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩١؛ مفرج الكرب في أخبار بني أيوب: ٤٣٧/٢.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٨ / ٣.

(٣) المصدر السابق: ٤٢٢ / ٢.

وفي مرضه الأخير الذي مات بعده بمدة قليلة، جلس مُسْنِداً ظهره إلى وسادة وطلب ماءً، فأحضر له ماءً فاتر، فوجده شديد الحرارة، فطلب تعديله، فعرض له ماءً شديد البرودة، فلم يغضب، ولم يقل سوى هذه الكلمات: (سبحان الله، لا يمكن لأحدٍ تعديل الماء!).

يقول القاضي ابن شداد: (فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده، وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: أَبْصِرْ هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أنّ هذا صدر من بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس مَنْ أحضره)^(١).

ويذكر المؤرّخون أن صلاح الدين ارتحل مع بعض إخوته وأمرائه إلى الشيخ أبي الطاهر السلفي لطلب العلم، وفي أثناء أحد الدروس كان صلاح الدين يتحدّث مع أخٍ له، فزَيَّرَهما الشيخ مُعْتَرِضاً على حديثهما قائلاً: نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدّثان؟ فلم يبدُ من صلاح الدين أيُّ جفاء وإنّما قابله بجلم^(٢).

ويذكر ابن الأثير أن بعض من خدّمه أسقط سهواً وعاء الماء، فوقع الماء جميعه عليه، وكان الماء بارداً، والسلطان في مرضه، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تريد قتلي فعرفني. فاعتذر إليه، فسكت عنه^(٣). وقد حَكَمَ هذا المؤرّخ على صلاح الدين بكثرة العفو والصفح^(٤).

وروي أنه طلب مرّة الماء، فلم يُحضر له أحد شيئاً، وعاود الطلب في

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٦٠/٤؛ وانظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٤١٧/٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٥.

(٣) الكامل في التاريخ: ٩٦ / ١٢.

(٤) المصدر السابق: ١٢ / ٢٣.

مجلس واحد خمس مرات، فلم يحضر، فقال: يا أصحابي، والله قد قتلني العطش! ولم يُنكر على خَدَمَتِه التمهّل في إحضار الماء^(١).

ومن حِلْمِه وسعة صدره، والبُعد عن حظّ النفس والغدر، ومقابلة الإساءة بالغفران والصفح، ما ذكره أبو شامة: أنّ القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري كان في أيام نور الدين زنكي هو الحاكم المتحكّم وصلاح الدين إذ ذاك يتولّى ما يسمّى بالشحنكية بدمشق، والقاضي الشهرزوري كان يُعارضه بمخالفة أغراضه، وكان في نفس صلاح الدين على القاضي الشيء الكثير، إلى أن نقله الله إلى المُلْك وصار القاضي أحد قضاة ممالكه، ولكنّ صلاح الدين أجراه على حكمه، ولم يؤاخذه وخاطبه بإحسان، ولم يزل يستفتيه ويأخذ برأيه ويعتدّ بفتواه^(٢). ويُشير هذا المؤرّخ إلى أنّ صلاح الدين كان يبلغه عن بعض رجالات نور الدين زنكي أشياء تؤلمه، فكان يواجهها بصدْرٍ رَحْبٍ وخُلُقٍ عذبٍ، وما قدر أحدٌ أن يوقع بينهما^(٣).

ثانياً: من مظاهر حلم الملك الأفضل:

ومن أعلام الدولة الأيوبية الذين يُذكرون بالحلم الملك الأفضل، فقد وُصف بأنه قلّ أن يُعاقبَ على ذنب^(٤)، كما قال عنه الذهبي: (تميّز بالحلم ولم يكن في الملوك مثله)^(٥).

(١) الكامل في التاريخ: ٩٦/١٢.

(٢) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٤٢٦.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢ / ١١٨ - ١١٩.

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٤ / ١٥٥.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٦.

ثالثاً: من مظاهر حلم الملك العادل:

ومنهم أيضاً الملك العادل، فقد رُوي أنه كان حليماً فيه صفح وإيثار^(١)، كما يذكر صاحب «النجوم» عن العادل أنه كان فيه حلم وأناة^(٢).

رابعاً: من مظاهر حلم الملك الكامل:

من الملوك الذين اتصفوا بالحلم الملك الكامل، روي: أن بعض الشعراء هجاه، فلم يلتفت إليه^(٣).

خامساً: من مظاهر حلم الملك الصالح:

رُوي: أنه لم يقع للملك الصالح حال غضبه قط كلمة هَجْر^(٤)، وكان إذا غضب على أحد غلمانه يقول: يا سبحانَ الله، ما كان الأمر كذا وكذا. وكان لا يُسمع منه شتيمة^(٥).

سادساً: من مظاهر حلم العلماء:

اشتهر بالحلم الشيخ أبو طاهر السلفي، فقد روي: أنه كان حليماً متحملاً لجفاء الغرباء^(٦).

ومنهم أيضاً: الحافظ عبد الغني، فقد روي أنه لما حدثت فتنة في دمشق بين الحنابلة والشافعية، ضاق صدره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومضى إلى بعلبك، فأقام بها مدة، فقال له أهلها: إن اشتهيت جننا معك إلى دمشق نوذي من آذاك، فقال: لا. وتوجّه إلى مصر^(٧).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١١٦.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ١٦٧ / ٦.

(٣) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٠٠.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٨١.

(٥) كنز الدرر وجامع الغرر: ٧ / ٣٧١.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٥.

(٧) المصدر السابق: ٢١ / ٤٦٠.

ومن العلماء الذين عُرفوا بالحلم والتعامل الحسن مع الناس، وإن كانوا من المفسدين، العز بن عبد السلام، فقد روي أنه قصده جماعة من المفسدين وهو في بيته، فخاف أهله، فنزل العز إليهم، وفتح لهم الباب، وقال: أهلاً بضيوفنا، وأجلسهم في مقعدٍ حسنٍ، وكان مهيباً، فهابوه، وتناولوا الضيافة، وطلبوا منه الدعاء، وعصمه الله منهم^(١).

* * *

المطلب الخامس خلق الوفاء

الوفاء خلق عظيم أمرنا الله تعالى به فقال جل وعز: ﴿وَعَهْدَ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَنِّعْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ولقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه تعالى، وتخلّق بخلق الوفاء، ومن يُطالع السيرة النبوية يجد الكثير من نماذج وفائه مع زوجاته وأقربائه وأصحابه، وخير مثال على وفاء الرسول ﷺ: وفاؤه لخديجة ؓ، فقد روي عن عائشة ؓ قالت: (ما غرّت على امرأة ما غرّت على خديجة - وَلَقَدْ هَلَكْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ - لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُشْرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِي فِي خُلَّتِهَا مِنْهَا)^(١).

والوفاء والإنصاف من الأخلاق الإسلامية الراقية التي تُنبئ من يتمثل بها على جوهر صاحبه ونفاسة معدنه، وذلك لأنه يتحقق فيها الإقرار الدائم بالفضل، فالمرء الوفيّ معترفٌ غير جاحد، والإنصاف يقتضي منه أن يُسدي إلى أرباب الحقوق حقوقهم.

ولقد قلبت المراجع التي اعتمدت عليها في هذه الرسالة فوجدت شواهد كثيرة لوفاء صلاح الدين ﷺ جديرة بالذكر والتطبيق، ولكنني لم أجد شواهد تدل على وفاء بقية الملوك والعلماء، لذا اقتصرنا على ذكر ما وجدت.

فقد حرص صلاح الدين على الوفاء بالعهد، فقد رُوي عنه قوله: (إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نفِ بما نعد، ونُجزل العطاء، لم يثق بنا أحد)^(٢).

(١) رواه البخاري في كتاب: الأدب، باب: حسن العهد من الإيمان: ٢٢٣٧/٥، برقم (٥٦٥٨).

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٧٣.

وفي هذا الصدد يذكر أبو شامة أن نور الدين زنكي أنشأ منبراً عظيماً أبدع في تزيينه وتركيبه، وقد عرّف بنور فراسته أن فتح بيت المقدس أمرٌ قادمٌ فكان يُجهّز هذا المنبر لنصبه يوم الفتح، وقد بقي هذا المنبر غير منصوب حتى أمر صلاح الدين بالوفاء بنذر نور الدين ونقل المنبر إلى موضعه في بيت المقدس^(١).

وهذا الخلق من صلاح الدين وفاء بسيرة مجاهدٍ كان يتشوّق لفتح بيت المقدس، ولكن الله لم يُقدّر له ذلك، فجاء صلاح الدين وحقق النذر النوري، وهذا التحقيق من جانب صلاح الدين يُعدّ اعترافاً منه لأهل الفضل.

وهكذا كان صلاح الدين دائماً حريصاً على الوفاء لنور الدين زنكي أيّما حرص، فكان يُقدّره ويترحم عليه، ولم يخطر بباله أن يطمس أثره العظيم حسداً واستعلاءً، وإنّما أظهر أمامه كل اعتراف بفضله السابق.

وعندما اتّهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالإساءة لنور الدين ودولته بعد وفاة نور الدين قال: (إنا لا نوثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألّف كلمتهم، وللبيت الأتابكي إلا ما حفظ أصله وفرعه، فالوفاء إنّما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنّما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة، وبالجملة أنا في واد، والظانون بي ظن السوء في واد، ولنا في الصلاح مراد، ولمن يُبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلح: إنك قادح، ولمن ألقى السلاح: إنك جارح)^(٢).

ويذكر المؤرخون أنّ السلطان صلاح الدين حاصر قلعة إعزاز، فقاوم أهلها عدّة أيام، فلما يئس أهلها منها تراسلوا بالصلح، فقَبِلَ السلطان

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٩٤؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢٩.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٨٥.



ما عرضوا عليه من السلم، وفوجئ بابنة نور الدين زنكي تتقدم إليه - وكانت من المحاضرين وهي في سنّ العاشرة - فتلقاها صلاح الدين بالحباء والإكرام نظراً لمكانة أبيها، ومنحها الذهب والمال، وسألها عما تريد، فقالت: إن أهل إعزاز يريدونها دون سلطان عليهم، فابتسم السلطان وقال: (وهبت البلدة لك أنت، فامنحها لهم) وسألها عما تريد، فقالت: (أحب أن أذهب إلى حلب جوار أسرتي) فأصّر على أن يُرافقها بنفسه إلى أسوار المدينة إكراماً لذكرى أبيها.

وإكراماً لابنة نور الدين أمر بفك الأسرى جميعاً، وعالج جرحاهم، وفيهم أناس من عليّة القوم، فانقلبوا يهتفون بمروءته وذكره، ثم أغدق عليهم من الهدايا ما لم يكونوا يتوقعونه^(١).

ومن وفائه لنور الدين أن ابن أخي نور الدين وزوج ابنته وصل إلى حيث مكان إقامة صلاح الدين، فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم، واجتمع به في خيمته، وأنزله عنده، وصنع له طعاماً لائقاً، وقدّم له من التحف والهدايا ما لا يقدر عليه غيره، وطرح له طرّاحة مستقلّة إلى جانبه، وبسط له ثوباً أطلّس عند دخوله^(٢).

ويُروى أن السلطان صلاح الدين تخلّى عن شرقيّ الفرات لآل زنكي على الرغم من حقه الشرعي فيها بتفويض الخليفة العباسي، وذلك يعدّ اعترافاً منه بالبيت النوري^(٣).

وقد أظهر صلاح الدين من خلق الوفاء والإنصاف الكثير حتى مع أعدائه الذين اختلف معهم، فمن المعروف أنه هو الذي قوّض العرش

(١) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ١٠٧.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية؛ ٤ / ١٢٣.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٩١.

العبيدي في مصر، واستبدل به دولةً لأهل السُّنَّة، ولكنه كان يُقَرَّر بشيء من الفضل لأعدائه العبيديين، فيُنصِفهم، ويعترف بأيديهم عليه، يقول ﷺ: (ما رأيت أكرم من العاضد - وهو آخر الخلفاء العبيديين - جهَّز لي في حصار الفرنج لدمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها)^(١). وقد جلس ﷺ في عزائه، ومشى في جنازته، وتولَّى غَسْلَه، وتكفينه، ودفنه عند أهله، وودَّعه إلى قبره^(٢).

* * *

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٧/٦.

(٢) المصدر السابق: ٣٣٦/٥.

المطلب السادس خلق الورع

الورع: هو أخذ الحلال، وترك كل ما فيه شبهة، وهو خلق نبوي حثنا الإسلام عليه، ودعانا الرسول ﷺ إليه، قال ﷺ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَزْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَزْعَعَ فِيهِ»^(١).

وقد روي: أن النبي ﷺ مرَّ بتمرة في الطريق، قال: «لولا أنني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها»^(٢).

ونجد هذا الخلق العظيم في كثير من المواقف الجليلة عند أعلام هذا العصر ملوكاً وأمراء وعلماء، ومن ذلك:

أولاً: من مظاهر ورع صلاح الدين:

تذكر كتب التاريخ الكثير عن ورع صلاح الدين ﷺ، ومن ذلك أنه لما سافر لفتح بيت المقدس ولّى دمشق بدر الدين مودود، وكان معه الصفّي بن قابض، وبقيت معه الخزانة، فبنى الصفّي للسلطان داراً، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرها؛ ظناً منه أنها ستقع من السلطان بمكان، ولكن صلاح الدين عندما عاد ما أعارها طرفاً، وما استحسناها، بل كان هذا التصرف من جملة ذنوب الصفّي التي أوجبت عزّله عن الديوان. ولقد كان تعليق صلاح الدين على هذه الدار: (ما

(١) رواه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبّرأ لدينه: ٢٨/١، برقم (٥٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب: البيوع، باب: ما يُتَنَزَّهُ من الشُّبُهَاتِ: ٧٢٥/٢، برقم (١٩٥٠).

يصنع بالدار من يتوَقَّع الموت، وما خُلِقْنَا إلا للعبادة والسعي للسعادة، وما جئنا دمشق لنقيم^(١).

وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين البشارة بالفتوحات، فأرسل إليه الهدايا، فقال: والله ما كان بنا حاجة إلى هذا^(٢).

ثانياً: من مظاهر ورع الملك العزيز:

أما الملك العزيز فمن مظاهر وَرَعِهِ أنه كان عفيفاً عن الأموال، وقد احتاج في بعض حروبه إلى المال فامتنع من أخذ مال الرعية، واقترض مالاً من القاضي الفاضل^(٣)، ولقد قال عنه الذهبي: (وأما عِفَّتُهُ عن المال، فلا أقدر أن أصف حكاياته في ذلك)^(٤).

ثالثاً: من مظاهر ورع الملك الأشرف:

ومن الملوك الذين اشتهروا بالورع الملك الأشرف، وكان من أعف الناس وأحسنهم سيرة وسريرة، لا يعرف غير نسائه وسراريه، عفيفاً عن المحارم، فقد رُوي أنه كان يحضر مجالس الوعظ ويكي، وكان يعتز بورعه هذا ويقول: (ما مددت عيني إلى حريم أحد قط، لا أنثى ولا ذكر)^(٥).

وشيء نفيس يُذكر لهذا الملك الذي كان في مكنته أن يصل إلى شهوات نفسه وهواه، وليس ثمة صارف أمامه، ولكنه موقن بالله، وما توَعَّده على هوى النفس وشطحاتها، وذلك في قصة مشهورة تحكي

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١١/٤؛ الفتح القسي في الفتح القدسي، ٢١٦؛ صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٧٩.

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٨٣/٣؛ سير أعلام النبلاء: ٢١/٢٩٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١/٢٩٣.

(٥) المصدر السابق: ١٢٢/٢٢؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٩٠.

ورعه، إذ يروى: أن عجوزاً جاءتته تشتكي من حاجب مدينة خلاط أنه أخذ ضيعة ابنتها، وذكرت أن ابنتها الشابة تريد أن تقابله، وجاءت بها متميزة بحسن القوام والشكل، وأسفرت عن وجهها، فقال لها الأشرف: استتري، فقالت: مات أبي واستولى على المدينة الحاجب بكتمر، ثم أخذ ذلك الحاجب ضيعتي، فتأثر الأشرف بقصتها، وأمر بردّ حقوقها، فقالت العجوز: ألا تحظى الليلة بك؟ فقال الأشرف: فوقع في قلبي تغيير الزمان، وأن مدينة خلاط يملكها غيري، وتحتاج ابنتي أن تقعد هذه القعدة، فقلت: (معاذ الله ما هذا من شيمتي)، فقامت الشابة باكية تقول: صان الله عواقبك^(١).

وثمة حادثة أخرى تحكي ورعه وتغلبه على شهوات نفسه ما حكاه عن نفسه فقال: (كان لي مملوك أعز عندي من الولد، وعمره عشرون عاماً قتل غلاماً، فاستغاث أولياء المقتول، وطلبوا الثأر، فاجتمع عليهم ممالكي، وقالوا: نعطيكم عشر ديات، فأبوا، فسلمته إليهم، فقتلوه، ولو طلبوا ملكي دية دفعته إليهم، ولكن خفت الله أن أمنعهم حقهم لغرض نفسي)^(٢).

رابعاً: من مظاهر ورع الملك العادل والملك عماد الدين:

وممن تميّز بالورع الملك العادل، فقد روي أنه كان عفيف الفرج لا يُعرف له نظرٌ إلى غير حلالته، ولا يدخل في داره غلام إلا دون البلوغ^(٣).

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٧ / ٢٣٢؛ سير أعلام النبلاء: ١٢٤ / ٢٢؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٦٩؛ وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ)؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٩٢.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٩٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١١٦؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ١٦٧؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٧٢، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ).



ومنهم أيضاً الملك عماد الدين أبو الفتوح عثمان؛ فقد روي: أن رجلاً جاءه يطلب قضاء الصعيد مقابل مال، فامتنع وقال: (والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض)، مع أن خزانته لم يبق فيها درهم في ذلك الوقت^(١).

خامساً: من مظاهر ورع العلماء:

١ - ورع الحفاظ المقدسة:

وفي أسرة الحُفَّاظ المقدسة نماذج مضيئة عظيمة للورع والزهد والعفة، وفي سيرة كل واحد أمثلة كثيرة:

- منهم الضياء المقدسي محمد بن محمد بن عبد العظيم، فقد روي أنه رام بعض الكبار مساعدته ببناء مصنع للماء، فأبى وقال: لا حاجة لنا في ماله^(٢).

- ومنهم شمس الدين بن كمال المقدسي، ومما يُحكى عن ورعه أنه حفر مكاناً بالصالحية لبعض شأنه، فوجد جرّة مملوءة ذهباً، وكانت زوجته تعينه، فقال لزوجته: (هذا فتنة ولهذا مستحقون لعلنا لا نعرفهم)، فوافقته وطمّاه وتركاه^(٣).

- ومنهم أيضاً عماد الدين المقدسي، فقد قال عنه الذهبي: (فما أعلم أنه أدخل نفسه في شيء من أمر الدنيا، ولا تعرّض لها، ولا نافس فيها، وما علمت أنه دخل إلى سلطان ولا وال)^(٤).

(١) حسن المحاضرة، ص ٢٢.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٢١٤، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠هـ).

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ٥٠/١.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٤٩/٢٢.

٢ - ورع ابن عساكر:

ومن الأعلام الورعين في العصر الأيوبي الحافظ أبو المنصور بن عساكر شيخ الشافعية بالشام، أرسل إليه الملك المعظم ليوليه القضاء، فأبى ورجع إلى بيته، ووقف يصلي ويتضرع ويبكي إلى الفجر، وأصرّ على الامتناع وجَهَّز أهله للسفر، وكان يتورع عن المرور في رواق الحنابلة؛ لئلا يَأْثَمُوا بالوقعة فيه، وذلك لأن عوامهم يبغضون بني عساكر الشافعية^(١).

ولقد اجتهد خاله القاضي أبو المعالي محمد بن يحيى القرشي أن ينوب عنه في الحكم، فأبى^(٢).

وقد حكى يوماً عن نفسه فقال: (لما عزمت على التحديث، والله المُطَّلِعُ أني ما حملني على ذلك حب الرئاسة والتقدم، بل قلت: متى أروي كل ما سمعت؟! وأيُّ فائدة في كوني أخلفه صحائف؟! فاستخرت الله، واستأذنت أعيان شيوخي، فقالوا: مَنْ أحقُّ بهذا منك؟! فشرعت في ذلك)^(٣).

٣ - ورع العماد إبراهيم:

ويذكر الذهبي عن العماد إبراهيم بن عبد الواحد أنه كان إذا أفتى في مسألة احترز فيها احترازاً شديداً، وما دخل إلى عند سلطان ووالٍ، ولا تعرّف بأحد، وما أدخل نفسه في شيء من أمر الدنيا^(٤).

٤ - ورع القاضي الفاضل:

ومن الورعين البارزين في هذا العصر القاضي الفاضل، فقد رُوي

(١) تاريخ الإسلام، ص ٥٠٠، وفيات عام (٦١١ - ٦٢٠ هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ٢ / ١٨٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٤٩٦.

(٣) المصدر السابق: ٢٠ / ٥٦٧.

(٤) تاريخ الإسلام، ص ١٨٦، وفيات سنة (٦١١ - ٦٢٠ هـ).

أنه تنزّه أيام الملك العزيز عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها، واعتزل المناصب الرفيعة التي كان يتقلدها لِمَا رأى من اختلال الأحوال برأيه^(١).

٥ - ورع العز بن عبد السلام:

أما العز بن عبد السلام فهو علّمٌ كبيرٌ من أعلام العصر الأيوبي الوريعين، ويذكرون أن الملك الأشرف أطلق له ألف دينار، فردّها عليه وقال: (هذه اجتماعاً لله لا أكدرها بشيء من الدنيا)^(٢)، ولما أراد الخروج من القاهرة كان كل متاعه جَمَلَ حمار واحد^(٣).

ولقد اختلف العزّ مع الملك الأشرف في مسألة من مسائل التوحيد، وأصرّ كل من الشيخ العز والملك الأشرف على رأيه، فأراد الملك الأشرف معاقبة العز، فأرسل برسالة مع مندوبه للشيخ العز تتضمن عزله عن الإفتاء، فقال له: من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى، وهذا هدية من الله تعالى إلي، أجراها على يد السلطان وهو غضبان، وأنا بها فرحان، والله لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك، خذ هذه السجادة صلّ عليها. فقَبِلها وقَبَلها، وودعه وانصرف إلى السلطان، وذكر له ما جرى بينه وبينه. فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة، اتركوه، بيننا وبينه الله^(٤).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/١٢٧.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٨/٢٤٠.

(٣) المصدر السابق: ٨/٢٣٦.

(٤) المصدر السابق: ٨/٢٣٦.

٦ - ورع جمال الدين الريغي:

ومن الورعين البارزين قاضي الإسكندرية وخطيبها جمال الدين محمد عبد الله بن إبراهيم بن سعيد المغربي المالكي الريغي، فقد روي أنه ولي الخطابة والقضاء من غير طلب، ثم بعد دهرٍ عزل نفسه من الخطابة، ثم ترك القضاء وقال: دعوني أخدم ربي. وقد بقي في القضاء أربعين سنة^(١).

٧ - ورع سيف الدين الحنبلي:

ومن أعلام العصر عبد الله بن عمر سيف الدين الحنبلي، قال مَنْ سافر معه: (فرأيت من ورعه وحسن خلقه ما تعجبت منه)^(٢).

٨ - ورع الخبوشاني:

ومن هؤلاء الورعين الشيخ الخبوشاني فقد وصفه أصحابه بأنه كان كثير الورع، سليم الباطن، قليل المعرفة بأحوال الدنيا، لم يأخذ درهماً من مال الملوك، ولا أكل من وقف مدرسةٍ لُقمةً^(٣).

٩ - ورع النووي:

من العلماء الورعين النووي، روي أنه كان لا يتناول من جهة مالاً أو طعاماً، ولا يقبل من أحد شيئاً^(٤).

١٠ - ورع الفقيه الحنبلي محاسن الدين بن عبد الملك الحموي:

كان زاهداً ورعاً، ما نافس في منصب قط ولا دنيا، ولا أكل من وقف، ولا تنعم في ملبس ولا مأكّل، ولا زاد على ثوب وعمامة^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٧٣.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٢٤٠، وفيات (٦٣١ - ٦٤٠هـ).

(٣) وفيات الأعيان: ٤ / ٢٤٠.

(٤) شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب: ٣٩٧/٨.

(٥) الدارس في تاريخ المدارس: ٩٩/٢.



المطلب السابع أخلاق متنوعة

وإذا كنت قد أفردت في الصفحات السابقة لكلّ خلقٍ أمثلته من بعض أعلام الدولة، فإن المؤرخين خصّوا رجالاً ممن عاصروا الدولة الأيوبية، وعُرفوا بجوامع هذه الأخلاق العالية، فكانت أخلاقهم نبوية متكاملة جمعوا فيها صنوفاً عجيبة من رُقي المسلم وكمالاته. ومن هؤلاء:

– الملك الأفضل: فقد قال عنه ابن الأثير: (كان من محاسن الدنيا، لم يكن في الملوك مثله، كان خيراً عادلاً فاضلاً كريماً)^(١).

– الملك العزيز صاحب مصر: كان ملكاً كريماً عادلاً رحيماً حسن الأخلاق شجاعاً، سريع الانقياد، مفرط السخاء، وكانت الرعية تحبه كثيراً^(٢).

– الموفق بن قدامة المقدسي: قال عنه اليونيني: (ما أعتقد أن شخصاً ممن حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه، وقد رأيت من كرم أخلاقه، وحُسن عشرته، ونور حلمه، وكثرة علمه، وغزير فطنته، وكمال مروءته، وكثرة حياته، ودوام بشره، وعُزوف نفسه عن الدنيا وأهلها، والمناصب وأربابها، ما قد عجز عنه كبار الأولياء، وكان لا يُري لأحدٍ ضجراً، وربما قُرئ عليه وهو يتعشى، لا يكاد يراه أحدٌ إلا أحبه، صحبناه في الغزاة فما رأينا أكرم منه ولا أحسن صحبةً، كان لا يُناظر أحداً إلا وهو يتبسّم، فسمعت بعض الناس يقول: هذا الشيخ يقتل خصمه بتبسّمه)^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٦.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٤٤.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٤٨٤، وفيات سنة (٦١٠ - ٦٢٨ هـ).

كما قال عنه الذهبي: (كان نبيلًا، غزير الفضل، ورعًا، عابدًا، عليه النور والوقار، متواضعًا، ذو أناة وحلم ووقار)^(١).

وهكذا ندلف إلى نهاية هذا المبحث، الذي يعدُّ موضوعاً من موضوعات الدعوة في العصر الأيوبي، وثمره يانعة من ثمارها، وقد نمت هذه الأخلاق في بيئة حسنة تشجع عليها، وتستكثر من مظاهرها، وما ذكرته غيض من فيض، وذلك ليس بمستغربٍ من دولة مترامية الأطراف قامت على إحياء السُّنة، وحرصت على تطبيق مفرداتها، على الرغم من الظروف العصيبة التي كانت تمر بها.

* * *



الفصل الثالث

أصناف الدعاة والمدعوين

في عهد الدولة الأيوبية

- أصناف الدعاة في عهد الدولة الأيوبية.
- أصناف المدعوين في عهد الدولة الأيوبية.

* * *

تمهيد

بذل الدعوة في عهد الدولة الأيوبية جهوداً حثيثة في حمل مشعل الدعوة الإسلامية وتقديمه مشرقاً للمدعوين، غير عابئين بما قد يصيبهم من مخاطر وعقبات في سبيل نشر هذه الدعوة المباركة، قدوتهم في ذلك خير دعاة البشرية رسولنا محمد ﷺ.

وقد تنوعت أصناف الدعوة في هذا العصر، فلم يقتصر أمر الدعوة على من حمل العلم الشرعي - كما هو المفهوم السائد بين عامة الناس - بل شمل الملوك والأمراء والوزراء والمستشارين أيضاً.

كما تنوعت أصناف المدعوين كذلك، فوجّهت الدعوة إلى الملوك والعامّة والإفرنج.

وفي هذا الفصل سأعرض لأبرز أصناف الدعاة الذين كان لهم جهد واضح في مجال الدعوة، كما سأعرض لأبرز أصناف المدعوين الذين وُجّهت لهم الدعوة في العصر الأيوبي.

المبحث الأول
أصناف الدعاة في عهد الدولة الأيوبية



يمكننا أن نصنف الدعاة في هذا العصر إلى ثلاثة تصنيفات؛ هي:

- الملوك.

- الأمراء والوزراء والمستشارون.

- العلماء.

* * *



المطلب الأول

الملوك

كان معظم ملوك الدولة الأيوبية في طليعة الدعاة الذين ضربوا أروع الأمثلة في الالتزام بشعائر الدين قولاً وعملاً، فكانوا القدوة المثلى التي ضربت أروع الأمثلة، فُوصفوا بكثرة العبادات والطاعات، واليد السخية المعطاء في وجوه الخير والبر، والحرص على طلب العلم، والنهل من موارده الأصيلة، وتشجيع الناس على ذلك، والعمل الدؤوب على تطهير البلاد من كل رجس وذنس وخطيئة، والإحسان إلى الرعية، والسهر على راحتهم، والقيام بمصالحهم، وتوفير احتياجاتهم، والتطلع لنشر الدعوة، وتوحيد الأمة، وحرب أعدائها.

ومن أهم الملوك الذين عُرفوا بذلك: صلاح الدين، والعاذل، والكامل، والمظفر، والمعظم، وشيركوه، وغيرهم.

وقد تحدّث بالتفصيل عن صور من دعوة الملوك الأيوبيين في ثنايا هذا الكتاب، وبيّنت الجهود الحثيثة التي بذلوها في كافة مجالات الدعوة.

* * *



المطلب الثاني الأمراء والوزراء والمستشارون

تميّز كثيرٌ من أمراء الدولة الأيوبية ووزرائها ومستشاري الملوك الأيوبيين بالصلاح والاستقامة، وتقديم النصح الطيب لأولي الأمر، وفي هذا سندٌ عظيم للملوك؛ لأن الملك يحتاج عادةً إلى مَنْ يُعيّنه على إدارة شؤون مُلكه، كما أن له بطانة قد تقوده إلى الخير أو إلى الشر.

ومن أبرز الأمراء في الدولة الأيوبية الأمير لؤلؤ، فقد كان إلى جانب جهاده كثير الصدقات والنفقات^(١).

ومن الشخصيات البارزة في الدولة الأيوبية الخواتين، وهن زوجات الملوك والأمراء وأخواتهم، ويصف ابن جبير مشاركتهن في الأمور الدعوية في الدولة فيقول: (ومن ذوات الأقدار في الدولة الأيوبية الخواتين اللواتي يأمرن ببناء المساجد والأربطة والمدارس، وتُعيّن لها من مالها الأوقاف)^(٢).

وكانت زوجة صلاح الدين عصمة الدين بنت معين الدين أنر من أبرز مستشاريه، فكان كَرَّمَ اللهُ يرجع إليها، ويستشيرها في ما يعرض عليه من ملّمات الأمور، سواء في إقامته أو في سفره، فقد روي أنه مرض في أحد معاركه، فكان يستدعي مَنْ يكتب لها في كل يوم، فيكتب إليها كتاباً طويلاً، وذلك بسبب ضعفه في تلك الأوقات العصبية، فيبعد ما أصابه من الحمل الثقيل بما تعطيه تلك الكتابة من راحة في نفسه^(٣).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: الدارس في تاريخ المدارس: ٥٠٩/١.

ومن المستشارين البارزين في القصر الأيوبي القاضي الفاضل الذي كان داعيةً ناجحاً موفّقاً بكلّ معنى الكلمة، وجّه إمكاناته الواسعة وسلطاته المتاحة وأمواله الكثيرة للخير والصلاح، وقد تمكّن من العلوم الشرعية على يد أبرز مشايخ عصره كالسلفي وابن عساكر وابن فرج^(١).

يقول عنه الذهبي: (ولم يُبقِ عملاً صالحاً إلا قدّمه، ولا عقْدَ برٍّ إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرّقاب، وأوقافه متجاوزة الحساب، ولاسيما أوقافه لفكّك الأسرى، وأعان المالكية والشافعية في مدارسهم، والأيتام بالكتّاب، وما افتتح السلطان الأقاليم إلا بآرائه السديدة، وكان مواظباً على أوراد الليل والصيام والتلاوة، دائم التهجّد، ويكثر تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف في السر والعلانية، حفظ القرآن، وكتب ختمته)^(٢).

ولا ريب أن مستشاراً للملك بهذا الوزن من العمل الصالح سيكون له بإذن الله ثقل كبير وتأثير عظيم في خير المجتمع؛ لأنه من البطانة الصالحة الرشيدة التي يُنعم الله بها على من يصطفيه من عباده من الملوك.

وعندما اشتدّت الحروب بين المسلمين والصلبيين، كان من نتائجها وقوع الأسرى في أيدي العدو، فما كان من القاضي الفاضل إلا أن أوقف ريع أراضيها على تخليص أسرى المسلمين^(٣).

وكان ﷺ دائم القيام بواجب الدعوة، حريصاً أشد الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى.

ومن المستشارين البارزين في عهد الدولة الأيوبية الفقيه عيسى

(١) سير أعلام النبلاء: ٣٣٩/٢١.

(٢) المصدر السابق: ٣٣٨/٢١؛ وانظر: الدارس في تاريخ المدارس: ٩٢/١.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٩.



الهكاري، وكانت له مكانة عظيمة عند الملوك، ولاسيما صلاح الدين، وقد اشتهر بقضاء الحوائج، فكان لا يدخل على الملوك إلا ومعه في يده وعمامته أوراق معاملات الناس ليعرضها عليهم لقضائها، وقد جمع هذا القائد بين العلم والشجاعة^(١).

* * *

(١) وفيات الأعيان: ٤٩٨/٣؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٢٥، وفيات (٥٨١-٥٩٠هـ).

المطلب الثالث العلماء

من توفيق الله ﷻ أن شهد العصر الأيوبي توافراً طائفة من العلماء الدعاة العاملين الذين كان لهم أثر كبير في ازدهار شأن الدعوة الإسلامية في هذا العصر، وبرز نشاطهم هذا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح والتوجيه، ورعاية علوم الكتاب والسنة. وتحفل كتب المؤرخين والتراجم بمئات من هؤلاء الأعلام أصحاب السيرة الطيبة.

ومن هؤلاء: الحافظ عبد الغني المقدسي، الذي ثروى عنه الكثير من الأخبار في أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وكان له هيبة في قلوب الملوك، حتى إن الملك العادل كان يقول عنه: (ما خفتُ من أحدٍ كخوفي من هذا، وإذا دخل عليّ يُخَيِّلُ إليّ أنه سبع)^(١).

ومن العلماء البارزين النووي، وقد عاصر ملوك أواخر الدولة الأيوبية، وكان يواجههم بالإنكار، وإذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، وأرسلها إلى مَنْ وقع في المنكر^(٢).

ومن هؤلاء العلماء العاملين الذين عاشوا في هذا العصر أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي الذي عُرف بقضاء حوائج الناس، ولا يسمع بجهاد إلا خرج فيه، ولا يسمع حديثاً إلا وعمل به^(٣).

ومن العلماء الذين عُرفوا بالجهر بالحق والأمر بالمعروف والنهي

(١) للمزيد من أخبار الحافظ انظر: سير أعلام النبلاء: ٤٥٤/٢١ وما بعدها.

(٢) انظر: الإمام النووي، عبد الغني الدقر، ص ١٢٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٥/٢٢.

عن المنكر زمن الملك الأشرف موسى: أبو عمرو بن الحاجب، وجمال الدين الحصري، وكان السلطان يتراجع عن بعض مواقفه استجابةً لأمرهما ونهيهما^(١).

ومن العلماء الذين كانت لهم جهود دعوية ابن الجوزي، وذلك من خلال مجالس وعظه ودروسه وتصانيفه واحتسابه، وقد قال عن نفسه: (ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما منهم إلا وقد رقّ قلبه، أو دمعت عيناه)^(٢)، وقال أيضاً: (ولقد تاب في مجالسي أكثر من مئة ألف)^(٣).

وقد قال عنه سبطه أبو المظفر: (سمعت جدي يقول: بأصبعي هاتين كتبت ألفي مجلدة، وتاب على يدي مئة ألف)^(٤).

ووصفه الذهبي فقال عنه: (...كان ذا حظ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء...)^(٥).

وعلى نهج هؤلاء الأفاضل سار القاضي شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفي، فقد كان الجهر بما يراه من حق سمّة له، فقد روى صاحب «الدارس» أن الملك المعظم طلب منه إباحة نبيذ التمر، وماء الرمان، فأبى، فعزله المعظم عن التدريس، فما غيّر ذلك منه شيئاً^(٦).

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٢١٨/٨.

(٢) دعوة المسلمين للنصارى، ص ٤٠٤.

(٣) لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، ص ٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٧.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء: ٣٦٥/٢١، ٣٨٤.

(٦) الدارس في تاريخ المدارس: ٥٤٠/١.

فالتوى عند أمثال هؤلاء ليست طريقاً إلى متاع الدنيا وشهواتها، وإنما هي نور النبوة، لها وقارها الذي تحتفظ به مهما واجه صاحب الفتوى من دعوة للتخلي عنها.

ومن أولئك العلماء الصادعين بالحق دون هيبة من ملك وغيره الحافظ ابن عساكر، فقد روي أن الملك المعظم أخذ منه وظائفه لأنه أنكر عليه بعض تصرفاته^(١).

ومثله ابن الحرساني، فقد روي أنه كان يقول للملك العادل: (أنا ما أحكم إلا بالشرع، وإلا فأنا ما سألتك القضاء، فإن شئت فأبصر غيري)، وكان لا يقبل وصية أحد في أمور الشرع، حتى وإن كانت الوصية من عند السلطان^(٢).

وممن برز في هذا المجال العز بن عبد السلام، فكان يأمر وينهى ويُغيّر ما يرى من منكرات بيده دون خوف أو وجل^(٣)؛ فالدين عند أمثال هؤلاء جُهد وعمل وبذل، ولا يبالون في سبيل الله لومة لائم.

وكان كثير من علماء هذا العصر في الصف الأول من صفوف الجهاد المبارك، ومن هؤلاء الحافظ اليونيني، الذي تحدّث عنه الذهبي بقوله: (كان يغزو كثيراً، فما فاتته غزاة، وكان يحمل القوس والسلاح بنفسه)^(٤).

ومن العلماء الأفاضل المجاهدين الحافظ أحمد بن عمر المقدسي، فقد اشترك في قتال الفرنجة، وقتل عدداً منهم^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٨٨.

(٢) المصدر السابق: ٢٢ / ٨٠.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢١١ - ٢١٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٠١.

(٥) تاريخ، ص ١٣٩، وفيات (٦٣١ - ٦٤٠ هـ).

وحرص كثير من العلماء الدعاة على تيسير أمور الناس في مجتمعهم ومعاشهم، وأدركوا ما يحتاج الناس إليه في معاملاتهم، فهذا القاضي شمس الدين الخويي ينظّم ما يُعرف بمراكز الشهود بالبلد، وكان الناس قبله يعانون الكثير من ذهابهم إلى بيوت العدول لأخذ الشهادة منهم^(١).

وكان الالتزام بالهدي النبوي والسمت الصالح أعظم وسيلة لبعض دعاة العصر الأيوبي في خدمة دعوتهم، فكان الدين عندهم سلوكاً حياً يتمثل في كيانهم كلّ، فكان هؤلاء قدوة صالحة لمجتمعهم في تطبيق الدعوة الإسلامية في جوانب الحياة كافة، قال الحافظ اليونيني عن الموفق بن قدامة المقدسي: (ما أعتقد أن شخصاً ممن رأيتُه حصل له من الكمال في العلوم والصفات الحميدة التي يحصل بها الكمال سواه، مما قد يعجز عنه كبار الأولياء)^(٢).

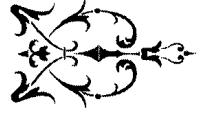
مما سبق تظهر لنا صورة مشرقة لدعاة العصر الأيوبي، ملوكاً وأمراء ومستشارين وعلماء، صورة تعكس مسابقتهم في دعوة أبناء مجتمعهم، ومسارعتهم في تقديم ما يمكنهم من خدمات جليلة في هذا المجال النبوي، فكان نتاج جهودهم الحثيثة صحوة أبناء الأمة من غفلتهم، وتقدماً ملحوظاً لهذه الأمة في كافة المجالات.

* * *

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١٦٢/٢

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٤٨٤، وفيات (٦١٠ - ٦٢٨هـ).

المبحث الثاني
أصناف المدعويين في عهد الدولة الأيوبية



يمكننا أن نصنف المدعويين في هذا العصر إلى ثلاثة تصنيفات؛ هي:

- الملوك والأمراء المسلمون.
- العامة.
- أهل الذمة والصلبيون.

* * *



المطلب الأول الملوك والأمراء المسلمون

سبق أن أشرت إلى الجهد الكبير الذي بذله الملوك الأيوبيون في الدعوة إلى الله، ومباشرتهم لها بأنفسهم. ولقد كان هؤلاء الملوك أيضاً في صف المدعويين الذين تباشرهم مواعظ العلماء والدعاة، فيستمعون إليهم، ويتأثرون بهم في تحسين سيرتهم، والعمل بموجب ما يستمعون إليه، فهم مدعوون للأخذ بأهداب الدين، والتحلّي بأخلاقه، ولطالما ذكر المؤرّخون أسماء هؤلاء الملوك والأمراء، وهم بين يدي دعاة العصر ووعاظه، يتأثرون بما سمعوه، ويطبّقونه في حياتهم خير تطبيق، فكانت سيرتهم على وفق توجيهات من وجّههم.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن الجوزي: أن صلاح الدين وأولاده كانوا يحضرون مجلس ابن نجا في الوعظ^(١).

وكان الظاهر صاحب حلب يستمع في قصره إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد، والشريف النيسابوري^(٢).

وكان الملك الأمجد يجلس بين يدي الحافظ اليونيني، فيقول له الأمجد: (فعلتُ كذا وكذا)، فيأمره اليونيني وينهاه^(٣).

وكان العلماء في العصر الأيوبي لا يُقَصِّرون في دعوة الملوك والأمراء عندما يلاحظون وقوعهم في منكر ما، وكثيراً ما كان هؤلاء يستجيبون لدعوة العلماء، ومن ذلك ما روي: أنّ الحافظ اليونيني قال

(١) مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، ص ٥١٥.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٥٢.

(٣) البداية والنهاية: ١٧/ ١٠٣.



لصاحب دمشق الذي طلب الدعاء منه: (كيف أدعو لك، والخمور دائرة في
مُلُكك، وأنت تأخذ المكوس من الفقراء؟!)(١).

كما روي أن الملك المعظم استمع من المحدث شرف الدين بن عروة،
فقد كان من خواص أصحابه في القصر(٢).

كما استمع الأشرف من العزّ بن عبد السلام، وطلب منه أن يقرأ عليه
تصانيفه(٣).

ومن أصناف المدعوّين أبناء الملوك الذين كان آباؤهم يحرصون
على تنشئتهم تنشئة سليمة من المعاييب، بريئة من السوء، فكانوا يفسحون
للمربيين والعلماء أن يكون لأبنائهم منهم حظٌّ من التوجيه والتربية. ومن
ذلك ما ذكره المقرئزي: أن صلاح الدين سلّم ابنه العزيز إلى الحافظ صدر
الدين بن المجاور ليكون مُعلِّماً له(٤).

وكان صلاح الدين إذا سمع حديثاً من شيخ ذي رواية عالية أسمعها
أولاده ومماليكه، وكان يأمرهم بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له(٥)،
وفي ذلك تنبيه منه لأبنائه لاحترام هذا العِلْم الرفيع والإعلاء من شأنه.

وقد طلب صلاح الدين من الفقيه أبي المعالي النيسابوري بأن يجمع له
عقيدةً فيها كل ما يحتاج إليه في أمور دينه، وحفظها أولاده الصغار حتى تترسخ
في أذهانهم من الصغر(٦). ولا بدّ أن يكون ما صنعه الفقيه مناسباً لمرحلة الطفولة.

(١) تاريخ الإسلام، ص ٣٣٨، وفيات (٦١١ - ٦٢٠هـ).

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٨٢.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢٣٨.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧٠.

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٩.

(٦) وفيات الأعيان: ٥ / ١٩٥-١٩٦.

المطلب الثاني العامة

اهتمّ العامة على مختلف طبقاتهم ومنازلهم بمتابعة علماء العصر، وحضروا مجالسهم.

وكان من محاسن هذا العصر إقبال العامة على العلماء يتزوّدون منهم، ويستمعون إلى توجيههم، فشهد هذا العصر ازدهاراً كبيراً في مجالس الوعظ والعلم، وذلك ناشئ من شيوع هذه المجالس، والارتقاء بها، وتنوّع تخصص أهل الدعوة والعلم.

ومن تلك المجالس مجلس الحافظ عبد الغني المقدسي، فقد كان يجتمع حوله خلقٌ كثيرٌ، وكان يُبكي العامة الذين كانوا يتأثرون بتوجيهاته، ومن حضر عنده مرّة لا يكاد يتركه^(١).

ونما لدى عامة الجند المسلمين شعور بإنكار المنكر الذي يتسامعون به؛ نتيجة شيوع الروح الإسلامية في صفوف هؤلاء الجند الذين كانوا يترّبون في ثكناتهم تربية سليمة، فقد روى العماد الكاتب أن مراكب الإفرنج دفعت (٣٠٠) امرأة إفرنجية شابة من أجل أن يزني بهن الجند، وتسامع جند المسلمين بذلك، وعجبوا كيف يتعبّد هؤلاء الصليبيون بترك النخوة والحمية؟!^(٢).

وذكر الذهبي أن عامة جند صلاح الدين كانوا يتشبهون به، ويتسابقون إلى المعروف^(٣)، وقد وُصف مماليكه وأجناده بأنهم أعفّ من الزهّاد والعبّاد^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٤٣.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٤٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢.

(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٦٥٩.



المطلب الثالث أهل الذمة والصليبيون

نال أهل الذمة في العصر الأيوبي من الملوك معاملة حسنة، فأحسنوا إليهم، ورفقوا بهم، وهم بذلك ينطلقون من توجيهات الدين الحنيف الذي أوصى باحترام العهود والمواثيق.

ومن الأمثلة على تلك المعاملة: ما روي أن صلاح الدين أخذ الجزية من البالغين منهم دون النساء والرهبان والعييد والمجانين والشيخ والفقراء، وكانت تُدفع حسب قدرة الأشخاص^(١).

ولمّا قيل للسلطان: (إنهم لم يحفظوا العهد)؛ أجابهم: (نحن نجزيهم على ظاهر الأمان، ونُغريهم بمحاسن الإسلام)^(٢).

فالمسألة ليست جباية الأموال من هذه الفئات، وإنما هي دعوة إلى الدخول في الإسلام، وبهذه المعاملة الحسنة يأمل ملك البلاد منهم أن يتشجعوا على اعتناق الإسلام.

وقد قَبِلَ السلطان وساطة الفقيه عيسى الهكاري بالنسبة للنصارى الساكنين بالقدس، وذلك لَمَّا بذلوا الجزية ليسكنوا ولا يُزعجوا، ويؤمنوا ولا يُخزجوا^(٣)، فاستجاب السلطان لطلب الفقيه وحقق ما يطلبه هؤلاء النصارى المقدسيون.

ولَقِيَ أحبار الفرنجة من الأيوبيين العدل والتسامح، على الرغم

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٣٧٨.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٤٠١.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ٤٠٢.

من أن هؤلاء قد يكونون من الذين شجّعوا الجند الصليبيين على محاربة المسلمين، فقد روي أن صلاح الدين سمح للبطريك أن يخرج من المناطق التي حررها المسلمون ومعه أمواله، ولما اقترح بعض حاشية السلطان أن يأخذ من البطريك أمواله رفض قائلاً: (لا أغدر به)، ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير كسائر الأفراد^(١). وتلك أخلاق الداعية الذي هو القدوة في كل تصرفاته، وكان في مُكْنَتِهِ - وهو في موقع القوة - أن يستولي على أمواله، ولكن الغنى غنى النفس، وما كان لملكٍ صالحٍ مثل صلاح الدين أن يغدر بأحدٍ، كائناً من كان.

وتتجلى رحمة السلطان الأيوبي بالأسرى من فئة كبار السن عندما رأى من بين أسرى الحرب شيخاً هَرَمًا، فسأله عن سبب خروجه، فقال: (خرجت لأظفر بالحج إلى كنيسة القيامة)، فرق له، وأعادته إلى بلاده على فرس^(٢).

وأما المحاربون من الصليبيين الذين يقعون في أسر المسلمين فكان السلطان يعرض عليهم الإسلام، وكان من نتيجة ذلك أن أسلم منهم آحادٌ حَسُنَ إسلامهم، وتأكد للناس التزامهم^(٣).

ويبدو أن عناصر من الإفرنج كانوا يدخلون في الإسلام، ولكنهم لا يتجرؤون على إعلان ذلك؛ خوفاً من بطش قومهم، فكانوا يكتُمون إيمانهم، حتى إذا سنحت لهم الفرصة كانوا يهربون إلى صفّ المسلمين، وقد ذكر العماد الكاتب طرفاً من ذلك، وذكر أن السلطان كان يُكرم وفادتهم^(٤).

(١) الحروب الصليبية، ص ١٦٩.

(٢) الفتح القسّي في الفتح القدسي، ص ٤٧٠.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٩٠.

(٤) الفتح القسّي في الفتح القدسي، ص ٤٩٣.



ولقد كان من نتائج تأليف القلوب والمعاملة الحسنة التي أظهرها الأيوبيون لطوائف الصليبيين أن دخل بعضهم في الإسلام، ومما يُروى في ذلك ما ذكره أبو شامة أن خلقاً عظيماً من الإفرنج استأمنوا المسلمين، واتفقوا معهم على خوض البحر في مراكب يستعيرونها من المسلمين، وما يغنمونه من جماعتهم يُقسّم بينهم وبين المسلمين. فلما غنموا أحضروا ما كسبوه من بضاعة وفضة بين يدي السلطان؛ ليقسّمها حسب الاتفاق، فأعطاهم السلطان كلّ ما غنموه. فلما أكرموا بهذه المكّرمة أثنوا عليه، وأسلم شطر منهم، وذلك بفضل الله ثم بفضل المعاملة الحسنة التي عاملهم بها السلطان^(١).

وكان من المدعوين إلى الإسلام طائفة من قيادات الصليبيين، حرص الملوك الأيوبيون على عرض الإسلام عليهم، ومُداراتهم، وتأليف قلوبهم؛ ترغيباً لهم في الإسلام.

ومن الأمثلة على ذلك: أن صلاح الدين استقبل القائد الصليبي صاحب صيدا بالناصرية واحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ثم عرض عليه الإسلام، وحثّه على اعتناقه، وذكر له طرفاً من محاسن الدين^(٢).

كما روي أن صلاح الدين كان كلما وفد عليه أحد من رؤساء النصارى للزيارة في القدس في رمضان سنة (٥٨٨هـ) أولاه غاية الإكرام والإحسان، وأراه صفحاً جميلاً؛ تأليفاً له، ورغبةً في أن يدخل في قلبه شيء من الإيمان^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٣٦/٤.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٢.

(٣) البداية والنهاية: ١٦ / ٦٤٦.

ولقد عامل الملوك الأيوبيون الأسرى من فئة الملوك معاملة حسنة وأكرمهم، فقد روي أنه جيء بالملوك الصليبيين الأسرى بعد معركة حطين إلى السلطان، ومعهم الصليب، فرحب السلطان بهم، واختار كبيرهم، وأجلسه عن يمينه، ولما رآه يلهث عطشاً أمر له بقدر من ماء ثلج فشربه^(١).

ومن هذا الباب ما كتبه صلاح الدين إلى ملك بيت المقدس الصليبي يعزيه بوفاة والده، وقد يكون من أهدافه البعيدة تأليف قلبه، وقد يكون رغبة منه أن يحترم هذا الملك ما بينه وبين المسلمين من موثيق^(٢).

وممن عني بهذا الجانب الملك الكامل؛ ففي سنة (٦١٣هـ) حدث أن سمع عن اختلاف بين فرق الصليبيين من أجل تنصيب أمير عليهم، فأمر بتطيب قلوبهم^(٣).

وهكذا فإن هاجس تأليف قلوب الصليبيين، وإظهار محاسن الإيمان كان هاجساً دائماً لدى الملوك الأيوبيين طمعاً في جذبهم إلى الإسلام.

ولكن السلطان كان يستثني من المعاملة الحسنة من كان قد بدر منه ما يسيء للإسلام والمسلمين إساءة شديدة، كما حدث مع صاحب الكرك الصليبي أرناط، فقد روي أنه غدر العهد، وتعرض للحجاج وآذاهم، واستخف بالنبي ﷺ، وجهر بالعداوة للإسلام، فتعهد صلاح الدين بقتله إن وقع بين يديه، وحدث أن وقع بالأسر إثر معركة حطين، فعرض عليه صلاح الدين الإسلام، فأبى، فأمر بقتله بعد أن عدد عليه ذنوبه^(٤).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢١.

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٢١٥.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/١٨٤.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/٢٩٦؛ شفاء القلوب في مناقب بني



وكان إلى جانب أرناط هذا أحد ملوك الإفرنج، وقد شهد مصرع زميله، ولم يشك أن السلطان سيُثبتي به، ولكن السلطان استحضره، وطيب قلبه، وقال: (لم تجرِ عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أمّا هذا فقد جاوز حدّه)^(١).

فلا تزر وازرة وزر أخرى عند هذا الملك الصالح، فقد نفذ القصاص في الملك الأول نتيجة غدره واستخفافه بالنبي ﷺ، أما الملك الثاني فلم يُثبت عند صلاح الدين أنه فعل شيئاً، فلم يُزعجه بشيء.

وبهذا يتبين لنا بجلاء ما بذله دعاة هذه الدولة المباركة من جهد عظيم في تقديم الدعوة الإسلامية للمدعوين، سواء كانوا من فئة الملوك، أو من عامة الناس، أو من أهل الذمة والصلبيين، كما يتبين لنا تفاعل أصناف المدعوين مع هؤلاء الدعاة، ومدى تمثّلهم لما يتلقّونه من توجيهات ونصائح.

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٩٧/٣.



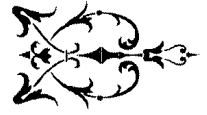
الفصل الرابع

وسائل الدعوة وأساليبها وميادينها

في عهد الدولة الأيوبية

- وسائل الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.
- أساليب الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.
- ميادين الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الأول وسائل الدعوة في عهد الدولة الأيوبية



• تمهيد:

تحتاج الدعوة الإسلامية إلى وسائل لتبليغها للناس، وتعريفهم بمبادئها، وحثهم على اتباعها؛ لذا فإن الداعية الحريص على نجاح دعوته يحرص على استخدام أفضل الوسائل وأنسبها وأكثرها تنوعاً، سواء المادية منها أو المعنوية.

والوسائل المعنوية هي جميع ما يُعين الداعية على دعوته من أمور قلبية أو فكرية، وذلك كالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والتخطيط، وما إلى ذلك من أمور لا تُحَسَّ ولا تُلمَس، وإنما تُعرف بآثارها.

أما الوسائل المادية فهي جميع ما يُعين الداعية من أمور محسوسة أو ملموسة، وذلك كالقول والحركة والأدوات والأعمال^(١).

ورسول الله ﷺ أمثلُ قُدوة يُقتدى بها في المجالات الدعوية كافة، ومن أبرزها استخدامه للوسائل المعنوية، فقد كان عليه الصلاة والسلام قَمَّةً في عظيم المكارم وسمو الأخلاق، وأعظم شهادة على ذلك مَدْحُ الله تعالى له في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

كما حرص عليه الصلاة والسلام على استخدام الوسائل المادية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك استخدامه وسيلة الدعوة إلى الطعام، فقد روي عن

(١) المدخل إلى علم الدعوة، ص ٢٨٣.

عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثُونَ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ يَضْمَنُ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي وَيَكُونُ مَعِي فِي الْجَنَّةِ وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي؟» فَقَالَ رَجُلٌ - لَمْ يُسَمِّهِ الرَّاوي - : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ كُنْتَ بَحْرًا؛ مَنْ يَقُومُ بِهَذَا؟! قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِأَخْر، قَالَ: فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا، فَجَمَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ بَيْتِهِ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثُونَ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الدِّينَ الإِسْلَامِيَّ^(١).

ومن الأمثلة أيضاً استخدامه لوسيلة زيارة الناس في أسواقهم، وفي أيام الحج^(٢)، إلى غير ذلك من وسائل دعوية نبوية.

وفي العصر الأيوبي استخدم الدعاة عدداً من الوسائل في الدعوة إلى الله، كان لها أثر طيب في المدعوين، وكان لها نتائج باهرة على مسيرة الدعوة في الدولة الإسلامية.

وقبل التحدث عن وسائل الدعوة في العصر الأيوبي سأتطرق إلى تعريف العلماء للوسيلة في اللغة والاصطلاح.

• تعريف الوسائل في اللغة والاصطلاح:

١ - الوسائل لغة: جمع وسيلة.

قال ابن منظور: الوسيلة هي المنزلة والدرجة والقربة، وسئل فلان إلى الله وسيلةً: إذا عملَ عملاً تقرب به إليه^(٣).

(١) رواه أحمد في مسنده: ١٦٥/٢، برقم (٨٨٣)، قال الشيخ أحمد شاکر: إسناده حسن.

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ص ٢٤١.

(٣) لسان العرب، مادة «وسل»: ١١ / ٧٢٤.



وقال الجوهري: الوسيلة ما يُتَقَرَّب به إلى الغير، يقال: وسَّل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسَّل إليه بوسيلة، أي: تقَرَّب إليه بعمل^(١).

٢ - الوسيلة اصطلاحاً:

تعددت أقوال الباحثين في معنى الوسيلة اصطلاحاً، ولعل أبرز هذه الأقوال هذان القولان: (هي ما يستعين به الداعي على تبليغ الدعوة إلى الله على نحو نافع مثمر)^(٢).

وقيل: (هي ما يتوصَّل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية)^(٣).

وفي هذا المبحث سأتحَدِّث عن تلك الوسائل من خلال الفقرات التالية:

١ - الرسائل والرسول.

٢ - المناظرة.

٣ - الخطابة.

٤ - الجهاد.

* * *

(١) الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مادة «وسل»: ١٨٤١/٥.

(٢) أصول الدعوة، ص ٤٤٧.

(٣) المدخل إلى علم الدعوة، ص ٢٨٢.

المطلب الأول الرسائل والرسل

الرسائل من الوسائل الهامة في الدعوة إلى الله تعالى؛ لذا استخدمها بعض دعاة الدولة الأيوبية.

وسأتحدث عن هذه الوسيلة من خلال العناصر التالية:

١ - أهمية وسيلة الرسائل والرسل.

٢ - رسائل الحكّام.

٣ - رسائل العلماء.

٤ - الرسل.

أولاً: أهمية وسيلة الرسائل والرسل:

تعدّ وسيلة إرسال الرسل والرسائل من الوسائل الهامة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وأبرز دليل على ذلك استعمال الرسول ﷺ لها، فالناظر في دعوته عليه الصلاة والسلام يجد أنه جعل الرسالة وكتابتها إحدى الوسائل الأساسية لدعوته، ولا سيما للملوك البعيدين، بغرض دعوتهم إلى دين الله وإبلاغهم شرعه القويم.

والمأمل في رسائل رسول الله ﷺ الدعوية يستنبط منها المنهج الأصيل للرسائل الدعوية، ويستقي منها العبر البليغة، مما يعكس للداعية أهمية استخدام هذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى.

وكتب السيرة النبوية تضمنت طائفة كبيرة من الرسائل التي بعث بها النبي ﷺ إلى الملوك مع رسله من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم،



وذلك بهدف دعوتهم إلى دين الله وتبليغهم رسالته، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد شرع رسول الله ﷺ في إرسال الرسل إلى من عزم على تبليغه، وكان هؤلاء يحملون الرسائل منه ﷺ، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، واختار لهذه المهمة الجليلة رسلاً من أصحابه لهم معرفة وخبرة.

وفي مصنف ابن أبي شيبة بإسناد حسن - كما يقول محققه -: (بعث رسول الله ﷺ أربعة نفر إلى أربعة وجوه: رجلاً إلى كسرى، ورجلاً إلى قيصر، ورجلاً إلى المقوقس، وبعث عمرو بن أمية إلى النجاشي، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم)^(١).

ومما جاء في كتب السُّنَّة عن رسائله ﷺ: ما روي عن أنس رضي الله عنه: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ^(٢).

وقد استخدم بعض دعاة الدولة الأيوبية هذه الوسيلة لأغراض مختلفة، لكنها كانت تخدم فكرة واحدة، وهي دعوة الناس إلى الإسلام، وتميز عدد منهم بالبلاغة والفصاحة، ونتج عن إرسال الرسل، وبعث الرسائل نتائج دعوية طيبة.

(١) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب المغازي، باب (٢١): ٢٨٤/٢٠، برقم (٣٧٧٨٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم: ٩٠/١٢، برقم (٤٥٦٤).

ثانياً: رسائل الحكّام:

كان السلطان صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أكثر الملوك الأيوبيين اهتماماً بإرسال الرسائل، وكان يهدف من رسائله أغراضاً دعويةً مختلفةً، يمكن إجمالها فيما يلي:

١ - رسائل صلاح الدين في الحث على الجهاد:

من المعروف أن السلطان صلاح الدين كان زمن حكمه مشغولاً بالجهاد، وما يستلزمه من النفير والحث عليه، فتأتي وسيلة الرسالة خير تعبير عن مقصوده.

وقد جاء في أحد كتبه لوالٍ من ولاته: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا مَكَّنَ لَنَا فِي الْأَرْضِ، وَوَقَّفَنَا فِي إِعْزَازِ الْحَقِّ، وَإِظْهَارِهِ لِأَدَاءِ الْفَرَضِ، رَأَيْنَا أَنْ نَقْدِّمَ فَرَضَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَتُوضَّحَ سَبِيلُهُ، وَنُقْبَلَ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَنَنْصُرَ قَبِيلَهُ، وَنَدْعُو أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ إِلَى غَزْوِ أَعْدَائِهِ، وَنَجْمَعَ كَلِمَتَهُمْ فِي رَفْعِ كَلِمَتِهِ الْعُلْيَا فِي أَرْضِهِ عَلَى اسْتِنْزَالِ نَصْرِهِ مِنْ سَمَائِهِ، فَمَنْ سَاعَدَنَا عَلَى أَدَاءِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ، وَاقْتَنَاءِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ يَحْظَى مِنْ عَوَارِفِنَا الْجَزِيلَةِ بِحُسْنِ الصَّنِيعَةِ، وَتُجْحِ الْوَسِيلَةَ، وَمَنْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ حَقِّ دِينِهِ بِالْإِقْبَالِ عَلَى بَاطِلِ دُنْيَاهُ، فَإِنْ تَابَ وَرَجَعَ قَبْلِنَاهُ، وَإِنْ أَصْرَ عَلَى غَوَايَتِهِ أَزَلْنَا يَدَهُ وَعَزَلْنَاهُ)^(١).

وفي كتاب آخر للسلطان أرسله لأخيه في اليمن: (ولا يسرنا أن ينقضي العُمُر في قتال غير الكافر، ونزال غير الكفاء المناظر، فإنما هي سفرة قاصدة، وزجرة واحدة، فإذا هو قد بيّض الصحيفة والوجه والذكر)^(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٢٢/٣.

(٢) المصدر السابق: ٥٧/٤.

وقد دعا السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام باليمن ليشركه في الجهاد ضدّ الصليبيين، لكنه للأسف اعتذر، فأرسل إليه صلاح الدين رسالة ودّية، بأسلوب بليغ راقٍ، يلتمس فيها العذر له لعدم الحضور، ويطمئنه فيها على مكانته عنده، ملمّحاً له بأسلوب غير مباشر إلى أهمية الجهاد، والدعوة إلى الخروج له، وقد جاء في تلك الرسالة: (المولى على حسب اختياره، وإن سار فمثله من سار وسرّ، وقاد الجيش وجرّ، ونفع الوليّ وضرّ العدو الذي أضرّ، وإن أقام فالعذر الذي أقعده، وإشفاق السلطان الذي ردّه عن وجهه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره من الأمرين حرج، فمكانه مكانه من القلب، ووّده وُدّه، وله من اللسان حمده، وهو سيف الإسلام إن ضرب بحدّه، أو صين في غمده، ولا زال المولى مُنوّهاً باسمه، ومُرْفَهياً في جسمه، ومُجَرِّداً سيف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق، فلا خرج التوفيق عن حكمه)^(١).

واستمر صلاح الدين بإرسال الرسائل لأخيه سيف الإسلام في اليمن لتشجيعه ضمناً على الجهاد في سبيل الله تعالى، فأرسل له رسالة يُبشّره فيها بفتح كوكب وصدف، وقد جاء فيها: (وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق، وإليه نرغب في أن يُثبّت قلوبنا إذ كانت تزيغ قلوب فريق، ونحن الآن نستجذب أخاننا، وندعوه إلى ما له دُعيننا، ونؤمّل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا، وأن يمدّنا بنفسه سريعاً، وبعسكره جميعاً، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وإن يلبّها دعوة، فإما أن يُطيع بها ربّه لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيّه فإنها شريعته، وإما أن يُعين بها أخاه، فإنها شدّة الإسلام لا شدّته)^(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٥٧/٤.

(٢) المصدر السابق: ٥٦/٤.

٢ - رسائله في الحث على الإخلاص وبيان أنه القصد الأساس من الجهاد: كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حريصاً أشدَّ الحرص على أن تكون نيته في الدعوة والجهاد خالصة لله تعالى، ولم تُسَيِّر المصلحة الشخصية أو الحكم أو الجاه نِيَّاتِهِ، وقد شهد له المؤرِّخ أبو شامة بذلك فقد قال عنه: (وقد أخلص لله سرّه وجهاره)^(١).

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثيراً ما يحث أصحابه على الإخلاص، ويبيّن لهم أن نصره دين الله تعالى هي القصد الأساس من دعوته وجهاده، فقد جاء في إحدى رسائله للخليفة العباسي في بغداد: (إنّ مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا مُنِحها ثلاثة مقاصد: الجهاد في سبيل الله، والكفّ عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله، والله العالم أنّه لا يُقاتل لعيش ألبين من عيش، ولا لغضب يملأ العنان من نزقٍ وطيش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسّمت أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النية التي هي خير ما يُسَطَّر في الصحيفة ويرقم)^(٢).

وفي رسالة أخرى للخليفة العباسي بقلم القاضي الفاضل بيّن فيها هدفه من المُلك، وقد جاء فيها: (والمراد الآن هو: كلّ ما يُقوّي الدولة، ويؤكّد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد)^(٣).

وفي رسالة للملك الصالح بن نور الدين بيّن السلطان هدفه الأساس من الجهاد وإخلاصه النية لله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومما جاء فيها: (وما قصدي إلا جَمْعُ كلمة الإسلام على الفرنج)^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٤٢/٢.

(٢) المصدر السابق: ١٧٩/٣.

(٣) المصدر السابق: ٣٦٥-٣٦٦/٢.

(٤) مرآة الزمان: ٨ / ٣٢٨؛ الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٨٤.



كما أرسل ﷺ رسولاً إلى الخليفة يُبَيِّن فيه قصده من حصار الموصل، وقد كان مما أمر الرسول أن يقوله: (إنه ما جاء طمعاً في استضافة مُلك، ولا استزادة سلك، ولا قلع بيت قديم، ولا قطع أصلٍ كريم، وإنما مقصوده الأصلي، ومطلوبه الكلِّي، رُدِّهم إلى طاعة الإمام، ونصرة الإسلام، وكشف ما اعتادوه، واعتوروه من الظلم والظلام، وفطمهم عن استحلال الحرام، وقطعهم عن مواصلة الأعجام، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الأرحام)^(١).

ويُصوِّر لنا القاضي الفاضل جانباً من شخصية صلاح الدين وتبته المخلصة لله في الجهاد، وذلك في كتاب أرسله إلى الديوان العباسي لَمَّا تمَّ للأيوبيين فتح بيت المقدس، ومما جاء فيه: (وكان الخادم صلاح الدين لا يسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظيمة، ولا يُقاسي البؤسى إلا رجاء هذه التُّعمى، ولا يُحارب مَنْ يستظلمه إلا لتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا)^(٢).

٣ - رسالة في بيان عدم التنازل عن القدس:

أرسل قائد الإفرنج إلى السلطان: (إن الفرنج والمسلمين قد هلكوا، وخربت البلاد، وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس مُتعبِّدنا، ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيُعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمنَّ السلطان به علينا، ونستريح من هذا العناء الدائم).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٢٨/٣.

(٢) المصدر السابق: ١١١/٢.

فأرسل السلطان في جوابه: (القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر أن نتلفّظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي لنا أيضاً في الأصل، واستيلائوكم كان طارئاً؛ لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، لا يجوز أن نُفَرِّط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام أوفى منها^(١)). والسلطان بهذا الخطاب مَعْنِيّ ببيان العقيدة، وإجلاء الحجة، وذلك في مواجهة خصمه.

٤ - رسالة في إبطال المكوس:

اهتمّ صلاح الدين اهتماماً كبيراً بإلغاء الضرائب عن الحجاج، وحرص أشد الحرص على إرسال الأوامر بذلك إلى ولاياته في مختلف أنحاء الدولة الأيوبية، ومن الأمثلة على ذلك أنه في سنة (٥٧٧ هـ) كتب إلى قوص بإبطال المكوس التي تُؤخذ من الحجاج وتجار اليمن^(٢).

٥ - رسالة في النهي عن التعصّب المذهبي والخلاف بين المذاهب:

وقع في الدولة الأيوبية الكثير من الخلاف بين أصحاب المذاهب، فكان أصحاب كلّ مذهب يتعصّب لمذهبه، ونشأ عن ذلك عدد من المشاكل، وحاول ملوك الدولة الأيوبية الوقوف بوجه هذا التعصّب المذهبي، والحدّ منه بشتّى الوسائل الدعوية، فكان إرسال الرسائل من أبرز تلك الوسائل التي استُخدمت، ومما يدلّ على ذلك تلك الرسالة التي أرسلها صلاح الدين إلى العادل وهو بمصر، وقد جاء فيها:

(انتهى إلينا أن بالديار المصرية، وبالحضرة العالية، جماعةً من

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/٢٨٦-٢٨٧.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/٧٤.



الفقهاء اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف، وبسطوا ألسنتهم بالقول غير المعروف، وأنشؤوا من العصبية ما أطاعوا به القوى الغضبية، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف، فكيف لأهل الوفاق؟! إلا أن يقال أحسنها، وما علمنا أنّ في ذلك نية تُنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد بدراسة تُعقد، وقلّما أثمرت المشاجرة إلا خلافاً، فالمجلس يوعز بكفّ الألسنة الخائضة، ومن عاد بعد الزجر أبعد عن مستقرّه وأزعج، وليسع الخلف ما وسع السلف من الأدب، وليعلم العبد أنه يكتب كتاباً إلى ربه، فليفكر فيما كتب، وإلى من يكتب^(١).

فالسُلطان بهذا الخطاب ينحو منحى الحث على بيان أهمية الإخلاص لله ﷻ في مقاصد الخلاف، وإبعاد حظّ النفس التي قد يكون لها دور كبير في تزكية الخصومة، وتوسيع مداخلها.

٦ - رسالة في النهي عن الظلم:

كان إحقاق العدل ورفع الظلم من أهداف الدولة الأيوبية الرئيسة؛ لذا كان ملوكها يرغبون ولاتهم على الأمصار في العدل، وينهونهم عن الظلم، ومما يدلّ على هذا المعنى السامي رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الأمير مُكثّر، ونص الرسالة: (بسم الله، اعلم أيها الأمير الشريف، أنه ما أزال نعمة عن مكانها، وأبرز الهَمَم عن مكانها، وأثار سهم النوائب

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/ ٢٢٣-٢٢٤.

عن كنائنها، كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله، والجور الذي لا يُفَرِّق في الإثم بين قائله وقابله، فإمّا رَهَبَتْ ذلك الحرم الشريف، وأجللت ذلك المُقام المُنيف، وإلا قَوَّينا العزائم، وأطلقنا الشكائم^(١)، وكان الجواب ما تراه لا ما تَقْرؤُه، وغير ذلك؛ فإنّا نهضنا إلى ثغر مكة المحروسة في شهر جمادى الأولى طالبين الأولى والأخرى، في جيش قد ملأ السهل والجبل، وكظم على أنفاس الرياح فلم يتسلسل بين الأسئل^(٢)، وذلك لكثرة الجيوش، وسعادة الجموع، وقد صارت عوامل الرياح تعطي في بحر الدر^(٣).

ولما فتح السلطان الرقة جاء في منشور لأهلها: (أشقى الأمراء مَنْ سَمَّن كيسه، وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق مَنْ أخذ الباطل من الناس، وسمَّع الحق، ومَنْ ترك شيئاً عَوَّضه الله، ومَنْ أقرض الله قرضاً حسناً، وقاه ما أقرضه، ولمّا انتهى أمرنا إلى فتح الرقة، أشرفنا منها على سُحتِ يُؤكل، وظلمٍ مما أمر الله به أن يُقطع، وأمر الظالمون أن يُوصل، فأوجبنا على أنفسنا، وكافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها، ويلقوا الرعايا من بشائر أيام مُلكنا بأسرها، وتُعتق بلد الرقة من رِقْها، وتُثبت أحكام المعدلة فيها، بمحو هذه الرسوم ومحققها، وقد أمرنا بأن تُسدَّ هذه الأبواب، وتُعطل، وتستمطر سحائب الخصب بالعدل، وتستنزل، ويُعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين، ويسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين، ماضية الأحكام، مستمرة الأيام، دائمة الخلود)^(٤).

(١) الشكائم: جمع شكيمة، وهي: القوة والإباء. اللسان، مادة (شكم).

(٢) الأسئل: الرماح. اللسان، مادة (أسل).

(٣) إتحاف الوري بأخبار أم القرى: ٥٦٧/٢ - ٥٦٨.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٧٦/٣.



ثالثاً: رسائل العلماء:

اهتم علماء الدولة الأيوبية بوسيلة الرسالة، وعُدّوها من الوسائل الدعوية الهامة للتعبير عن الفكرة والرأي، ومن أبرز العلماء الدعاة الذين اشتهروا باستخدام هذه الوسيلة: القاضي الفاضل.

وكانت رسائله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تعالج موضوعات متوّعة، وتخدم أغراضاً وغايات مختلفة، ويمكن إجمال موضوعات رسائله وأهدافها تحت العناوين التالية:

١ - الحث على الجهاد والمصابرة في سبيل الله:

روي أن القاضي الفاضل كان بالديار المصرية أثناء حصار الصليبيين لعمّكا، وذلك لترتيب أمور صلاح الدين، من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل المؤمن إلى عمّكا، وكان السلطان يكتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته، مشيراً وناصحاً ومسلياً وباحثاً عن حقائق الإسلام، وكانت مكاتبات القاضي مستمرة، مليئة بالعبارات الصادقة بكلّ مشاعر الحب، للتخفيف عنه، ولحثّه على مواصلة الجهاد والصبر والتقوى وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله.

وقد جاء في كتاب الفاضل: (ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدو، فتوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يَعْظُم موقعها، والعاقبة للتقوى، ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده، وبرأيه، وبولده، وبخاصّته، وبعامّة جنده)^(١).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/ ١٧٣-١٧٥.

كما روي أنه جاء في أحد كتبه: (وسيوفا قد صارت مفاتيح الأمصار، نفتحها بنصر الله، لا بحدّها ولا بقطعها)^(١).

ولمّا لاحت للسلطان أمارات النصر في بلاد الفرنج، كتب إلى القاضي الفاضل يقول: (ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها).

فكتب إليه القاضي: (فأما قول مولانا: «إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا» فالذنوب كانت مثبته قبل هذا المقام، وفيه مُجِيتٌ، والآثام كانت مكتوبة، ثمّ عُفي عنها بهذه الساعات وعُفِّيت، فيكفي مستغفراً لسان السيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وبسبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدمٍ سَعَت في منهاجك، وطوبى لنفس بين يديك قَتلت وقُتلت، وإنّ الخواطر تشكر الله فيك، وعن شكرها لك قد شُغلت)^(٢).

وهذه رسالة من القاضي الفاضل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى السلطان صلاح الدين في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: (وأما تأسّف المولى عن أوقات عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدّد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نيّة رشده، وأليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد، وتنظيف الطرق إلى المراد، فهو في طاعة قد امتنّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أملٍ في نُجْح موعدها، والثواب على قدر مشقتها، وإنّما عَظُم الحَجِّ لأجل جهده وبُعد مشقته، ولو أنّ المولى فتح الفتوح العظام في أقلّ الأيام، وفَصَلَ القضية بين أهل

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٥٧/٣.

(٢) المصدر السابق: ١٨٩/٤ - ١٩٠.

الإسلام وأعداء الإسلام لكانت تكاليف الجهاد قد قُضيت، وصحائف البرِّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طُويت^(١).

وعندما سيطر الصليبيون على بيروت سنة (٥٩٣هـ)، كتب القاضي الفاضل من مصر إلى الملك العادل في دمشق رسالة جاء فيها: (انظروا إلى أتكم الإسلام كله، وأنكم ظلّ الله، فإن صحّحتم تلك النسبة، فإن الله لا ناسخ لظله، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تهنوا وإن ذهب النصر، فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة^(٢) وتنجلي، وهيعة^(٣) وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح)^(٤).

ثم إنه عاد وكتب له رسالة أخرى يحثّه فيها على المرابطة والصبر والجلد وعدم الملل أمام العدو، مع تبشيره بالجزاء العظيم للجهاد والإنفاق في سبيل الله، وقد جاء في هذه الرسالة: (فلا يسأم مولانا نيّة الرباط وفعلها، وتجشّم الكُلف^(٥) وحملها، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد صرف الله إليه الوجوه كلها: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩])^(٦).

٢ - النصيحة بتعليق الحجّ:

لَمَّا بلغ القاضي الفاضل عزم السلطان على الحجّ أرسل له رسالة يُشير إليه بتأجيله، مما يدلّ على عمق فهم هذا القاضي بمقاصد الشريعة، كما يُبيّن أهمية وجود العلماء الربانيين بجانب القادة السياسيين والعسكريين.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٦/٣ - ٧.

(٢) غمرة: شدّة. الصحاح، مادة (غمر): ٧٧٢/٢.

(٣) هيعة: صوت الصارخ للفرع. الصحاح، مادة (هَيَّعَ): ١٣٠٩/٣.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/٤٣٧ - ٤٣٨.

(٥) الكُلف: ما تكلفته على مشقة. الصحاح، مادة (كلف): ١٤٢٤/٣.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/٤٣٨ - ٤٣٩؛ البداية والنهاية: ٦٧٦/١٦.

وقد جاء في تلك الرسالة: (إنَّ الفرنج لم يخرجوا بَعْدُ من الشام، ولا سَلُوا عن القدس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم، وافتراق عسكرنا، وسفر سلطاننا سفراً مقدّراً معلوماً مدة الغيبة فيه، أن يسيروا ليلة، فيصَبِّحُوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه، والعياذ بالله، ويفرط من يد الإسلام، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تُغفر، ومن العثرات التي لا تُقال. يا مولانا مظالم الخلق كَشَفُها أهم من كل ما يُتَقَرَّب به إلى الله، وما هي بواحدة، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة)^(١).

٣ - رسالة في التعزية:

ولما توفي صلاح الدين كتب القاضي الفاضل إلى صاحب حلب تعزية له في وفاة أبيه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، كتبتُ إلى مولانا الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه، وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف من السلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حضرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودّعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقبّلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله وحده، مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالباب من الجنود المجتدة، والأسلحة المعمّدة ما لم يدفع البلاء، ولا ما يردّ القضاء، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا فما تحتاج إليها والآراء، فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/ ٣٣٤.

الأمر، فإنه إن وقع اتفاق، فما عدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك، فالمصائب المستقبلية أهونها موته^(١).

٤ - مناصحة وتذكير:

جاء في رسالة القاضي الفاضل لصلاح الدين: (وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة، وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، فإله يُثيب المولى ثواب مَنْ غضب ليرضيه بغضبه، وحمّل الخلق على منهاج شرعه وأدبه)^(٢).

وجاء في رسالة أخرى لصلاح الدين أيضاً يحثه فيها على الصبر، والرضا بقضاء الله وقدره: (لا بد أن تنقذ مشيئة الله في خلقه، ولا راد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راضٍ مأجور، خير من أن يجري وهو ساخط موزور، ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه خفياً استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التي لا تشد إلا به، ولا يُضيق صدوراً لا تنفرج إلا منه، عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يُدبّر الدهر إلا برب الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنه لا يقلّ الهم إن كثر الفكر)^(٣).

وفي كتاب فاضلي آخر للسلطان يوصيه فيه بعدم تغيير نفسه نتيجة المحن والشدائد، فيقول: (ويريد المملوك ألا يتغير لمولانا وجهٌ عن بشاشة، ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا تُرى منه ضجرة، ولا تُسمع له

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩/٣.

(٣) المصدر السابق: ٤ / ١٨٦ - ١٨٧.

نهرة، فالشدة تذهب، ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج، ويبقى أجرها، وكما لا يُحدث استمرار النعم لمولانا بطراً، فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجراً^(١).

وفي رسالة أخرى له يوصيه بالصبر على البلاء، والشكر على النعم: (فاشكروا الله على هذه الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب» فليصبر، فإنما خُلِق للصبر، بل ليشكر، فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلي: أنت المعافي، وليرض عن الله، فإن الرضيّ عند الله هو المسلم الراضي)^(٢).

وسطرّ له في كتاب فاضلي آخر يوصيه بالاستغفار والإكثار من الدعاء: (ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، والله قدر لا سلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤]، وقد جمع العدو لنا وقيل لنا: اخشوه، فقلنا: حسبنا الله ونعم الوكيل، متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس إلا الاستعانة بالله، فما دلّنا الله في الشدائد إلا على الدعاء له، وعلى طروق باب كرمه وعلى التضرع إليه، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣]. ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فإنه لا يئس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه)^(٣).

وقد أرسل القاضي الفاضل رسالة للعادل يذكره فيها بأهمية اغتنام الأوقات: (هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار، وهذه النفقات التي

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٨٤.

(٢) المصدر السابق: ٤ / ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٨٥ - ١٨٦.

تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه، فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذي ما كل من طلبه ووصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ما سوّده الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقفات، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجعات^(١).

ومن العلماء الذين استخدموا وسيلة الرسالة عز الدين بن عبد السلام، وهو من أبرز الدعاة إلى الله في هذا العصر، وقد تميّز في رسائله بالصراحة والجرأة في مقولة الحق ومواجهة الآخرين بها.

ومن أمثلة رسائله ما كتبه للملك الأشرف، جاء فيها: (فإننا نزعم أنا من جملة حزب الله ﷻ وأنصار دينه وجنده، والجندي إذا لم يخاطر بنفسه فليس بجندي)^(٢).

ومن العلماء الذين اهتموا بهذه الوسيلة الإمام القرافي، فقد روي أنه أرسل إليه أحد النصاري رسالة يحتجّ فيها بصحة دينه، فأرسل إليه القرافي برسالة أثبت فيها صحة نبوة محمد ﷺ، وقد فيها مفتريات ذلك النصراني، وأبطل حججه مستدلاً لذلك من كتبهم. وقد سمى هذه الرسالة بـ«الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة»^(٣).

ومثل هذه الرسالة ما كتبه بعض طلبة العلم في مصر من رسائل إلى بعض رؤساء الفرنج، وذلك بطلب من الملك الكامل ردّاً على رسائل فيها بعض الأسئلة بعثوا بها إلى المسلمين^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٣٩.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢٣٤.

(٣) انظر: مقام الصلبان ومراتب أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، ١٢٣ وما بعدها.

(٤) انظر: الرد على النصاري، ص ١٥.

رابعاً: وسيلة الرسل:

اعتمد المسلمون كثيراً على وسيلة الرسل في عصر الدولة الأيوبية، وذلك في مراسلاتهم مع الصليبيين، فبواسطة هؤلاء الرسل استطاع المسلمون تحقيق الكثير من المصالح كتبادل وجهات النظر والمفاوضة والمحاورة، كما ساعد أولئك الرسل على تخفيف حدة التوتر والعداء بين الطرفين.

ومن الشواهد على استخدام الرسل في عهد الدولة الأيوبية ما قام به صلاح الدين من إرسال الرسل المحمّلين بالرسائل إلى قادة الفرنج بغرض الجهاد والفتوحات، ولمناقشة أمور تتعلق بالمصالح المشتركة بين الطرفين. ومن ذلك إرساله رسولاً إلى ملك القسطنطينية لإبلاغه بشأن إقامة صلاة الجمعة في بلاده، وقد ذكر ذلك ابن شداد فقال: (... وكان وصل منه - أي ملك القسطنطينية - رسول إلى الباب السلطاني في جواب رسول كان أنفذه السلطان ﷺ إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع القسطنطينية)^(١).

كما أرسل أيضاً رسولاً إلى ملك الفرنسيين، سار إليه إلى صور بهدايا سنّية، وطيب كثير، وثياب جميلة^(٢)؛ وذلك بغرض كسبه ضدّ بقية الملوك الصليبيين الذين تكالبوا على المسلمين.

وكذلك إرساله رسالة لطيفة ليّنة مع رسوله إلى الماركيس صاحب صور، وقد بيّن ابن شداد الغرض من تلك الرسالة فقال: (وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع الماركيس عن الفرنج، فإنه كان من أشدّهم بأساً، وأعظمهم للحرب مراساً، وأثبتهم في التدبير أساساً..)^(٣).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٨.

ومن أهم المراسلات التي حققت للمسلمين مصالح عظيمة تلك التي قام بها الملك العادل مرسلًا من طرف صلاح الدين إلى ملك الإنكلتاز الصليبي، وقد نتج عن هذه المراسلات عقد الهدنة بين الطرفين، وتنازل الصليبيين عن القدس، وحصر نفوذهم في منطقة ضيقة من الساحل^(١).

وكان الملوك يحرصون على أن يكون حامل الرسالة في بعض الأحيان من العلماء، ولا سيما إذا كان موضوع الرسالة مناقشة علمية، أو إجابة عن أسئلة تتعلق بأمور الدين، ولا شك أن لهذا تأثيره الكبير في مستقبلي الرسالة، وذلك عن طريق تصحيح صورة الإسلام المشوهة لديهم، أو عرض لمحاسن الإسلام وعلومه، أو بيان لبطلان عقيدتهم.

ومن أهم المراسلات التي قام بها العلماء: إرسال الملك الكامل لفخر الدين يوسف بن حمويه - أحد علماء مصر البارزين - إلى ملك صقلية. وقد قام الشيخ بإيصال رسالة الكامل إلى الملك، كما دار بينه وبين الملك الصقلي مناقشات علمية^(٢).

ولقد كان هذا الملك من المعجبين بالإسلام وتشريعاته، وقد دلّ على هذا مقولته الشهيرة التي قالها عندما زار بيت المقدس أيام الملك الكامل، إذ قال: (...والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم...)^(٣).

ومن رسل الملك الكامل إلى فريدريك الثاني أيضاً: جمال الدين بن منقذ، فقد بعثه بهدية قيمة فيها من ثحف اليمن والعراق والشام ومصر^(٤).

(١) انظر: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٩٠ و ٢٩٢ و ٢٩٣.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق: ١ / ٢٣١.

(٤) المصدر السابق: ١ / ٢٢٣.

ومن الرسل أيضاً: الشيخ القاضي سراج الدين الأرموي، الذي أرسله الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل إلى ملك صقلية، وقد مكث هذا القاضي في صقلية مدة من الزمن أَلّف فيها بعض كتبه^(١).

وهكذا ظهر لنا بجلاء كيف استفاد المسلمون في عهد الدولة الأيوبية من وسيلة إرسال الرسل فوائدها عظيمة، فقد حققت للمسلمين مكاسب كبيرة على الصعيدين الديني والدنيوي.

* * *

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٤٧/٤.



المطلب الثاني المناظرة

المناظرة من الوسائل الدعوية الهامة؛ لذا استخدمها بعض دعاة الدولة الأيوبية، واشتهر عدد منهم في هذا المجال، وكان هدف أولئك الدعاة من مناظراتهم بيان الحق والدعوة إليه، وكان لهذه الوسيلة بحمد الله آثار ونتائج طيبة.

وفي هذا المبحث سأتحّدث بإذن الله عن النقاط التالية:

- ١ - تعريف المناظرة.
- ٢ - أهمية وسيلة المناظرة.
- ٣ - الملوك الذين استخدموا وسيلة المناظرة.
- ٤ - العلماء الذين استخدموا وسيلة المناظرة.

أولاً: تعريف المناظرة:

قبل الحديث عن أهمية وسيلة المناظرة أودّ بيان تعريفها في اللغة والاصطلاح.

١ - المناظرة لغة:

قال ابن منظور: والمُنَاطِرَةُ: أَنْ تُنَاطِرَ أَخَاكَ فِي أَمْرٍ إِذَا نَظَرْتُمَا فِيهِ مَعاً كَيْفَ تَأْتِيَانَهُ^(١).

وقال الراغب في «المفردات»: النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك

الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية^(١).

وقال: والمناظرة: المباحثة، والمباراة في النظر، واستحضار كل ما يراه ببصيرته، والنظر: البحث، وهو أعم من القياس؛ لأن كل قياس نظر، وليس كل نظر قياساً^(٢).

٢ - والمناظرة اصطلاحاً:

هي تردد الكلام بين شخصين يقصد كل منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق^(٣).

ثانياً: أهمية وسيلة المناظرة:

تعدّ وسيلة المناظرة من الوسائل الهامة في الدعوة إلى الله، وقد أمر الله ﷺ رسوله الكريم ﷺ أن يستخدمها في المجال الدعوي، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد ذكر الله ﷺ في كتابه عدداً من المناظرات بين الأنبياء وأقوامهم، مما يُظهر أهمية هذه الوسيلة، ويُرغّب الدعاة في استخدامها.

ومن المناظرات التي ذُكرت في القرآن الكريم مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه في عبادتهم ما لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً، فقد بيّن لهم بالحجج والبراهين بطلان ما هم عليه، وذلك في سور عديدة من القرآن الكريم، كما حكى الله جل وعز عن مناظرته عليه السلام أيضاً مع الملك الجبار (النمرود) الذي

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٨١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم، الدكتور زاهر الألمعي، ص ٢٥.

ادّعى الألوهية في سورة البقرة^(١)، وكانت هذه المناظرة وسيلة لإظهار كذب هذا الملك، وبيان ما هو عليه من الضلال.

ومن الرسل الذين استخدموا وسيلة المناظرة في تبليغ شرع الله، وإظهار الحق موسى عليه السلام، وذلك عندما ناظر فرعون، وبيّن بطلان ما هو عليه من باطل أمام ملئه وقومه في عدد من سور القرآن الكريم.

وبهذا تتبيّن أهمية المناظرات ومشروعيتها إذا احتيج إليها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: (وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة، ومستحبة أخرى)^(٢).

وعظّم رحمته الله شأن مناظرة المخالفين ودحض شبهاتهم فقال: (كلّ من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وقى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس)^(٣).

وتاريخ الإسلام حافل بأنواع المناظرات، من ذلك ما قام به ابن عباس رضي الله عنهما عندما ناظر الكثير من الخوارج فرجع الكثير منهم^(٤).

ثالثاً: من الملوك الذين استخدموا وسيلة المناظرة:

اشتهر عدد من الملوك الأيوبيين باستخدامهم لوسيلة المناظرة، واهتمامهم بها، وعقدتهم المجالس للعلماء، وحضورهم لمناظرات العلماء^(٥)،

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٢) درء التعارض، ابن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن: ١٧٤/٧.

(٣) المصدر السابق: ٣٥٧/١.

(٤) البداية والنهاية: ١٩٧/٩.

(٥) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٤١٥.

وما ذاك إلا لإدراكهم لأهمية هذه الوسيلة في التأثير في المدعويين، وإقناعهم بالحق الذي يدعو الداعية إليه.

ومن الملوك المهتمين بالمناظرة السلطان صلاح الدين، فقد روي أنه لما حاصر الشقيف، تيقن صاحبه عدم السلامة، فنزل بنفسه، واستأذن في الدخول على السلطان، فأذن له واحترمه وأكرمه، وكان يعرف العربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث، وقد ذكر أنه كان عنده مسلمٌ يقرأ له ويفهمه، فأكل مع السلطان، وذكر أنه تحت طاعته، ويُسلم له المكان بشرط أنه يُعطى سكناً بدمشق، واشترط شروطاً أخرى، فأجيب إليها كلها، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت، ويناظر في دينه ويُنظره السلطان في بطلانه، وكان حسن المحاورة، متأدباً في كلامه، حتى ظهر غدره، وبان مكره^(١).

ومن الملوك الذين كان لهم اهتمام بهذه الوسيلة الملك العادل، فقد روي أنه كان يبحث ويُنظر^(٢). وهذه إشارة صريحة إلى اتّصاف هذا الملك بكونه يستخدم هذه المناظرة في مجالسه.

رابعاً: من العلماء الذين استخدموا وسيلة المناظرة:

اشتهر عدد من علماء الدولة الأيوبية باستخدام وسيلة المناظرة، واهتموا باستخدامها في الدعوة إلى الله، ومن أشهر أولئك العلماء الدعاة:

— الحافظ عبد الغني: من العلماء الأفاضل، ناظر من اتّهمه بالتجسيم والتشبيه^(٣)، فدفع عن نفسه هذه التهمة ببيان عقيدة السلف وسيره على ضوءها.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٦٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٠.

(٣) المصدر السابق: ٢١ / ٤٦٣.



- ابن قدامة: كان ثقة حجة، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه، عُرف بالمناظرة، كان لا يُناظر أحداً إلا وهو بيتسم، وقد بقي زماناً بعد الجمعة للمناظرة، وكان يجتمع إليه الفقهاء^(١).
 - عماد الدين المقدسي الجماعيلي: يقول عنه الذهبي: (شاهدته يناظر غير مرة)^(٢).
 - نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي: من كبار فقهاء الحنفية وأعيانهم، رحل إلى بغداد، وناظر العلماء والأئمة، ثم توطّن بلاد الروم مدّة، ودارس الفقهاء، له دراية بالخلاف والفقه والكلام والجدل والمناظرة^(٣).
 - العز بن عبد السلام وابن الصلاح: وقد وقعت بينهما مساجلة (مناظرة) في بعض المسائل العلمية^(٤).
 - الشيخ أحمد بن إدريس القرافي: والذي كان من أبرز المناظرين للنصارى في مصر، فقد أشار إلى كثرة وقوع ذلك منه معهم^(٥).
- وثمة حادثة وقعت سنة (٥٩٥هـ) تدل على اهتمام أولئك العلماء بوسيلة المناظرة، ومدى تأثيرها في الدعوة، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل: فقد روي: أنه عظمت الفتنة في تلك السنة في عسكر غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام ملك الغورية، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي الفقيه الشافعي المشهور كان قد بالغ غياث الدين

(١) سير أعلام النبلاء: ١٦٥/٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٥١-٤٩/٢٢.

(٣) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ١٩٩.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢٥١؛ المجموع، محيي الدين بن شرف النووي: ٤٢٧/٨-٤٦٢.

(٥) انظر: الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، ص ١١١.



في إكرامه، وبنى له مدرسة بقرب جامع هراة، ومعظم أهلها كرامية^(١)، فأجمعوا على مناظرته، وتجمّعوا عند غياث الدين معه، وكبيرهم القاضي مجد الدين عبد المجيد بن عمر بن القدوة، فتكلم الإمام فخر الدين مع ابن القدوة، واستطال عليه، وبالغ في شتمه، وهو لا يزيد على أن يقول: (لا يفعل مولانا، لا آخذك الله، أستغفر الله)، فغضب الملك ضياء الدين له، ونسب الإمام الرازي إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة، وقام من الغد ابن عمر بن القدوة بالجامع، وقال في خطبته: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، أيها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ، وأما علم أرسطو، وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابي فلا نعلمها، فلأي حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام، يذبّ عن دين الله وسنة نبيه؟!.. وبكى وأبكى، فثار الناس من كل جانب، وامتلأت البلد فتنة، فسكّتهم السلطان غياث الدين، وتقدم إلى الإمام فخر الدين بالعود إلى هراة، فخرج إليها، ثم فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية، وتقلّد مذهب الشافعي رحمته الله^(٢).

* * *

(١) مذهب الكرامية: أصحاب محمد بن كزّام، المتوفى سنة (٢٥٥هـ)، قالوا: (إن الإيمان هو القول باللسان دون المعرفة بالقلب، والمنافقون مؤمنون)، وهم من فرّق المرجئة. انظر: عقائد الثلاث والسبعين فرقة، أبو محمد اليميني، تحقيق: محمد عبد الله الغامدي: ١/ ٢٧٥.
 (٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/ ١٤٤ - ١٤٥.

المطلب الثالث وسيلة الخطابة

تعدّ الخطابة من الوسائل الدعوية الهامة لعظم تأثيرها على المدعوين، وقد استخدمها الدعاة إلى الله تعالى قديماً وحديثاً.

وسأتحدث عن وسيلة الخطابة من خلال الفقرات التالية:

- ١ - تعريف الخطابة.
- ٢ - أهمية وسيلة الخطابة.
- ٣ - استخدامها في العصر الأيوبي.

أولاً: تعريف الخطابة:

١ - الخطابة لغة: الخِطَابُ.

والمُخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الكَلَامِ، وقد خَاطَبَهُ بِالكَلَامِ مُخَاطَبَةً وَخِطَاباً، وَهُمَا يَتَخَاطَبَانِ.

وَالخُطْبَةُ عِنْدَ العَرَبِ: الكَلَامُ المَثْنُورُ المُسَجَّعُ، وَنحوه.

وَرَجُلٌ خَطِيبٌ: حَسَنُ الخُطْبَةِ، وَجَمْعُ الخَطِيبِ: خُطَبَاءٌ^(١).

٢ - الخطابة اصطلاحاً: مجموع قوانين تُعرّف المدارس طرق التأثير

بالكلام، وحسن الإقناع بالخطاب^(٢).

(١) لسان العرب: ١/٣٦١، مادة (خطب).

(٢) الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ٩.

ثانياً: أهمية وسيلة الخطابة:

الخطابة إحدى وسائل الدعوة إلى الله ﷻ، وهي من وسائل التربية والتأثير، لذا استخدمها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم إلى توحيد الله ﷻ وطاعته، وتحذيرهم من غضبه وعقابه، لينتهوا عما هم عليه من ضلال وفساد عقدي، وخلقي، واجتماعي.

ولقد اعتنى رسول الله ﷺ بهذه الوسيلة، فقد كان أفصح الناس وأبلغهم وأخطبهم، وخطبه عليه الصلاة والسلام محفوظة في كتب السيرة النبوية.

ومما يبين اهتمام الرسول ﷺ بوسيلة الخطابة، ووضعه لمنبرٍ يخطب عليه يوم الجمعة؛ ليكون أكثر تأثيراً في المدعوين، فعن جابر ﷺ قال: (كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وُضع له المنبر، سمعنا للجذع مثل أصوات العشار^(١))، حتى نزل ﷺ فوضع يده عليه^(٢).

ولقد خوّف رسول الله ﷺ من المنافق العليم اللسان؛ وما ذاك إلا بسبب شدة أثره السيئ في الناس، لحسن إلقائه وتنميق عباراته وتليسه عليهم؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي، كل منافق عليم اللسان»^(٣).

ولقد بلغت الخطابة زمن الخلفاء الراشدين المكانة المرموقة واللائقة بها، فكان للخلفاء خطباء يخطبون الناس في الجمع والأعياد والمناسبات، ويخطبون في الجيوش، ويوجهون القادة.

وما زالت الخطابة وسيلة ناجحة من الوسائل التي يلجأ إليها العلماء

(١) العشار من الإبل: هي التي أتى عليها عشرة أشهر. لسان العرب، مادة (عشر): ٥٧٢/١٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الخطبة على المنبر: ٣١١/١، برقم (٨٧٦).

(٣) رواه أحمد في مسنده: ٢٨٩/١، برقم (١٤٣)؛ صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب:

١٦٤/١، برقم (١٣٢).

والدعاة والقادة في كل العصور؛ لتحريك العقول، وبعث الثقة في النفوس؛ دفاعاً عن فكرة معينة أو دعوة إلى غاية محدّدة.

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: (والخطابة وسيلة جيدة للتبليغ، وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي أو يعرف بعضهم فقط. ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معان معينة يريد بيانها ولُفّت الأنظار إليها. ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له علاقة في أحوال الناس، مع ربط ذلك بمعاني العقيدة الإسلامية)^(١).

ثالثاً: استخدامها في العصر الأيوبي:

وفي العصر الأيوبي استهدفت هذه الوسيلة جماهير المسلمين، وكانت الغاية منها تقويم الأخلاق والقيم والعقيدة وغيرها، ولقد كان لهذه الوسيلة دور عظيم في تهذيب الجماهير الإسلامية^(٢).

وأول خطبة كانت للدولة السُّنية سنة (٥٦٧هـ)، فقد استفتح صلاح الدين تلك السنة بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطبهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر من العبيديين^(٣).

وقد اشتهر عدد من الدعاة في الدولة الأيوبية بالخطابة، واستخدموها في الدعوة إلى الله تعالى، فصدحوا بكلمة الحقّ من فوق منابرهم، ودعوا الجماهير إلى خيري الدنيا والآخرة، وحذّروهم ممّا يعود عليهم بالسوء والويل في الدارين.

ومن الدعاة الذين اشتهروا بالخطبة القاضي محيي الدين بن زكي

(١) أصول الدعوة، ص ٤٧٤.

(٢) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٥٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٨٩/٢.



الشافعي، فقد روي أنه لمّا تسامع المسلمون بفتح بيت المقدس أتوه رجالاً وركباناً من كلّ جهة لزيارته، حتى كان من الجمع ما لا ينحصر، فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان، وخطب القاضي ابن زكي خطبة بليغة بدأها بقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، والحمد لله مُعزّ الإسلام بنصره، ومُذلّ الشرك بقهره، ومُصرّف الأمور بأمره، ومُستدرج الكفر بمكره)، ثم راح يُهنئ الحاضرين: (بما يسّره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس الذي من شأنه كذا وكذا، فذكر من فضائله ومآثره، وأنّه أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين... وإليه المحشر والمنشر يوم التلاق، وهو مقرّ الأنبياء، ومقصد الأولياء...)، ودعا للخليفة العباسي، وللسلطان صلاح الدين صاحب الفتح، وحمد الله كثيراً على هذا المنّ العظيم، كما أخذ يحثّ المسلمين على مواصلة الجهاد في سبيل الله^(١).

ومن خطباء الدولة الأيوبية الخطيب الدولي العالم المفتي خطيب دمشق، والذي سمع ببغداد من الكروخي كتاب «جامع الترمذي»، وسمع من اليزيدي كتاب «سنن الترمذي»، وتفقه ببغداد، وولي خطابة دمشق دهرأ^(٢).

ومن الخطباء الذين أحيوا رسالة المنبر في هذا العصر العز بن عبد السلام، وأنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الجماهير الإصغاء، وأزال ما لحق بالدين من الخطباء والأئمة من بدع، كدقّ السيف على المنبر، ولبس السواد، وسجع الخطب، فلم يلبس السواد في الخطبة، ولا سجع فيها، واجتنب الثناء على الملوك، ولكنه كان يدعو لهم إن كانوا صالحين^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٧٩ - ٣٨٣؛ البداية والنهاية:

٥٩٠/١٦؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٩٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٣٥٠.

(٣) العز بن عبد السلام، ص ٨٦.

ولقد كان خطباء الدولة الأيوبية يتخَيرون موضوعات خطبهم تبعاً لأوضاع الأمة الإسلامية، وما تمرّ به من أزمات ومشكلات، وأكثرها من حثّ الناس على حماية محارم الإسلام، والجهاد ضدّ الصليبيين؛ وذلك نظراً لظروف العالم الإسلامي العسكرية في ذلك الوقت، ومواجهتهم للصليبيين.

ومما يؤكّد ذلك ما حدث في إحدى السنوات بعد ولاية الملك العادل، فقد روي أنه نقص نهر النيل نقصاً كبيراً، فنظت الناس، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وقيل: إنّ هذا النقص لم يُعهد من عهد الصحابة، فشرع الناس في الاستغفار والإنابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنّما أصابتهم مصيبة، ثم استسقوا الله ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وضجّت بالأدعية والضراعات الألسنة^(١).

ولما سقط برج السلسلة في أيدي الصليبيين أصاب المسلمين حالة من الفوضى والاضطراب، مما ساعد على وقوع مدينة دمياط في أيدي الصليبيين عام (٦١٦هـ)، فطلب السلطان الكامل من أخيه المعظم صاحب دمشق التوجّه إلى الشام ليشغل الفرنج، وليستجلب العساكر من المشرق، فكتب الملك المعظم إلى سبط ابن الجوزي الذي كان بدمشق يطلب منه حثّ الناس على الجهاد، والخروج مع المقاتلين للقائه في نابلس، وقد نفّذ السبط أوامر المعظم، فخطب في الناس، وحثّهم على الجهاد، وقرأ كتاب المعظم عليهم، فتجهّزوا للقتال، وأثمرت جهودهم عن فتح قيسارية عنوة، وفتح الثغر، ثم عادوا إلى دمشق منتصرين^(٢).

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٦٣.

(٢) انظر: ذيل الروضتين، ص ١١٦ - ١١٧.

المطلب الرابع وسيلة الجهاد

يُعدّ الجهاد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته، ونشر دينه وسيلة من وسائل الدعوة الرئيسية، وقد استخدمها الدعاة في العصر الأيوبي، فجاهدوا أعداء الإسلام داخل الدولة وخارجها.

وسأتحدّث في هذا المطلب عن وسيلة الجهاد من خلال النقاط التالية:

- ١ - تعريف الجهاد.
- ٢ - أهداف الجهاد وغاياته.
- ٣ - فتوحات الأيوبيين.
- ٤ - أبرز مجاهدي العصر.
- ٥ - الجهاد ضد الصليبيين.
- ٦ - آداب الجهاد.

أولاً: تعريف الجهاد:

١ - الجهاد لغة:

قال الراغب: « الجَهد والجُهد: الطاقة والمشقة، وقيل: الجَهدُ بالفتح المشقة، والجُهدُ الوُسع»^(١).

٢ - الجهاد في الشرع:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والجهاد هو بذلُ الوُسع - وهو القدرة -

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٠٨.



في حصول محبوب الحق^(١)، وقال في موضع آخر: (وذلك أن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان)^(٢).

وقد قصد الإسلام بتشريعه للجهاد إقامة دين الله في الأرض، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولم يقصد أبداً الاعتداء على غير المسلمين، وقتلهم كما يدعي أعداء الإسلام، وقد بيّن الله ذلك في كتابه العزيز، فقال جلّ وعزّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: (ذكر الله تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن يكون الدين لله تعالى، فيظهر دين الله على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل المقصود فلا قتل ولا قتال)^(٣).

وبناءً على ذلك فالغاية الأساسية من الجهاد هي إقامة المجتمع الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية المبنية على الكتاب والسنة.

وقد أمر الله ﷺ نبيه بالجهاد فقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

يقول الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: (الأمر للنبي ﷺ بهذا الجهاد أمر لأُمَّته من بعده، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله)^(٤).

(١) فتاوى سلطان العلماء العز بن عبد السلام، تحقيق: مصطفى عاشور: ١٩٢ / ١٠.

(٢) المصدر السابق: ٣٨٥ / ٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المَثَّان، ص ٨٩.

(٤) فتح القدير: ٣٨٢ / ٢.

وقال تعالى مؤكداً هذا الأمر: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

ولم يكن الأمر بالجهاد مقتصرًا على النبي ﷺ، بل أمر سبحانه المؤمنين أيضاً بالجهاد فقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

ووعده سبحانه المجاهدين بالرحمة فقال جل وعز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

والجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، ففي الحديث النبوي الشريف: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»^(١).

والمجاهدون في سبيل الله هم خير خلق الله وأفضل عباده، قوم دعاهم الله لإعلاء كلمته فاستجابوا، وأمرهم بالدعوة إليه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فسارعوا للقيام بذلك، وانبروا لتعليم الناس تعاليم دينهم، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، فلما وقف الأعداء في طريقهم، ومنعهم من أداء مهمتهم، تحوّلوا معهم إلى الجهاد بالسيف؛ لصدّ الطغاة وقتالهم، إلى أن يستجيبوا لهم، ويدخلوا في الدين الإسلامي الحنيف، إنهم قوم باعوا أنفسهم لله، ورغبوا في لقاءه؛ لينالوا الأجر والمثوبة عند الله في الآخرة، لقد بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل هذا الدين؛ لإيصاله للناس، ولينالوا بذلك رضوان الله في الدنيا والآخرة.

ثانياً: أهداف الجهاد وغاياته:

١ - نشر الدين الإسلامي، وإعلاء كلمة الله؛ وذلك بدعوة الناس إلى

(١) رواه أحمد في مسنده: ٣٤٤/٣٦، برقم (٢٢٠١٦)، قال الشيخ شعيب في تحقيقه للمسنَد: صحيح بطرقه وشواهده.

عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وعلى هذا فالهدف الأساس من الجهاد: نشر الدين الإسلامي، فإن تحقق الهدف بالسلم والأمان، فلا حاجة إلى القتال والجهاد حينها، قال الشوكاني: (فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية؛ هي: ألا تكون فتنة، وأن يكون الدين لله، وهو الدخول في الإسلام، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل في الإسلام، وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله)^(١).

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»^(٢).

٢ - نصررة المظلومين والوقوف بجانبهم ضد أعدائهم، وتوفير الأمن والسلام لهم: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

قال الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية: (هذا حث من الله لعباده المؤمنين، وتهيج لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فالله تعالى يقول: جهادكم صار على هذا الوجه من باب القتال والذب

(١) فتح القدير: ١/١٩١.

(٢) رواه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾:

١٧/١، برقم (٢٥).

عن عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجراً وأكبر فائدة، بحيث يكون من باب دفع الأعداء^(١).

٣ - الذبّ عن حياض الدولة الإسلامية والدفاع عنها: وذلك برّد المعتدين وقتالهم، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٤ - تخويف الكفار وإرهابهم وإغاظتهم وإذلالهم: وذلك بالاستعداد للجهاد، وتقوية الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعن أم مالك البهزية رضي الله عنها قالت: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة، فقلت: يا رسول الله من خير الناس فيها؟ قال: «رجل في ماشيته يؤدي حقها ويعبد ربه، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخوفونه»^(٢).

٥ - القضاء على الكفار بعد عرض الدعوة عليهم وإبائهم الدخول في دين الله تعالى الذي ارتضاه لهم: قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

٦ - تربية المؤمنين على الصبر والجلد والثبات وبذل النفس ابتغاء لمرضاة الله، وفي سبيل نشر الشريعة الإسلامية وتبليغها للناس كافة.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المآان، ص ١٨٧.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٣٤٢/٤٥، برقم (٢٧٣٥٣)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة:

٣١١/٢، برقم (٦٩٨)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.



ثالثاً: فتوحات الأيوبيين:

الإسلام رسالة عالمية، جاءت بالخير للبشرية كافة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

فمن هذا المنطلق وجب على كل مسلم بذل جهده ووسعه في الدعوة إلى الإسلام، ليتشر هذا الدين في الأرض، وليعمّ الخير للناس أجمع. وقد وضع الدعاة الأيوبيون هذا الهدف نصب أعينهم، فحرصوا على تبليغ رسالة الإسلام، وبذلوا جهوداً واسعة في نشرها، وإيصالها لمن يجهلها. ومن أبرز تلك الجهود: الفتوحات الإسلامية التي قاموا بها لعدو من البلاد، والتي كان هدفهم الأساس من فتحها هو تبليغ الدعوة لأهل تلك البلاد، أو القضاء على منكرات شرعية ظهرت عندهم، بالإضافة إلى أهداف أخرى لتقوية الجبهة الإسلامية، كتوسيع الدولة، وتوفير الحماية لها من أعدائها المجاورين.

وكان عهد صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية من أزهر عهود الدولة الأيوبية في الفتوحات الإسلامية، فقد افتتح ﷺ ما لم يفتحه ملك، وطار صيته في الدنيا، وهابته الملوك^(١).

١ - بداية الفتوحات:

وقد كان استيلاء الأيوبيين على مصر هو بداية فتوحاتهم، فبعد استفتاء الفقهاء، استولى صلاح الدين على القصر العبيدي، وأرسل البشري للخليفة العباسي المستضيء بالله، وبهذا تمّ القضاء على النفوذ الشيعي في مصر^(٢)،

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١/٢٨٥.

(٢) انظر: الحروب الصليبية، ص ١٢٦.

وبعد ذلك شرع الأيوبيون في تكوين دولة الوحدة من شمال العراق إلى الشام ومصر، وكان تحزُّكهم العسكري يتّـم ضمن هذا الهدف^(١).

٢ - الفتوحات الشامية:

ومما يؤكِّد سموّ هدف الأيوبيين في فتوحاتهم، وأنّ غرضهم الأساس منها هو نشر الإسلام والقضاء على مَنْ يخالفه، أنّ قائدهم صلاح الدين لمّا قضى على العبيديين في مصر بأمر من نور الدين زنكي، أثبت إخلاصه للبيت النوري، وأراد أن يُحافظ على الجبهة الإسلامية المتحدة التي أقامها نور الدين، ولكنّ اضطراع أمراء دمشق بعد وفاة نور الدين، ومكاتبتهم له جعلت الأيوبيين بقيادة صلاح الدين يزحفون إلى مدن الشام، وسقطت لهم واحدة واحدة^(٢).

ففي سنة (٥٦٩هـ) اضطربت البلاد الشامية بوفاة نور الدين، ودُعي الأيوبيون بقيادة صلاح الدين لضبطها، ودخل إلى دمشق سنة (٥٧٠هـ) يوم الإثنين أول شهر ربيع الآخر، فاستقبله أهلها بحفاوة، ومَلَكها الأيوبيون من غير مُدافع، وأنفق صلاح الدين في الناس مالاً جزيلاً، وأمر فنودي بإطابة النفوس، وإزالة المكوس، وإبطال ما أُحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب، وأظهر أنه إنما جاء لتربية الصالح بن نور الدين - وكان صغيراً - وأنه ينوب عنه، ويُدبّر دولته، وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع، وبعث بالبشارة إلى القاهرة، وكاتب الأطراف بذلك^(٣).

إن تعبير الدمشقيين عن فرحهم، وإجابة صلاح الدين لهم يُعبّر عن مدى حاجة الأمة إلى قيادة مخلصّة تتحمّل قيادة الجماهير، وتتخلّص من قيادة

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٨٧.

(٢) الحروب الصليبية، ص ١٤٤.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ٥٨/١؛ الأعلام: ٢٢٠/٨.

ضعيفة، فكان صلاح الدين يسعى لتحقيق الوحدة للمدن الإسلامية، تشمل الشام ومصر والجزيرة؛ للاستفادة من إمكاناتها ضد الصليبيين، وتحرير القدس^(١).

وكانت دمشق أول مدينة تسقط بيده من أملاك الدولة النورية في الشام، وبعد أن انتهى من دمشق انصرف إلى ما وراءها، فتوجه إلى حمص، واستولى عليها وعلى حماة وبعليك^(٢).

٣ - فتح حلب:

بعد وفاة نور الدين تولى ابنه الملك الصالح إسماعيل الحكم في حلب، وكان وجوده على رأس السلطة اسمياً فقط؛ لأنه كان صغيراً لا يفقه تدبير شؤون الحكم، فتمكّن أعوانه من التلاعب بأمر الدولة.

وكان كمشتكين هو الوصي على الملك الصالح، والمتفرّد بحكم مدينة حلب، فبدأ سياسة خاصة، وخطّط فيها بإبعاد صلاح الدين عن حلب بكل الوسائل، وأرسل إليه رسالة يتهمه فيها بحبه للغزو، والسيطرة على أملاك سيده نور الدين محمود وابنه الملك الصالح^(٣)، وكان صلاح الدين يعلم نيات كمشتكين وغاياته، فكان يرأسل الملك لتوضيح الأمر له، وإبداء النصح، منعاً لتردّي العلاقات بينهما^(٤).

ويبدو أن الملك الصالح لم يكن راضياً عن تصرفات أمرائه، إلا أنه كان ضعيفاً لا يستطيع إبعادهم من حوله، كما أنه كان سريع التأثر بهم نظراً لصغر سنه^(٥).

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٤؛ الأعلام: ٢٢٠ / ٨.

(٣) مرآة الزمان: ٣٢٧ / ٨.

(٤) المصدر السابق: ٣٢٧ / ٨.

(٥) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص ٥٧.

توجّه صلاح الدين إلى حلب سنة (٥٧٠هـ)؛ وكان مُصِرّاً على ضمّها إلى أملاكه بغرض توحيد القوى الإسلامية، وإمداد الثغور مع الصليبيين بالعساكر والمؤن^(١)، ولكن كمشتكين أغلق حلب في وجهه، فشرع في حصارها، وكان أهلها يميلون إلى الإذعان لصلاح الدين باستثناء الشيعة. وناشد الملك الصالح الشيعة أن يؤازروه، فاشترطوا لذلك:

– أن يخصّص الجانب الشرقي من الجامع لهم.

– يُعاد الأذان بـ (حي على خير العمل).

– تُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز.

– يكبّر على الجنازة خمساً.

– تكون عقود نكاحهم إلى أبي طاهر الحسيني.

ووافق الصالح إسماعيل على طلبهم بتأثير من كمشتكين^(٢).

ثم إن كمشتكين وقع في خطأ فادح آخر، فقد لجأ إلى الاستعانة بالحشيشية والصليبيين؛ لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب، وقد استجاب زعيم الحشيشية سنان، وبعث بجماعة من الفدائيين لقتل صلاح الدين متكررين بزبي الأجناد، وتمكّن بعضهم من التسلّل إلى خيمته، وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم، لكنّ أمرهم انكشف، ونجا صلاح الدين من محاولة الاغتيال^(٣).

واستمر كمشتكين في ارتكاب المزيد من الأخطاء في سبيل حماية حلب من الأيوبيين، فأرسل إلى ريموند الثالث أمير طرابلس، والوصيّ على عرش مملكة بيت المقدس يطلب منه العون، فسارع ريموند بمدّ يد العون لكمشتكين؛ وذلك لإدراكه أنّ بقاء حلب في يد البيت الزنكي هو

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ١١٤ - ١٢٣.

(٢) البداية والنهاية: ١٦ / ٥٠٢.

(٣) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص ٥٨.

الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتد من النيل إلى الفرات، وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن^(١).

واستمرت محاولات الأيوبيين في فتح حلب، وضمها للدولة الأيوبية، كما استمر دفاع الزنكيين عنها، والاستعانة بأطراف خارجية لمساعدتهم في ذلك، وخلال ذلك وقع عدد من المعارك والمعاهدات، انتهت بدخول الأيوبيين إلى حلب سنة (٥٧٩هـ)، وضمها إلى الدولة الأيوبية، مما ترتب عليه تقوية الجبهة الإسلامية وتماسكها، والتفرغ بعدها لقتال الصليبيين^(٢).

ونظراً لأهمية مدينة حلب اختار صلاح الدين ولده الملك الظاهر وعيّن عليها؛ وذلك لما يتمتع به من صفات تؤهله للاهتمام بمسؤولياتها وحمايتها، ويّين له أن حلب هي أصل المُلْك، وجرثومته، وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت أعرض عمّا عداها من بلاد المشرق، وقنع منهم بالطاعة، والمعونة على الجهاد، ولقد سلّمها إليه؛ لعلمه منه بحذاقته، وحزمه، وثباته، وعلو همته^(٣).

٤ - فتح خِلاط:

في سنة (٥٨١هـ) وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خِلاط، ولم يُخلف ولداً ولا ذا قرابة يكون خلفاً له، ووردت كتب من أهلها إلى السلطان يخطبونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولّوها، فوجّه السلطان إليها جيشه، وحاصرها، واستطاع فتحها، وفتح ميّافارقين، وضمّهما إلى أملاكه^(٤).

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص ٥٨.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٥٩ - ٧٥.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٦٠.

(٤) انظر: تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر: ٢ / ١٣٩؛ وكتاب الروضتين في أخبار

الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٣١ - ٢٣٤.

٥ - معركة حطين ثم فتح بيت المقدس:

في سنة (٥٨٣هـ) سار المسلمون بقيادة صلاح الدين إلى (كرك)، ونزلوا فيها منتظرين اجتماع العساكر المصرية والشامية.. ولما اجتمع العسكر انطلقوا قاصدين بلاد العدو في وسط نهار يوم الجمعة، تبرّكاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب للإجابة. سار الجيش الإسلامي، ونزلوا على بحيرة طبرية، وهاجموها، وأخذوها في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر، والحريق والقتل.. فلما سمع الفرنج بذلك قصدوا طبرية للدفع عنها، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء المسلمين بحركة الفرنج، فتركوا على طبرية من يحفظ قلعتها، وبادروا بلقاء الجيش الإفرنجي قبل وصوله إلى طبرية، فالتقى الجيشان على سطح جبل طبرية، وتصادما إلى الليل، وقد توقف القتال بسبب الظلام.

وفي اليوم التالي جرت وقائع عظيمة، وأمور جسيمة لم تُحْك عمّن تقدّم، واستطاع الجيش الإسلامي الانتصار على الإفرنج بعد قتال شديد، وكثر القتل والأسر في العدو، ويُعلّق عماد الدين الكاتب على ذلك فيقول: (فمن شاهد القتلى ذلك اليوم قال: ما هناك أسير، ومن عين الأسرى قال: ما هناك قتيل)، وقد وقع في الأسر مُقدّمو الإفرنج، وقُتل الباقون وأُسروا.

وكان ممن وقع في الأسر (أرناط) الذي غدر بالمسلمين، وقتلهم، واستخفّ بالنبي ﷺ، فقام صلاح الدين بقتله بيده بعد أن عرض عليه الإسلام وأبى، وذلك انتقاماً منه. ولقد بات الناس تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حبور، شاكرين الله تعالى على ما أنعم به من النصر^(١).

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٧٥ - ٢٩٧؛ الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٧٦ - ٨٧؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ١٩٣.



تتابعت فتوحات الأيوبيين للبلاد الشامية بعد معركة حطين، ففتحوا عكا ونابلس وتبنين وصيدا وبيروت ثم عسقلان وغزة والداروم.

وبعد ذلك شمر المسلمون عن ساق الجد والاجتهاد في قصد بيت المقدس، فساروا نحوه معتمدين على الله، مَفُوضِينَ أمرهم إلى الله، فلما وصلوا نزلوا في الجانب الشمالي منه، وبدؤوا بنصب المنجنيقات، والمضايقة بالزحف والقتال وكثرة الرماة، فلما رأى أعداء الله ما نزل بهم استكانوا، وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستعطفوه، ولكن صلاح الدين لم يجبههم ولم يعطف عليهم، وأبى أخذها إلا بالقتال قائلاً مقولته الشهيرة: (لا أمن لكم ولا أمان، وما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل، فأنا أفني رجالهم قتلاً، وأحوي نساءهم سبياً).

فلما آيس رسول الفرنج منه قال له: (أيها السلطان اعلم أن في هذه المدينة خلقاً كثيراً لا يعلمه إلا الله، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغتمون منا ديناراً واحداً، ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة، فإذا فرغنا من ذلك خربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم نخرج إليكم، فنقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه).

فاستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان؛ فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج، فتسلمه المسلمون يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان فتحاً عظيماً شهدته من أهل العلم



خلق عظيم بحيث إنه لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والتهليل والتكبير والدعاء، وخطب فيه، وضيّلت فيه الجمعة يوم فتحه، وحطّ الصليب.

وكانت قاعدة الصّالح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلّ رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير ديناراً واحداً، فمن دفع سلّم بنفسه وإلا أخذ أسيراً، وفرّج الله عمّن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف أسير^(١).

٦ - فتح اليمن:

وفي أثناء فتوحات الأيوبيين لبلاد الشام ظهر باليمن دعويّ اسمه عبد النبي بن مهدي، زاعماً أنه المهدي المنتظر، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمّى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها، ومنعهم من الحج إلى مكة؛ لذا وجّه صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه في سنة (٥٦٩هـ) إلى اليمن فوصل إلى زيد، وملكها، وقتل عبد النبي بن مهدي، وهدم القبة التي أقامها على قبر أبيه، وأقام الخطبة العباسية، كما ضمّ بعض بلاد اليمن إليه كصنعاء وعدن وتعز^(٢)، وبعد عامين رجع إلى دمشق، واستتاب عنه، ثم ذهب سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي إلى اليمن سنة خمس مئة وتسع وسبعين، فتملك اليمن كله، وحارب الزيدية^(٣).

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/ ٣٣٠-٣٥٣؛ وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٨٨ - ١١٧.

(٢) النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٤٦؛ انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص ٤٨.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٣٣.

٧ - فتح بلاد النوبة:

النوبة مملكة نصرانية، تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة، وتدين بالطاعة لسلطان مصر، وتؤدّي له الجزية السنوية.

ولما قامت الدولة الأيوبية امتنع أهل النوبة عن دفع الجزية، وأغاروا على أسوان، فأراد الأيوبيون فتح بلاد النوبة لحماية مصر من الناحية الجنوبية، ولتأمين طريق قوافل الحجاج والتجارة، والتي صارت تتجه جنوباً عن طريق النيل إلى قوص، ومنها إلى عيذاب وجدة على البحر الأحمر، متجنّبة طريق السويس والعقبة في سيناء، الذي أضحى محفوفاً بالمخاطر؛ نظراً للوجود الصليبي على سواحل بلاد الشام.

ذهب توران شاه عام (٥٦٨هـ) إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم يطرقها المسلمون من قبل، وعيّن إبراهيم الكردي والياً عليها^(١).

٨ - القضاء على الدولة الخوارزمية:

ومن الطوائف التي أعلن الأيوبيون الحرب عليها: الخوارزمية، فقد كثُر أذاهم واشتد فسادهم، حتى إنهم ارتكبوا من الفواحش أكثر مما ارتكبه التتر، فأرسل إليهم صلاح الدين عسكرياً عليه ابنه المعظم فانهمزموا^(٢).

وهم من أتباع الدولة الخوارزمية التي قامت في إقليم خوارزم فيما وراء النهر (٤٩٥ - ٦٤٤هـ) وكان ملوكها مسلمين إلا أنهم غلب عليهم الرغبة في التوسّع والبطش، وقد عاصر السلطان خوارزم شاه علاء الدين الدولة الأيوبية، وانشغلوا في حرب المغول، ثم غنوا بتوسيع رقعة حكمهم على حساب ملك

(١) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص ٤٩.

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢٨٩.

بني أيوب، وحاولوا انتزاع مملكة خِلاط من الأيوبيين، ونجحوا في ذلك سنة (٦٢٧هـ)، وكانوا شرسين في حركتهم، يعيشون في الأرض فساداً. وقد ظلَّت الحروب بين الخوارزمية والأيوبيين سججلاً، فكانوا أحياناً أعداء، كما كانوا أحياناً حلفاء مناصرين ضدَّ أعداء الدولة الأيوبية من الصليبيين وغيرهم.

ولكنهم تمادوا في السلب والنهب والإغارة على بلاد الأيوبيين كحلب ودمشق، ثم بدأ مركزهم يضعف حتى انتهوا تماماً بعد انكسارهم في معركة بحيرة حمص سنة (٦٤٤هـ)^(١).

وبهذا يتضح أن مُلك الدولة الأيوبية في أزهر عهدها - وهو عهد صلاح الدين - كان من مصر إلى الفرات، ومن مصر إلى المغرب، بالإضافة إلى الحجاز واليمن^(٢).

وتأكيداً للهدف الدعوي الذي يسعى لأجله الأيوبيون، كتب صلاح الدين إلى بغداد يُعدّد فتوحاته وجهاده ضد الفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب، وعلى بلاد اليمن كلها^(٣)، ولو كان هدفهم الثروة، وامتلاك البلاد لما اهتموا بالكتابة للدولة العباسية، ولاحفظوا بذلك لأنفسهم.

٩ - أفكار جديدة لتحقيق مقاصد الجهاد:

ابتكر الأيوبيون عدداً من الأفكار في جهادهم ضدَّ الصليبيين؛ وذلك لتحقيق مقاصد الجهاد وغايته والوصول إلى أفضل النتائج.

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٤١١.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٢٤٩/١.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ٦٠/١.



من ذلك: أنه كان رجل من المسلمين بعكا يُعرف بعلي بن عريف النحاسين، وكان مولعاً بجمع آلات وعقاقير الزَّرَاقين، واخترع شيئاً يزيد في النار الموقدة على الفرنج المحاصرين، فقام بتصويب المنجنيق للأبراج، فأحرقها جميعاً، فتمّ للمسلمين النصر، وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله، والمسلمون ينظرون ويفرحون، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر، وخلاص المسلمين من القتل؛ لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله في البلد إما نسيب وإما صديق. وحُمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين، فبذل له الأموال الجزيلة، والإقطاع الكثير، فلم يقبل منه، وقال: (إنما عملته لله تعالى، ولا أريد الجزاء إلا منه)^(١).

ومن ذلك أيضاً: فكرة العوّامين، فقد روي أنه في الغزوات البحرية كان السلطان يندب العوّام للسباحة، فصاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويُخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتباً وطيوراً، ويعودون بكتب وطيور، ولقد غرق عوامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلّم مراراً من القوم، فاجترأ، وأنس بالعموم^(٢).

ومن جملة المعارك التي استُخدم فيها العوّامون معركة عكا، فقد روي أنه نتيجة لبعض التطورات قُطع الاتصال بين مدينة عكا والمعسكر الأيوبي من البرّ والبحر إلا من صاحب مغامر يحمل كتاباً أو رسالة شفوية^(٣). وقد وصل من البلد عوّام في صبيحة أحد الأيام، ومعه كتب تذكر أنه قد طمّ العدو بعض الخندق، وقد قوي عزم العدو على منازل البلد ومضايقته، فجَدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٢٥/٤-١٢٦؛ الكامل في التاريخ: ٤٧/١٢.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١١٨/٤ - ١١٩.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٠٢.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٢١/٤.

ومن النوادر التي جرت في القتال على عكا: أن عواماً مسلماً كان يُقال له: عيسى، كان يدخل البلد (عكا) بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غزّة من العدو، وكان يغوص، ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو. وكان ذات ليلة قد شدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكُتِبَ للعسكر، وعام في البحر، فجرى عليه أمرٌ أهلكه، وأبطأ خبره عن المسلمين، فلما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً، فافتقدوه، فوجدوه عيسى العوّام، ووجدوا على وسطه الذهب، ومشّمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رُئي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقدّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل. قال العماد: (لَمَّا لم يظهر لعيسى أثر ظنّنت به الظنون، وكانت له لا شكّ عند الله منزلة، فلم يُرد أن تبقى حاله، وهي محتملة، فوجد في عكا ميتاً، وقد رماه البحر إلى الساحل، وبرّأه الله مما قالوا)^(١).

ومن الأمور التي استُخدمت لتحقيق مقاصد الجهاد وغاياته الحمام، فقد روي أنه كان في العسكر من اتخذ حماماً يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعَمِل لها برجاً من خشب، ويُدرّجها على الطيران من البُعد، يقول العماد: كنا نقول: ما لهذا الولع بما لا ينفع! حتى إذا جاءت نوبة عكا، نفعت وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلب منه مع الليل والنهار، حتى قلّ وجودها عنده؛ لكثرة الإرسال^(٢)، وكان بعضهم يكتب على أجنحتها بالترجمة المصطلح عليها^(٣).

ويؤكّد أبو شامة استخدام الأيوبيين لهذه الطرق الجديدة فيقول: (لقد

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/١٦٠ - ١٦١.

(٢) المصدر السابق: ٤/١١٩.

(٣) المصدر السابق: ٤/١١٨ - ١١٩.



كانت الكتب متواصلة بين المسلمين في عكا والسلطان وهو خارجها على أجنحة الطيور وأيدي السُّبَّاح، والمراكب اللطاف تخرج ليلاً، وتدخل سرقةً من العدو^(١).

رابعاً: أبرز مجاهدي العصر:

اشتهر عدد من الملوك والعلماء بالاهتمام بوسيلة الجهاد، ومسارعتهم لتلبية نداء الحق والجهاد في سبيل الله تعالى؛ ومن أشهر الملوك والأمراء المجاهدين:

١ - صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية: وكتب التاريخ تحفل بفتوحاته وجهاده ضد أعداء الإسلام، وحرصه الشديد على الجهاد، يقول عنه الذهبي: (محاسنه جمّة، لاسيّما الجهاد، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل المُثَمَّنة لجنده، وله عقل جيّد وفهم وحزم وعزم)^(٢).

ويصف صاحب «النوادر السلطانية» حبّ صلاح الدين للجهاد بوصفٍ شافٍ وافٍ، فيقول: (كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من عظماء الشجعان، قوي النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولقد رأيتُه يعطي دستوراً في أوائل الشتاء، ويبقى في شِرْذمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير^(٣))، ولقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شديد المواظبة عليه، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبرّ في يمينه، ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آله، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى مَنْ يذكره ويحثّ

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٤٩/٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٩.

عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها، وكان ﷺ كثيراً ما يطالعه، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل^(١).

وكان صلاح الدين ﷺ في غزواته أول راكب، فكان يركب وينادي مناديه: يا للإسلام^(٢)، وفي الحرب يباشر القتال بنفسه^(٣)، ويمرّ في الصفوف وليس معه إلا صبي واحد، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتب الأطلاب، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره^(٤).

٢ - الملك العادل: خدم أخاه صلاح الدين، وكان كثير الجهاد، حضر مع أخيه موافقه كلها أو أكثرها في مقاتلة الفرنج، ومن جهوده في هذا المجال حفظ البلاد بعد وفاة أخيه واضطرابها وطمع الإفرنج فيها، فقد زحف على مملكة أخيه، وقضى على تناحر أبنائه، محافظاً بذلك على وحدة البلاد، وقوتها، وتماسكها في مواجهة النصارى المتربّصين بها^(٥).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٤.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٤٢/٤؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٢٩.

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٩٦.

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٩، السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/١١٣.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء: ١١٥/٢١-١١٧.

٣ - الملك المعظم عيسى بن العادل: روي أنه كان في أيام الفتح يُرتَّب النيران على الجبال من نابلس إلى عكا^(١)، وكان يقول: (واقعة دمياط أدّخرها عند الله تعالى، وأرجو أن يرحمني بها)، يعني: أنه أبلى بها بلاءً حسناً رحمه الله تعالى، وقد جُمع له بين الشجاعة والبراعة والعلم ومحبة أهله^(٢).

٤ - الملك الظاهر صاحب حلب: من المجاهدين البارزين، فقد روي أنه شهد معظم غزوات والده^(٣).

٥ - الملك المظفر صاحب حماه ابن أخي صلاح الدين: أول ما تكاملت لحيته أمره أبوه بالحملة على الفرنج، فحمل وقاتل، فقتل شهيداً في وقعة الرملة سنة (٥٧٣هـ)^(٤)، كان شجاعاً مقداماً، منصوراً في الحروب، مؤيداً في الوقائع، ومواقفه مشهورة مع الفرنج^(٥).

٦ - الملك الكامل: كافح الفرنج براً وبحراً، ولم يزل حتى أعزّ الله الإسلام، وخذل الكفر، وله المواقف المشهورة في الجهاد بدمياط المدة الطويلة^(٦).

٧ - شمس الدين توران شاه أخو صلاح الدين: روي أنه أغار على الأعراب في الصعيد، وكانوا قد أفسدوا في البلاد، ومدّوا أيديهم، فكفّوا عما كانوا يفعلونه^(٧).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٨٠.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: ٥٨٠/١.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٩٨/٢١؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٥٢.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٣٧.

(٥) وفيات الأعيان: ٤٥٦/٣.

(٦) سير أعلام النبلاء: ١٢٧/٢٢-١٢٩.

(٧) الكامل في التاريخ: ٣٦٦/١١.

٨ - طُعْتَكِين بن أيوب أخو صلاح الدين: من المجاهدين البارزين، سيّره صلاح الدين إلى اليمن سنة (٥٧٨هـ)، ثم سيّر سيف الإسلام إليها، وصفت له من زبيد إلى حضرموت، وتمّ له قمع الخوارج^(١).

أما العلماء فقد اشتهر عددٌ منهم بجهادهم، وبذلهم أنفسهم في سبيل الله، ومن هؤلاء:

١ - عبد الله بن عثمان اليونيني: كان شجاعاً، كثير الغزو، ما فاتته غزاة في الشام، وكان يحمل القوس والسهل، ولا ينقطع عن غزوة، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلاً، وكان يتمنى الشهادة، ويُلقي نفسه في المهالك، ولا يُبالي بالرجال، قَلُوا أو كثروا^(٢).

٢ - أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ: كان في شببته شهماً شجاعاً فاتكاً، قتل الأسد مواجهة وحده^(٣).

٣ - حسام الدين لؤلؤ: من المجاهدين البارزين في الدولة الأيوبية، ولقد حكى العماد الأصفهاني عن جهاده، فقال: (وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكأته، وشُكرت في العدو نكايته، وقد تفرّد بغزواتٍ لم يُشاركه فيها أحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عيناً تطرف، ولم يُبق لهم دليلاً يُعرف، وغزواته مشهورة، وفَتَكَاته مذكورة، وأمواله مبدولة، وأكياسه لعقد الإنفاق في سبيل الله محلولة)^(٤).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٠١/٢٢؛ تاريخ الإسلام، ص ٣٣٨، وفيات (٦٣١ - ٦٤٠هـ)؛ البداية والنهاية: ١٧ / ١٠٣.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ٣٨٥/١.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٠٣/٤.

٤ - العز بن عبد السلام: اشتهر بجهاده ضد الفرنج، وله كراماتٌ ساعد بها الجيش الإسلامي، ومن مواقفه المشهورة أنه كان مرة في عسكر المسلمين الذين يقاتلون الفرنجة، وكانت النصره أولاً للفرنج، وقويت الريح على المسلمين، فقال الشيخ بأعلى صوته مشيراً إلى الريح: (يا ريح خذيهم) عدّة مرات، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها^(١).

٥ - محمد بن أبي القاسم بدر الدين عيسى الهكاري: كان في مقدّمة المتطوّعين المشاركين في الجهاد، وحمل السلاح، وكان يلبس زيّ الأجناد، ويعتّم بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين^(٢).

ولما خرج الأيوبيون لمحاربة الصليبيين في عسقلان، كان الفقيه عيسى من المحاربين والمشاركين في الجهاد معه، ويذكر ابن الأثير أن الفقيه عيسى كان من أشدّ الناس قتالاً ذلك اليوم، وكان قد جمع بين العلم والشجاعة، وقد أُسر هو وأخوه ظهير الدين، وبقوا في الأسر سنين، حتى افتداه صلاح الدين بستين ألف دينار^(٣)، وكان يقول أثناء المعركة: (ما أحسن وقع سيوف الكفّار على وجهي وأنفي)، وقد مات شهيداً^(٤).

روي أنه لما استشهد أخوه ظهير الدين في حصار عكا، كان يضحك والناس يُعزّونه، وهو يُنكر عليهم ويقول: (هذا يوم الهناء لا يوم العزاء)، وكان قد وقع عن فرسه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٥).

(١) حسن المحاضرة، ص ٣٥.

(٢) وفيات الأعيان: ٤٩٨/٣.

(٣) الكامل في التاريخ: ٤٤٧/١١.

(٤) تاريخ الإسلام، ص ٢٢٠، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ).

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٠/٤.

٦ - ابن عساكر: دعا المسلمين إلى الجهاد أثناء الغزو الصليبي، وألف كتاباً عن الجهاد في اثني عشر جزءاً، وبيّن فيه الخطر الصليبي^(١).

٧ - أحمد بن عمر جمال الدين المقدسي الحنبلي: اشترك في غزوات الفرنج، وقتل واحداً منهم، فهابه الأجناد^(٢).

ومن أشهر المعارك التي اشترك فيها عدد كبير من الفقهاء والعلماء معركة عكا، مما جعل المؤرخين يطلقون عليها «المصاف الأعظم» أو «الوقعة الكبرى»، فكان الفقيه عيسى الهكاري يتولى مقدمة القلب في الجيش، كما كان القاضي بهاء الدين بن شداد، والفقيه العماد الأصفهاني مشاركين أيضاً في هذه المعركة، وقاما بوصفها وصفاً دقيقاً، كشاهدي عيان، ولقد كان النصر حليف المسلمين في نهاية المعركة، وتكبّد الصليبيون خسائر فادحة في الأرواح. وقد استشهد في هذه المعركة الفقيه ظهير الدين أخو الفقيه عيسى الهكاري، وكان والياً على بيت المقدس، وقد جمع بين الشجاعة والعلم والدين^(٣).

وقد مضى المسلمون في عهد الأيوبيين ينازلون الصليبيين في مواقع متعددة، حتى إذا حان الوقت راحوا يزحفون نحو القدس، ويضمّ جيشهم الأمراء والعلماء والفقهاء بمختلف مذاهبهم وتخصصاتهم^(٤).

خامساً: الجهاد ضد الصليبيين:

بذل الأيوبيون قصارى جهدهم في قتال الصليبيين، وتطهير الأرض منهم، ولم تكن غايتهم من ذلك الجهاد الحصول على ثروة أو امتلاك

(١) الحافظ ابن عساكر، الدكتور محمد مطيع الحافظ، ص ٣٥٩.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ١٣٩، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠هـ).

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/ ٨٦ - ١٠٠.

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٣٠٥.



أرض، بل كانت غايتهم أسمى من ذلك وأنبئ، إنها نشر الدعوة الإسلامية في أرجاء الأرض، واسترجاع القدس الشريف، الذي سيطر عليه الصليبيون مدة (٩١ سنة) قبل فتح الأيوبيين له.

وقد بدأ الأيوبيون جهادهم مع الصليبيين في عام (٥٦٦هـ)، فقد أغاروا على الرملة وعسقلان وغزة، ثم عادوا إلى القاهرة، وكانت أيلة قلعة في البحر قد حصّنها أهل الكفر، فعمر السلطان الأيوبي لها مراكب، وحملها إلى ساحلها على الجمال، وركبها الصُّنَّاع هناك، وشحنها بالرجال، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر، واستحلّها، واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد والعدد^(١).

وفي سنة (٥٦٩هـ) أرسل الفرنج أسطولاً بحرياً من صقلية لغزو مصر، وهو مكون من مئتي سفينة تحمل (١٥٠) راجلاً في كل سفينة، وستاً وثلاثين سفينة تحمل الخيل، بالإضافة إلى ست سفن كبار تحمل آلة الحرب، وأربعين مركباً تحمل الأزواد، وكان عدد المقاتلين خمسين ألفاً من الرجال، وألفاً وخمسمئة من الفرسان، فوصلوا إلى الإسكندرية على حين غفلة من أهلها، فواجههم أهل الإسكندرية وقتلواهم.

ولما ورد الخبر لصلاح الدين استنهض العساكر، وسارع لإنقاذ الإسكندرية، وتقاتلوا مع الإفرنج قتالاً شديداً، وصدقوا الله عند القتال، وأنزل الله على المسلمين النصر، وعلى الكفار الخذلان والقهر، ثم هاجم المسلمون خيامهم، فغنموا بما فيها من الأسلحة الكثيرة، وكثر القتل في رجالة الفرنجة، فهرب كثير منهم إلى البحر، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في البحر، وأتلفوا مراكب الفرنج فغرقت، فولّت بقية المراكب

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٨٢/٢.

هاربة، واحتفى ثلاثمئة من فرسان الفرنجة على رأس تل، فأخذت خيولهم، ثم قُتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله^(١).

وفي سنة (٥٨٣هـ) طلب صلاح الدين اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة، فسار المسلمون بقيادة صلاح الدين والتقوا بالجيش الصليبي عند (طبرية)، واستطاعوا بعد قتال شديد الانتصار عليهم في معركة حطين التاريخية، وكثر القتل والأسر في العدو، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً، وعدد الأسرى ثلاثين ألفاً، وقد وقع في الأسر مَقْدَمُ الإفرنج، وقُتل الباقون وأسروا.

وكان ممن وقع في الأسر (أرناط) الذي غدر بالمسلمين وقتلهم، واستخفت بالنبى ﷺ، فقام صلاح الدين بقتله بيده بعد أن عرض عليه الإسلام وأبى، انتقاماً منه لوقاحته^(٢).

ثم وجّه السلطان جيوشه لمحاربة الفرنجة، وفتح بقية المدن الشامية، فتمكّنوا من فتح عكا والناصرية وصفورية وقيسارية وناבלس وتبنين وصيدا وبيروت^(٣).

ثم توجه السلطان صلاح الدين بجيشه نحو بيت المقدس لفتحها، وكان بها جمع كبير من النصارى.

وصل جيش المسلمين إلى القدس سنة (٥٨٣هـ)، فنزلوا في الجانب الشمالي منه، وبدؤوا بنصب المنجنيقات، والمضايقة بالزحف والقتال

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٧٥ - ٢٩١؛ والفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٧٦ - ٨٧.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٣٣٤ - ٣٣٧.

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣١٤ - ٣٣٠؛ الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٨٨ - ١١١.

وكثرة الرّماة، فلما رأى أعداء الله ما نزل بهم استكانوا وأخذوا إلى طلب الأمان واستعطفوه، ولكن صلاح الدين لم يجبههم، ولم يعطف عليهم، فلما كثر إلحاحهم وهددوه بتخريبه، وقتل مَنْ فيه من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، فاستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنجة، فتسلّمه المسلمون، وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم، وفرّج الله عمّن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف أسير^(١).

ودخل الأيوبيون بيت المقدس، ورُفعت الأعلام الإسلامية، ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى، فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس ففعل ذلك، وأتى بمنبر نور الدين محمود فحُمِل من حلب، ونصب بالقدس.

ولما تطهر بيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس، دخل أهل الإيمان، ورُفع الأذان، وقرئ القرآن، وعُبد الله الواحد، وامتلاً الجامع، وسالت لركة القلوب المدامع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال، وخطب الخطيب القاضي «محيي الدين بن الزكي» فذكر شرف بيت المقدس، ووعظ الناس بموعظة مشتملة على تهنئة الناس بما يسّره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس^(٢).

وفي سنة (٥٨٤هـ) فتح صلاح الدين قلعة برزية، ثم استولى على عدد من الحصون، ثم توجه إلى صور، ولكنه لم يفتحها، وحدث له مع

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٣٠ - ٣٥٣؛ وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٨٨ - ١١٧.

(٢) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٥٣ - ٣٦١؛ وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٣٧ - ١٤٠.



الفرنجة عدد من الوقائع^(١) انتهت بعقد هدنة معهم مدّة ثلاث سنين وثمانية أشهر بعد عدّة مفاوضات، وذلك في سنة (٥٨٨هـ)، وكانت الهدنة بطلب من ملك إنجلترا، وأشار أمراء صلاح الدين إليه بالموافقة؛ ليرحل الفرنجة القادمون فيخفّ الوضع على المسلمين^(٢).

وقد راعى الأيوبيون في جهادهم الآداب التي دعا الإسلام جنده إلى تطبيقها، فكان جهادهم ضد الصليبيين أنموذجاً للجهاد الإسلامي، ومثلاً يُقتدى به على مرّ العصور.

سادساً: آداب الجهاد:

من أهم تلك الآداب:

١ - التخطيط والاستعداد للجهاد:

اهتم الأيوبيون بالاستعداد الجيد لكل ما يتعلّق بمجال دعوتهم إلى الله تعالى، ومن أهم الأمور التي أدركوا أهمية الاستعداد له هو الجهاد، فبذلوا جهدهم في ذلك، ولم يخبطوا خبط عشواء، بل خططوا لكل حركة يقومون بها، ليضمنوا أفضل النتائج الموصلة لهدفهم الأساس الكامن في نشر الإسلام، والقضاء على أعدائه.

ومن أهم استعداداتهم للجهاد:

أ - التدريب العسكري المكثّف:

وذلك استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٢ - ٢٧٠؛ وانظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٢٥.

فكانت العناية بالتدريب العسكري تفوق الوصف في عهدهم، حتى إن القادة والأمراء، وعلى رأسهم مؤسس الدولة صلاح الدين كانوا ينامون الليل متدرّعين بأسلحتهم، ويعيشون في خيمهم كبقية الجند، ولم يكن لصلاح الدين بيت غيرها^(١).

ولقد أنشئت في هذا العصر فرق عسكرية جديدة عُرفت باسم الفرق الصلاحية، وتمّ رفع مستوى المهارات القتالية إلى درجة جعلت الجيش الإسلامي آنذاك على أرفع مستوى. وكان هناك جيش دائم، وفرق مساعدة بمنزلة جنود غير نظاميين، لا يقلّون عن الجند النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد^(٢).

وبهذا امتلك الأيوبيون قدرة عسكرية على مواجهة الصليبيين، وحشدوا الإمكانيات الشعبية معهم، كما استفادوا من تأييد الخليفة العباسي لهم^(٣).

ب - التحصينات العسكرية:

ومن القوة التي أعدها الأيوبيون لمواجهة أعدائهم استجابة لبارئهم بناءً كثير من التحصينات العسكرية، فأنشؤوا دوراً لصناعة السفن في ثلاث مدن هي: القاهرة والإسكندرية ودمياط، كما أُقيمت المصانع الحربية التي تزوّد الجيش والأسطول بكلّ أنواع الأسلحة والذخائر المستعملة آنذاك^(٤)، وكان لموارد مصر والشام والجزيرة أثر في تغذية عساكر الأيوبيين بالمؤن والأسلحة إلى جانب تنظيم الجيش العسكري^(٥).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٨.

(٣) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢٣٥.

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٩٤.

(٥) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢٤٨.

وقد رأى صلاح الدين الأسطول، وقد أُخُلقت سفنه، وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجمع له من الأخشاب والصنّاع الشيء الكثير، ولما تمّ عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعُدَد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولّى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً، وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد يقول: (القول قول صاحب الأسطول، وألا يُمنع من أخذِ رجاله، وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول ألا يُيَارَحَ البحر، ويغزو إلى جزائر البحر)^(١).

ج - توحيد القوى العسكرية:

رأى الأيوبيون أنّ الجهاد ضد الصليبيين وفتح أوروبا عملٌ يحتاج إلى تضافر جميع القوى الإسلامية، وحشد كافة الطاقات في شرق البلاد الإسلامية وغربها، أو على الأقلّ تعاون الدولتين اللتين قامتتا على أسس العقيدة الإسلامية، وهما: دولتهم في الشرق، ودولة الموحدين في الغرب؛ لذا أرسل الأيوبيون إلى سلطان الموحدين في المغرب وفدلاً برئاسة عبد الرحمن بن منقذ، وحملوه رسالةً مُطوّلة، وهديةً سنّية، واقترحوا في الرسالة تحالف القوى الإسلامية في الشرق والغرب لمحاربة المراكب الفرنجية^(٢).

وكان الأيوبيون يشعرون أنّ لديهم القوة الكافية لردع الصليبيين، وتطهير البلاد الإسلامية منهم؛ لذا قرّروا بقيادة مؤسسهم مواصلة دور نور الدين في توحيد الأرض العربية للجهاد ضدّ الصليبيين^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٤٩/٢.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٣) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٨٥.



د - مواقف تدلّ على استعداد الأيوبيين وتخطيطهم للجهاد:

كان الأيوبيون يحرصون أشد الحرص على الاستعداد والتأهب والأخذ بأسباب القوة؛ وذلك بهدف تقوية الجيش الإسلامي لمواجهة العدو الصليبي. ومن المواقف الدالة على ذلك الاستعداد والتأهب:

- قام الأيوبيون بترحيل بعض قبائل البدو إلى مناطق أخرى؛ لأنهم كانوا يقومون بإرشاد قوات الصليبيين على الطرق التي تسلكها قوات المسلمين، والقوافل بين الشام ومصر^(١).

- أقام الأيوبيون بقيادة صلاح الدين في إحدى عملياتهم العسكرية على تلّ القاضي، ونصبوا الخيام فيه، واستغلّ الأيوبيون هذا الوقت للقيام بغارات متتالية على بلاد الصليبيين، وكان الهدف من هذه الغارات الاستيلاء على المحاصيل التي كانت في أوان حصادها قبل تخزينها، إضافة إلى استكشاف تحصينات الصليبيين، ومعاينتها، حتى يحضّروا ما سيحتاجون من الآلات والمعدّات والصُّنّاع للحصار، وكان صلاح الدين يركب كل يوم من المخيم بتلّ القاضي، ومعه خواص جنده، ويظهر للبقية أنه يريد الصيد، ثم يسير^(٢). وفي تصرّف صلاح الدين هذا ما يدلّ على حنكة عسكرية عالية، وتخطيط جيد، واستعداد كامل للجهاد، كما أنه بسرّيته هذه يمثل الهدى النبوي الكريم: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان؛ فإن كلّ ذي نعمة محسود»^(٣).

- في سنة (٥٧٩هـ) خرج الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين من دمشق إلى منزلة معسكر جسر الخشب، ثم توجّهوا إلى بيسان، وقد احتار الصليبيون

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٣) المعجم الكبير: ٢٢٦/٣، برقم (٢٤٧٦)؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني؛

٤٣٦/٣، برقم (١٤٥٣).



في الجهة التي سيوجّه المسلمون حملتهم إليها، فقاموا بتحسين المدن والقلاع القريبة من الحدود، ولكن قائد الجيش صلاح الدين كان يعرف إلى أين سيتّجه؛ لأن المبادرة في التخطيط والقتال بيده، فتقدّمت القوات الإسلامية إلى موقع الفوّار القريب من نهر الأردن، وهناك تعبّأت الجيوش ليعرف كلّ مكانه أثناء وقوع القتال، فالأمر الأساس في القتال عند المسلمين ليس رهن الظرف أثناء القتال، وإنّما هو تخطيط سابق مرّن قابل للتعديل إذا اقتضى الحال^(١).

- قبل معركة حطين أمضى صلاح الدين الليلة ساهراً حتى عيّن الجاليشية من كلّ طلب، وملاً جعابها وكنائنها بالنبال، وكان ما فرّقه من النّشاب أربعمئة جمل، ووقف سبعين ناقة سريعة مَحْمَلَة بالنّشاب، يأخذ منها مَنْ خلت جعابه وفرغ نِشابه^(٢).

وكان ﷺ في غزواته ساهراً للمسلمين في ليلهم، قائماً بأمرهم في نهارهم، وكان من شدة حرصه ووفور همّته كالوالدة الثكلى^(٣).

وهو بذلك يقتدي بخير الأنام محمد ﷺ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يُرتّب الصفوف، ويُعبّئهم عند القتال بيده، ويقول: تقدم يا فلان، تأخر يا فلان، وكان يستحب أن يقاتل الرجل تحت راية قومه^(٤).

- كان الفرنج جيراناً للملك المجاهد، فقام ببناء الأبراج بينه وبينهم، وكان إذا أتاه الخبر بحركتهم إلى طرف من أطرافه أدركهم قبل أن يصلوا إلى ذلك الطرف وقاتلهم^(٥).

(١) انظر: صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) انظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٧٧-٧٨.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٨١ / ٤.

(٤) المستدرک على الصحيحين: ١١٥ / ٢، برقم (٢٥٤٨)، كتاب الجهاد، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٥٤ / ٥.



إن في تخطيط الأيوبيين واستعدادهم لجهادهم درساً عظيماً لأولئك التفر المتحمس المنذفع، الذين يؤمنون بأن الجهاد واجب عليهم، وأن النصر بيد الله، فلا يلقون بالاً لتنظيم أو تخطيط أو ترتيب، وقد نسي هؤلاء قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وغاب عنهم استعداد رسول الله ﷺ وأصحابه لمعاركهم، وتخطيطهم لكل حركة فيها، وأخذهم بأسباب النصر، وما ذاك إلا لإيمانهم أن نصر الله لا يتنزل على الكسالى الخاملين المنذفعين، بل لا بد له من استعداد وتخطيط وجد واجتهاد.

٢ - الصبر:

من الآداب التي يجب على المسلمين مراعاتها في جهادهم: الصبر على قتال الأعداء، وتحمل الشدائد في سبيل ذلك، وفي هذا استجابة لأمر الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والصبر هو: (حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه)^(١).

قال الطبري: المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين، أو اثنين فصاعداً، ولا تكون من واحدٍ إلا قليلاً في أحرف معدودة. فإذا كان ذلك كذلك، فإنما أمر المؤمنين أن يصابروا غيرهم من أعدائهم، حتى يظفرهم الله بهم، ويُعلي كلمتهم، ويخزي أعداءهم، وألا يكون عدوهم أصبر منهم.

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٧٣، مادة (صبر).

عن المبارك بن فضالة، عن الحسن: أنه سمعه يقول في هذه الآية: أمرهم أن يصبروا على دينهم، ولا يدعوه لشدة ولا رخاء، ولا سراء ولا ضراء، وأمّهم أن يصابروا الكفار، وأن يُرابطوا المشركين.

وعن قتادة قال: أي اصبروا على طاعة الله، وصابروا أهل الضلالة، ورابطوا في سبيل الله، واتقوا الله لعلكم تفلحون^(١).

وقد تحلّى الأيوبيون في جهادهم بالصبر، وتحملوا الكثير من الشدائد في سبيل إعلاء كلمة الله، وكان قائدهم ومؤسس دولتهم صلاح الدين من أكثرهم صبراً، فمع كونه شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار إلا أنه كان صابراً على مفارقتهم راضٍ بيئهم، متحملاً مرّ العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى^(٢).

وتذكر الكتب التي أرّخت لتلك المرحلة العديد من الشواهد الدالة على صبرهم وتحملهم للكثير في سبيل الله تعالى، فهذا عيسى الهكاري عندما علم نبأ استشهاد أخيه صبر واحتسب، وأنكر عزاء الناس له قائلاً: (هذا يوم الهناء لا يوم العزاء)^(٣).

وهذا صلاح الدين يُعطي أعظم دليل على صبره وتحمله وذلك في الكتاب الذي أرسله إلى ريتشارد عندما هدّده بالاستمرار في الحرب حتى نهاية الشتاء القادم، وقد جاء في ذلك الكتاب: (وأنا ما يسهّل علي أن أشتي وأصيف، وأشتي وأصيف، وأنا في وسط بلادي، وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات (الجهاد)، ولا أزال كذلك حتى يُعطي الله النصر لمن يشاء)^(٤).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي ورفاقه: ٣٣٢ / ٦.

(٢) النوار السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٧.

(٣) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٠٩؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٠ / ٤.

(٤) النوار السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٣٩.



وثمة موقف يحكيه صاحب كتاب «النوادر السلطانية» فيه دلالة واضحة على عِظَم صبر المسلمين في قتالهم مع الصليبيين، فيقول:

(مرض صلاح الدين ونحن على الخرنوبة، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ ذلك الإفرنج، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين، فأمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الجيش حتى يتجهز. وكان عماد الدين صاحب سنجار متمّراً أيضاً، فأذن له أن يتأخر مع الثقل، وأقام هو، ثم رحل العدو في اليوم الثاني بطلبنا، فركب، ورتّب العسكر للقاء القوم، وجعل طرف الميمنة الملك العادل، وطرف الميسرة تقي الدين، وجعل ولديه الملك الظاهر والملك الأفضل في القلب، ونزل هو وراء القوم يطلبهم، وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه إفرنجي قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة، ثم ينزل يستريح، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو منه ضعفاً، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر، ونزل هو قبالتهم على تلّ مطلّ عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر المنصورة إن عادت إلى محل المصابرة أن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو ونحن في خدمته إلى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة، وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب مُمرّضه ونُشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى، حتى لاح الصباح، ثم ضُرب البوق، وركب هو وركبت العساكر، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة.

وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم، ولم يزل يبعث من عنده، حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعد أنّ تحتها خلقاً عظيماً، ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم، وكلما قُتل



منهم شخص دفنوه، وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه، وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر، وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض آيس المسلمون من بلوغ غرض منهم؛ لأنهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة.

وبقي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي موضعه مع العساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية، وعاد العسكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو، وسار على ما مضى من القتل والقتال، حتى رحل العدو^(١).

أ - صبرهم في حصار مدينة صور:

حاصر المسلمون مدينة صور، وبفضل من الله حققوا انتصاراً على الصليبيين في اليوم الأول للمعركة، وبدلاً من أن يُشجّع هذا النصر الأمراء على الاستمرار في القتال طالبوا بالانسحاب، ويُعلّق العماد على ذلك قائلاً: (ضجّر كثير من أمراء المسلمين من طول الحصار؛ لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسّر الفتح، فأشاروا على السلطان صلاح الدين بالرحيل لئلا يفنى الرجال، وتقلّ الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم)^(٢)، ولكن السلطان والأتقياء من الأمراء صبروا ورأوا الثبات إلى الفتح؛ لئلا يضيع ما تقدّم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان: (قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور، فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولا تعجلوا)، فأظهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها، ولم يصدّقوا القتال، وتعلّلوا بأنّ الرجال جرحى، وعلف الخيل قد قلت، عند ذلك وجد السلطان أن لا بد من التراجع عن الحصار بعد أن كاد يحقق النصر^(٣).

(١) النوار السطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٤-٢٥.

(٢) انظر: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٣) انظر: صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

ب - صبرهم أثناء حصار مدينة صفد:

سار جيش الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين في أوائل رمضان من دمشق يريد مدينة صفد، دون الالتفات إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يحرص فيه الإنسان على حضور شهر الصيام مع أهله. ولقد وصلوا إلى صفد فوجدوها قلعة منيعة، وقد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحرق العسكر بها، ونُصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحوول عظيمة، ولكن ذلك لم يمنع الجيش عن جده^(١).

وقد وصف ابن شداد صبر الجيش وقائدهم إحدى ليلي حصارهم لصفد، فقال: (ولقد كنت ليلة في خدمة السلطان، وقد عيّن مواضع خمسة مجانيق حتى تُنصب، وقال: (ما ننام حتى نصب الخمسة)، وسلم كل منجنيق إلى قوم، ورُسله تتواتر إليهم يعرفونهم كيف يصنعون، حتى أظله الصبح، وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشرته بمقتضاه، وهو قوله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(٢). ولم يزل القتال على صفد متواصلًا بالتُّوب مع الصوم، حتى سلّمت بالأمان في رابع عشر شوال)^(٣).

وهكذا ظهر جلياً عاقبة الصبر وفائدته للجيش الإسلامي، فلما تحلّى الجيش بالصبر في حصاره لصفد، وتحمل الشدائد؛ ظفر في النهاية وذاق لذة النصر، وبالمقابل لما ترك الصبر، ولم يُخلص في القتال فشل في

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٩/٤.

(٢) رواه الترمذي في سننه: ١٧٥/٤، برقم (١٦٣٩) وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٩/٤؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٥٢.

حصار صور، وعاد خاسراً خائباً بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الفوز، ولكنه نصر الله الذي لا يستحقه إلا الأشداء الصابرون المخلصون للقتال في سبيل الله، فقد وعد الله تعالى أن يكون في معية من تحمّل وصبر لأجله تعالى؛ حيث قال جل وعز: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ج - صبرهم عند فتح مدينة كوكب:

لَمَّا انتهى الجيش الإسلامي من فتح صفد، سار يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وأحرق الجند بالقلعة، وضايقوها بالكلية، بحيث اتّخذوا لهم موضعاً يتجاوزه نَشَاب العدو، وبنوا حائطاً من حجارة وطين يستترون وراءه، ولا يقدر أحدٌ أن يقف على باب خيمته إلا أن يكون لابساً درعه، وكانت الأمطار متواترة والوحول، بحيث تمنع المشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، ولقد عانوا شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلو مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل الجيش راكباً مركب الجدّ حتى تمكّن النقب من سورها^(١).

د - صبرهم في حصار مدينة عكا عندما أخذها العدو قسراً من المسلمين:

لما كان شهر جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وخمسمئة اشتدّ حصار الفرنج لعكا، وتمالؤوا عليها من كل فج عميق، فانطلق الجيش الإسلامي لمساعدة أهل عكا، وثبت المسلمون أمام الصليبيين ثبوتاً عظيماً، ولم يتحركوا من أماكنهم، والتحم القتال من الجانبين، واشتدّ الضرب من الطائفتين، وصبروا صبر الكرام، إلا أن الحصار اشتدّ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلّة عددهم وكثرة الأعمال عليهم، حتى إن جماعة منهم بقّوا ليالي عدّة لا ينامون لا ليلاً ولا نهاراً، والعدوّ عدده

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٥٢/٤.



كثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم، فاضطروا للاستسلام بعد صبر عظيم وتحملٍ بالغٍ للشدائد.

وكانت مدة مقام الجيش الإسلامي على عكا صابراً مصابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً، وجملة من قتل من الفرنج خمسين ألفاً^(١).

ولقد وصل للفرنج مدد إلى عكا، والمسلمون محاصرون لعكا، وكان لقدمه وقع عظيم عندهم، وقد وصل خبر وصولهم للسلطان وهو ثابت الجأش، راسخ القدم، لا يزعزعه ذلك عن حراسة عكا، والحماية له، ومراصدة العسكر النازل بها، وشنّ الغارات والهجوم عليهم في كل وقت، مفضلاً أمره إلى الله، معتمداً عليه، منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببهّره الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء، يقول ابن شداد: (ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرتُ، حتى إذا دخلت عليه أجد من قوة النفس، وشدة البأس، ما يشرح صدري، وأتقن معه نصرة الإسلام وأهله)^(٢).

ويصوّر ابن شداد صعوبة موقف المسلمين في ذلك اليوم فيقول: (ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا، وثبت نفر يسير انحازوا إلى الجبل، حتى نصر الله عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس، ولم يزالوا مصابرين لهم، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر ضعف المسلمين، فصالحوا العدو، فالضعف والهلاك كان في أهل عكا أكثر، وكانت المصلحة في الصلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما في مكنونها)^(٣).

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٦ / ٦٣٣؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٥٩.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٥٢ - ١٥٣.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٠.

وقد ساعد الله الفئة التي صبرت وثبتت، ومدّهم بالعون والقوة من عنده، وذلك جزاء منه تعالى لهم على صبرهم وثباتهم، يقول العماد مبيّنًا ذلك: (ومن العجب أن الذين ثبتوا منّا لم يبلغوا ألفاً، فردّوا مئة ألف، وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: (قتلت من المثليين ثلاثين أو أربعين، وتركتهم مصرّعين)، ولا شك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين، وقد حكى بعضهم: كنت منهزماً من فارسٍ مدججٍ قد لَزَّ بقربي حصانه، فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعنته، فالتفتُ فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى، وما بالقرب أحدٌ، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع ربّاني)^(١).

ويصف ابن شداد صبر صلاح الدين في هذه الواقعة، وشدة حزنه على سقوط عكا، فيقول: (ولقد رأيته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمرج عكا، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماويل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون مُنكبّاً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرّق على الناس، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبئةً للقتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب صابراً على شدة الألم، وقوة ضربان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربّانية)^(٢).

أما عن شدة حزن السلطان على سقوط عكا فيقول: (مثّلت في خدمة السلطان، وهو أشدّ حالة من الوالدة الثكلى، فسليته بما تيسّر لي من التسلية، وأذكرته في الفكر فيما يستقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٦/٤.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٤.

والقدس الشريف، وكيفية الحال في ذلك، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد^(١).

هـ - صبر المسلمين عند تخريب عسقلان:

عندما علم صلاح الدين أن الصليبيين في طريقهم إلى عسقلان خشي أن يستولوا عليها، فعقد مجلساً للشورى للتباحث في هذا الأمر، فأجمع الحاضرون على ضرورة تخريب أسوار مدينة عسقلان؛ لأنه لا قدرة للمسلمين على حفظها، وحتى لا يستفيد الصليبيون منها، ويتخذوها قاعدة للوصول إلى القدس، ويقطعوا بها طريق مصر. وبالرغم من اعتراض صلاح الدين الشديد على هذا القرار إلا أنه صبر واحتسب، ورضخ لقرار الجماعة عليه يكون في صالح المسلمين، ولكنه كان في قرارة نفسه حزيناً جداً لخراب عسقلان حتى إنه أسرّ لقاضيه بمكنون نفسه قائلاً: (والله لأن أفقد أولادي أحب إليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك، وعيّن له حفظ مصلحة المسلمين طريقاً، فكيف أصنع؟! ثم استخار الله تعالى، فأوقع في نفسه أن المصلحة في خرابها، فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان^(٢).

٣ - الإصرار على الجهاد:

من الآداب التي دعا الإسلام جنوده للتحلي بها عند قتالهم لأعدائهم الإصرار على القتال وعدم اليأس والتراجع، ولذلك الأدب العظيم شواهد عديدة في التاريخ الأيوبي.

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٥٨.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٢٧٨ - ٢٧٩؛ الفتح القسسي في الفتح

من ذلك: أن السلطان لما وقف على بحر اللاذقية بعساكره، طلب مقدم الفرنج أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأعطاه الأمان، فصعد وعفر وكفر، وتروى ساعة وتفكر، وقال ما معناه: (أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك، وذاع فضلك، وقهر سلطانك، وظهر إحسانك، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة، لمكنت قيادها إذا أعدت إليها بلادها، وصاروا لك عبيداً، وأطاعوك قريباً وبعيداً، وإلا جاءك من وراء البحار في عدد الأمواج أفواج بعد أفواج، وسار إليك ملوك ذوي الأقاليم من سائر الممالك والأقاليم، وهؤلاء أهون منهم، فاتركهم واصفح عنهم).

فقال له السلطان: (قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون في طاعته بالفرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع أهل الأرض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال بأعداد الأعداء)، فصلب مقدم الفرنج وجهه، وركب بكربته، ولم يُغن خطابه عن خطبه^(١).

ومما يبيّن فائدة الإصرار ما حدث مع المسلمين عند حصار عكا، فقد أصروا على متابعة حصارها إلى أن تسلّموها بالأمان، واستولوا على ما فيها من الأموال والبضائع، وأطلقوا من كان بها من المسلمين مأسوراً، وكانوا أربعة آلاف نفس، ورتّب السلطان في كنيستها العظمى منبراً، وأقيم فيها الجمعة^(٢).

ومن أمثلة الإصرار على الجهاد: ما روي أنه لما وصل المسلمون المجاهدون إلى دمشق قبل رمضان نُصح قائدهم صلاح الدين بأن يُريح عسكره، فقال: (إن القدر غير مأمون، والعمر غير مضمون، وللفرص أوقات،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٤/٤ - ٢٥.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ٩٤/١.

وللدهر آفات، وقد بقيت مع الكفر حصون، وإن لم تُبادرْها اختلَّ أمرنا المصون، لاسيما صغد وكوكب فإنهما للعدو، والثغور الإسلامية بهما واهية السدد، فنخرج ونشتو عندهما، فإذا فتحناهما خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد). فما لبث السلطان ولا مكث، ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث، وقال: (لا تُبطل هذه الغزوة، ولا نُعطل هذه الشّتوة)^(١).

ومن الشواهد أيضاً على إصرار المسلمين في العهد الأيوبي على الجهاد: أنه لما حاصر السلطان القدس، ورأى الفرنج أنهم هالكون لا محالة، واستيقنوا من دخول المسلمين عليهم، أرسلوا إلى المسلمين كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى الجيش الإسلامي إلا قتالهم واستئصالهم، وعبر قائدهم صلاح الدين عن رأيه قائلاً: (ما نأخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل، فنحن سنفني رجالهم قتلاً، ونحوي نساءهم سبياً).

ولما طلب أحدهم منه الأمان مجدداً، تمتع السلطان وتسامى في سومه، وقال: (لا أمن ولا أمان، وما هوانا إلا أن نُديم لكم الهوان، وغداً نملككم قسراً وأسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السبأ)^(٢).

ويُبدى الملك العادل إصراراً عظيماً على الجهاد، وذلك حينما طلب ملك الفرنج ريتشارد الاجتماع به خلوة، فاجتمعا، فأشار الملك الصليبي بالصلح، وكان حاصل كلامه أنه قد طال بيننا القتال، ونحن جئنا في نصره إفرنج الساحل، فاصطَلحوا أنتم وهم، وكلُّ منّا يرجع إلى مكانه. فقال العادل: على ماذا يكون الصلح؟ قال: على أن يُسلم إلى أهل الساحل ما

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٦.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ٣٤٠.

أخذ منهم من البلاد، فالقاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا نحن الصليبيين، وتنصرفوا إلى بلادكم. فأبى الملك العادل، وأخشن في الجواب، وأخبره أنّ دون ذلك قتل كلّ فارس وراجل، فرجع مغضباً^(١).

والمسلمون في إصرارهم على الجهاد في ذلك العصر يقتفون أثر سلفهم الصالح، ولذلك شواهد عديدة في تاريخ النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، ففي غزوة الأحزاب لما اشتد على الناس البلاء من تجّع الأحزاب عليهم من كل صوب، ومن ثم تخلّي المنافقين عن الوقوف معهم، كان لا بد من إقدام حاسم، يُفضي إلى تخاذل الأحزاب. وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصلح رسول الله ﷺ غيئة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما عن قتال المسلمين، ويتفرغ المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة بقريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً، وجرت المراودة على ذلك، فاستشار السّعديين - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - في ذلك، فقالا: (يا رسول الله، أُوحي من السماء - فالتسليم لرأي الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرةً إلا شراء أو قرى).

وفي رواية: أنهما قالاه: (لا والله ما أعطينا الدنيّة من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام؟!)، فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب^(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٧٤/٤ - ٢٧٥.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه: ٣-٤/٢٢٣؛ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٥٠، قال الشيخ مهدي رزق الله في حكمه على هذا الحديث: رواه البزار والطبراني بإسنادين كلاهما حسن.



٤ - تشجيع الجيش على القتال:

ومن الآداب التي حرص عليها الأيوبيون أثناء معاركهم: تشجيع المقاتلين، وذلك بحثهم على الجهاد، وبيان ما وعدهم الله به من الأجر الجزيل.

من ذلك ما روي أن صلاح الدين كان يدور على أفراد جيشه قائلاً: (أنا واحدٌ منكم)^(١).

كما روي أنه أثناء حصار عكا أمر منادياً ينادي في الناس: (يا للإسلام وعساكر الموحّدين)، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم للجنة^(٢).

كما روي أن صلاح الدين كان يركب مع الجيوش، وهو كالوالدة الثكلى على ولدها، ويسير بين العساكر، ويحثهم على القتال، ويعدّهم الوعود الجميلة، ويُنادي: (يا للإسلام، يا لدين محمد عليه الصلاة والسلام)، وعيناه تدرقان بالدموع^(٣)، ولقد كانت تلك عاداته في غزواته يحثّ العساكر على القتال، ويدعوهم إلى التّزال، ويُرغّبهم في نصرته دين الله^(٤)، وكان يذكّر الناس دائماً في حفظ البلاد من الفرنج^(٥).

وكان ﷺ في غزواته يمضي بنفسه على الصفوف ويحضّمهم، ويعدّهم من الله بنصره المألوف^(٦).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٥.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٢٩؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٨٦/٤.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٨٩/٤؛ كنز الدرر وجامع الغرر: ١٠٦/٧.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٨٧/٤.

(٥) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٨٨.

(٦) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٨٥.

وفي فتح عكا صاح السلطان بالعساكر الإسلامية: (يا للإسلام)، فركب الناس بأجمعهم، ووافق فارسهم راجلهم، وشابهم شيخهم، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخدول، فعاد ناكصاً على عقبيه، والسيف يعمل فيهم^(١).

وفي حصار عكا عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمرّ بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحضر على حظ الأبد، ويحث على الجلال والجلد^(٢).

ويقول ابن شداد في وصف إحدى المعارك: (ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الشباب والعسكر، وليس معه إلا صبيان، وهو يسير من طلب إلى طلب، يحثهم على التقدم، ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل، والتكبير يرتفع)^(٣).

والأيوبيون بذلك التشجيع يقتدون برسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، ففي غزوة أحد نادى رسول الله ﷺ في جنوده: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟»، فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، وقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، ففلق به هام المشركين^(٤).

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى سبّقوا المشركين إلى بدر. وجاء المشركون. فقال رسول الله ﷺ:

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٠٧.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٥ / ٤.

(٣) المصدر السابق: ٢٧٣ / ٤.

(٤) رواه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي دجانة سماك بن خرشة: ٢٢/١٦،

برقم (٦٣٠٦)؛ البداية والنهاية: ٣٥٤ / ٥.



«لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ»، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةُ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: بَخٌ بَخٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٌ بَخٌ»، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: «فَأَنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَيْنٌ أَنَا حَيِّتٌ حَتَّى أَكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ^(١).

واقْتَدَى الصَّحَابَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانُوا يَشْجَعُونَ بَعْضُهُم الْبَعْضَ فِي جِهَادِهِمْ، وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ: مَا رَوَى عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، الْجَنَّةُ وَرَبُّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ. قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ. قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمَحٍ أَوْ رَمِيَّةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَخْتَهُ بِنَانَهُ^(٢).

وبمثل هذا التشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، فتشجعوا على القتال، وتحمسوا له، وعدلوا عن فكرة الاستسلام للكفار.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد: ٣٩/١٣، برقم (٤٨٧١).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من يُجرح في سبيل الله: ٣/١٠٣٢، برقم (٢٦٥١).

٥ - المعاملة الحسنة مع الأسرى:

من الآداب الإسلامية التي ينبغي للمجاهدين مراعاتها في جهادهم: المعاملة الحسنة مع الأسرى، وما ذاك إلا تطبيقاً للأخلاق القويمة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، وامثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، واقترداً بالرسول ﷺ وصحابته الكرام الذين أحسنوا للأسرى من باب الدعوة إلى الدين الإسلامي.

فقد روي: أن ثمامة بن أثال - سيد بني حنيفة - جيء به أسيراً، فُرِط بسارية المسجد، فجاء إليه الرسول ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم - أي أستحق القتل لأنني قتلت من المسلمين - وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت، فتركه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثلاثة أيام، وفي كل يوم يأتي إليه، فيسأله مثل هذه الأسئلة، ويجيبه ثمامة بمثل إجابته تلك، وبعد اليوم الثالث أمر بفك أساره، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، ثم قال: يا رسول الله، والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب إليّ، وإن خيالتك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صَبَوْتُ؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتينكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ^(١).

(١) رواه البخاري في كتاب: الخصومات، باب: التوثق ممن تُخشى معرّته: ٨٥٣ / ٢، برقم (٢٢٩٠).

فلنتأمل هذه القصة، وكيف أثرت المعاملة الحسنة في ثمامة إلى أن قادته إلى الإسلام، وما كان ذلك ليحصل لولا توفيق الله ثم المعاملة الحسنة التي لقيها ثمامة.

ولقد راعى الأيوبيون هذا الأدب الإسلامي القويم في جهادهم، فقد روي أنهم عاملوا أسرى الفرنجة معاملة حسنة، ورأفوا بحالهم، ولما انتصروا وفتحوا بيت المقدس أعطوا أهله من الفرنجة الأمان، على عكس الفرنج الذين لما ملكوا القدس من المسلمين قتلوا جميع من كان فيه من المسلمين سنة (٤١٩هـ)، ونحروا أولادهم ونساءهم^(١).

ومما ذكر في هذا المجال، ما روي أنه وصل إلى السلطان من بيروت خمسة وأربعون أسيراً وكان فيهم شيخ هرم، فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعة، ولم يبق في فمه ضرس ولم يبق فيه قوة إلا مقدار ما يتحرك به، فسأله عن سبب مجيئه فقال: (للحج إلى كنيسة القيامة، وبينى وبين بلادى مسيرة أشهر)، فرق له، وأطلقه وأعادته إلى الإفرنج على فرسٍ خاص، ولم ير قتله ولا أسرته^(٢).

ومن هذا القبيل أنه كان من ضمن الأسرى في معركة القدس ملكة روميّة مترهبة متعبدة، فمنّ عليها صلاح الدين بالإخراج مع حشمها وأمنها^(٣).

وفي جانب المعاملة الحسنة للأسرى: أنه وفد إليه جمهرة من النساء الفرنجة يبكين، فبكى معهن، وطلبن منه البحث عن رجالهن من الأسرى،

(١) كنز الدرر وجامع الغرر: ٨٦/٧.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٧٠؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٤٢/٤.

(٣) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٢٨.

فردّ النساء إلى الرجال الأسرى، ومَنْ قُتِلَ زوجها منحها مالا، وسمح لها بالتوجّه إلى مكان اللاجئين من الفرنجة في صور^(١).

وخرجت زوجة الملك الأسير لوزيفيان، وكانت مقيمة بالقدس مع خَدَمِها، فاستأذنت بالالتحاق بزوجها الذي كان معتقلاً في قلعة نابلس، فأذن السلطان لها وأقامت عنده^(٢).

كما روي أن السلطان سمح للبطريك الفرنجي أن يخرج ومعه أمواله، وقد اقترح بعض الحاشية على السلطان أن يأخذ منه المال فقال: «لا أغدر به»، ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير كسائر الأفراد^(٣).

وكان في القدس ملكة رومية متعبدة استعادت بالسلطان فأعادها، وأبقى عليها النفائس والصلبان الذهبية التي معها^(٤).

ولما حاصر المسلمون صفد وقع رجلان من قادة الجيش الفرنجي في الأسر، فأحضرا عند السلطان للمنيّة، فأنطقهما الله بما فيه حياتهما، فقد قالا عند دخولهما: ما نظن أننا بعدما شافهناك يلحقنا سوء. فمال السلطان إلى مقالهما، وأمر باعتقالهما، فإن تلك الكلمة حرّكت منه الكرم، وحقنت منهما الدم^(٥).

وحدث مرّة أن هرب إليه من الفرنج خادمان، ذكرا أنهما لأخت ملك الفرنج، وأنهما كانا يكتمان إيمانهما، فقَبِلَهُما السلطان، وأكرم وفادتهما^(٦).

(١) الحروب الصليبية، ص ١٧١.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٢٨؛ الكامل في التاريخ: ١١ / ٥٥٠.

(٣) الحروب الصليبية، ص ١٦٩.

(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٢٨.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٥١٠.

(٦) المصدر السابق: ٤ / ٢٥٠؛ الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٩٣.



ومن الملوك الأيوبيين الذين أحسنوا إلى الأسرى الملك العادل، ومن المواقف الدالة على ذلك ما رُوي أنه جمع الأسرى، وحاورهم مشافهة، وأطعمهم فاكهة، وأشبعهم وروّاهم، ثم أحضر لهم كسوة وكساهم، وألبس كبير الأسرى أشياءه الخاصة، وكان الوقت شتاءً، وأذن لهم أن يُسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره، ولإعلام من يريدون من معارفهم، ثم نقلهم إلى دمشق لاستكمال إجراءات اعتقالهم^(١).

٦ - التسامح ومنح الأمان في الوقت المناسب:

من الآداب العظيمة التي التزمها الأيوبيون التسامح مع الأعداء في الوقت المناسب، ومنح الأمان لمن طلبه، وعقد الهدنة عند الضرورة، فقد حكى أبو شامة أن صلاح الدين متى طُلب منه الأمان لا يبخل به^(٢).

كما روي أنه في حصار القدس قرّر الفرنجة طلب الأمان، فوافق الجيش الإسلامي على أن يدفعوا الجزية، وكان باستطاعة المسلمين أن ينتقموا منهم كما صنع النصارى يوم استولوا عليها، ولكنهم أرادوا بمنحهم الأمان أن يلقوا على الصليبيين درساً في سماحة الإسلام^(٣).

ولمّا سار الجيش الإسلامي إلى بززية - حصن في السواحل الشامية - وفتحها، كان بها زوج أخت حاكم أنطاكية، فأسروه ونسأه، ثم أطلقوهم وأحسنوا إليهم، وبعثوا من أوصلهم إلى أنطاكية^(٤).

والمسلمون يفضّلون الصلح عندما يرون أن ذلك هو الأنسب والأحسن

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٤٩.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢١/٤.

(٣) الحروب الصليبية، ص ١٦٨.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٥٦.

لحال الجند، فقد روي أنه لما عزم المسلمون على قصد أنطاكية، كانت همم الأجناد ولاسيما الغرباء قد ضعفت، وتياتهم في الجهاد قد فترت، وتشوقوا إلى بلادهم، والراحة من جهادهم. وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فأرسل إلى المسلمين رسولا يتذلل إليهم، ويطلب الهدنة على أنه يُطلق مَنْ عنده من أسرى المسلمين، وهم جمعٌ كثير، فعقدها المسلمون معه مدة يسيرة بحيث يكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة أو انحصارها، فيستريح الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتمت كتابة الهدنة^(١).

ولقد اقتبس الدعاة الأيوبيون هذا الأدب العظيم في جهادهم من تعاليم دينهم الحنيف، فالإسلام دعا جنده إلى الجنوح للسلام إذا طلبه أعداؤهم قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: (إن كان للمسلمين مصلحة في الصلح، لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه. وقد صالح رسول الله ﷺ أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم، وقد صالح الضمري وأكيدر دومة وأهل نجران، وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده، وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل)^(٢).

أما الإمام الطبري فقد قال معلقاً على هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ﴾ و«غدرأ»، ﴿فَأَنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، و«آذنتهم بالحرب»، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وإن مالوا إلى مسالمتك ومشاركتك الحرب، إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٣.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠ / ٦٤.

بموادعة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح، فاجنح لها، أي: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه^(١).

والسلم هنا يقصد به السلام العادل الذي يحفظ للمسلمين عزتهم وكرامتهم، ويضمن لهم حقوقهم، فهو سلام الأقوياء الأعزة ذوي الكرامة، وليس سلام الضعفاء الأذلاء، فالإسلام لا يرضى لأتباعه إلا القوة والعزة والكرامة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال ﷺ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالِكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

٧ - عزة الجندي المسلم:

من آداب الجهاد العزة، فالأمة الإسلامية أمة الحق والعدل والسلام، أمة تستحق أن يدافع المسلمون عنها، ويبدلوا لها الغالي والنفيس، وذلك لتبقى عزيزة محفوظة من كل عدو حاقد أثيم، وهذا في الحقيقة أحد أهداف الجهاد السامية التي شرع الله تبارك وتعالى الجهاد لتحقيقها، قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالمسلم الحق يأبى أن يرى أعراض المسلمين ومقدساتهم يُعتدى عليها، ثم يقف مكتوف اليدين؛ لأن الله تبارك وتعالى أمره بالدفاع عنها، والذود عن حماها، ونهاه عن الجبن والقعود عن نزال الأعداء، كما أن عزته وكرامته تأبى عليه ذلك، قال ﷺ: ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَدِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد أدرك المسلمون الأوائل أهمية الجهاد في سبيل الله، وضرورته لتظلّ الأمة الإسلامية كريمة عزيزة، فبذلوا في سبيل الله أموالهم وأنفسهم، وتسابقوا للاستشهاد، فاستطاعوا تحقيق أعظم الانتصارات، وملأت هيبتهم قلوب أعدائهم، فسطر التاريخ أمجادهم وبطولاتهم، ليؤكّد للأجيال أنّ هذه الأمة لن تكون عزيزة شامخة إلا بالجهاد الذي شرعه الله تعالى.

وفي العصر الأيوبي أجد شواهد عديدة لعزّة المسلم، وحرصه على كرامة الأمة الإسلامية، فقد روي أنه في سنة (٥٧٦هـ) دخل الجيش الإسلامي بلاد الأرمن لقلع ملكهم ابن لاون؛ لأنه كان قد استمال قوماً من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان، ثمّ صبّحهم بغدره، وحصلوا بأسرهم في أسره، فدخل الجيش الإسلامي بلاده وأذلّ أعوانه، ونصر الله المسلمين.

وقد بذل العدو للجيش الإسلامي جملة من المال، كما وعدهم أنه يُطلق من عنده من الأسرى، فلم يرضّ المسلمون بما بذله، فزاد في المال وأنه يشتري مئة أسير من بلاد الفرنج ويُعتقهم، فوافق المسلمون، وأخذوا منه رهينة على ذلك^(١).

ومن الحوادث التي تُعطي صورة جليّة عن عزة المسلم وغيرته على محارم الإسلام حادثة أرناط ونقضه العهد مع المسلمين، فقد روي أن أرناط فكّر في غزو الحجاز، فجهّز حملة كبيرة عام (٥٧٧هـ)، ووصل

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٥٥-٥٦.

إلى مشارف تيماء، ففزع المسلمون لذلك، وكان صلاح الدين في الشمال مشغولاً بترتيب أمور حلب والموصل، فلما بلغه الخبر أرسل إلى نائبه في دمشق فروخ شاه، والذي جهّز حملة سريعة، وسار بها إلى الكرك عاصمة أرناط، فرجع أرناط مسرعاً إلى عاصمته، وترك غزو المدينة، ولكن فروخ شاه لم يترك الكرك إلا بعد أن وقّع معاهدة مع أرناط بعدم التعرّض لقوافل المسلمين وطريقهم^(١).

ولكن أرناط لاحت له فرصة في الغدر فقطع الطريق، وأخاف السبيل، ووقع في قافلة مصرية بالشوبك ثقيلة، معها نِعَمٌ جلييلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وأخذ خيلهم وعتادهم وعذبهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فاستخفت بالنبي ﷺ وقال: (قولوا لمحمدكم يخلصكم)، فأرسل إليه السلطان مذمماً فعاله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فحمل السلطان الدين والحمة، ونذر إن ظفر به قتله.

وبعدها لم يعد صلاح الدين يأمن منه على الحجاز، فبعث عيونه لتراقب تحركات أرناط، وأرسل الجنود لمرافقة قافلة الحجاج، وخرج بنفسه في العام التالي لمصاحبتهم في بداية الطريق^(٢).

ولمّا انتصر صلاح الدين في حطين وقع الملك (جفري) والبرنس (أرناط) في الأسر، فأجلس صلاح الدين البرنس بجانب الملك، وقرّعه على صدره، وذكره بذنبه وقال له: (كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتُبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تُعرض) فقال الترجمان عنه: (قد جرت بذلك عادة الملوك، وما سلكتُ غير السنن السلوك)، وكان

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٨٤.

(٢) المصدر السابق: ٢ / ١٩٠ - ١٩١.

الملك يلهث ظمأً، ويميل من سكرة الرُّعب، فأنسه السلطان، وحاوره حتى سَكَنَ له رُعبه وأَمَّنَ قلبه، وأمر له بماء مثلوج، فشربه ثم ناول الملك الإبرنس القدح، فقال له السلطان: (لم تأخذ في سقيه إذناً، فلا يُوجب ذلك له مني أمناً)، كما قال للترجمان: (قل للملك: أنت الذي سنقيته، وأما أنا فلا أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي)، وكان قصده ﷺ أَنْ مَنْ أَكَلَ مِنْ طَعَامِي فَالْمَرْوَةَ تَقْتَضِي أَلَا أَوْذِيهِ، ثُمَّ إِنَّهُ رَكِبَ وَخَلَّاهُمَا، وَبَنَارَ الْفَرْجِ أَصْلَاهُمَا، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمَا بَعْدَ مَدَّةٍ وَاسْتَحْضَرَ الْإِبْرَنْسَ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَلَمْ يَفْعَلْ، فَقَالَ لَهُ: أَنَا أَنْتَصِرُ لِمُحَمَّدٍ مِنْكَ، فَوْقَى بِنْدَرَهُ، وَقَامَ إِلَيْهِ، وَتَلَقَّاهُ بِالسَّيْفِ، فَحَلَّ عَاتِقَهُ بِالنِّيمِجَاهِ^(١)، ثُمَّ أَمَرَ بِرَأْسِهِ فَقَطَّعَ، وَجُرَّ بِرِجْلِهِ قُدَّامَ الْمَلِكِ، وَرُمِيَ عَلَى بَابِ الْخِيْمَةِ، فَارْتَاعَ الْمَلِكُ وَانزَعَجَ، وَمَا شَكَّ فِي أَنَّ صِلَاحَ الدِّينِ سَيُثْنِي بِهِ، فَأَمَّنَهُ السُّلْطَانُ وَطَمَأَنَّهُ، وَقَالَ لَهُ: (لَمْ تَجِرْ عَادَةَ الْمَلُوكِ أَنْ تَقْتُلَ الْمَلُوكَ، وَلَكِنْ ذَاكَ غَدَّارٌ كَذَابٌ جَاوَزَ حُدَّهَ، فَأَزْدَتْهُ رِدَاءَتَهُ، وَغَدْرَتَهُ كَمَا تَرَاهُ غَادِرْتَهُ، وَقَدْ هَلَكَ بِغِيَّهِ وَبَغْيِهِ وَجَرَى لَهُ مَا جَرَى)^(٢).

ومن حوادث العزة في هذا العصر ما روي أنه في سنة (٥٧٨هـ) مضى الفرنج إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية، فجهَّز لهم الملك العادل الحاجب حسام الدين لؤلؤ، وظفر بمراكب للفرنج، فأحرقها وأسر من فيها، وتبع مراكب الفرنج، فوقع بها بعد أيام، واستولى عليها، وأطلق من فيها من التجار المأسورين، وردَّ عليهم ما أخذ منهم، وصعد البرّ موكب خيل العرب، حتى أدرك من فر من الفرنج وأخذهم، وساق منهم اثنين إلى

(١) خنجر مقوس يشبه السيف القصير. التوثيق من المصدر التاريخي نفسه، وهي مشروحة فيه، وليست من كتب اللغة لأنها ليست عربية.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٣؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٢٠؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/٢٧٤، ٢٨٨-٢٨٩، ٢٩٦-٢٩٧؛ سير أعلام النبلاء: ٢١/٢٨٥.



منى، ونحرهما كما تُنحر البدن، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة، فضربت أعناقهم كلهم^(١).

وثمة حادثة طريفة تعكس عزة الجندي المسلم، وما وصل إليه العدو من الذل والهوان، يقول أبو شامة: بلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسيرٌ، وكان محتاجاً إلى نعل، فباعه بها، فقيل له في ذلك، فقال: أردت أن يُذكر ذلك، ويقال: بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع واحد منهم بنعل، والله الحمد^(٢).

وبعد فإن الدعوة الأيوبيين استخدموا وسائل دعوية أعانتهم بفضل الله على نشر دعوة الإسلام وتقديمه صافياً رقراقاً للإنسانية، فأرسلوا الرسائل الناصحة، وناظروا دفاعاً عن دينهم الحق وبياناً له، وألقوا الخطب البليغة المؤثرة، وجاهدوا في الله حق جهاده.

فما أكرم نفوس هؤلاء الدعاة التي كانت صغيرة في عيون أنفسها، كبيرة عند الله والناس، وما أجلّ التاريخ الذي سطر لنا دعوة هؤلاء الأفاضل، فجزاهم الله خير الجزاء، وجعل جنات الخلد مثواهم؛ فقد قوّوا المسلمين، وخلصوهم من ألد أعدائهم، مبتغين بذلك مرضاة الله ورسوله.

* * *

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧٩.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٩٩.

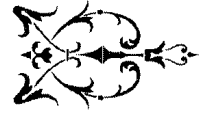
رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

المبحث الثاني أساليب الدعوة في عهد الدولة الأيوبية



• تمهيد :

إن الهدف الأساس للدعوة الإسلامية هو جذب المدعويين إلى الإسلام، وتعريفهم بمقاصد الإسلام وغاياته. ولتحقيق هذا الهدف ينبغي للداعية أن تستخدم أسلوباً مناسباً لدعوته؛ فذلك أفضل طريق يوصل إلى تحقيق أهداف الإسلام وغاياته بطريقة مشروعة.

ولا بد للداعية من استعمال الأسلوب المناسب في الوقت المناسب، كما أنه من الضروري اختيار الأسلوب الدعوي المناسب للمدعويين، والذي يراعي اختلاف مداركهم، وتباين ثقافتهم.

وقد استخدم الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان الأساليب الدعوية؛ ليوصلوا دعوتهم إلى الناس، وليبلغوهم من خلالها تعاليم دينهم.

ومن أبرز الدعاة الذين استخدموا أساليب مميّزة لنشر دعوتهم دعاة الدولة الأيوبية ملوكاً وعلماء.

وقبل البدء في الحديث عن أساليب الدعوة في العصر الأيوبي سأطرق إلى تعريف الأساليب في اللغة والاصطلاح.

• تعريف الأساليب في اللغة والاصطلاح:

١ - الأساليب لغة:

جمع أسلوب. والأسلوب: هو الطريق والمذهب والفنّ، يقال: سَلَكَتُ أسلوبَ فلان في كذا، أي طريقته ومذهبه، وأسلوبُ الكاتب: طريقته في الكتابة، كما يُقال: أخذ فلان في أساليب القول، أي أفانينَ منه^(١).

الأسلوب: الطريق، ويُقال: سَلَكْتَ أسلوبَ فلان في كذا: طريقته ومذهبه، وطريقة الكاتب في كتابته^(٢).

٢ - الأساليب اصطلاحاً:

تعددت أقوال أهل الدعوة في تعريف الأساليب اصطلاحاً، فقال فريق منهم: هي الطرق التي يسلكها الداعي في دعوته^(٣). وقال فريق آخر: هي كيفية مباشرة التبليغ^(٤).

ويمكن الجمع بين هذين التعريفين فنقول: هي الطرق التي يسلكها الداعي من أجل مباشرة تبليغ دعوته.

وفي هذا المبحث سأُتحدث عن أهم تلك الأساليب؛ وهي:

١ - أسلوب القدوة الحسنة.

٢ - أسلوب الموعظة الحسنة.

٣ - أسلوب الحكمة.

٤ - أسلوب التربية والتعليم.

(١) لسان العرب، مادة (سلب): ٤٧٢/١.

(٢) المعجم الوسيط، مادة (سلب)، ص ٤٤٣.

(٣) المدخل إلى علم الدعوة، ص ٤٦.

(٤) أصول الدعوة، ص ٤١١.



المطلب الأول أسلوب القدوة الحسنة

أسلوب القدوة الحسنة من الأساليب الهامة في مجال الدعوة، وذلك لأن المدعو كثيراً ما يتأثر بالتطبيق العملي أكثر من الأقوال فقط.

ولقد وعى ذلك دعاة الدولة الأيوبية وطبقوه في دعوتهم، فالمطلع على الشواهد التاريخية للدعاة في هذا العصر سيجد الكثير من أمثلة الدعوة بأسلوب القدوة الحسنة، وتأثر كثير من أفراد المجتمع بهذا الأسلوب بفضل الله تعالى. وفي هذا المبحث سأتحدث بإذن الله تعالى عن أسلوب القدوة الحسنة من خلال النقاط التالية:

- ١ - أهمية أسلوب القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى.
- ٢ - القدوة في الإكثار من العبادة.
- ٣ - القدوة في الإنفاق في سبيل الله.
- ٤ - القدوة في الجرأة على قول الحق والرجوع إليه.
- ٥ - القدوة في الحرص على مصالح الناس.

أولاً: أهمية أسلوب القدوة الحسنة:

أودّ أن أبيّن باختصار تعريف القدوة الحسنة في اللغة والاصطلاح:

١ - القدوة في اللغة:

قال ابن منظور: القُدْوُ: أصل البناء الذي يَتَشَعَّبُ منه تصريف الاقتداء، يقال: قِدْوَةٌ وقُدْوَةٌ لما يُقْتَدَى به. قال ابن سيده: القُدْوَةُ والقِدْوَةُ ما تَسَنَّتْ به^(١).

(١) لسان العرب، مادة (قدا): ١٧١/١٥.

وقال الفيروز آبادي: القُدوة ما تَسَنَّتْ واقتديتَ به، وتقدّت به دابته: لزمت سنن الطريق، وتقدّى هو عليها^(١).

٢ - القدوة في الاصطلاح:

قال الإمام الشوكاني: هي طلب موافقة الغير في فعله^(٢).

وقال الشيخ ابن عاشور: والقدوة هو الذي يعمل غيره مثل عمله، يقال: لي في فلان قُدوة^(٣).

وقال الشيخ الشنقيطي: الأسوة كالقدوة، وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنة أو قبيحة^(٤).

وبهذا يتبين أن المقصود بالقدوة الحسنة هو أن يتمثل الداعية الأخلاق الإسلامية، والصفات الحسنة في حياته كلها، بحيث تُطابق أفعاله أقواله وفق ما جاء به الشارع الحكيم.

وأبرز شاهد على أهمية القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله ما حصل مع رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: فلما فرغ من قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قال رسول الله ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَاَنْحَرُوا ثُمَّ اخْلِقُوا». قال: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتَجِبُ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ

(١) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، فصل القاف، باب الواو: ٤ / ٣٧٨.

(٢) فتح القدير: ٢ / ١٣٧.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور: ٧ / ٣٥٦.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي: ٨ / ٨٥.

بُدْنُهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فلما رَأَوْا ذلك قَامُوا فَتَحَرَّوْا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلُقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا^(١).

فهذا الحديث فيه دلالة واضحة على أهمية القدوة، حيث إن الصحابة ﷺ لم يمثلوا لأمر رسول الله ﷺ في بداية الأمر - بسبب ما هم فيه من غم وهم لمنع قريش لهم عن العمرة - فلما شاهدوا مطابقة فعل رسول الله عليه الصلاة والسلام لقوله اقتنعوا بوجوب تنفيذ الأمر، وأنه لا مفرّ منه.

ويمكن إجمال أهمية أسلوب القدوة الحسنة في النقاط التالية:

١ - إن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا قدوة حسنة لأقوامهم، وقد أمرنا الله بالافتداء بهم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ [المتحنة: ٦]، وقال جل وعز: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتُهُمْ أَقْتَدَ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٢ - إن الإسلام انتشر في كثير من أصقاع الأرض عن طريق القدوة الحسنة، فالداعية عندما يتمثل الآداب والأخلاق الإسلامية عملياً سيكون هذا الامتثال أبلغ رسالة يوجهها الداعية للمدعو عن الإسلام وتعاليمه الربانية.

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: (فالقدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام يستدل بها غير المسلم على أحقية الإسلام، وأنه من عند الله، ولا سيما إذا كان سليم الفطرة، سليم العقل)^(٢).

(١) رواه البخاري في كتاب: الشروط، باب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ: ١/٢ - ٩٧٤ - ٩٧٩، برقم (٢٥٨١).

(٢) أصول الدعوة، ص ٤٨٥.

٣ - إن تطبيق الداعية لتعاليم الإسلام وأخلاقه يُعطي المدعو قناعةً بإمكان تطبيق هذه التعاليم والأخلاق على أرض الواقع، فيسارع إلى التحلي والامتثال بها.

٤ - إن المدعويين يتفاوتون في مستويات الفهم، ولكنهم يتساوون في الرؤية، لذا فإن التطبيق العملي في هذه الحالة أسهل في إيصال التعاليم والأفكار التي يودّ الداعية إيصالها للمدعو.

ويبين الدكتور عبد الكريم زيدان أهمية هذا الأسلوب فيرى أنه: (من الوسائل المهمة جداً في تبليغ الدعوة الى الله، وجذب الناس إلى الإسلام: السيرة الطيبة للداعي، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الزاكية مما يجعله قدوة طيبة وأسوة حسنة لغيره، ويكون بها كالكتاب المفتوح يقرأ فيه الناس معاني الإسلام، فيقبلون عليها، وينجذبون إليها؛ لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثير بالكلام فقط»^(١).

ولقد طبّق الدعاة الأيوبيون هذا الأسلوب في دعوتهم، فكان الداعية يصطفي لنفسه مثلاً يحتذي حذوه في الآداب والفضائل، ويتطلّع للوصول إلى ما لديه من الكمالات والأخلاق الإسلامية.

فهذا صلاح الدين يتّخذ من نور الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - الملقب بالملك العادل - مثلاً يقتدي به في القيادة والحكم وإدارة الحرب والسلام، وفي اختيار الرجال الأمناء الأقوياء للجيش والقضاء والإدارة^(٢).

وروي أن صلاح الدين كان أحد خواصّ نور الدين لا يفارقه ركباً في ميدانه ولا جالساً في إيوانه، يقف على رأسه، وكان والده من جُلاسِه، وقد

(١) أصول الدعوة، ص ٤٣٧.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٦.

اقتدى به في جميع ما اتّصف به من التّقى والعفة والنّزاهة والنّباهة وآداب المُلْك وأحكام السلطنة، فتلقّن منه مبادئ الخبرات، ثم جاوز بها في أيامها إلى الغايات^(١).

ونتيجة للأثر الكبير الذي تركه هذا الاقتداء في نفس صلاح الدين، أدرك رَحِمَهُ اللهُ ما لهذا الأسلوب من دور عظيم في التأثير في المدعوين، ودفعهم للامتثال إلى ما يدعوهم إليه.

وقد وصف الموفق عبد اللطيف - أحد معاصري صلاح الدين - تطبيق صلاح الدين لأسلوب القدوة الحسنة فيقول: (رأيت صلاح الدين على القدس، فرأيته ملكاً عظيماً، يملأ القلوب روعة، والعيون محبة، سهلاً ومحبباً، وأصحابه يتشبهون به، ويتسابقون إلى المعروف، وكان رَحِمَهُ اللهُ مهتماً في التفقه في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ولقد كان يعتني ببناء سور القدس وحفر خندقه، ويتولّى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء)^(٢).

كما يصف ذلك العماد فيقول: (وكان السلطان مقيماً بالقدس، وقد قسّم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده، فشرعوا في إنشاء سور جديد، وكان يركب كلّ يوم، وينقل الصخر على قربوس^(٣) سرجه، فيستنّ الأكاير والأمراء في نقل الحجارة بنهجه، ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره، لعلمت أنّ له قلباً كم حمل جبلاً في فكره، ولقد جدّ في حماية الصخرة المقدّسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره لانضمامها إلى صدره)^(٤).

(١) سنا البرق الشامي، الفتح بن علي بن محمد البنداري، تحقيق: فتحية النبراوي، ص ٥٦.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٦؛ صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٠٧.

(٣) القربوس: عود الرحل ويُسمّى الجنو. انظر: القاموس المحيط: ٢/٢٣٩ مادة (قربس)؛ والمعجم الوسيط، ص ٧٣٠، مادة (قربس).

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤/٢٩٦-٢٩٧.

ثانياً: القدوة في الإكثار من العبادة:

إن أول ما ينبغي للداعية البدء به في مقام الدعوة هو العناية بنفسه من حيث تجديد الإيمان في قلبه وشحنه بما يرتقي به، لذا فهو بحاجة ماسة إلى الإكثار من العبادات والنوافل التي تصقل قلبه، وتُجلي شخصيته، وتشحنه بالزاد الذي يعينه على المصاعب والشدائد التي قد تواجهه في طريق الدعوة.

ولقد دعا الله تعالى عباده المؤمنين لذلك فقال جلّ وعزّ: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وحرص رسول الله ﷺ على النوافل والسنن والإكثار منها، فقد روي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، فقالت عائشة: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فقال: «يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١).

وهذا ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أحد كبار الدعاة على مَرِّ التاريخ، مع كثرة مشاغله وجهاده وتعليمه يحافظ على الذكر بعد الصلاة، كما كان يُداوم على الجلوس بعد الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد ارتفاع الشمس يصلي ركعتين ويقول: (هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي)^(٢)، وكان يقول: (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة)^(٣).

ولقد أدرك دعاة الدولة الأيوبية - ملوكاً وعلماء - هذا الأمر الجلل

(١) رواه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة: ١٣٦/١٧، برقم (٧٠٧٣).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب، شمس الدين الزرعي الدمشقي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، ص ٦٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

ووعوه جيداً، فذخرت كتب التاريخ بروائع من حرصهم على التقرب إلى الله بشتى أنواع النوافل والعبادات التي تسمو بروحهم، وترتقي بقلوبهم في سلم الكمالات.

وكان في مقدمة الملوك العابدين: صلاح الدين الأيوبي، فقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خاشع القلب رقيقه، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن خشع قلبه، ودمعت عيناه في معظم أوقاته، وكان يحب سماع القرآن الكريم، ويستجيد إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه، وكان يستقرئ مَنْ يحرسه في الليل وهو في برجه الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرئ وهو في مجلسه العام مَنْ جرت عاداته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شديد الرغبة في سماع الحديث، وكان يأمر بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له^(١). وقد اقتدى صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ذلك بوالده نجم الدين، فقد روي أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان كثير الصلاة والصيام والصدقة، كريم النفس جواداً^(٢).

وقد اقتدت بصلاح الدين زوجته، فكانت من الصالحات، تكثر من قيام الليل، وقد نامت ليلة عن وِزْدِهَا فأصبحت وهي غضبي، فأمرت بضرب طبلخانات في القلعة وقت السَّحَر لإيقاظ النائم لقيام الليل^(٣).

ومن الملوك الذين اشتهروا بالاجتهاد في العبادة الملك العادل، فقد ذُكر أنه كان كثير الصلاة، ويصوم الخميس، وله صدقات في كثير من الأوقات^(٤).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٩.

(٢) البداية والنهاية: ١٦ / ٤٦٨.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ٥١٠ / ١.

(٤) تاريخ الإسلام، ص ٢٧٢، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ١١٦ / ٢٢.



ومنهم أيضاً الملك الكامل محمد بن غازي، فقد روي أنه كان كثير التعبُّد والخشوع، ولم يكن في بيته من يضاھيه في الدين^(١).

أما المكثرون من العبادة من العلماء فمن أشهرهم:

– القاضي الفاضل: فقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثير الصدقات والصوم والصلاة، وكان يختم القرآن ختمات عديدة، وكان مواظباً على أوراده، ودائم التهجد، وكان له العفاف والدين والتقوى، ويكثر تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وزيارة القبور، وله معروف في السرِّ والعلانية، ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان إليهم، والإعراض عنهم، وكان له معاملة حسنة مع الله تعالى، وتهجد بالليل^(٢).

– ومن العبَّاد أيضاً فخر الدين بن عساكر: فقد كان كثير النوافل والأذكار، يحاسب نفسه على كل لحظة تذهب في غير طاعة^(٣)، ولسانه لا يخلو من ذكر الله، وكان الناظر لا يملّ من النظر إليه لحسن سمته ونور وجهه^(٤).

– ومن العلماء المجتهدين في التعبُّد محمد بن قدامة: فقد قال عنه الذهبي في «سيره»: (كان كثير العبادة، دائم التهجد، لا يترك قيام الليل من وقت شبوبيته، لم نر مثله، ولم ير مثله نفسه، وكان لا يسمع حديثاً إلا عمل به، ولا صلاة إلا صلاها، وكان يصلي بخشوع، ولا يكاد يصلي سنة الفجر والعشاءين إلا في بيته)^(٥).

(١) ذيل مرآة الزمان، قطب الدين اليونيني: ٤٣٠/١.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: ٩٢/١؛ البداية والنهاية: ١٦ / ٦٩٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٥٦٧/٢٠.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ٨٤/١.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٥/٢٢، ١٦٥.



— وعماد الدين المقدسي الجماعيلي: من العلماء الذين تفرغوا للعبادة والعلم، فقد روي أنه كان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء، لا يخرج إلا لحاجة، يُقرأ القرآن والعلم، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة^(١)، وكان ﷺ كثير الدعاء والسؤال لله تعالى، يُطيل السجود والركوع، لم يُر أحد أحسن صلاة منه ولا أتم، في خشوع وخضوع، قيل: كان يسبح عشراً يتأتى فيها، وربما قضى في اليوم والليلة صلوات عدّة، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان إذا أفتى في مسألة يحترز فيها احترازاً كثيراً، ما عُرف أنه عصى الله معصية^(٢).

— وابن الحرساني من العباد أيضاً: فقد اتفق أهل دمشق على أنه ما فاتته صلاة بجامع دمشق في جماعة إلا إذا كان مريضاً^(٣).

— ومنهم عز الدين محمد بن الحافظ عبد الغني: فقد روي أنه كان غزير الدمعة عند قراءة القرآن^(٤).

— والعماد إبراهيم بن عبد الواحد أيضاً: فقد كان كثير الدعاء بالليل والنهار، وإذا دعا شهد القلب بإجابته من كثرة ابتهاله وإخلاصه^(٥).

إن هذه الصور المشرقة لاهتمام الدعاة الأيوبيين بالعبادة والإكثار منها، تحفز الداعية، وتشحذ همته إلى الاقتداء بهم وبهديهم في التعبّد لله تعالى؛ طمعاً في مرضاته سبحانه، وابتغاءً لجنّته تعالى، وطلباً لتوفيقه في مهمته الدعوية التي اجتباها الله لها، وكلفه جل وعز بها.

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٩/٢٢ - ٥١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق: ٨٠/٢٢؛ الدارس في تاريخ المدارس: ٣٩١/١؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٠٧، وفيات (٦١١-٦٢٠هـ).

(٤) تاريخ الإسلام، ص ١٦٥، وفيات سنة (٦١١ - ٦٢٠هـ).

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٦.

ثالثاً: القدوة في الإنفاق في سبيل الله:

الصدقة والإنفاق في سبيل الله من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله ﷻ، قال ﷺ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُضِيحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا»^(٢).

وقد وعد الله عباده المتصدقين بخيري الدنيا والآخرة، كما وعدهم بأجزل الثواب وأعظمه، وما ذلك إلا لأهمية هذا الإنفاق، وكثرة ما فيه من فوائد جليلة؛ فهو دليل على صدق الإيمان، وحسن الظن بالله، وهو وقاية من الكروب والبلايا، وتكفير للذنوب والخطايا، وتطهير للقلب من الرذائل، ومباركة للمال والرزق، وباب لدخول الجنة، والنجاة من النار، ولذلك كله شواهد بيّنة من القرآن والسنة؛ لذا ينبغي للداعية أن يحرص على الإنفاق في سبيل مرضاة الله تعالى؛ ليكون قدوة عملية تدعو الناس إلى ذلك العمل الصالح القويم، وهذا ما وجدته جلياً في عصر الدولة

(١) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الرِّيَاءِ فِي الصَّدَقَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبْتَغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضلداً؛ ليس عليه شيء. وقال عكرمة: وابل: مطر شديد، والطل: الندى؛ ٥١١/٢، برقم (١٣٤٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا؛ ٥٢٢/٢، برقم ١٣٧٤.



الأيوبية لما قلبت كتب التاريخ للبحث عن شواهد تؤكّد حرصهم على الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى.

١ - إنفاق صلاح الدين:

ومن أبرز الدعاة الذين حرصوا على الصدقة والإنفاق في سبيل مرضاة الله تعالى السلطان صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد مات ولم يُحفظ ما تجب عليه به الزكاة! وأما صدقة النفل فإنها استغرقت جميع ما ملك، ولم يُخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصريّاً، وجرماً واحداً ذهباً، كما لم يخلف مُلكاً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك^(١).

وقد شهد له أصحابه المقربون بتلك اليد السخية المِعطاء، وسجّل التاريخ تلك الشهادات ليطلع الناس عليها على مرّ الأجيال، فتكون حافزاً لهم على الاقتداء بذلك السخيّ الكريم الذي كان دائماً ينفق، وينفق بسخاء وكرم قلماً يوجد لهما نظير.

يقول عنه القاضي بهاء الدين بن شداد: (كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة، وكان نُواب خزائنه يُخفون عنه شيئاً من المال حذراً؛ لعلمهم أنه متى عَلِم به أخرجه، ولقد سمعته يقول في معرض حديث جرى: (يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب)، فكأنه بذلك أراد نفسه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان يُعطي فوق ما يؤمّل الطالب، فما سمعته قط يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه لمن يُعطيه كبسطه لمن لم يعطه شيئاً، وكان يُعطي ويكرم أكثر مما يُعطي، وكان قد عرفه الناس، فكانوا يستزيدونه في كل وقت، وما سمعته يوماً يقول: قد زدت

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨؛ بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٤٧.

مراراً فكم أزيد، وأكثر الرسائل تكون في ذلك على لساني ويدي، وكنت أخجل منه من كثرة ما يطلبون، ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك، وما خدمه أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره^(١).

وقد شهد له أخوه الملك العادل بذلك أيضاً، فقال مرة في أثناء حديثه، وهو يتحدث عن إفراط السلطان في أياديهِ: (إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: (نريد اليوم ما نخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس باق)، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرّقها على رجالٍ رجاء يد النوال)^(٢).

وكتب القاضي الفاضل شهادة بليغة فصيحة عبّرت بصدقٍ عن سخاء صلاح الدين البالغ، وكرمه في الإنفاق، وذلك ضمن كتاب فاضلي أرسله ﷺ إلى السلطان، وقد جاء في ذلك الكتاب: (لقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل، وينفق إن شاء الله مال القسطنطينية في فتح رومية، والملوك كلهم وُكلاؤُه وأمنائُه على خزائنهم إلى أن يسلموها إليه، فيشكره الله على ما أخرجته في سبيل الله منها، ويمقتهم على ما كنزوه من ذهبها وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقه، فإن الله لا يُضَيِّق رزقاً على يده الكريمة، ولا سيما قد أجرى عليه أرزاق خلقه)^(٣).

وكان صلاح الدين ﷺ كثير الإنفاق في سبيل الله في كل أوقاته ولاسيما في حالة المرض، وعند شكر الله على نعمه، فقد روي أنه لما مرض وعرض له من الألم ما عرض، قال للعماد: (اكتب إلى الولاة والنواب

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٧-١٨.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٠٣/٣.

(٣) المصدر السابق: ٢١٩/٤.

بالديار المصرية والشامية أن يتصدّقوا على الفقراء والمساكين)، فلم يبق في الممالك إلا مَنْ وصل إليه نصيب، فدفَع بالصدقة البلاء، ورفع للصدق الولاء، ومن جملة تلك الصدقات أنه أمر العماد أن يكتب إلى نائبه بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف صورية، فقبل: ما عنده غير دنانير مصرية، فقال: يتصدق بها مصرية خمسة آلاف لنفوز من الثواب بأضعاف^(١).

ولما رُزق بولده الملك الأفضل ليلة عيد الفطر فرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى وتصدّق بما بهر به العقول^(٢)، شكراً لله على نعمة الولد.

وفي سنة (٥٨١هـ) نزل بحران، فتقرر فيها الصلح بينه وبين أهل الموصل في يوم عرفة، وخطب له بجميع بلاد الموصل، وقطعت الخطبة السلجوقية، وخطب له في ديار بكر، وضربت السكّة باسمه، وأمر بالصدقات في جميع ممالكه^(٣).

ولمّا دخل ﷺ إلى دمشق سنة (٥٧٠هـ) من غير مدافع أنفق في الناس مالاً جزيلاً، وأمر بإطابة النفوس، وإزالة المكوس^(٤)؛ شكراً لله على ما أنعم به من نعم جلييلة كنعمة الصلح والفتح.

وقد حرص صلاح الدين على تعميم بلاده بالصدقات، وغمر جميع ممالكه بوافر العطايا والنفقات، ومن ذلك: ما روي أنه في سنة (٥٦٧هـ) كان في مكة غلاء، ففرّج الله على الناس بجلبتين مشحونتين بالحبّ، صدقة من السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٥)، كما روي أنه كان يرسل غللاً إلى مكة^(٦).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٤٠/٣ - ٢٤١.

(٢) المصدر السابق: ١٥٣ / ٢.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ٨٩/١ - ٩٠.

(٤) المصدر السابق: ٥٨/١.

(٥) إتحاف الوري بأخبار أم القرى: ٥٣٣/٢.

(٦) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١١٤/٧.

ولما أُذِن صلاح الدين للقاضي الفاضل في الحج اشترط عليه أن يتصدق بثلاثة آلاف دينار على أهل مكة والمدينة^(١).

ولبيت المقدس نصيب وفير من نفقاته ﷺ، فقد روي أنه لما فتح بيت المقدس فرّج الله عمّن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف أسير، وأقام يجمع الأموال، ويفرّقها على الأمراء والعلماء، وقد رحل ﷺ عن بيت المقدس ولم يبق معه من المال شيء، وكان مئتي ألف دينار وعشرين ألفاً^(٢).

وكان هدف صلاح الدين الرئيس من الإنفاق هو ابتغاء مرضاة الله، بيد أنّه كان يهدف منه في بعض الأحيان تقوية الدولة الإسلامية، واستمالة قلوب الناس، ومن ذلك أنه أكثر ﷺ بعد توليه الوزارة في مصر من تفرقة الأموال؛ لاستمالة الناس نحوه، فتمكّن في فترة قصيرة من كسب قلوب الناس نحوه، كما قام بإرسال الأموال والمؤن إلى من يحتاج إليها، وهذا ما ساعده كثيراً على مواجهة التحديات الخارجية التي واجهته.

وبعد أن استنفد ﷺ خزائن عمه طلب المال من الخليفة العاضد، فأرسل إليه الكثير من المال، الذي أنفقه على الذين تضرّروا من الحصار والحريق والنهب والسلب الذي حلّ بمصر^(٣).

ولما استقرت قدمه في الوزارة والسياسة، نظّم أمور الدولة بحسن تدبيره، ورؤى بفسيح كرمه من بُعد منه وقرب من أهل الفضل، وأفاض على الناس من كرمه وجوده^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٥/٣.

(٢) المصدر السابق: ٣٣٢/٣.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٢٣-١٣٠.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١١٦/٢-١١٧.

ولقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مغرماً بالإنفاق على المجاهدين؛ تشجيعاً وترغيباً لهم على الجهاد والمرابطة في سبيل الله، وقد شهد بذلك العلامة أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي - سبط ابن الجوزي - في تاريخه «مرآة الزمان»، فقال: (كان السلطان شجاعاً شهماً مجاهداً في سبيل الله، وكان مغرماً بالإنفاق في سبيل الله، وقد حُسب ما أطلقه ووهبه مدّة مقامه على عكا مرابطاً للفرنج إلى يوم انفصاله عنها، فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العراب والجياد للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال)^(١).

كما روي أنه اهتمَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ باستمالة قلوب الناس ببذل الأموال، فمال إليه الناس وأحبوه^(٢).

ولما انتهت مرحلة الحروب الصليبية التي امتدت أكثر من سنتين، بقي صلاح الدين صابراً مرابطاً بالرغم من كلِّ ما مرَّ به من ظروف صعبة ومؤن على العساكر، بحيث يُذكر أنه اشترى اثني عشر ألف رأس من الخيل أثناء هذه المدّة، فلم يبخل بما لديه، وبخل العالم الإسلامي وملوكه عليه بكل شيء^(٣).

٢ - إنفاق بقية الملوك الأيوبيين:

سار بقية الملوك والأمراء على نهج مؤسس الدولة الأيوبية في الحرص على الإنفاق والإكثار منه، فقد روي أن الملك العادل كان يخرج بنفسه في الليل ويفرّق المال^(٤).

وعلى مثل سيرته كان الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة، ابن أخي صلاح الدين، فقد كان له في أبواب البر كل حسنة، كما كان كثير

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٨/٦.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٧٢/٢؛ وفيات الأعيان: ١٥٥/٧.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٠٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٦٦؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٩٦، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ).



الإحسان إلى العلماء والفقراء وأرباب الخير^(١)، وكان يُعنى بدفع الأموال لفك الأسرى من الكفار، وإذا وصل إليه الأسرى أعطاهم^(٢)، وقد روي أنه لم يكن شيء أحب إليه من الصدقة، وكان له في كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز تفرّق على المحاويج، ويجتمع خلق كثير عند بابه فيُدخلهم إليه، ويدفع لكل واحد منهم كسوة على حسب الفصل من شتاء أو صيف^(٣).

ومثله الملك عماد الدين أبو الفتح عثمان، فقد أنفق رَضَّ اللهُ في وجوه الخير، فلم يبق في الخزانة درهم^(٤).

ومن الأمراء الذين عُرفوا بالإنفاق في سبيل الله الأمير أبو بكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب، فقد روي: أنه تصدّق بذهب كثير في قحط مصر، وكان يُكثر الصدقة عند نزول الآفات^(٥).

ولقد كان لثناء الدولة الأيوبية نصيب وافر في الحرص على الإنفاق في سبيل الله، فقد ذكرت كتب التاريخ عن ست الشام خاتون أخت الملك العادل أنها كانت كثيرة المعروف والبر والصدقات، وكان يُعمل في دارها في السنة بمبلغ عظيم أشربة وعقاقير وتُفرّقه على الناس^(٦).

ومن النساء المشهورات بالإنفاق خاتون عصمة الدين بنت معين الدين زوجة صلاح الدين، فقد ذُكر عنها أنها كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن صدقة^(٧).

(١) وفيات الأعيان: ٤٥٦/٣.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥٥/٥.

(٣) المصدر السابق: ٥٤/٥.

(٤) حسن المحاضرة، ص ٢٢.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١١٦/٢٢.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/ ٢٤٤؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٩٠، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠هـ).

(٧) البداية والنهاية: ١٦ / ٥٧٣.

وقد وصف الرحّالة ابن جبير تلك المشاركة النسائية في الإنفاق في سبيل الله، فقال: (ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة)^(١).

٣ - إنفاق بطانة صلاح الدين:

كان لبطانة صلاح الدين المقربين مشاركة واضحة في طرق أبواب الخير، والمساهمة في الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، ومن هؤلاء البطانة الصالحة الأمير صارم الدين قايماز النجمي، فقد كان متولّي أسباب صلاح الدين في مخيمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدار، وإذا فتح بلداً سلّمه إليه واستأمنه عليه، وقد حصل له من بلد آمد عند فتحه، ومن ديار مصر عند موت العاضد أموال عظيمة، فتصدّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية، وهو بالعرف معروف، وبالخير موصوف، يحب بناء القناطر والربط، وله مدرسة مجاورة لداره^(٢).

ومنهم أيضاً الحاجب لؤلؤ، ومن مواقفه ومبائرته الظاهرة: أنه لما حطّ القحط رحله، وتمّ الغلاء، وعمّ البلاء، ابتكر هذا الحاجب مكرمة لم يسبق إليها، وذلك أنه كان يخبز كل ليلة اثني عشر ألف رغيف، فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حُشر الفقراء، ثم يفتح من الباب ما يخرج واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد، فيتناول كل منهم قرصه، وما يزال قاعداً حتى يُفترّق الألف على الألف، وكان هذا دأبه حتى عاد الرّخاء، فحينئذ تنوّعت صدقاته، واستغرقت بالصلوات أوقاته^(٣).

(١) رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير، ص ٢٨٤.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٦٤/٤.

(٣) المصدر السابق: ٤٦٧/٤.

٤ - إنفاق العلماء:

وكما كان ملوك الدولة الأيوبية مغرمين بالإكثار من الإنفاق، كان علماءها أيضاً أمثال القاضي الفاضل والحافظ عبد الغني والعز بن عبد السلام وغيرهم كثير.

أما القاضي الفاضل فقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع كثرة أمواله كثير الصدقات والصلوات، هذا في الوقت الذي كان لباسه لا يساوي دينارين^(١).

وهذا الحافظ عبد الغني كان يخرج في الليل بأكياس الدقيق إلى بيوت الفقراء متنكراً في الظلمة، فيعطيهم ولا يُعرف، وكان يُفتح عليه بالثياب، فيُعطي الناس وثوبه مرقّع، ولقد بعث إليه الأفضل بن صلاح الدين بنفقة وقمح كثير، ففرّقه كله، وقد يُوفّي المال عن بعض الغرماء من غير أن يُعلمهم، وقال أحد معاصريه: شاهدت الحافظ عبد الغني في الغلاء بمصر ثلاث ليالٍ، يؤثر بعشائه ويطوي، وقد فُتح له بمصر بأشياء كثيرة من الذهب وغير ذلك فما كان يترك شيئاً^(٢).

ومن العلماء المشهورين بالإنفاق في سبيل الله فكان بذلك خير قدوة للمسلمين على مرّ التاريخ العز بن عبد السلام، فقد كان مع فقره كثير الصدقات، وربما قطع من عمامته وأعطى فقيراً يسأله إذا لم يجد معه غير عمامته.

ولما كان العز بدمشق وقع غلاء كبير، فأعطته زوجته مصوغاً لها، وقالت: اشتر لنا بستاناً نصيف به، فباعه وتصدّق بثمنه، فقالت: يا سيدي اشترت لنا؟ قال: نعم، بستاناً في الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتصدّقت بثمنه، فقالت: جزاك الله خيراً^(٣).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٥٧/٢١؛ تاريخ الإسلام، ص ٤٥١، وفيات (٥٩١ - ٦٠٠هـ).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٢١٤/٨.



إن عدم اعتراض هذه الزوجة الصالحة، ورضاها على إنفاق زوجها، دليل واضح على اقتدائها به في ذلك الإنفاق السخي، وسيرها على نهجه القويم ابتغاءً لثواب الله وطلباً لمرضاته، وفي ذلك برهان بيّن على أهمية هذا الأسلوب وقوة تأثيره في مجال الدعوة.

ومنهم أيضاً يوسف بن رافع بن عناب، فقد روي أن الملك الظاهر أقطعته إقطاعاً يحصل منه جملة كثيرة، فتجمّع منه مال كثير، فعمرّ منه مدرسة سنة (٦١٠هـ)، ثم عمرّ في جوارها دار حديث^(١).

ومن العلماء الزاهدين المكثرين من الإنفاق في سبيل الله أبو عمر المقدسيّ، فقد روي أنه كان يلبس في الشتاء جبّة من غير أن يلبس ما يسمّى بالتحطاني؛ وذلك لأنه يكون قد تصدّق به^(٢). وهو بصدقته هذه يؤثّر غيره على نفسه، متحمّلاً شدة البرد، وخشونة اللبس طلباً لرضا الله، ورحمة بالعباد الفقراء.

٥ - الوقف:

ومن أوجه الإنفاق التي اشتهر بها الأيوبيون واعتنوا بها: الوقف، فقد شملت أوقاف المسلمين في العهد الأيوبي جوانب كثيرة من مرافق الحياة المختلفة، فكان للوقف عندهم منافع لا تحصى، وما تركوا حاجة من حاجات الأمة إلا وحبسوا لها أموالاً.

وقبل الحديث عن اهتمام الأيوبيين بالوقف أوّد الحديث عن تعريفه، وأدلته الشرعية، ومكانته في الإسلام.

(١) تاريخ الإسلام، ص ١٣٥، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ).

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٢٦٦، وفيات (٦٠١ - ٦١٠ هـ).

أ - تعريف الوقف لغةً واصطلاحاً:

لغة: ووقفُ الشيء أوقفه وقفاً، ووقفْتُ الدَّارَ: حبَّسْتُها، ووقف الدار على المساكين وللمساكين إذا حبَّسها.

ولا يُقال: أوقف الدار، وهي لغة رديئة، وجمع الوقف أوقاف^(١).

اصطلاحاً: حبس العين عن التملك مع التصدق بمنفعتها، فتكون العين زائلة إلى ملك الله تعالى^(٢).

ب - مكانته في الإسلام:

إن الدعوة إلى الله تعالى يجب أن تكون شاملة لكل جوانب الحياة، راعية لمصالح المجتمع كافة، فهي تخدم الجوانب الثقافية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية... وغيرها من مجالات الحياة المختلفة.

ومن أهم ما يخدم الأمة الإسلامية من الناحية الاقتصادية نظام الوقف؛ فهو يوفّر لها موارد مالية تمكّنها من الوفاء بنفقات الكثير من المشروعات الدعوية والمؤسسات الخيرية، بالإضافة إلى الثواب الجزيل الذي يلحق الواقف في حياته وبعد مماته.

ولقد حثّ الشارع الحكيم على استخدام نظام الوقف، وهو بابٌ من أوسع أبواب الإنفاق، قال تعالى: ﴿لَنْ نَأْتِيَ بِالنَّفَقَاتِ لِيَتَكْفَرُوا وَمَا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) لسان العرب، مادة (وقف): ٣٥٨/٩؛ المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، ص ٣٤٤؛ تاج العروس، الزبيدي، تحقيق: عمر التدمري: ٥٢٨/١٢.

(٢) التعريفات، ص ٣٢٨؛ كشاف اصطلاحات الفنون، محمد التهانوي، تحقيق: علي دحروج:

قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

قال النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شرح هذا الحديث: « وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه »^(٢).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « من احتسب فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريته وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة »^(٣).

وقد أوقف كثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد وفاته أيضاً، فقد روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضاً بِخَيْبَرَ، فَاتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْمُرُهُ فِيهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضاً بِخَيْبَرَ لَمْ أَصِبْ مَالاً قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا». قَالَ: فَتَصَدَّقَ بِهَا عَمْرٌ أَنَّهُ لَا يُبَاعُ وَلَا يُوْهَبُ وَلَا يُورَثُ، وَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الْفُقَرَاءِ وَفِي الْقُرْبَى وَفِي الرِّقَابِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالضَّيْفِ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيَّ مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَيُطْعِمَ غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ)^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ينبغي لمن أراد أن يوقف أن ينظر إلى ما هو أقرب إلى رضا الله ومحبته وأنفع لعباده، وأن يتحرى ما نتائجه أكثر، وعوائده أعم وأنفع)^(٥).

(١) رواه مسلم في كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته: ٧١/١١، برقم (٤١٧٧).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٨٥/١١.

(٣) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من احتسب فرساً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾: ١٠٤٨/٣، برقم (٢٦٩٨).

(٤) رواه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الوقف: ٩٨٢/٢، برقم (٢٥٨٦).

(٥) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ٣١ / ٣٨٧.

ولقد استخدم الدعاة الأيوبيون نظام الوقف على نحو واسع، فأوقف الملوك والعلماء، ولكنه كان في الملوك أكثر؛ لتوفر المال عندهم أكثر من غيرهم. ولقد أشار ابن جبير إلى الموارد التي عيّنتها الدولة في عهد الدولة الأيوبية للإنفاق على المشروعات الخيرية والمؤسسات التعليمية، وعبر عن كثرتها وسعة انتشارها، فقال: (ولكلّ مشهد من هذه المشاهد أوقاف معيّنة من بساتين، وأرض بيضاء، ورباع، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها، وكلّ مسجد يُستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يُعيّن لها السلطان الأيوبي أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها)^(١).

والمقصود بالخانقاه وقف على الصوفية، وقد انتشرت في عهد الدولة الأيوبية^(٢).

ج - أوقاف الملوك:

- أوقاف صلاح الدين: لما ملك صلاح الدين لم يكن بمصر شيء من المدارس، فعمّر منها الكثير، ورتّب لها الأوقاف^(٣)، كما أمر باتخاذ دارٍ في القصر بيمارستاناً للمرضى، ووقف عليه وقوفاً كثيرة^(٤).

وقد وقف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ناحية (نقادة) من أعمال قوص بناحية الصعيد الأعلى، وثلاث ناحية سنديس من القيلوبية على أربعة وعشرين خادماً للخدمة في المسجد النبوي الشريف^(٥).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٨٨ - ٢٨٩، نقلاً عن رحلة ابن جبير، ص ٢٤٨.

(٢) حسن المحاضرة، ص ٢٦٠.

(٣) وفيات الأعيان: ٧ / ٢٠٧.

(٤) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨؛ البداية والنهاية:

٥١٩ / ١٦.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٥٧.

ومن أوقافه أيضاً قرية حزم باللوى من حوران، وقفها على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، وعلى من يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضوع من أصحاب الإمام الشافعي، وجعل النظر لقطب الدين النيسابوري رحمته الله. يقول أبو شامة: (ورأيت كتاب الوقف على هذه الصورة، وعليه علامة السلطان رحمته الله: الحمد لله، وبه توفيقي)^(١).

ولما وصل السلطان إلى عكا قام ببعض الترتيبات الجديدة، فوقف نصف دار الإستبارية على الفقهاء، والنصف الثاني على الصوفية، ووقف دار الأسقف بيمارستاناً، وسلّم الأوقاف جميعاً إلى أحد القضاة ليكون الناظر فيها^(٢).

ولما فتح بيت المقدس قام أثناء إقامته بوقف عدد من الأوقاف: فوقف بعض عمائر حي البطريك على وجوه الخير والمصالح العامة، كما أوقف بعد استشارة العلماء والفقهاء قصر بطريك الصليبيين القريب من الكنيسة رباطاً للصوفية، ووقف عليه وقفاً كبيراً للقيام بمصالحه الكثيرة، كما حوّل كنيسة في مجمع الإستبارية الكبير إلى بيمارستان، وجّهزه بكل ما يحتاج إليه، ووقف عليه أوقافاً تفي بمصاريفه، وأحضر إليه الأدوية والعقاقير النادرة من مختلف حواضر بلاده^(٣).

وقد عبّر المؤرخ ابن خلكان عن إعجابه بسخاء صلاح الدين في أوقافه فيقول عنه: (ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل، وقلت: إنه سعيد

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٤٣٠.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٥١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٤٠.

في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر، وهذه صدقة السرّ على الحقيقة^(١).

– ومن الملوك الذين وقفوا الملك الكامل، فقد روي أنه وقف الوقوف على أنواع البرّ، وأنفق الأموال^(٢).

– ومنهم الملك المنصور صاحب حماة، فقد روي أنه ورد إلى بابه سيف الدين أبو الحسن علي الأمدي، فبنى له المنصور مدرسة، وأجرى له الأوقاف، وواظب على حضور مجلسه^(٣).

– أما الأمير عز الدين عثمان بن علي الزنجيلي، فقد روي أن له أوقافاً كثيرة وصدقات بمكة واليمن ودمشق، وإليه تُنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق^(٤).

د - أوقاف النساء:

من النساء اللاتي حرصن على الوقف ست الشام خاتون، فقد أوقفت مدارس، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة، ولها برّ وصدقات^(٥).

ومنهن ربيعة خاتون، فقد وقفت مدرسة للحنابلة، وجعلت عليها الأوقاف، ولها تأليف ومجموعات^(٦).

(١) وفيات الأعيان: ٢٠٧/٧؛ صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٦٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٢٧ / ٢٢.

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٧٨ / ٤.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٩٧ / ٣.

(٥) تاريخ الإسلام، ص ٢٩٠، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٧٨.

(٦) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٣٠.

ومن النساء الفاضلات اللاتي اشتهرن بالوقف، الست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين نائب دمشق، زوجة صلاح الدين، كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة، وهي واقفة المدرسة الخاتونية الجوانية، وخانقاه خاتون، ولها أوقاف كثيرة غير ذلك، ولها صدقات كثيرة وبزّ عظيم^(١).

هـ - أوقاف العلماء:

من أشهر العلماء الذين اهتموا بالوقف القاضي الفاضل، فقد روي أنّ أوقافه كانت على سبيل الخيرات متجاوزة عن الحساب، ولا سيما أوقافه في فكّك أسارى المسلمين من أيدي النصارى، فقد كانت له أرض واسعة في مصر يؤجّرها بمبالغ كثيرة، فلما بدأت حركة الجهاد ضد الصليبيين، أوقف هذه الأراضي على تخلص أسرى المسلمين. وقد أعان طلبة العلم الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة، والأيتام بالكتّاب، والخيرات الدّارة على الأيام^(٢).

رابعاً: القدوة في الجرأة على قول الحق والرجوع إليه:

لا بد للداعية الحق أن يكون جريئاً في قول الحق، مقداماً لا يخاف في الله لومة لائم؛ ولا يهاب العودة إلى الحق إذا تبين له أنه كان على خلافه؛ وذلك ليكون من القوم الذين يحبهم الله تعالى، والذين مدحهم جل وعز في قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٠٧.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٧٣؛ البداية والنهاية: ١٦ / ٦٩٩.

فالداعية يُطبَّق شرع الله قولاً وعملاً، وإن سخط الناس جميعاً عليه، ولا يهاب أحداً ما دام موقناً أنه على الطريق المستقيم الحق، وأعماله موزونة بميزان الكتاب والسنة، رائده في ذلك حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في قوله: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من أَرْضَى الله بسخط الناس كَفَاه الله الناس، وَمَنْ أَسْخَطَ الله برضا الناس وَكَلَّه الله إلى الناس»^(٢).

والداعية في كلِّ هذا مقتدٍ برسول الله ﷺ وبالسلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا دائماً يتحرَّون الحق حتى في السنن المستحبة والمندوبات، ويقفون في وجه مَنْ خالف الحق مهما كان مركزه وسلطانه، ويعودون إلى الصواب إذا تُبْهوا أنهم كانوا على خلافه، وشعارهم في ذلك: إني لا أخاف في الله لومة لائم.

فليس المطلوب من العبد ألا يقع في الخطأ، فهو بشر والخطأ والنسيان من طبائعه، لكن المطلوب أن يكون سريعاً في العودة إلى الحق والتوبة إلى الله تعالى، ليكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَمْ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والمتمأتمل في سيرة الرسول ﷺ وسير السلف الصالحين ﷺ لن يجدهم متميزين بالعصمة، لكنه سيجدهم ممن قلَّت أخطاؤهم، وسارعوا إلى التوبة والرجوع إلى الحق، ليكونوا ممن قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا فَعَلُوا مِنْ شَيْءٍ كَانَ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرًا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٢٧/١٧، برقم (١١١٤٣)؛ صحيح الجامع الصغير، الألباني: ٢٤٨/١، برقم (١١٠٠).

(٢) رواه الترمذي: ٦٠٩/٤، برقم (٢٤١٤)؛ صححه الألباني في الجامع الصغير: ١٠٥٢/٢، برقم (٦٠٩٧).



وممن ضرب أروع الأمثلة في الرجوع إلى الحق الرسول ﷺ فكان خير قدوة لأمته على مرّ التاريخ؛ ومن الأمثلة على رجوعه إلى الحق ما روي عن أنسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ» قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصًا. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(١).

ومثال آخر بليغ يضربه لنا رسول الله ﷺ في الرجوع إلى الحق عندما يُنْبِئُهُ إليه، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشِيِّ، فَصَلَّى بِنَا رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، فَقَامَ إِلَى خَشَبَةٍ مَعْرُوضَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَاتَّكَأَ عَلَيْهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانٌ، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَوَضَعَ خَدَّهُ الْأَيْمَنَ عَلَى ظَهْرِ كَفِّهِ الْيُسْرَى، وَخَرَجَتِ السَّرْعَانُ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالُوا: قَصُرَتِ الصَّلَاةُ. وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ، فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ فِي يَدَيْهِ طَوْلٌ يُقَالُ لَهُ: ذُو الْيَدَيْنِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْسَيْتَ أَمْ قَصُرَتِ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: «لَمْ أَنْسَ، وَلَمْ تُقْصِرْ». قَالَ: «أَكَمَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟» فَقَالُوا: نَعَمْ. فَتَقَدَّمَ، فَصَلَّى مَا تَرَكَ ثُمَّ سَلَّمَ ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ، ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ، ثُمَّ سَلَّمَ)^(٢).

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ضرب لنا مثلاً رفيعاً في سرعة الفيئة حين علم أن مسطح بن أثاثة - الذي يأكل من نفقة أبي بكر - كان قد شارك في اتهام ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها بحديث الإفك، فأقسم أبو بكر ألا ينفق عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأي: ١٥/١٠٠، برقم (٦٠٨١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره: ١٨٢/١، برقم (٤٧٦).

وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ [النور: ٢٢]، فما أن سمع أبو بكر خاتمة الآية حتى صاح: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)، وتغلب على عواطفه التي تدعوه للثأر لعرض ابنته البريئة، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: (والله لا أنزعها منه أبداً)^(١).

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أكمل الصحابة معرفة، وأرفعهم مكانة، يتبين له الصواب فيرجع إليه، ولعل في ذلك دليلاً واضحاً لئلا يستكبر مسلم بعده عن الرجوع إلى الحق متى ظهر له.

ويضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لؤلؤاته على الأمصار قاعدة عظيمة في القضاء الإسلامي وهي قاعدة: (الرجوع إلى الحق)، وذلك في الكتاب البليغ الذي أرسله إلى أبي موسى الأشعري لما ولاه الكوفة، وقد جاء فيه: (ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل)^(٢).

ولقد برز في عهد الدولة الأيوبية عدد من الدعاة الأقوياء الذين كانوا يقفون في وجه السلطان المخطئ، قائلين كلمتهم دون هيبة أو وجل أو خوف من عاقبة جرأتهم، فهم أحدهم قول الحق ودعوة المخالف إلى الرجوع إليه.

١ - جرأة الملك الكامل:

حكى لنا التاريخ عن الملك الكامل رضي الله عنه أنه كان شديد البأس، قوي النفس، لم ينقهر للتتار بحيث إنهم أخذوا أولاده من حصنهم، وأتوه

(١) رواه مسلم في كتاب: المغازي، باب: حديث الإفك: ١٥١٧/٤، برقم (٤٠٥٢).

(٢) مقدمة ابن خلدون، الكتاب الأول، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: ٢٢٢/١.

بهم إلى تحت سور ميّافارقين، وكلموه أن يسلم البلد بالأمان، فقال: ما لكم عندي إلا السيف. ولما دخل التتار دار الكامل وأمّنوه، وأتوا به إلى هولاء بالرها، فإذا هو يشرب الخمر، فناول الكامل كأساً فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامرأته: ناويله أنت، فناولته فأبى، وشتم وبصق - فيما قيل - في وجه هولاء، فاستشاط هولاء غضباً وقتله، فصار اسمه بعد ذلك: الشهيد^(١).

٢ - جرأة العلماء:

كثرت الشواهد التاريخية على جرأة العلماء في قول الحق، وبرز عدد من العلماء الذين وقفوا في وجه السلاطين، ودعواهم إلى الرجوع إلى شرع الله القويم، ومن هؤلاء العلماء الأفاضل:

أ - الحافظ عبد الغني المقدسي:

فقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يرى منكراً إلا غيّر بيده أو بلسانه، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولقد شُهد مرة يريق خمراً، فجبذ صاحبه السيف، فلم يخف وأخذه من يده. قال الموفق عنه: (كان لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه، وكنا مرة أنكرنا على قوم، وأرقنا خمرهم وتضاربنا، فسمع خالي أبو عمر فضاق صدره وخاصمنا، فلما جئنا إلى الحافظ طيّب قلوبنا وصوّب فعلنا وتلا قوله تعالى: ﴿يَبْتِئُ أَقْمِرَ الضُّكُوءِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧])^(٢).

وروي أن بعض أولاد صلاح الدين عملت له طنابير، وكانوا في بستان يشربون، فلقي الحافظ الطنابير فكسرهما^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٠٢.

(٢) تاريخ الإسلام: ٤٤٩، وفيات (٦٠٠ - ٦١٠ هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٥٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٥٤.

ولقد دخل يوماً على العادل فقال: ما خفت من أحد ما خفت من هذا الرجل، فقيل له: أيها الملك هذا رجل فقيه، فقال: لما دخل ما خيل إلي إلا أنه سبع^(١). وكان في دولة الأفضل ملاًه جعلوها عند الدرج، فجاء الحافظ فكسر شيئاً كثيراً، ثم صعد يقرأ الحديث، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه لينظره في الدف والشبابة فقال: ذاك عندي حرام ولا أمشي إليه، ثم قرأ الحديث^(٢). وقام الحافظ عبد الغني بنشر أحاديث النزول والصفات، فقاموا عليه ورموه بالتجسيم، فما دارى^(٣).

ولقد رُوي أنه أمر أن يكتب اعتقاده، فكتب: أقول كذا لقول الله كذا، وأقول كذا لقول النبي ﷺ كذا، حتى فرغ من المسائل التي يُخالفون فيها، فلما رآها الكامل قال: أيش أقول في هذا؟! يقول بقول الله ورسوله ﷺ^(٤). إن ثبات الحافظ عبد الغني على موقفه الشرعي الصحيح، والتمسك بالمبادئ الإسلامية، يعطي للداعية أنموذجاً تطبيقياً قوياً في الجرأة على قول الحق، وهو جدير بحق أن يُقتدى به في هذا المجال.

ب - الحافظ اليونيني:

وبمزيد من النظر في كتب التاريخ أجد مواقف لدعاة آخرين لا تقل روعة عن مواقف الحافظ عبد الغني من حيث قوة الشخصية، والجرأة في قول الحق والمجاهرة به، ومن هؤلاء الحافظ عبد الله بن عثمان اليونيني، فقد كان أمّاراً بالمعروف، نهياً عن المنكر، لا يهاب أحداً، شجاعاً مجدداً مهيباً، لا تأخذه في الله لومة لائم.

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٥٤.

(٢) المصدر السابق: ٢١ / ٤٥٦.

(٣) المصدر السابق: ٢١ / ٤٥٥.

(٤) المصدر السابق: ٢١ / ٤٦٣.

وقد حكى أن العادل أتى والشيخ يتوضأ، فجعل تحت سجادته دنائير، فردّها وقال: كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق؟! فأبطل العادل ذلك^(١).

وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له: (فعلت كذا وكذا)، ويأمره بما يأمره، وينهاه عما ينهاه^(٢).

ج - الإمام النووي:

وهو من الدعاة البارزين في قول الحق، وقد عاصر ملوك أواخر الدولة الأيوبية، وكان مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار^(٣).

وعندما أراد الملك الظاهر فرض الضرائب أرسل إليه: (إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار، وتجب الشفقة على الرعية، والدين النصيحة)، فردّ الظاهر ردّاً عنيفاً، وردّ النووي ردّاً أعنف، حتى كان الظاهر يقول: (أنا أفزع منه)^(٤).

د - الحافظ ابن عساكر:

وعلى نهج هؤلاء الأفاضل كان العالم الحافظ ابن عساكر، فقد كان قد عاهد نفسه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم^(٥)، وقد روي أن الملك المعظم لما أعاد الخمور أنكر عليه ﷺ، كما أنكر تضمين الخمر والمكس، فأخذ منه تدريس المدرسة التقوية، وصلاحية القدس، ولم يؤلّه تدريس العادلية^(٦).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٠١؛ تاريخ الإسلام، ص ٣٣٨، وفيات (٦١١ - ٦٢٠هـ).

(٢) البداية والنهاية: ١٧ / ١٠٣.

(٣) الإمام النووي، ص ١٢٣.

(٤) العز بن عبد السلام، ص ٣٤.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٥٥٦.

(٦) المصدر السابق: ٢ / ١٨٨؛ البداية والنهاية: ١٧ / ١٢٢.

هـ - ابن الحرستاني:

وله مواقف مشهورة في الجرأة والإصرار على تطبيق الحق وعدم المحاباة، فقد روي أنه أتى يوماً بكتاب من العادل، فرمى به وقال: (كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب)، فبلغ العادل قوله فقال: (صدّق، كتاب الله أولى من كتابي)، وكان يقول للعادل: (أنا ما أحكم إلا بالشرع، وإلا ما سألتك القضاء، فإن شئت فأبصر غيري). وقد قيل له مرة: السلطان يسلم عليك ويوصي بفلان فإن له محاكمة، فغضب وقال: الشرع ما يكون فيه وصية^(١).

و - الإمام العز بن عبد السلام:

ولقد برز في العصر الأيوبي عالم جليل اشتهر بالجرأة والشدة، ورويت عنه مواقف كثيرة في ذلك، وهذا يعطي الداعية درساً في إمكان تطبيق تلك الجرأة في مواضعها، ويدفعه إلى الاقتداء بمثل هذا العالم الجريء، هذا العالم هو سلطان العلماء العز بن عبد السلام.

قال عنه الكتبي: (كان أثاراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم)^(٢).

ولأحكام الشرع عند العز مكانة عظيمة، فهو لا يرضى بانتهاكها أبداً حتى ولو كان السلطان نفسه، وهو لا يهاب حاكماً ولا غيره إن انتهكت محارم الدين.

وكان ﷺ متعالياً على الحكام لا بالتكبر عليهم أو البعد عنهم، وإنما برفع راية العلم فوق رؤوسهم، وهو قد يضحي بنفسه ومنصبه في سبيل ذلك^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٨٠ - ٨٢.

(٢) فوات الوفيات، محمد بن شاعر الكتبي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس: ١ / ٥٩٥.

(٣) العز بن عبد السلام، ص ٤٤.



وجرأة عز الدين هذه لم تكن على ضعاف النفوس أو على شرع الله كما كان يحصل من أنصاف العلماء، وإنما كانت في مواطنها المطلوبة، ولقد كان يستمدُّ جرأته من ثقته بالله وإعلانه لشرعه، دون أن يكون له مطمع شخصيٍّ أو خوف على نفسه^(١).

وقد سأله الكامل يوماً عمّا يصدر من أخيه الملك إسماعيل من هوية رمي البندق، وهل يجوز ذلك؟ فلم يتهيب العز من بيان الحق وقال: (بل يحرم عليه ذلك، فإن رسول الله ﷺ نهى عنه)^(٢).

وللعز بن عبد السلام مواقف مشهورة مع عدد من الملوك الأيوبيين، من ذلك:

- موقفه مع الأشرف:

فقد روي أنه اختلف مع الأشرف الذي قال فيه كلاماً شديداً. فناصر العز بن عبد السلام أبو عمرو بن الحاجب وجمال الدين الحصري، وأنكرا على الملك الأشرف، فتراجع الملك وقال: (نحن نستغفر الله مما جرى، والله لأجعلنّه أغنى العلماء)^(٣).

ثم إنه طلب الاجتماع بالعز بن عبد السلام، فعنّف العز الملك قائلاً له: (تساوي بين أهل الحق والباطل، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يكتموا ما أنزل الله إليهم؟ وكان الطريق أن تمكّن أهل السُّنّة من أن يلحنوا بحججهم وأن يُظهروا دين الله، وأن تُمكن الموحّدين من إرشاد المسلمين وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين)^(٤).

(١) العز بن عبد السلام، ص ١١٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٢٤١/٨.

(٣) المصدر السابق: ٢١٨/٨.

(٤) المصدر السابق: ٢٣٧ / ٨.

- موقفه مع الملك الصالح إسماعيل:

ومن الملوك الذين كان للعز بن عبد السلام موقف معهم: الملك الصالح إسماعيل في دمشق، فقد رُوي أن الملك الصالح إسماعيل الأيوبي لما حكم دمشق ولّى العز بن عبد السلام خطابة الجامع الأموي الكبير بدمشق، وبعد مدة قام الملك الصالح إسماعيل بقتال ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر لانتزاع السلطة من يده، فوالى الصليبيين وأعطاهم حصن الصنفد والشقيف، وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح والطعام، فمقتته المسلمون، وغضب العز، وصعد المنبر، وخطب في الناس خطبة عصماء، وأفتى بحُرمة بيع السلاح للفرنجة، وحُرمة الصلح معهم؛ لأنهم أعداء للإسلام والمسلمين، وفي بيع السلاح لهم إضعاف لقوة المسلمين، وزيادة في تفوق الأعداء عليهم، وقال في آخر خطبته: (اللهم أبرم أمر رشد لهذه الأمة يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر) ثم نزل.

كما أنكر عليه أبو عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، فلما علم الملك الصالح إسماعيل بذلك، غضب عليهما غضباً شديداً وسجنهما، وأمر بإبعاد العز عن الخطابة، ثم أخرجهما من السجن، وألزمهما منازلهما، فخرج الشيخان من دمشق، فقصد أبو عمرو الناصر داود في الكرك، ودخل عز الدين الديار المصرية، فتلقاها صاحبها الصالح أيوب بالاحترام والإكرام، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر^(١).

(١) البداية والنهاية: ١٧ / ٢٥١؛ ذيل الروضتين، ص ١٧٠ - ١٧١؛ المنهل الصافي: ٢٨٦ / ١؛ العبر في خبر من غبر: ٣ / ٢٣٢؛ تاريخ الإسلام، ص ٤٠، وفيات (٦٣١ - ٦٤٠هـ)؛ طبقات الشافعية الكبرى: ٢٤٢ / ٨ - ٢٤٣.

- مواقف مع الملك الصالح نجم الدين بن أيوب في مصر:

انتقل العز بعدها إلى مصر، فوصلها سنة (٦٣٩ هـ)، فرحب به الملك الصالح نجم الدين، وولاه الخطابة والقضاء، وكان أول ما لاحظته بعد توليه القضاء قيام الأمراء المماليك المملوكين للدولة الإسلامية بالبيع والشراء وقبض الأثمان، وهو ما يتعارض مع الشرع، إذ إنهم في الأصل مملوكون، لا يحق لهم البيع والشراء والزواج من حرائر نساء مصر، فكان لا يُمضي لهم بيعاً ولا شراءً، حتى تكالبوا عليه، وشكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه فتوى الشيخ العز، فذهب إلى الشيخ يسأله أن يعدل عن فتواه، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا للسلطان، فإن تدخل فالشيخ يقبل نفسه.

فاجتمع أمراء الدولة من الأتراك وأرسلوا إليه، فقال الشيخ: (نعقد لكم مجلساً وننادي عليكم (بالبيع) لبيت مال المسلمين). فاستشاط نائب السلطنة غضباً، وكان من المماليك، وأقسم ليقتلنَّ الشيخ بسيفه، وذهب إلى الشيخ عز الدين مع جماعة من الأمراء وطرق بابيه، ففتح الباب ابنه عبد اللطيف، فراعته منظر نائب السلطنة إذ رأى سيفه مسلولاً، والغضب يعلو وجهه، فدخل على والده وقال: انجُ بنفسك إنه القتل، فردَّ عليه الشيخ بقوله: (أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله) ثم خرج، وحين وقع بصره على النائب سقط السيف من يد النائب وارتعد، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي ماذا ستفعل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

إلا أن السلطان لم يدعن لحكم الشيخ، فأرسل إليه من يتلطف إليه، وبعد إصرار الشيخ أخبره الرسول أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء، وأمر السلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين، وعلى أية حال فليس للشيخ أن يتدخل في أمور الدولة، فشؤون الأمراء لا تتعلق به، بل بالسلطان وحده.

فأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء، وقام فجمع أمتعته، ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى، وساق الحمير ماشياً. ولما سئل: إلى أين يا شيخ؟ قال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! ففيم المقام بأرض يُستضعف فيها أهل الشريعة ويُعتدَى فيها على القضاء؟!.

فتجمّع الناس وراءه، وتبعه العلماء والصالحون والتجار والنساء والصبيان، حتى كادت مصر تخلو من سكانها، فخرج الملك الصالح مسرعاً، ولحق بالعز وأدركه في الطريق وترضاه، وطلب منه أن يعود وينفّذ حكم الله، فتم له ذلك، واشتهر العز بعدها بأنه بائع الملوك^(١).

ولما أراد الظاهر بيبرس أن يستلم السلطة، استدعى العلماء لمبايعته، وكان بينهم العز الذي فاجأ بيبرس بقوله: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار - أي لا تصح بيعته -!.. فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن أحضر ما يثبت أن البندقدار قد وهبه للملك الصالح أيوب الذي أعتقه، وهنا تقدّم الشيخ فبايع بيبرس على الملك، وكان هذا الملك من أعظم الملوك الذين حاربوا الصليبيين والتتار^(٢).

ولقد كان للعز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مواقف جريئة مع الملك الصالح نجم الدين بن أيوب، واجهه فيها بأخطائه، وأمره بالرجوع عنها والتوبة إلى الله تعالى.

من ذلك ما روي أن الشيخ عز الدين طلع ذات مرة إلى السلطان في يوم عيدٍ إلى القلعة، فشهد الأمراء والخدم والحشم يقبلون الأرض أمام السلطان، وشاهد الجند صفوفاً أمامه، ورأى الأُبّهة والعظمة تُحيطان به من كل جانب، فتقدم الشيخ إلى السلطان، وناداه باسمه مجرداً قائلاً:

(١) حسن المحاضرة، ص ٣٤؛ طبقات الشافعية الكبرى: ٢١٧/٨.

(٢) العز بن عبد السلام، ص ١١٤.

يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبؤى لك مصر، ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان نجم الدين أيوب: هل جرى هذا؟ قال الشيخ: نعم تباع الخمور في الحانات وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة.. وأخذ الشيخ يناديه بأعلى صوته، والعساكر واقفون، فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عمَلتَه، هذا من زمان أبي، فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، فأصدر السلطان أوامره بإغلاق تلك الحانات، ومنع تلك المفاسد.

وشاع الخبر بين جمهور المسلمين وأهل القاهرة، فسأل أحد تلاميذ الشيخ عن السبب الذي جعله ينصح السلطان أمام خدمه وعساكره في مثل هذا اليوم الكريم؟ فقال الشيخ: يا بني، رأيتُ السلطان في تلك العظمة، فأردتُ أن أذكره؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه، قال التلميذ: أما خِفْتُهُ؟ قال عز الدين: والله يا بني استحضرْتُ هيبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَصَارَ قَدَامِي كَالْقَطِّ^(١).

ومن مواقفه أيضاً أن بعض تلامذته أتوه في يوم من الأيام، فقالوا: إن أستاذ الدار عند السلطان بنى فوق مسجد بالقاهرة طبلخانة - أي مكان مخصص للغناء والرقص والموسيقى والفساد - فلما تأكد العز بن عبد السلام من صحة هذا الخبر أصدر أمره، وهو رئيس القضاة، بهدمها بنفسه مع أولاده وبعض تلامذته، وذهب إلى المكان الذي يسمونه الطبلخانة، وقام وأخذ الفأس، وبدأ في هدم هذا المكان حتى سَوَّوه بالأرض، ثم عزل نفسه عن القضاء، فأدرك السلطان نجم الدين أهمية الشيخ فاسترضاه^(٢).

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ١١/٨.

(٢) المصدر السابق: ٨ / ٢١١؛ العز بن عبد السلام، ص ٧٨.



- ز - نماذج متنوعة من الدعاة المتصفين بالجرأة على قول الحق:
- محمد بن الموفق الخبوشاني: كان يقول بملء فيه: (أصعد إلى مصر لأزيل ملك بني عبيد اليهودي)، وجعل تسبيحه سببهم، ورفض المال الذي أرسلوه إليه، ورمى الدنانير، وضرب رسولهم على رأسه. وبعد موت الخليفة العاضد أمر الخطيب أن يخطب للخليفة العباسي^(١).
 - عبد الله الأذرعوي: أغلظ للسلطان في خطابه، إذ قال بدار العدل: (اليد لأرباب الأملاك، ولا يحل لأحد أن ينازعهم في أملاكهم، ومن استحل ما حرم الله فقد كفر)، فغضب السلطان غضباً شديداً وتغيّر لونه، وقال: أنا أكفر؟! انظروا لكم سلطاناً غيري، وانفضّ المجلس على وحشة من السلطان. فلما كان الليل أرسل السلطان في طلب القاضي، فلما دخل عليه قام له، وعظّمه، وخلع عليه، ونزل مجبوراً معظماً^(٢).
 - محمود بن همّام الدمشقي: ما كان يُدهن أحداً في الحق، ويكلم من حضره بالحق سواء كان أميراً أو قاضياً أو فقيهاً، ولأهل السنة كان ناصرًا^(٣).
 - قاضي الإسكندرية وخطيبها المفتي جمال الدين الريغي: كان تقياً ورعاً، لا تأخذه في الله لومة لائم^(٤).
 - شهاب الدين الطوسي: أكبر أئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، وكم واجه الملوك بالحق المرّ، وأنكر عليهم ما ينكرونه من العرف، ويعرفونه من المنكر^(٥).

(١) تاريخ الإسلام، ص ٢٨٠، وفيات (٥٨١ - ٥٩٠هـ).

(٢) المدارس في تاريخ المدارس: ٤٤٣/١.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٨٥، وفيات سنة (٦٣١ - ٦٤٠هـ).

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٧٣/٢٣.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٦٨/٤.

- الحافظ العماد: كان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يرى أحداً يسيء صلاته إلا قال له وعلمه، وقد خرج مرة إلى فسّاق فكسر ما معهم، فضربوه حتى غشي عليه، فأراد الوالي ضربهم، فقال: (إن تابوا ولزموا الصلاة فلا تؤذوهم، وهم في حلّ)^(١).
- أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي: كان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته ويكتب فيه إلى الملك، حتى سمعنا عن بعض الملوك أنه قال: هذا شريك في ملكي^(٢).
- عبد الرحمن المقدسي بهاء الدين: كان قوَّلاً بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم^(٣).
- سبط ابن الجوزي: كان عالماً مُتُكِّراً على أرباب الدولة، وتأتي الملوك وأرباب الدولة إليه زائرين وقاصدين^(٤).
- عماد الدين بن المشطوب الهكاري: كان أميراً كبيراً، وافر الحرمة عند الملوك، وكان شجاعاً تهابه الملوك^(٥).

٣ - رجوع الدعاة إلى الحق:

كان من أبرز مواقف الدعاة الأيوبيين الدالة على أهمية الرجوع إلى الحق وضرورة ذلك في مجال الدعوة موقف عظيم للعز يدل على جرأته العظيمة، ووقوفه إلى جانب الحق، وإن كان على حساب نفسه وسمعته، فقد روي أنه أعلن بكل جرأة عدوله عن فتوى أفتى بها، إذ ظهر له أنه

(١) تاريخ الإسلام، ص ١٨٦، وفيات (٦١١ - ٦٢٠هـ).

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/٢.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ١٩٣، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠هـ).

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ٤٧٧/١.

(٥) وفيات الأعيان: ١٨٠/١.

أخطأ في تلك الفتوى، فينادي ﷺ في القاهرة على نفسه: (مَنْ أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ)^(١).

ومثال بارز آخر على رجوع الداعية إلى الحق: ما صدر من الأشرف عندما ندم على ما بدر منه تجاه العز بن عبد السلام عندما أخطأ في حقه، واتهمه باتهامات باطلة، فصرّح بخجله من الشيخ وقال: (لقد غلطنا في حق العز غلطة عظيمة)، وصار يترضاه، ويعمل بفتاويه، ويطلب أن يقرأ عليه تصانيفه^(٢).

ومن هذه النماذج المضيئة يتضح لنا جلياً أهمية اتصاف الداعية بقوة الشخصية، والجرأة على قول الحق، ومواجهة المخطئ ببيان خطئه، ومحاولة رده عن ذلك الخطأ، والحرص على العودة إلى الحق إذا اتضح أنه كان على خلافه، مع تحفظ على شدة بعضهم في التعامل مع الخطأ.

خامساً: القدوة في الحرص على مصالح الناس:

ربى الإسلام أبنائه على استشعار أنهم أمة واحدة وجسد واحد، يهتم بعضهم بأمر بعض، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال جل وعز: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ولقد مدح الله الأنصار ﷺ لاهتمامهم بأمر المهاجرين ورعايتهم لمصالحهم، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢١٤.

(٢) المصدر السابق: ٨ / ٢٣٨.

ورسول الله ﷺ أكد هذا المعنى وشدد عليه حين قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ^(١).

وقال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٢).

كما قال أيضاً: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ - أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣).

لذا كان من الأمور الهامة التي ينبغي للداعية الاهتمام بها والحرص على متابعتها: مصالح الناس وشؤون حياتهم الضرورية، ولا سيما إذا كان لهذا الداعية مركز مهم في الدولة الإسلامية، فهو بذلك الاهتمام والمتابعة سيكسب قلوب الناس، وودّهم، ويكون خير قدوة عملية لهم في تقديم الخدمة لمن يحتاجها، والنصيحة لمن يجهلها، بل وينفع الداعية بها ذاته أيضاً، إذ إنها تنمي فيه خلق التواضع، وتعمق فيه معاني الخير، وتجعل المجتمع يرى فيه حرصاً عملياً على كل ما يعود عليهم بنفع، أو يدفع عنهم ضرراً.

والأصل في الداعية أنه يسعى بكل جهده لنفع الناس، ولكننا للأسف نفتقر إلى كثير من هذا في مجتمعنا الإسلامي المعاصر، فنرى كثيراً من جوانب الخير مخبوءة في نفوس أصحابها غير متعدية إلى الآخرين، وكم يكون محزناً حين تجد فقيهاً بصحبة جاهل، وقارئاً برفقة أمي، وعابداً بجوار فاسق، دون أن يتعدى نفع أي واحد منهم إلى صاحبه.

(١) رواه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: تَشْبِيكِ الْأَصَابِعِ فِي الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ: ١/١٢٨، برقم (٤٦٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم: ١١٩/١٦، برقم (٦٥٣٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يُحِبَّ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ: ١٥/٢، برقم (١٣٣).

ولقد اطلعتُ على عدد من الأمثلة الدالة على حرص دعاة الدولة الأيوبية - ملوكاً وعلماء - على الاهتمام بمصالح الناس ومتابعتها، وفيما يلي أمثلة لها:

من ذلك: ما روي عن الموفق عبد اللطيف أحد معاصري صلاح الدين: أنّ صلاح الدين كان يصرف أكثر الليل في تدبير ما يعملُه نهاراً^(١).

كما وصفه العماد بقوله: (وكان صلاح الدين يدأب في يومه لغده، مجتهداً في الزيادة على أمسه، نائباً عن أعوان المسلمين، ساهراً لهم في ليلهم، قائماً بأمرهم)^(٢).

ومنهم الملك العادل، فقد قال عنه ابن واصل: (رأيتُه بالقدس، الرجال والنساء يزاحمونَه فلا يرُدُّهم)^(٣).

كما روي أنه أحسن إلى الحُجَّاج، وعزم على تسهيل طريق الحجاج، وأن يبني في كلِّ منزلة مكاناً^(٤).

والملك الكامل محمد بن الغازي من المهتمين بأمر الرعية أيضاً، فقد روي أنه كان محسناً لهم^(٥).

ومثله شيركوه أمير حمص، فقد كان همّه في مصالح ملّكه^(٦).

ومنهم الملك الظاهر، فقد روي أنه كان محسناً للرعية، ويزور الصالحين ويتفقدهم^(٧).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٦.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٠٣.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٨٥.

(٤) المصدر السابق: ١ / ٥٨٣.

(٥) ذيل مرآة الزمان: ١ / ٤٣٠.

(٦) تاريخ الإسلام، ص ٣٢٨، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ).

(٧) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٨.



ومن النساء اللواتي اشتهرن بقضاء الحوائج ستّ الشام خاتون، فقد روي أن بابها كان ملجأ كل قاصدٍ في حاجة إلى الدولة^(١).

أما العلماء الأيوبيون المهتمون بأمور الرعية فمن أشهرهم:

– الحافظ محمد بن عبد الغني: فقد ذكر عنه أحد معاصريه: (أنه كان يسارع إلى الخيرات وإلى مصالح الجماعة، ولما عزمّت على التزويج قام في ذلك، وما أحوجني إلى تكلف شيء)^(٢).

– عيسى الهكاري الفقيه: اشتهر بقضاء الحوائج، فكان لا يدخل على صلاح الدين إلا ومعه أوراق في يده وفي عمامته، فيكتب له عليها^(٣).

– أبو عمر بن قدامة المقدسي الجماعلي: كان يتفقد الأشياء النافعة كالنهر والسقاية، وكان قاضياً لحوائج الناس، ومن سافر من الجماعة يتفقد أهاليهم، وكان الناس يأتونه في القضايا فيُصلح بينهم^(٤).

– أبو حامد محمد بن كمال الدين: كان يؤدي عن الغرماء^(٥).

وبهذا يتضح حرص أولئك الدعاة على مصالح الناس ومتابعتها، وما ذلك إلا لقناعتهم بأهمية هذا الأمر في الدعوة إلى الله تعالى، فاهتمام الداعية بمصالح المدعو يعكس اهتمامه بالمدعو ذاته، فيشعر المدعو بأهميته عند الداعية، فيسارع إلى الاستماع له، والاهتمام بتوجيهاته، والتي من خلالها يستطيع الداعية أن يصحح ما عنده من أخطاء، ويقوم مساره.

والدعاة الأيوبيون بذلك الحرص أثبتوا أهمية هذا الأسلوب القويم، فكانوا خير قدوة للدعاة المعاصرين لهم ومن تبعهم على مرّ العصور.

(١) تاريخ الإسلام، ص ٢٩٠، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ).

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٨، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ).

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٥، وفيات (٥٨١ - ٥٩٠ هـ).

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٥؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٦٦، وفيات (٦٠١ - ٦١٠ هـ).

(٥) سير أعلام النبلاء: ٦١ / ٢١.

المطلب الثاني أسلوب الموعظة الحسنة

أسلوب الموعظة الحسنة من الأساليب الهامة في مجال الدعوة، فهو أسلوب نبوي استخدمه الأنبياء والدعاة على مرّ الأزمان والعصور؛ نظراً لتأثيره القوي في النفوس.

واهتم الدعاة الأيوبيون بأسلوب الموعظة الحسنة، واستخدموه في دعوتهم، ولذلك شواهد كثيرة يمكن الرجوع إليها بالاطلاع على تاريخ هذه الدولة المباركة.

وفي هذا المبحث سأتحدث بإذن الله تعالى عن أسلوب الموعظة الحسنة من خلال النقاط التالية:

- ١ - تعريف الموعظة الحسنة.
- ٢ - أهمية أسلوب الموعظة الحسنة.
- ٣ - أشهر الوعاظ الأيوبيين.
- ٤ - نماذج من مواعظ الدعاة الأيوبيين.

أولاً: تعريف الموعظة الحسنة:

١ - الموعظة والعِظة والوعظ في اللغة: النصح والتذكير بالعواقب.

قال ابن سيده: (هو تذكيرك للإنسان بما يُليّن قلبه من ثواب وعقاب).

والهاء في «عِظة» عوض من الواو المحذوفة، وفي التنزيل: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].



ولم يجئ بعلامة التأنيث؛ لأنه غير حقيقي، أو لأن الموعدة بمعنى الوعد، كأنه قال: فمن جاءه وعظ من ربه.

وقد وَعَظَهُ يَعِظُهُ، وَاتَّعَظَ: قَبْلَ الموعظة حين يُذكَر الخبير^(١).

٢ - وأما الموعظة اصطلاحاً: فقد عرّفها الطبري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: (والموعظة الحسنة:

العبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله)^(٢).

وقيل: (هي ما يُعرف به سبب الانزجار عن المنهيات، وتطبيق

المأمورات، والغرض منه الحث على تكميل النفوس بالعلم والعمل)^(٣).

وقال الجرجاني: (الموعظة هي التي تليّن القلوب القاسية، وتدفع

العيون الجامدة، وتُصلح الأعمال الفاسدة)^(٤).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

أي: ذلك الذي تقدّم من الترغيب والترهيب والأحكام والحدود يوعظ

به أهل الإيمان بالله، والجزاء على الأعمال في الآخرة^(٥).

ثانياً: أهمية أسلوب الموعظة الحسنة:

لقد استخدم الأنبياء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هذا الأسلوب في دعوتهم لأقوامهم، فهذا

نوح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعظ قومه قائلاً: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ

وَأَطِيعُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢-٤].

(١) انظر: مادة (وعظ)، الصحاح: ٣ / ١١٨١؛ لسان العرب: ٤٤٦/٧.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٠٠ / ١٤.

(٣) مفتاح السعادة ومصباح السيادة، أحمد مصطفى طاش كبري زاده: ٥٥١ / ٢.

(٤) التعريفات، ص ٣٠٥.

(٥) انظر: فتح القدير: ٢٤٤ / ١؛ أصول التربية الإسلامية، عبد الرحمن النحلوي، ص ٢٥٢.

وهذا شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُوا
 أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا
 الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَاءَ هُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
 إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
 تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ
 كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ
 مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ
 خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٧].

وإبراهيم عليه السلام وعظ قومه أيضاً قائلاً لهم: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ
 صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ
 إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ
 إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
 لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي
 مَلِيًّا * قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٧].

وأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باستخدام الموعظة الحسنة في دعوته لقومه،
 فقال جل وعز: ﴿أُوَلِّيكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ
 وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ
 أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

كما مدح تعالى موعظته الحسنة وأسلوبه الرحيم في التعامل مع
 المدعوين، فقال جل وعز: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا
 لَلْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ
 عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].



ومما ذُكِرَ من مواعظ رسول الله ﷺ ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكِّئاً على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذَكَرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكرهن، فقال: «تصدَّقن، فإن أكثركنَّ حطب جهنم»، فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين، فقالت: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تُكثِرُنَّ الشُّكَاةَ، وتُكْفِرُنَّ العَشِيرَ^(١)». قال الراوي: فجعلن يتصدقن من حليهن، يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتمهن^(٢).

وكان رسول الله ﷺ حكيماً في مواعظته، فكان يحرص على اختيار الوقت المناسب لها، وذلك لئلا يُثقل على صحابته، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السَّامة علينا)^(٣).

ويمكن إجمال أهمية أسلوب الموعظة الحسنة في الآتي:

١ - الموعظة الحسنة أسلوب يتفق مع طبيعة الإنسان، لأن الداعية إذا رَغِب المدعو وشَوَّقَه إلى شيء ما، أَحَسَّ المدعو بأهمية ذلك الشيء، فاشتاق إليه وطَبَّقَه في حياته، وبالمقابل إن خَوْفَه من شيء ما ونَفَرَه منه، جعل قلبه يهابه ويكرهه، وبالتالي يبتعد عنه.

٢ - في النفس دوافع فطرية كامنة، تحتاج إلى توجيه وإرشاد، حتى تتحول تلك الدوافع إلى أخلاق طيبة، وأفعال نافعة.

(١) العشير: الزوج.

(٢) رواه مسلم في كتاب: صلاة العيدين، باب (لم يذكر اسماً للباب): ١٤٦/٦، برقم (١٩٩٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخوَّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا:

٣٨/١، برقم (٦٨).

٣ - الموعظة الحسنة تؤثر في القلب، فترققه وتلين قسوته، وتزهد من حب الدنيا، حتى يتأثر بالواعظ، ويخضع ويرجع لخالقه.

٤ - الموعظة الحسنة من أهم أساليب الدعوة المؤثرة في المدعو إيمانيّاً، وخلقياً، ونفسياً، واجتماعياً، وتوغيه بتعاليم الإسلام ومبادئه، وتدفعه إلى التطلّع لمعالي الأمور، وتحثه على التحليّ بمكارم الأخلاق.

وقد اقتدى الدعاة الأيوبيون برسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، فحرصوا على استخدام أسلوب الموعظة الحسنة في دعوتهم، وما ذاك إلا لاقتناعهم بأهمية هذا الأسلوب في تليين قلوب المدعويين، والتأثير فيهم بالكلمة الطيبة بما يخشع القلوب ويهدّب النفوس. وقد ظهر عدد من الوعاظ في الدولة الأيوبية الذين اشتهروا بحسن الأسلوب، وقوة التأثير في الوعظ، فأثروا - ولا يزالون - بمواعظهم تلك في الكثير من العامة والخاصة.

ثالثاً: من أشهر الوعاظ الأيوبيين:

- ١ - الواعظ ابن الجوزي: فقد روي أنه كان إذا وعظ اختلس القلوب، وشققت النفوس، دون الجيوب، وقد توفي رَحِمَهُ اللهُ عام (٥٩٧هـ)^(١).
- ٢ - ومنهم الواعظ الفقيه سبط ابن الجوزي: كان حسن الصورة، طيب الصوت، حسن الوعظ، كثير الفضائل والمصنّفات، وله كتاب «مرآة الزمان» في عشرين مجلداً، وهو من أحسن التواريخ. قدم من بغداد عام (٦٠٠هـ)، واتخذ من جامع دمشق مكاناً للوعظ، وحظي عند ملوك بني أيوب، وقدموه وأحسنوا إليه، وكان له

(١) تاريخ الإسلام، ص ٢٩٦، وفيات (٥٩١ - ٦٠٠هـ).

مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار، وكان الناس يتزاحمون على مجالسه للاستفادة منها، وكانوا يبيتون ليلة السبت بالجامع، ويتركون البساتين في الصيف حتى يسمعوا ميعاده، ثم يسرعون إلى بساتينهم، فيتذكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن^(١).

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ واعظ الزمان، وله قبولٌ عظيم، فكان يطلع على المنبر في بعض الأيام، ويحدِّق الناس إليه، وينتحب ويبيكي ويبيكي الناس معه، وكان يجلس الثلاثة الأشهر رجب وشعبان ورمضان في كل سبت، والناس يتأهبون لحضور مجلسه قبل السبت بثلاثة أيام^(٢).

٣ - ومن الوعاظ المفوّهين الذين عاصروا الدولة الأيوبية وخالطوها، الفقيه الواعظ المفسّر ابن نجا: فقد كان مليح الوعظ، لطيف الطبع، كثير المعاني، متديّناً، حميد السيرة^(٣).

ويذكر سبط ابن الجوزي أن ابن نجا نشط في الوعظ والتحدّث، وأن صلاح الدين وأولاده كانوا يحضرون مجلسه ويسمعون مواعظه، وكان له الجاه العظيم والحرمة الزائدة^(٤).

ولقد كان صلاح الدين يقدر ابن نجا، ويختاره للوعظ دائماً، ولما فتح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المسجد الأقصى، طلب من ابن نجا أن يعظ المسلمين بعد صلاة الجمعة الأولى، وجلس السلطان أمامه يستمع لوعظه، ويصف المؤرخ أبو شامة تلك الموعظة فيقول: (وكان صلاح الدين قد نصب للوعظ تجاه القبلة سريراً، فجلس عليه زين الدين

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ١/٤٧٨؛ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد: ١/١٣٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٨/٢٣٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١/٣٩٤.

(٤) مرآة الزمان، ص ٥١٥؛ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٨٢.

ابن نجا، فذكَرَ مَنْ خافَ وَمَنْ رجا، وَأَتى بِكلِّ موعظةٍ للراقدين موقظةً، ولأعداءِ الله مُغلظةً، وضجَّ المتباكون، وعجَّ المتشاكون، ورقَّت القلوب، وخفَّت الكروب، وفي الجمعة الثانية طلب صلاح الدين إلى ابن نجا أن يُكرِّر الوعظ في المسجد، ففعل).

وقال أيضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن ابن نجا: (وكانت عباراته حلوة مؤثرة، أبكت المسلمين، حيث وعظهم بكل موعظة تُنجيهم في الدنيا والآخرة، وحثَّهم على مواصلة الجهاد بعد وصفه وبيان فضائله)^(١).

٤ - ومنهم شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي: والذي لآزم الخلوة والذكر والصوم إلى أن خطر له عند علوِّ سنه أن يظهر للناس ويتكلم، فعقد مجلس الوعظ بمدرسة عمه، وكان يتكلم بكلام مفيد من غير تزويق، ويحضر عنده خلق عظيم، وظهر له القبول من الخاص والعام، واشتهر اسمه، وقُصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا، وصار أصحابه كالنجوم^(٢).

وقد لاقى الشيخ تكريماً وتبجيلاً من ملوك الدولة الأيوبية، فقد روي: أن الخليفة الناصر لدين الله أرسل الشيخَ أبا حفص إلى حلب، فلما قاربها خرج الملك الظاهر بعساكره إلى لقائه، وأكرم نُزله. وفي ثالث يوم من قدومه أمر بكرسي الوعظ فنُصب له، وجلس عليه للوعظ، وجلس الملك الظاهر ومعه الأعيان، فصعد بالوعظ حتى وجلت القلوب، ودمعت العيون^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣/٣٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢/٣٧٥.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/١٦٧.



رابعاً: نماذج من أسلوب الوعظ لدى دعاة العصر الأيوبي:

١ - مواظب ابن الجوزي:

يقول ابن الجوزي: (وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به، فإن الداخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العلم بالعمل، فمُنِعوا البركة والنفع، وإياك أن تتشاغل بالتعبّد من غير علم، فإن خلقاً من المتزهدين والمتصوفة ضلُّوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم، واستر نفسك بثوبين جميلين لا يُشهرانك بين أهل الدنيا برفعتهما، ولا بين المتزهدين بضعَتِهما، وحاسب نفسك عند كل كلمة ونظرة وخطوة، فإنك مسؤول عن ذلك، وعلى قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون، ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه، زلّت موعظته عن القلوب كما يزل الماء عن الحجر، فلا تَعِظْ إلا بنية، ولا تأكلْ إلا بنية، ومع مطالعات أخلاق السلف ينكشف لك الأمر^(١)).

وقال ابن الجوزي: (ينبغي لطالب العلم أن يصحح قصده؛ إذ إن فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال، فمن أراد الله به خيراً رزقه حسن القصد في طلب العلم، فهو يحصله لينتفع به وينفع به، ولا يبالي بعمل مما يدلّه عليه العلم، فتراه يتجافى أرباب الدنيا، ويحذر مخالطة العوام، ويقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة في الدنيا في تحصيل الكثير...)^(٢).

وقال أيضاً: (أيها الطالب تواضع في الطلب، فإن التراب لَمَّا ذل لأخمص القدم صار طهوراً للوجه، ولا تئس مع مداومة الخير أن يقوى ضعفك، فالرمل مع الزمان يستحجر، وصابر في ليل البلاء، فعين الصبر

(١) رسالة إلى ولدي، ابن الجوزي، تحقيق: عمر عبد المنعم، ص ٣٩.

(٢) صيد الخاطر، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن البر، ص ٤٤٢.

ترى فجر الأجر، وما يُدرك منصب بلا نصب، ألا ترى إلى الشوك في جواز الورد، أيها المبتدئ تَلَطَّف بنفسك، فمدارة الجاهل صعبة تنقل من درج الرخص إلى سطوح العزائم، ولا تئس من نيل المراد، فأول الغيث قطرة ثم ينسكب. دُم على حضور المجلس، فالطفل يحتاج كل ساعة إلى الرضاع، فإذا صار رجلاً صبر على الفطام، على أن الماء إذا كَثُرَ صدمه للحجر أثر^(١).

ويقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لا تسمع مَمَّن يقول الجوهر والعَرَض، والاسم والمسمى؛ لأنه شيء لا تحيط به أوهام العوام، بل قل: آمنت بما جاء من عند الله ورسوله)^(٢).

ووعظ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعض الولاة فقال: (اذكر عند القدرة عدل الله فيك، وعند العقوبة قدرة الله عليك، وإياك أن تشفي غيظك بسقم دينك)^(٣).

٢ - من مواعظ العز بن عبد السلام:

يقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (والشرع ميزان يوزن به الرجال، وبه يتبين الربح والخسران، فمن ربح في ميزان الشرع كان من أولياء الله، ومن نقص في ميزان الشرع، فأولئك أهل الخسران، وتتفاوت خفتهم في الميزان. فإن رأيت إنساناً يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، أو يخبر عن المغيبات، ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات بغير سبب، ويترك الواجبات بغير سبب مجوّز، فاعلم أنه شيطان نصبه الله لفتنة للجهلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وضعها الله للضلال)^(٤).

(١) اللطائف في الوعظ، ابن الجوزي، تحقيق: محمد إبراهيم سنبل، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٢٩٣، وفيات (٥٩١ - ٦٠٠هـ).

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٢، وفيات (٥٩١ - ٦٠٠هـ).

(٤) قواعد الأحكام: ٢ / ٢٨٢.



ويقول رحمته (الرقص بدعة، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء، وأما سماع الإنشاد المحرك للأحوال السيئة بما يتعلق بالآخرة، فلا بأس به، بل يُندب إليه عند الفتور، وسامة القلوب، لأن الوسائل إلى المندوب مندوبة، والسعادة كلها في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون، ولا يحضر السماع مَنْ في قلبه هوى خبيث، فإن السماع يحرك ما في القلوب من هوى مكروه أو محبوب)^(١).

ومن مواعظه أيضاً: (أمرنا الله بالجهاد في نصرته دينه، إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه، فكما لا يجوز للملوك إغمار أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء إغمار ألسنتهم عن الزائفين والمبتدعين، فمن ناضل عن الله، وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله بعينه التي لا تنام، ويُعزّه بعزّه الذي لا يُضام، ويحوطه بركنه الذي لا يرام، ويحفظه من جميع الأنام، وينبغي لكلّ عالم إذا أُذِلّ الحق، وأُخمد الصواب، أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذلّ والخمول أولى منهما، والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة)^(٢).

وكان الأشرف قد وقع بينه وبين أخيه الكامل جفوة، فوعظه العز بن عبد السلام قائلاً: (أخوك الكبير ورحمك)، وأمره بصلة أخيه والتعاون معه ضدّ التتار)^(٣).

(١) فتاوى سلطان العلماء، ص ١٠٧.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٢٢٣/٨.

(٣) المصدر السابق: ٢٤٠ / ٨.

٣ - موعظة الإمام النووي للسلطان الظاهر:

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

قال الله تعالى: ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ، ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [المائدة: ٢].

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره، ونصيحة عامة للمسلمين، ففي الحديث الصحيح: عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «الدين النصيحة: لله ولكتابه ورسوله، وأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

ومن نصيحة السلطان - وفقه الله لطاعته وتولاه بكرامته - أن ينهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضعفة، وإزالة الضرر عنهم، قال تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «إنما تُنصرون وتُرزقون بضغفائكم»^(٢).

وقال ﷺ: «المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ: لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة: ٣٢ / ٢، برقم (١٥٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من استعان بالضغفاء والصالحين في الحرب:

١٠٦١/٣، برقم (٢٧٣٩).

أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْتَقُّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»^(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَّةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٣).

وقال ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسَطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ وَكَلِمَاتٍ يَدِيهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»^(٤).

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان - أعز الله أنصاره - فقد أقامه الله لنصرة الدين، والذب عن المسلمين، وأذلَّ له الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين، وسائر المارقين، ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد، وأمدّه بالإعانة واللفظ

(١) رواه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسَلِّمُهُ، ٨٦٢/٣، برقم (٢٣١٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم: ١٦٧/١٢، برقم (٤٦٧٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن: ٣٠٤/١، برقم (٨٩٣).

(٤) رواه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم: ١٦٦/١٢، برقم (٤٦٧٧).

والسعادة، فله الحمد على هذه النعم المتظاهرة والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين، وزيادتها في خير وعافية. آمين^(١).

• ولقد استُعمل هذا الأسلوب في زمن صلاح الدين للتنبيه على أهمية صلاة الجمعة، فقد أُعلن ألا يتأخر أحدٌ عن الجمعة وحضورها، ومن عُثر عومل بالحبس والتقييد، واللوم والتفنيـد^(٢)، وما ذاك إلا لاهتمامهم البالغ بهذه الشعيرة العظيمة، حيث استخدموا أسلوب الوعظ بالترهيب والتخويف بالعقاب لمن تأخر عنها أو لم يحضرها.

وبهذا يتّضح لنا بجلاء ضرورة استخدام الموعدة الحسنة في الدعوة إلى الله تعالى، وما ذاك إلا لتأثيرها العظيم في المدعو، إذ إن الداعية يستطيع من خلال هذا الأسلوب أن يُوصل للمدعو ما يريد من أفكار وتوجيهات، وبقدر ما يعتني الداعية بموعظته وتنسيقها، يجني ثماراً يانعة، ونتائج طيبة بإذن الله.

* * *

(١) الإمام النووي، ص ١٠٩.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٤٧.

المطلب الثالث أسلوب الحكمة

أسلوب الحكمة من الأساليب الهامة المؤثرة في مجال الدعوة إلى الله؛ وذلك لأن الداعية أثناء قيامه بواجب الدعوة يتعرض للكثير من المواقف التي تحتاج منه إلى الحكمة القولية أو الفعلية، ومن دونها قد تفقد الدعوة أهميتها وتأثيرها.

وبالاطلاع على تاريخ الدولة الأيوبية، أجد الكثير من الدلالات على ما تتمتع به بعض الدعاة من حكمة عظيمة، كان لها أبلغ الأثر في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

وفي هذا المبحث سأتحّدث عن أسلوب الحكمة من خلال النقاط التالية:

- ١ - تعريف الحكمة.
- ٢ - أهمية أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله.
- ٣ - نماذج من حكمة دعاة الدولة الأيوبية.

أولاً: تعريف الحكمة:

١ - الحكمة لغة: أحكمت الشيء: صار محكماً، والحكيم: المتقن في الأمور.

وحكم الرجل: إذا بلغ النهاية في معناه.

واستحكم الرجل: إذا تناهى عما يضره في دينه ودنياه^(١).

٢ - أما الحكمة اصطلاحاً: فهي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي^(١).

وعرفها علماء الدعوة: هي الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع الشيء في موضعه^(٢).

ثانياً: أهمية أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله:

إن أسلوب الحكمة من الأساليب الهامة في الدعوة، وعلى الداعية أن يكون حريصاً على هذا الأسلوب؛ وذلك لأنه معنيٌّ بواجبات ومهام كثيرة، فقد نذر نفسه للنهوض بأعباء الدعوة، وهي كثيرة، فإذا عزم على ذلك نفذ صور الحكمة تنفيذاً دقيقاً، فانتهى بتوفيق الله إلى نتائج جيدة تدل على نجاحه وثاقب رأيه^(٣).

وعلى العكس من ذلك إذا كانت المرحلة التي تصدى لها الداعية تقتضي منه أسلوباً معيناً، فاختر غيرَه، وخالف الحكمة، فإنه مع مرور الأيام سيجد نفسه يراوح مكانه، أو تراه موضع نقد الآخرين.

ومما يدل على أهميته أن الله وصف به نبيه داود عليه السلام فقال جل وعز: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وأمر تعالى نبيه محمداً عليه السلام باستخدام هذا الأسلوب في دعوة الناس إلى دين الإسلام، فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان، ص ٢٤٨.

(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ص ٢٧.

(٣) انظر: التدرج في الأساليب الدعوية وأثره في الدعوة إلى الله، عبد الله عياد الجهني، ص ١٧٥.



وهذا الخطاب من الله ﷻ ليس موجّهاً لرسول الله ﷺ فحسب، بل هو لكلّ من يؤدي مهمة مماثلة لمهمّته عليه الصلاة والسلام في إرشاد الناس وتوجيههم لما فيه فلاحهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

ولقد تفضّل الله تعالى بهذه الحكمة على من يشاء من عباده، وأثنى تعالى على من استخدمها في حياته وتعاملاته، ولا شك أن الدعوة إلى الله من أبرز وأهم ما ينبغي أن يستخدم فيه هذا الأسلوب البليغ؛ قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ولقد دعا رسول الله ﷺ لابن عباس ؓ بأن يرزقه الله الحكمة، مما يعطينا دلالة كبيرة على أهمية هذا الأسلوب، وحاجة العلماء والدعاة إليه، فقد روي عن عبد الله بن عباس ؓ قال: ضمّني النبي ﷺ إلى صدره، وقال: «اللهم علّمه الحكمة»^(١).

كما عدّها رسول الله ﷺ من الأمور المميّزة التي يُغبط عليها من امتلكها، فقال عليه الصلاة والسلام: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»^(٢).

ثالثاً: نماذج من حكمة دعاة الدولة الأيوبية:

نجد عند دعاة الدولة الأيوبية نماذج لاستخدام الحكمة في الدعوة إلى الله وذلك في الصور التالية:

(١) رواه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: ذكر ابن عباس ؓ، ١٣٧١/٣، برقم (٣٥٤٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب: العلم، باب: الإغنيّات في العِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وقال عُمرُ: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا؛ ٣٩/١، برقم (٧٣).



- ١ - التدرج.
- ٢ - مراعاة الأولويات.
- ٣ - مراعاة اختلاف الظروف.
- ٤ - استخدام المنهج المناسب.

١ - التدرج:

أ - التدرج لغةً:

مأخوذ مِنْ دَرَجٍ يَدْرُجُ، يقال: دَرَّجَهُ إِلَى كَذَا تَدْرِيجًا، واستدرجه: أدناه منه على التدرج^(١).

جاء في «اللسان»: دَرَّجْتُ العليلَ تَدْرِيجًا: إِذَا أَطْعَمْتَهُ شَيْئًا قَلِيلًا، وَذَلِكَ إِذَا نَقَّه حَتَّى يَتَدْرَجَ إِلَى غَايَةِ أَكْلِهِ، كَمَا كَانَ قَبْلَ الْعَلَّةِ، دَرَجَةً دَرَجَةً^(٢).

ب - التدرج في الاصطلاح:

البدء بتقديم الأمور المهمة في الدعوة إلى الله، ثم الانتقال إلى غيرها شيئاً فشيئاً؛ بغية الوصول إلى الغاية المنشودة بطرق مشروعة حتى يعتاد المدعو التكليف^(٣).

والتدرج سُنَّةٌ كُونِيَّةٌ تتوافق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فالنفس البشرية عندما تألف عادات وتتلاءم معها يصعب عليها تركها، والإتيان بغيرها جملة واحدة.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل نزول التشريع إلى عباده شيئاً

(١) الصحاح: ١ / ٣١٤، مادة (درج).

(٢) لسان العرب: ٢ / ٢٧٠، مادة (درج).

(٣) التدرج في الأساليب الدعوية وأثره في الدعوة إلى الله، ص ١٤.

فشيئاً، ومن أجل ذلك نزل القرآن منجماً، قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا أَنْتَ فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وممن أشار إلى الحكمة من التدرج في التشريع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ تقول: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى أبداً^(١)).

وأدرك العلماء سر التدرج في التشريع، ولاحظوا أنه ادعى إلى قبول الناس للأحكام بخلاف ما لو نزل التشريع دفعة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لنزول الفرائض والنواهي جملة واحدة، فيثقل على النفس حملها^(٢).

واستخدم دعاة الدولة الأيوبية هذا الأسلوب في دعوتهم، وذلك لشعورهم بتأثيره الكبير في المدعويين، إذ إن إصدار الأمر أو الحكم دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفور المدعو، وإحجامه عن الاستجابة، بينما تدرج الداعية في الدعوة قد يؤثر في المدعو، ويعطيه وقتاً كافياً للتفكير، ومن ثم الاقتناع بما دعاه إليه الداعية.

ج - من أمثلة التدرج في العصر الأيوبي:

في سنة (٥٦٤هـ) دخل أسد الدين شيركوه إلى مصر، فملكها ومعه صلاح الدين والعساكر النورية، واستطاع القضاء على شاور وجنده، إلا أنه توفي رحمته الله في العام نفسه، وكانت مدة ولايته شهرين وخمسة أيام، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين، وأحضره عنده، وخلع عليه، وولاه الوزارة بعد عمه^(٣).

(١) رواه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن؛ ٤/١٩١٠، برقم (٤٧٠٧).

(٢) معالم الشريعة الإسلامية، الدكتور صبحي الصالح، ص ١٣٦.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ؛ ١١/٣٣٥.



وكتب نور الدين إلى صلاح الدين بعد أن تولّى الوزارة، يطلب منه إلغاء الخلافة الفاطمية لتصير مصر سُنِّيَّة بعد أن كانت شيعية، ولكن صلاح الدين كان يعلم أن انتقال الشعب من مذهب إلى مذهب يصعب في يوم وليلة، إذ لا بدّ من دعاةٍ يَهَيِّئُونَ الأذهان بتدرّجٍ لذلك الانتقال المرتقب، فرأى أن يبيّن مدارس تُذيع فقه أهل السُنَّة، وأن ينشر كتباً تؤيّد مذهب الإمام الشافعي؛ لذا كتب إلى نور الدين داعياً له إلى التمهّل حتى يجيء موعد القطاف^(١).

ولكن نور الدين كان دائم الإلحاح على صلاح الدين لإقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنفذ إليه أباه نجم الدين لأجل ذلك، وقد أفضى به الأمر إلى أن اتّهم صلاح الدين، وشتّع عليه، وأكثر القول في ذلك، وكان صلاح الدين يعتذر بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم عن الإجابة إلى ذلك، لميلهم إلى العلويين، كما أنّ أحواله لم تستقرّ بعد، وأموره مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرّج ستفسد الأحوال، إلا أن نور الدين لم يُصغ إلى قوله، وأرسل إليه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه^(٢).

وكانت بداية صلاح الدين بالتمهيد للدولة السنية بأن أمر بالاكفاء بذكر الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان ثم علي في خطبة الجمعة سنة (٥٦٥هـ)^(٣).

وفي سنة (٥٦٦هـ) كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وتوقف أمراء المصريين عن التصرّف، ومنعوا من كل شيء، فلما رأى

(١) انظر: صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٨٤.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٩٠/٢.

(٣) المصدر السابق: ٣١٧/٢.

صلاح الدين أنّ أمره قد قوي، وأوتاد دولته قد تمكّنت من البلاد، عزم على إظهار ما يُخفيه، وقرر القبض على مَنْ تبقّى من أمراء الدولة العبيدية، فقام باعتقال الأمراء المصريين، واستولى على دورهم، فأل أمرهم إلى أن صار الأمير بؤاباً على الدار التي يسكنها، وصار آخرُ سائس فرس كان يركبها، وصار آخرُ وكيلَ القبض في بلد كانت إقطاعاً له، ونحو ذلك من أنواع الهوان^(١).

ولما انتهى صلاح الدين من القبض على جميع البلاد بيده، وخلّى مصر من المعاندين والمناذيين، أبطل من الأذان عبارة (حي على خير العمل)، وأنكر مَنْ يتسمّى بمذهبهم، والانتساب إليهم، ثم شرع في التفكير بعد ذلك في كيفية الابتداء بالخطبة لبني العباس^(٢).

ثم عقد صلاح الدين مجلس شورى لاستشارة الأمراء في كيفية الابتداء بالخطبة العباسية، فمنهم مَنْ أقدم على المساعدة، وأشار بها، ومنهم مَنْ خاف ذلك، إلا أنّه لم يمكنه ﷺ إلا امتثال أمر نور الدين.

فأمر نجمُ الدين ﷺ - والد صلاح الدين - الخطيبَ بالجامع بقطع الخطبة للعاقد قائلاً له: (إنْ ذَكَرْتَ هذا المقيمَ بالقصر ضربتُ عنقك)، فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاقد لم يذكر أحداً، لكنه دعا للأئمة المهديين، وللسلطان الملك الناصر، ونزل، ف قيل له في ذلك فقال: (ما علمتُ اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعّل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك)^(٣).

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٩٠ - ١٩٩.

وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يُعرف بالأمرير العالم، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها. فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بنور الله، فلم ينكر أحد ذلك عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للمستضيء بنور الله، ففعلوا ذلك^(١).

٢ - مراعاة الأولويات:

الأولويات هي الأمور الذي يستحق أن يبدأ بها أولاً قبل غيرها، فهي الفهم الدقيق والإدراك لترتيب الأمور، وتقديم ما حقه التقديم، وتأخير ما حقه التأخير، بما يتناسب مع طبيعة الموضوع، وفقه الأولويات ثمرة للموازنات الدعوية^(٢).

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب الحكيم في العهد الأيوبي أنه في سنة (٥٧٦هـ) استقرت الأحوال في بلاد الشام، فعاد صلاح الدين إلى مصر لتفقد أحوالها، بعد أن وقع الصلح والهدنة بين المسلمين والفرنج، وفكر بالحج في تلك السنة، واستخار الله في أدائه، ثم يعود إلى مجاهدة أعدائه، فأشاع ﷺ أن طريق الحج قد فُتح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وصمم على إبراء الذمة منه.

وشرع ﷺ يُرتب الأمور لأداء هذا الركن العظيم، فقبل له: (هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث، وهذه المعازل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة فإن القوم على ترقب المكنة، والغدر دأبهم)، فما زال به الجماعة حتى حلوا عزمه على الحج^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٩٠ - ١٩١.

(٢) فقه الموازنات الدعوية، الدكتور معاذ البيانوني، ص ٣٠.

(٣) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٢٩ - ٣٣٩.



وهكذا كان السلطان قاب قوسين أو أدنى من أداء فريضة الحج هذا العام لولا أن مستشاريه، وهم طائفة من علماء الشريعة، أثنوه عن عزمه بسبب ظروف الحصار والحرب وحالة التعبئة التي كانت الدولة الإسلامية تمر بها، ويبنوا له أن الجهاد أهم من الحج في تلك الظروف، وبهذا لم يتمكن من ذلك بسبب التطورات في بلاد الأرمن على حدود بلاده الشمالية^(١).

فقدّر ﷺ أن الأهم في تلك الظروف هو الجهاد وحماية بلاد المسلمين من العدو، فبدأ بالأهم وهو الجهاد، قبل المهم وهو أداء فريضة الحج.

وحادثة أخرى تؤكد اهتمام الدعاة بأسلوب مراعاة الأولويات وفقههم له، فقد قرّر تقي الدين عمر - أبرز رجال الدولة وقائد العسكر - التوجه إلى المغرب، والسيطرة عليه، وإقامة ملك فيه، فأرسل إليه صلاح الدين قائلاً له: (لعمري إن فتح المغرب مهم، لكن فتح بيت المقدس أهم، والفائدة منه أتمّ، والمصلحة منه أخصّ وأعمّ، وإذا فتحنا القدس والساحل طوّينا إلى تلك الممالك المراحل)^(٢).

٣ - مراعاة اختلاف الظروف:

ينبغي للداعية أن يكون حكيماً متوازناً، يستطيع استخدام الأسلوب المناسب في الوقت المناسب، فيختار أسلوب دعوته حسب الظروف المواجهة له، وذلك ليكون لدعوته وقع أقوى في نفس المدعو، وليكون لها أثر أعمق في قلبه، فتؤدي بمشيئة الله إلى الهدف الذي ينشده الداعية من دعوته.

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٩٣.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٥٦ - ٢٥٧.



ولهذا النوع من الحكمة أمثلة في العصر الأيوبي، من ذلك: أنه لما مرض ريتشارد في يافا، رأى السلطان صلاح الدين معاملة، فأرسل من يسأل عن صحته ويقدم له الدواء والفاكهة والثلج. ولقد استفاد المسلمون من هذه اللفتة الإنسانية، فقد مهدت طريق الوفاق، فانعقد الصلح النهائي محدداً سيطرة الصليبيين على المنطقة الساحلية من صور إلى يافا^(١)، وبهذا وصل صلاح الدين إلى نتيجة مرضية لحكمته، وأصاب عندما اختار أسلوباً مناسباً لمواجهة ذلك الظرف.

ومن أولئك الدعاة الحكماء العز بن عبد السلام، فقد كانت حكمته -ولاسيما في التعامل مع الحكام - من المزايا الكثيرة التي تميّز بها ﷺ، فساعده على المضي في طريق الدعوة، وكللتها بالنجاح والتوفيق، فالعز بن عبد السلام لم يكن ضدّ الحكام أو هو مجرد معارض - كما يظنّ بعضهم - بل كان مع الحق حيث سار، فكان مؤيداً للحاكم الصالح، واقفاً معه، يجمع له الجموع، وعندما انحرف الحاكم قاومه وناصحه وواجهه بالحق الواجب الامتثال^(٢).

ومما يؤكّد أهمية مراعاة اختلاف الظروف مقولة العز بن عبد السلام في الحادثة التالية: روي أن موسى ابن الملك العادل لما مرض مرضة الموت قال لأكبر أصحابه: (اذهب إلى ابن عبد السلام وقل له: محبك موسى ابن الملك العادل أبي بكر يسلم عليك، ويسألك أن تعود، وتدعو له، وتوصيه بما ينتفع به غداً عند الله)، فلما وصل الرسول إليه بهذه الرسالة قال: (نعم إن هذه العيادة لمن أفضل العبادات لما فيها من النفع المتعدي إن شاء الله تعالى).

(١) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٢٤٢.

(٢) انظر: العز بن عبد السلام، ص ١٣١.



فتوجه إليه، وسلم عليه، فسُرَّ برؤيته سروراً عظيماً، وقبل يده وقال: (يا عز الدين اجعلني في حلّ، وادع الله لي، وأوصني وانصحنى)، فقال له: (أما محاللتك فإني كل ليلة أحالل الخلق، وأبيت وليس لي عند أحد مظلمة، وأرى أن يكون أجري على الله، ولا يكون على الناس، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، وأن يكون أجري على الله ولا يكون على خلقه أحب إلي، وأما دعائي للسلطان فإني أدعو له في كثير من الأحيان، لِمَا في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام، والله تعالى يبصر السلطان فيما يبصر به وجهه عنده يوم يلقاه، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان فقد وجبت وتعيّنت لقبوله وتقاضيه^(١).

وإجابة العز هذه تعطي الداعية درساً وافياً في أهمية الحكمة في مراعاة اختلاف الظروف، فالعز راعى الوضع الذي كان فيه الملك موسى، واستخدم حكمته في بثّ ما أراه من توجيهات وأفكار، بطريقة لبقة تنم عن سعة إدراك هذا العالم الجليل، وبُعد نظره، وسداد رأيه.

٤ - استخدام المنهج المناسب:

ذكاء الداعية وفطنته في اختيار منهج مناسب لدعوته من الأمور الحكيمة التي تساعد على نجاح الدعوة، وتيسر للداعية جني ثمارها يانعة طيبة بإذن الله؛ فالداعية الناجح يستطيع تبليغ دعوته للمدعو في أي ظرف من الظروف، فهو ذكي مُتوازن يبتكر ما يلزمه من أساليب دعوية، ويستخدم مع كل مدعو ما يناسبه، بحكمة وحسن تقدير للأمور، قدوته في ذلك رسول الله ﷺ والسلف الصالح.

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢٤٠.

إن فطنة الداعية تجعله يختار المنهج المناسب للموقف الذي هو فيه، وذلك أدعى إلى نجاحه في دعوته وقطفه ثماراً يانعة.

ومن هنا فإن المرونة وابتكار ما يناسب المواقف، واستخدام ما يناسب المدعو بحكمة وحسن تقدير للأمور، كل ذلك مطلوب من الداعية الحريص على نجاح دعوته.

ولنتأمل في هذا الموقف التربوي الذي يتعلم منه الدعاة الكثير، فعن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزَّنى! فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ. فقال: «ادنه»، فدنا منه قريباً، قال: فجلَس، قال: «أَتْحِبُّهُ لَأُمَّكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لَأُمَّهَاتِهِمْ» قال: «أَفَتْحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قال: لا والله يا رَسُولَ اللَّهِ، جعلني الله فداءك، قال: «وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ» قال: «أَفَتْحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ» قال: «أَفَتْحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ» قال: «أَفَتْحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «وَلَا النَّاسَ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ» قال: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» فلم يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ^(١).

فلو أن هذا الموقف حصل مع داعية غير بصير، لسبَّ هذا الشاب وطرده أو فضحه على رؤوس الأشهاد، بينما الإسلام يدعوك أن تقدم للناس لباس التقوى الذي يستر عوراتهم، ويبرز محاسنهم، ورسالة الداعية رسالة تربية في المقام الأول، وجوهر رسالة الإسلام خلق وإحسان، ووسيلتها القدوة الحسنة، وأول ميادينها النفس والقلب^(٢).

(١) رواه أحمد في مسنده: ٥٤٥/٣٦، برقم (٢٢٢١١)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٢) الدعوة: قواعد وأصول، الدكتور جمعة أمين عبد العزيز، ص ٢٢١.



وبهذه استطاع رسول الله ﷺ بذكائه وفطنته أن يحقق هدفه الذي خطط للوصول إليه، واستفاد من حكمته تلك أعظم فائدة.

ومثال آخر نلمسه في سيرة رسول الله ﷺ: عندما كان يصلي في الكعبة في جوف الليل، والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة، فلم يرفع إليها يداً، ولم يحرك نحوها ساكناً، ولو أنه صنع ما صنع إبراهيم عليه السلام بأصنام قومه لما رآه أحد، ولكن ماذا ستكون العاقبة؟ ستعود الأصنام لما كانت، بل إلى أحسن مما كانت، ويُعاجل رسول الله ﷺ بالأذى كما عوجل من سبقه، ولكنه ﷺ علم أن سبيل العلاج شيء غير هذا، إنه الصبر والاستمرار على الدعوة، وتجميع الأنصار، وتعبئة القوى، فلما أتى الله باليوم الموعود كان ﷺ يشير إلى الصنم بقضيب في يده قائلاً: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، فينكفي على وجهه إلى حيث لا رجعة.

وإننا لنعلم أن شباب الدعوة المحمدية الأولين كانوا كثيراً ما يعرضون على رسول الله ﷺ أن يثوروا بأسلحتهم، وأن يهّبوا في وجوه أعدائهم، ولكنه ﷺ كان يسكن ثورتهم، ويطلب إليهم أن ينتظروا، ولم يعجل بعجلة هؤلاء الشباب، ولم يخف لخفتهم، بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم الآن، ويكتفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حتى تكتمل القوى، وتنضج الثمرة، وتطلع الأقدار بأيام الله، ونحن نأثم إذا نصحنا الداعية أن ينهج بغير المنهج الذي سنّه الله لرسوله، والتزمه ﷺ في حكمة وأناة وقوة^(١).

ولقد لمع في العهد الأيوبي عدد من الملوك الذين اشتهروا بحكمتهم وذكائهم في استخدام المنهج المناسب للظروف المواجهة لهم، فانتفع المسلمون بذلك، واستفادوا كثيراً.

(١) الدعوة: قواعد وأصول، ص ١٣٦.

فمن الملوك الأيوبيين الذين عُرفوا بالذكاء والسياسة الحكيمة صلاح الدين، فقد استطاع ﷺ بالملاينة والمسايرة أحياناً، وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى، وبالعمل العسكري في بعض الأوقات، من تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام والقسم الأكبر من بلاد شرق الفرات، تحت سياسته وقيادته، وإلزام بقية القوى حتى حدود بلاد العجم بالمشاركة في الجهاد ضدّ الصليبيين^(١).

ومن الملوك الذين عُرفوا بالحكمة واستخدام المنهج المناسب الملك المعظم، ويدل على ذلك ويؤكده حادثتان محكيتان عنه، إحداهما ما روي أنه كان بالغور سارق يقطع الطريق، ومعه مئة فارس، فلما قبض عليه طلب من الملك المعظم ألا يشنقه؛ وذلك ليجاهد الكفار، فوافق المعظم، وجاهد ذلك السارق جهاداً عظيماً حتى استشهد^(٢).

أما الحادثة الثانية فقد حكاها والي خولان (قرية قرب دمشق)، فقال: كنت والياً بالشوبك، وكان بها راهب متفرّجٌ ببعض الجبال، فجاءني كتاب من الملك المعظم بنفيه فنفيته، فغاب مدة، ثم جاء كتاب منه أن أعده إلى مكانه وتوصّ به، فبحثت عن القصة فإذا به قد بعثه يكشف أخبار عدوّه، ونفاه لئلا يتّهم^(٣).

ومن أولئك الملوك الملك الظاهر، فقد مدحه سبط ابن الجوزي فقال عنه: (كان مهيباً، سائساً، فطناً، دولته معمورة بالعلماء، وكان يزور الصالحين ويفقددهم، وله ذكاء مفرط)^(٤)، ولقد كان له ﷺ عقل وغور ودهاء وفكر

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٠٣.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٨.



صائب، ومن دهائه وحكمته أنه كان يصادق ملوك الأطراف، ويباطنهم، ويوهمهم أنه لولاه لقصدتهم عمه العادل، ويوهم عمه أنه لولاه لتحامل عليه ملوك الأطراف، ولشققوا عصا الطاعة^(١).

وبعد فإن الأمثلة السابقة غيض من فيض من الشواهد على استخدام الدعاة الأيوبيين لأسلوب الحكمة، وما ذكرته كان على سبيل التمثيل لا الحصر لمواقف لدعاة حكماء كان لحكمتهم أثر بليغ في مجال الدعوة، وهذا حريّ بدعاة كلّ زمان أن يقتفوا أثرهم، ويتصرّفوا مع المدعويين بحكمة لئلا يؤثروا فيهم على نحو مغاير من حيث لا يشعرون.

* * *



المطلب الرابع أسلوب التربية والتعليم

أسلوب التربية والتعليم من الأساليب المهمة في مجال الدعوة، فتعليم المدعو وتربيته هما الخطوة التالية التي ينبغي للداعية البدء بها مع مَنْ قَبْلَ الدعوة، واستجاب للتوجيهات، وقدوتنا في ذلك رسول الله ﷺ، فقد حرص عليه الصلاة والسلام على تعليم أصحابه، وتربيتهم التربية القويمة بغرس تعاليم الإسلام وأخلاقه وتوجيهاته.

وفي العصر الأيوبي استخدم الدعاة هذا الأسلوب القويم، فحرصوا على تعليم الناس تعاليم الدين الإسلامي، وتربيتهم على أخلاقه وآدابه، وذلك ليلا مس شغاف قلوبهم، وليكون منهجاً يهديهم، ويُسعدهم في دنياهم وآخرتهم.

وفي هذا المطلب سأتحَدَّث عن أسلوب التعليم والتربية من خلال الفقرات التالية:

- ١ - أهمية أسلوب التعليم والتربية.
- ٢ - جهود الدولة الأيوبية لدعم مسيرة التعليم والتربية.
- ٣ - نماذج من الدعاة المعلمين.
- ٤ - العناية بتربية الأطفال وتعليمهم.
- ٥ - الاهتمام بالترفيه.

أولاً: أهمية أسلوب التعليم والتربية :

أسلوب التعليم والتربية من الأساليب الهامة التي لا غنى للداعية عنها، لأن الدعوة من دون التعليم والتربية تبقى كلمات مثالية توجيهية، لن يستفيد

المدعو منها إلا بتطبيقها في واقع حياته العملية، وهذا هو دور الداعية، والذي يكمن في تعليم المدعو وتربيته بالطريقة الصحيحة المشروعة، وبذلك يجتمع عنده كل من العلم والعمل.

وقد دعا الله عباده للعلم وحثهم على طلبه، فقال جل وعز: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولقد رفع الله مكانة أهل العلم على غيرهم، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال الإمام الشوكاني: (معنى الآية: أنه يرفع الله الذين آمنوا على من لم يؤمنوا درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات)^(١).

ولقد بيّن رسول الله ﷺ فضل من علم وعلم فقال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به»^(٢).

وحدث رسول الله ﷺ على طلب العلم، وبيّن الأجر والثواب الذي

(١) فتح القدير: ٥ / ١٨٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب: العلم، باب: فضل من علم وعلم: ٤٢/١، برقم (٧٩).

يحصل عليه طالب العلم، فقال: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وورثوا العلم فمن أخذه فمَن أخذ بحظ وافر»^(١).

ولقد كان النبي ﷺ يحرص على تعليم الناس، وتفقيهم في أمور دينهم، ويبعث المعلمين من صحابته إلى الناس ليعلموهم ويفقهوهم.

فقد روي عن عبد الله قال: (إن رسول الله ﷺ علّمنا سنن الهدى، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه)^(٢).

ويحرص عليه الصلاة والسلام على الإتقان والإخلاص في التعليم، فنبّه بذلك الدعوة إلى أهمية هذا الأمر، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ يعلمنا التّشهُدَ كما يُعلّمنا السُّورَةَ من القرآن)^(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ يُعلّمنا الإستِخارةَ في الأمورِ كما يُعلّمنا السُّورَةَ من القرآن)^(٤).

ولقد كان للنساء نصيب من تعليم رسول الله ﷺ، فقد روي أنه جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجالُ بِحدِيثِكَ، فأَجْعَلْ لنا من نَفْسِكَ يَوْماً نَأْتِيكَ فيه تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، فقال: «اجْتَمِعْنَ في يَوْمٍ

(١) سنن ابن ماجه: ٨١/١، برقم (٢٢٣)؛ صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ١٣٨/١، برقم (٧٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: صلاة الجماعة من سنن الهدى: ١٢٨/٥، برقم (١٤٣٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: التشهد في الصلاة: ٩٩/٤، برقم (٨٥٣).

(٤) صحيح البخاري في كتاب: التهجد، باب: ما جاء في التَطَوُّعِ مَثْنَى مَثْنَى: ٣٩١/١، برقم (١١٠٩).

كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا» فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةَ إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ»، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اثْنَيْنِ؟ قَالَ: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: «وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ»^(١).

وقد بعث رسول الله ﷺ دعاة من صحابته إلى الناس ليُعلِّمُوهم تعاليم وتوجيهات الدين الإسلامي، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (أول مَنْ قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يُقرئون الناس)^(٢).

وروي عن أنس رضي الله عنه: أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمُنَا السُّنَّةَ وَالْإِسْلَامَ. قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَقَالَ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(٣).

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان مبيِّناً أهمية هذا الأسلوب: (إذا حصلت الاستجابة، وقَبِلَ المدعو الدعوة إلى الله، وهداه الله، وشرح صدره للإسلام، وجب على الداعي أن يتعهده بما يكفل له المناعة ضد الداء القديم، ويُبصِّره بمعالم الدين، ويؤبِّته عليه، وذلك بتعليمه معالم الإسلام ومعانيه وأفكاره، فلا يجوز للداعي أن يترك المستجدين وشأنهم بمجرد أنهم قَبِلُوا الإسلام وصاروا من عِدَادِ المسلمين، فقد تبقى فيهم بقايا كثيرة أو قليلة من دوائهم القديم: الشرك بأنواعه، مما يُعرِّضهم إلى الانتكاس والرجوع عن الإسلام، أو السير على غير هدى، ويحسبون أنهم مهتدون)^(٤).

(١) رواه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسُّنة، باب: تعليم النبي ﷺ أمته من الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمَثِيلٍ: ٢٦٦٦/٦، برقم (٦٨٨٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه: ١٤٢٨/٣، برقم (٣٧١٠).

(٣) رواه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه: ١٦٠/١٥، برقم (٦٢٠٦).

(٤) أصول الدعوة، ص ٤٤٢.

وقال أيضاً: (فعلى الدعاة إلى الله أن يُعَلِّموا الناس أحكام الإسلام، ويعرّفوهم بحدود الله، ولا يكتفوا منهم بالعاطفة الطيبة، وترديد بعض الكلمات الحقة، وأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإن هذه العمومات لا تكفي، بل لا بد من معرفة تفصيل الإسلام بالقدر المستطاع)^(١).

وفي العصر الأيوبي استخدم الدعاة أسلوب التعليم والتربية، ولمع كثير من الدعاة الحريصين على نشر تعاليم الإسلام السمحة، وتعليمها للناس، وتربيتهم بها، مما أدّى إلى صيرورة الدين الإسلامي منهجاً يسير عليه الناس في شؤون حياتهم، ويهتدون بهديه وأخلاقه.

ثانياً: جهود الدولة الأيوبية لدعم مسيرة التعليم والتربية:

اهتمت الدولة الأيوبية بنشر العلم بين الناس، وتعليمهم الدين الإسلامي، فعمدت إلى بناء المدارس، ودور القرآن، ودور الحديث، واستقدمت مشاهير العلماء.

وكان هدف الدولة الأساس من التعليم هو إعادة صياغة الجماهير الإسلامية بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة^(٢).

وانقسمت دور التعليم ووسائله إلى قسمين في هذا العصر:

- ١ - المدارس ودور القرآن والحديث: وهدفها إخراج جيل جديد من الناشئة الذين تصفو عقيدتهم، وتعلو مقدرتهم إلى المرتبة التي يجب أن يحتلّها المسلم.
- ٢ - المساجد: فقد كانت - إلى جانب العبادة - مراكز تعليمية ركّزت على بثّ الروح الإسلامية من جديد، والتركيز على تجفيف

(١) أصول الدعوة، ص ٤٤٣.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٥٧.



التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثاراً عميقة في عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والعسكرية^(١).

وقد بذل مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين جهوداً عظيمة لدعم التعليم، منها قيامه بتعمير المدارس، فهو رَضِيَ اللهُ لَمَّا ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس السُنِّيَّة، فعَمَّر مدارس للحنفية، ومدارس للشافعية، وأخرى للمالكية^(٢)، كما حَوَّل الأزهر إلى جامعة سُنِّيَّة، ونشر دور القرآن والحديث في جميع أرجاء دولته، ورتَّب في هذه المؤسسات المدرّسين والطلبة، وأجرى للجميع رواتب شهرية، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها^(٣).

ومن الملوك الذين اهتموا بأسلوب التعليم وشجّعوا عليه نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، فقد أمر بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة^(٤).

ثالثاً: نماذج من الدعاة المُعلِّمين:

- ظهر في العصر الأيوبي عدد من الدعاة المخلصين الذين حرصوا على نشر العلم، وتعليم الناس في المدارس والمساجد، ومن أولئك الدعاة:
- ابن الصلاح: وقد درّس بالمدرسة الصلاحية ببيت المقدس، ثم درّس بالرواحية والأشرفية والشامية الصغرى^(٥).
 - شمس الدين بن كمال المقدسي الحنبلي: وقد وُلِّي مشيخة الأشرفية التي بالجبل، ودرّس بالضيائية^(٦).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٥٤/٦.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٩١.

(٤) العز بن عبد السلام، ص ٢٢.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ١٤٠.

(٦) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٠.

- شهاب الدين الطوسي: وهو أكبر أئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، ولما وصل مصر كان تقي الدين عمر متولّيها، فأعجبه سمت الطوسي، فولاه مدرسته بمصر، وهي المعروفة بمنازل العز^(١).
- أبو المعالي مسعود بن محمد النيسابوري: الفقيه الشافعي، درّس بالمدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن الجويني، ثم قَدِم دمشق، ودرّس بالمدرسة المجاهدية، ثم بالزاوية الغربية من جامع دمشق، ثم خرج إلى حلب، وتولى التدريس في مدرستين فيها، ثم رجع إلى دمشق، ودرّس بالزاوية الغربية، وحدث، وتفرد برئاسة أصحاب الشافعي^(٢).
- شرف الدين بن عصرون: وقد أنشأ مدرسة بدمشق قبالة داره، ودُفن فيها لما توفي، وكان شيخ المذهب^(٣).
- موفق الدين عبد الله بن قدامة: كان علماً من أعلام الفقه الحنبلي، يحرص الكلّ على التفقه على يديه، وعلى دراسة كُتبه^(٤).
- أبو طاهر السلفي: كان حافظ الإسكندرية، وقد عليه أهل العلم يأخذون عنه، وهو أستاذ صلاح الدين^(٥).
- إبراهيم بن عبد الواحد العماد المقدسي: أخو الحافظ عبد الغني، كان يجلس في جامع دمشق من الفجر إلى العشاء، يُقرئ الناس العلم، فإذا لم يتفق له مَنْ يشتغل عليه اشتغل بالصلاة، أقام بدمشق يُعلّم الفقراء ويُطعمهم^(٦).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٦٨.

(٢) وفيات الأعيان: ٥ / ١٩٥-١٩٦.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٠٩.

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٧٨.

(٥) تاريخ مدينة دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: محب الدين العمروي: ٥ / ٢٠٨.

(٦) تاريخ الإسلام، ص ١٨٢، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ).



ولقد كان لأولئك العلماء تأثير كبير في المدعوين، من ذلك ما روي أن الحافظ عبد الغني كان يقرأ الحديث يوم الجمعة بجامع دمشق وليلة الخميس، فيجتمع له الخلق، وكان يقرأ ويبكي، ويبكي الناس كثيراً، حتى إن من حضره مرة لا يكاد يتركه، وكان جامعاً للعلم والعمل^(١).

ولعظم أجر العلماء، ورفعة قدرهم عند الله حرص الكثير منهم على عدم أخذ أجر على تعليمهم، وما ذلك إلا احتساباً للأجر عند الله تعالى. ومن أبرز أولئك العلماء الإمام كمال الدين أبو البركات الأنباري النحوي، فقد روي أن بابه كان مفتوحاً لطالبي العلم، يُعلّمهم لوجه الله تعالى، وكان لا يقبل من أحد شيئاً^(٢).

وثمة رواية تبين اهتمام العلماء بجمع الكتب بهدف الاستفادة منها، وتعليمها العامة، ونشر ما فيها من معلومات مفيدة، واحترام الناس لأولئك العلماء، وعدم الاعتراض على تصرفاتهم مهما كان الموقف:

فقد روي أن صلاح الدين عندما دخل مدينة حلب أذن لتاج الدين محمد المسعودي - وهو معلّم أحد أبنائه - بأن يقوم بفحص كتب إحدى المكتبات، وأخذ ما يرغب من كتبها، ويروي أحد شهود العيان - واسمه أبو البركات الهاشمي - بأن المسعودي قام باختيار عدد كبير من الكتب، حشاها في عدل^(٣) دون أن يعترض أحد^(٤).

وقد اعتنى أولئك الدعاة بالتدريس واهتموا به، ومن أبرز الأمثلة

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٤٣.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٠٠.

(٣) العدل: الجوّالِق والغرارة، وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح ونحوه.

انظر: مادة (عَدَل، غرر)، المعجم الوسيط، ص ٦٥٤.

(٤) مكتبات المساجد، ص ٢٥٣.

على الدعاة المتميزين في ذلك: العز بن عبد السلام، فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُتَفَنَّناً بالتدريس، وإيراد المُلح والنوادر والأشعار في دروسه، قال عنه اليونيني: (كان مع شدته فيه حُسن المحاضرة بالنوادر والأشعار)^(١).

ومثله الشيخ ابن قدامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، روي أنه كان له أسلوب فريد في التعليم، وقد ذكر أحد طلابه أنه كان يحب أن يمازحهم ويبسطهم في القراءة^(٢).

وشاركت النساء الرجال في التعليم، فهذه الشيخة بنت سعد الخير، المسندة، أجاز لها خلق كثير، وحدثت بدمشق ومصر، وتزوجها ابن نجية^(٣).

رابعاً: العناية بتربية الأطفال وتعليمهم:

الأطفال من الشرائح المهمة في المجتمع الإسلامي، وحرّي بالدعاة الاهتمام بتدريسهم، والعناية بتربيتهم، إذ إنهم جيل المستقبل المنتظر، فالاهتمام بتربيتهم، وتدريسهم، وتنشئتهم على نهج الإسلام القويم يشحنهم بما يقوّي إيمانهم وقلوبهم، ويزوّدهم بما يلزمهم من معارف وعلوم، فيتهيأ لهم مستقبل زاهر بإذن الله تعالى، ويتقوّى بهم المجتمع الإسلامي ضدّ التحديات التي قد تواجههم.

ولللألعاب والترويح أهمية خاصة في حياة الطفل؛ إذ يتعرف الطفل عن طريق لهوه بالعالم المحيط به، مما يمنحه السعادة والفرح، وينمي عنده الإلمام بكثير من جوانب الحياة، وبذلك يكون للعب والترويح قيمة تربوية في إذكاء مواهب الطفل، وتنميته على نحو طبيعي. واللعب ضروري لتنمية مهارات الاكتشاف، وهو وسيلة للتعرف على ما يحيط به،

(١) حسن المحاضرة: ١ / ٣١٦؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٥ / ٣٠٢.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٠٠.

ويساعده على التكيف، وباللعب يتفاعل الطفل اجتماعياً، كما أنه يبرز مواهب الطفل وقدراته^(١).

ويؤكد الغزالي أهمية لعب الأطفال فيقول: (وينبغي أن يؤذن له - أي للصبى - بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً، يستريح إليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبى من اللعب، وإرهاقه بالتعلم دائماً، يميت قلبه، ويبتطل ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً)^(٢).

ولقد اهتم رسول الله ﷺ بتربية الأولاد، والإحسان إليهم والرحمة بهم، والسنة النبوية تزخر بالعديد من الأمثلة الدالة على عنايته عليه الصلاة والسلام بهذه الشريحة الهامة من المجتمع، ولعل المثال الآتي يعطينا صورة واضحة لذلك التعامل الرحيم مع الأطفال، فقد روي عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا. فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ. وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ. فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ وَهُمَا يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبِضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي. قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ. فَقَالَ: «يَا أَنَسُ أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٣).

وقد وجدتُ في المراجع التي أرخت للدولة الأيوبية نماذج من اهتمام الدعاة بتربية الأطفال وتعليمهم، وأبرز ما يُعطينا دلالة على أهمية التربية، وضرورتها للنشء، ما قام به نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من تربية وتدريب لولده منذ طفولته، حيث تربى في ديوان والده أثناء طفولته ومراهقته في مدينة بعلبك وقلعتها وسهل البقاع، وقد ساهم في تلك

(١) الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، سهام مهدي جبار، ص ٤٢٢.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي: ٨ / ١٣٣.

(٣) رواه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً: ٦٠/١٥، برقم (٥٩٦٨).

التربية بعض علماء بعلبك الذين كانوا يعيشون فيها؛ مثل: المحسن بن أبي المضاء، والذي كان وزير والده، وغيرهم. ثم تدرّب عسكرياً بارتباطه مع عمه أسد الدين شيركوه في حلب، إذ كان استقلاله المالي بإقطاعه الصغير الذي منحه إياه نور الدين، وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره^(١). ولقد نتج عن هذه التربية والتدريب ملك من أعظم الملوك الذي ذكرتهم الإنسانية، وسطر التاريخ أمجادهم بين ثنياه، وافتخر بإنجازاتهم.

وسار صلاح الدين على نهج والده في الاهتمام بتربية أبنائه، فمن حرصه ﷺ على تربيتهم وتعليمهم، أن سلّمهم لشيخ أفاضل ليعلّموهم، ويُرَبُّوهم أمثل تربية، فقد رُوي أن السلطان لَمَّا رُزق بابنه الملك العزيز عثمان؛ ختنه، وسلّمه إلى صدر الدين بن المجاور معلّمًا له^(٢).

ومن صور تربيته وتعليمه لأبنائه أنه كان إذا سمع حديثاً من شيخ ذي رواية عالية أسمعها أولاده ومماليكه، وكان يأمرهم بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له^(٣)، وقد أمر الفقيه أبا المعالي النيسابوري بأن يجمع له عقيدة فيها كل ما يحتاج إليه في أمور دينه، وحفظها أولاده الصغار حتى تترسخ في أذهانهم من الصغر^(٤).

وكان ﷺ يهتم كثيراً بتشجيع الأطفال على حفظ القرآن وتلاوته، فقد روي أنه اجتاز يوماً على صبي صغير بين يدي أبيه، وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته، فقرّبه، وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه مزرعة^(٥).

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٥.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧٠.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٩.

(٤) وفيات الأعيان: ٥ / ١٩٥، ١٩٦.

(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٩؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٩.

كما كان ﷺ يُربِّي أولاده على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ومن ذلك حرمة دم المسلم، ومما يدلُّ على ذلك أن بعض أولاده وخدمه طلبوا منه أن يأذن لهم في قتل أسير، وتجريب سيوفهم بجرح الأسرى فلم يأذن لهم، ف قيل له: لأي سبب منعتهم من ثواب الجهاد؟ فقال: (لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء، وهم الآن لا يُفرِّقون بين المسلم والكافر)^(١).

ومن الدعاة العلماء الذين اهتموا بتعليم الأطفال، وتربيتهم، الشيخ ابن قدامة، فقد قال عنه أخوه الشيخ الموفق: (ربانا أخي، وعلمنا، وحرص علينا، كان للجماعة كالوالد، يحرص عليهم، ويقوم بمصالحهم)^(٢).

وكان ﷺ متفهِّماً لطبيعة الأطفال، وحاجتهم إلى اللعب، ومما يدلُّ على ذلك أن طلابه كلّموه في صبيان يشتغلون عليه أنهم يلعبون في درسه، فقال: (هم صبيان، ولا بد لهم من اللعب، وأنتم كنتم مثلهم)^(٣).

خامساً: الاهتمام بالترفيه:

اشتمل الدين الإسلامي على جميع جوانب الحياة، ولبّي جميع احتياجات النفس البشرية، لذا دعا المسلم إلى الترفيه واللهو المباح بهدف التقوي على الطاعات والعبادات، ولقد جاء في قصة يوسف ﷺ على لسان إخوته قوله تعالى: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

كما ذكر تعالى مسابقتهم فقال جل وعز: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٨١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٥.

(٣) المصدر السابق: ٢٢ / ١٦٥.

وفي الصحيح: عن جَابِرِ بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غَزَاةٍ فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وَأَعْيَا، فَأَتَى عَلَيَّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «جَابِرِ»، فقلت: نعم، قال: «مَا سَأَلْتُكَ؟» قلت: أَبْطَأَ عَلَيَّ جَمَلِي وَأَعْيَا فَتَحَلَّفْتُ، فَنَزَلَ يَحْجُنُهُ بِمِحْجَنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «ارْكَبْ»، فَرَكِبْتُ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ أَكْمُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «تَزَوَّجْتَ؟» قلت: نعم. قال: «بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟» قلت: بَلْ ثَيِّبًا قَالَ: «أَفَلَا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ» قلت: إِنَّ لِي أَخَوَاتٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تَجْمَعُهُنَّ وَتَمْشُطُهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسترنني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قَدَرَ الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو)^(٢).

وقد رُوِيَ عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لِتَعْلَمَ الْيَهُودُ أَنْ فِي دِينِنَا فُسْحَةٌ، إِنْ أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ»^(٣).

وقد ثبتت في السُّنَّةِ ألوان من الترفيه واللهو المباح كالمسابقة بالأقدام والخيول والمصارعة، والرمي بالسهام، والمداعبة والممازحة، ونحو ذلك مما هو معلوم.

(١) رواه البخاري في كتاب: البيوع، باب: شِراءِ الدَّوَابِّ والحمير، وإذا اشْتَرَى دَابَّةً أَوْ جَمَلًا وَهُوَ عَلَيْهِ هَلْ يَكُونُ ذَلِكَ قَبْضًا قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ؟ وقال ابن عَمَرَ رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم لِعُمَرَ: «بِغْيِيهِ» يَعْنِي جَمَلًا صَغْبًا: ٧٣٩/٢، برقم (١٩٩١).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: اللُّهُو بِالْجِرَابِ وَنَحْوِهَا: ١٠٦٣/٣، برقم (٢٧٤٥). ومعنى الحديث: ينبغي أن يُراعى المرَبِّيُّ شأنَ البنتِ الصغيرة السنِّ، ويُلَبِّي حاجتها إلى اللُّهُو واللَّعِبِ.

(٣) رواه أحمد في مسنده: ١١٥/٤٣، برقم (٢٥٩٦٢)؛ وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح: ٩٤/١.

ولقد علم سلمان أبا الدرداء رضي الله عنه قاعدة التوازن في جوانب الحياة كلها، فقد روي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين سلمان وبين أبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال: ما شأنك متبذلة؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. قال: فلما جاء أبو الدرداء قرب إليه طعاماً فقال: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ قال: ما أنا بِأَكْلٍ حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سلمان: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم، فنام، فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن، فقاماً فصلياً، فقال: إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَا ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»^(١).

وقد نص علماء المسلمين على أهمية جانب الترويح المباح وفائدته في التربية، فقد أشار الغزالي إلى ذلك بقوله: (ترويح النفس بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب، وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول، وهي عن الحق نفور؛ لأنه على خلاف طبيعتها، فلو كُلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت، وإذا رُوحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات. وترويح القلب الغرض منه تهييج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا أكرهت عميت، وهذا أمر لا يستغنى عنه، فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروّح، وفي تكليفها الدوام والملازمة ما يدعو للفتور، وقد قال علي رضي الله عنه: رُوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً، فَإِنَّهَا إِذَا أَكْرَهَتْ عَمِيَتْ)^(٢).

(١) رواه البخاري في كتاب: الصوم، باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له: ٢ / ٦٩٤، برقم (١٨٦٧).

(٢) إحياء علوم الدين: ٢ / ٢٣٩.

ولقد اهتمّ الدعاة الأيوبيون بعنصر الترفيه، فكانت حياتهم متوازنة بين العمل الجادّ مع شيء من الترفيه المباح الذي يجدّد لهم نشاطهم، ويُقوِّمهم على طاعة الله.

من ذلك: ما رُوي أنه كان خارج دمشق ميداناً شديداً الخضرة على نهر بردى، وكانا من أبداع المناظر، وكان يخرج إليهما صلاح الدين، ومن قبله نور الدين ونجم الدين، وكانوا يلعبون فيه بالصوالجة - لعب الكرة من على ظهور الخيل - وكانوا يسابقون بين الخيل فيهما، وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة^(١).

كما روي أنه في سنة (٥٧٧هـ) خيّم السلطان صلاح الدين في بركة الجب للصيد ولعب الأكرة^(٢)، وفي سنة (٥٩٠هـ) ركب للصيد بالجيزة^(٣).

وقبل مَرَضِ السلطان الأخير الذي توفي فيه أخذ ﷺ إجازة أمضاها شرق دمشق في الصيد^(٤).

وهكذا تبين من خلال عرض ما ظهر لي من استخدام الدعاة لأساليب الدعوة في العصر الأيوبي حرصهم البالغ على دفع مسيرة الدعوة إلى الأمام، وجنّي ثمار الجهود المبذولة في ذلك.

ومن أهم الأساليب التي استخدمها دعاة العصر الأيوبي أسلوب القدوة والتمسك بأهداب الخلق الإسلامي وتطبيقاته تمسكاً مَبْنِيّاً على الكتاب والسُنّة، حتى إننا لنحسب أنفسنا جدّ قريبين من التطبيق العملي

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٦.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧١ - ٧٢.

(٣) المصدر السابق: ١ / ١٢٠.

(٤) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٧٦.

لتوجيهات السُّنَّة وآدابها، على الرغم من كثرة الصوارف التي كان الزمان يعجّ بها.

ومنها أيضاً: أسلوب الموعظة الحسنة، فقد اجتهد الواعظون في هذا العصر في تصحيح كثير من المنكرات الشائعة، وفي تهيئة القلوب لقبول النصح والإرشاد، مما أدى إلى تقبُّل الكثيرين لتوجيهات الشريعة، ورجوعهم عن المنكرات.

كما استخدم الدعاة أسلوب الموعظة الحسنة، وعرضت نماذج مُستلَّة من نصوص الوعظ في ذلك العصر، وأحسنوا باستخدام وجوه متنوعة لأسلوب الحكمة، فأثروا في المدعوين أعظم تأثير وأبلغه.

وقد شهد هذا العصر نهضة كبيرة في التربية والتعليم؛ نظراً لدعم الحكّام له، وحرصهم على متابعة مسيرة العلم والعلماء، ولا سيما بعد أن واجهوا إرثاً سقيماً يتمثل في نشر مذهب الرافضة أيام الدولة العبيدية، فكان الملوك والولاة والعلماء مجتهدين في نشر علوم السُّنَّة النبوية، ومذاهبها الفقهية، وتصحيح ما هيمن على البلاد طوال قرون مضت.

ومما سبق يتبيّن أن على الدعاة في كل زمان ومكان أن يجتهدوا دوماً في استخدام الأسلوب المناسب في الوقت المناسب، فأصناف المدعوين مختلفة، والأسلوب الذي قد يؤثّر في بعض المدعوين قد لا يؤثّر في بعضهم الآخر.

المبحث الثالث ميادين الدعوة في عهد الدولة الأيوبية



أمر الشارع الحكيم بالدعوة إلى سبيل الله، والإصلاح بين الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مكان وزمان، ورغب عباده المؤمنين في ذلك أعظم الترغيب. فلا ينبغي للمتممين لهذا الدين، وخاصة من آتاهم الله علماً وقدرة على تبليغ الدعوة وبيانها، أن يعتزلوا الناس، ويخلوا بأنفسهم، أو يعتكفوا في دور عبادتهم، ويتعدوا عن إصلاح المجتمعات، ويتخلوا عن دورهم في تعليم دين الله؛ فالدعوة إلى الدين الإسلامي ليست محصورة بزمان، أو محدودة بمكان، بل هي مصاحبة للداعية، مقترنة به أينما ذهب، وحيثما ارتحل، في مختلف ميادين الحياة وجوانبها.

وخير قدوة لنا في ذلك هو رسولنا ﷺ، فقد كان يدعو إلى الله تبارك وتعالى في كل مكان حتى في السوق أو في الطريق، فها هو عليه أفضل الصلاة والسلام يطوف على قبائل العرب، ويأتي إليهم في منازلهم وأسواقهم وأماكن وجودهم؛ ليدعوهم إلى ما جاء به من الهدى والنور، ويعرض عليهم نفسه في بداية بعثته لنصرته وحمايته حتى يبلغ ما أمر به، غير مبالي بما يلقاه منهم من أذى واستهزاء.

ومن ذلك: ما روي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كنت خلفَ رسولِ الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلامُ إني أعلمُك كلماتٍ: احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجده تُجاهك، إذا سألتِ فاسألِ الله، وإذا استعنتِ فاستعينِ بالله، واعلمُ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعتْ على أنْ يَنفَعوكَ بشيءٍ لم يَنفَعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ

لك، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

ومن ذلك أيضاً: توجيهه لمعاذ رضي الله عنه، وكان معه في أحد الطرقات، ويحكي لنا معاذ رضي الله عنه ما حدث له فيقول: (بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»^(٢).

وقد وعى ذلك دعاة الدولة الأيوبية، فنجد حرصهم على الدعوة الإسلامية في شتى الأماكن وفي مختلف الميادين.

ومن أهم الميادين التي اجتهد فيها الدعاة إلى الله واعتنوا فيها:

- ١ - ميدان المدارس.
- ٢ - ميدان المعارك.
- ٣ - ميدان القصور.
- ٤ - ميدان المسجد.

* * *

(١) سنن الترمذي: ٦٦٧/٤، برقم (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب: الجماعة والإمامة، باب من جاهد نفسه في طاعة الله: ٢٣٨٤/٥، برقم



المطلب الأول ميدان المدارس

اهتم بنو أيوب بإنشاء المدارس ودور التعليم، وهم أول من أحدث المدارس بالفسطاط^(١)، وهذا يُظهر لنا مدى احترامهم للعلم، وما وصلت إليه دولتهم من الرقي^(٢).

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المدارس في هذا العصر إنما نشأت وزاد الاهتمام بها لمواجهة الفكر الشيعي الذي انتشر أيام العبيديين في مساجد مصر ودور العلم ودور الحكمة ومجالس القصر، إلا أن هذا لم يكن الهدف الرئيس الذي من أجله توسّع المسلمون في إقامة مدارسهم، بل هدفوا من وراء ذلك إلى إعداد رجال يستطيعون العمل في مجال الدعوة للتصدّي للأفكار الخارجة على الدين، كما هدفوا إلى نشر العلم الشرعي، وذلك بتدريس القرآن والحديث والسُنّة والفقه، بالإضافة إلى فروع العلوم الأخرى التجريبية والنظرية. ولم يقتصر دور تلك المدارس على التعليم فحسب، بل كانت في الوقت نفسه مساجد تودّي في معظمها صلاة الجمعة^(٣).

وكان من أبرز سمات التعليم في العصر الأيوبي الاتجاه إلى العناية بالقرآن الكريم حفظاً ودراسة وتدریساً، وإنشاء الدور الخاصة بذلك.

ويتحدّث النعيمي عن سبع دور أنشئت لهذا الغرض في كتابه: «الدارس في تاريخ المدارس»، ومن هذه الدور في الشام^(٤):

(١) الفسطاط: مدينة مصر القديمة. الصحاح، مادة (فسط): ٣ / ١١٥٠.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٣ / ٣٩٠؛ الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٤١٤.

(٣) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدكتورة فتحية أنبراوي، ص ٢٤٧.

(٤) انظر: الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٣ - ١٨.

- ١ - دار القرآن الكريم السنجارية التي وقفها علاء الدين علي بن إسماعيل السنجاري.
- ٢ - دار القرآن الكريم الوجيهية التي وقفها وجيه الدين بن المنجا محمد بن عثمان.
- ٣ - دار القرآن الكريم الجزرية، عمّرها محمد بن محمد المقرئ شمس الدين بن الجزري وسَمَّاهَا دار القرآن، وأقرأ الناس بها. واعتُني بالحديث الشريف أيضاً في هذا العهد، دراسة وتدریساً، وأنشئت الدور الخاصة به. ويُورِّخ النعمي لست عشرة داراً خاصة بالحديث لاحظ نشاطها في عهده^(١).

وسأتناول في هذا المطلب الأمور التالية:

- ١ - اهتمام الملوك الأيوبيين بميدان المدارس.
- ٢ - اهتمام الأمراء الأيوبيين بميدان المدارس.
- ٣ - اهتمام علماء بني أيوب بميدان المدارس.
- ٤ - اهتمام نساء بني أيوب بميدان المدارس.
- ٥ - اهتمام الدعاة بتحويل بعض الأبنية إلى مدارس.

أولاً: اهتمام الملوك الأيوبيين بميدان المدارس:

اهتم ملوك بني أيوب بميدان المدارس اهتماماً كبيراً، وأولَّوه عناية بالغة، ومما يدل على ذلك ما جاء في سجل دار الكتب بالمسجد الأقصى، والذي قيل عنه: (إن الناظر في سجل دار الكتب بالمسجد الأقصى يجد أن مصاحف، وكتباً كثيرة قد وقفت عليها منذ العصر الأيوبي)^(٢).

(١) انظر: الدارس في تاريخ المدارس: ١٩/١ - ١٢٢.

(٢) المصدر السابق: ١١٢/١.



ومن أهم الملوك الذين اهتموا بهذا الميدان:

- صلاح الدين الأيوبي: مؤسس الدولة الأيوبية، فقد رُوي أنه لما توحدت مصر مع بلاد الشام كانت قد خربت القيادة العبيدية، فجدّ في تعميرها في جميع المجالات، ويروي أبو شامة جانباً من ذلك فيقول: (عمّر السلطان صلاح الدين المدرسة المجاورة لقبة الإمام الشافعي بالقرافة، والتي درّس فيها الخبوشاني، كما عمّر مدرسة مجاورة لمشهد الحسين، ومدارس للحنفية، وأخرى للشافعية)^(١).

ومن المدارس التي أنشأها ﷺ المدرسة الناصرية الجوانية^(٢)، ومنها أيضاً مدرسة قريية من ضريح توران شاه بالإسكندرية^(٣).

وفي الفسطاط كان صلاح الدين أول من أحدث المدارس فعمر فيها مدرسة للمالكية ومدرسة ابن زين التجار للشافعية، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته، فأنشؤوا مدارس أخرى لتدريس المذهب الشنّي^(٤).

ومن المدارس التي بناها ﷺ: المدرسة السوفية للحنفية، والقمحية للمالكية، وغيرها من المدارس^(٥).

- أسد الدين شيركوه: أنشأ المدرسة الأسدية لطلاب المذهب الشافعية والحنفية بالشرف القبلي ظاهر دمشق، وهي المطلّة على الميدان الأخضر^(٦).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٤٧/٢ - ٤٤٨؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٩٣، ١٨٨؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ٦٣/١؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٧٨/ ٦.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٤٥٨.

(٣) المصدر السابق: ١ / ٧٦.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٣ / ٣٩٠.

(٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٤٣.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١١٤/٢؛ الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ١٥٢.

- الملك العادل: أنشأ المدرسة العادلية الكبرى والتي فيها تربته، وقد بناها بناءً محكماً متقناً، وفيها قدّر الله جمع كتاب «الدارس في تاريخ المدارس»^(١)، كما ألّف أبو شامة كتابه «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» في مكتبة المدرسة العادلية، وصنّف ابن خلكان كتابه «وفيات الأعيان» في هذه المدرسة. وذلك يدل على قيمة هذه المدرسة العظيمة، وأنها كانت تضمّ بين جنباتها مجموعة ضخمة من الكتب في شتى فروع المعرفة بحيث أصبحت تكفي مراجع لتأليف الموسوعات الكبيرة^(٢).

وقد ذكر أبو شامة - الذي كان طالباً فيها - أن أول من ألقى الدرس فيها الفقيه جمال الدين المصري، وحضر أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء، كما حضر الملك المعظم، ودارت المناقشات حول الدرس مع العلماء بياوان المدرسة.

وكان الفقيه جمال الدين المصري يدرّس الفقه بها، وكان قبل بدء درس الفقه يُمهد ببعض الآيات القرآنية، ويفسّرها ويناقشها مع طلبته، وظلّ يسير على هذا المنوال حتى فسّر القرآن بكامله سنة (٦٢٣هـ) وهي السنة التي توفي بها^(٣).

- الملك الأشرف: أنشأ دار الحديث الأشرفية الحنفية في دمشق، وبنى سكناً للشيخ المدرّس بها، وسمع بها «صحيح البخاري» على الزبيدي، ودرّس فيها ابن الصلاح^(٤). كما أنشأ دار الحديث الأشرفية البّرّانية، وقد

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٦٤/٢؛ الدارس في تاريخ المدارس: ٣٦١/١.

(٢) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٩٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٢٢؛ الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٧٨؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١٤٣ / ٥.

بناها للحافظ جمال الدين المقدسي، ودرّس فيها شمس الدين بن قدامة، وولي مشيختها شمس الدين بن الكمال^(١).

- الملك الظاهر: أنشأ المدرسة الظاهرية البرانية في حلب^(٢)، وعند افتتاحها عمل الظاهر دعوة عظيمة لفقهاء حلب وأعيانها، وحضر بنفسه أول درس فيها، وفوّض إدارتها ونظارتها إلى القاضي ابن شداد، وأول من افتتح التدريس بها ضياء الدين محمد بن الحسن العجمي، وظلّت هذه المدرسة في رعاية العلماء من أسرة بني العجمي حتى سقوط حلب بيد المغول^(٣).

- الملك الكامل: بنى على شرف الميدان ظاهر دمشق مدرسة، ووقفها على أصحاب أبي حنيفة، وهي من أحسن المدارس وأنصرها^(٤).

- الملك المعظم عيسى بن العادل: أنشأ المدرسة المعظمية، وأول من ذكر بها الدرس مجد الدين قاضي الطور، وقد عيّن هذا الملك ابنه الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ناظراً لهذه المدرسة.

وكانت هذه المدرسة إلى جانب اهتمامها بتدريس الفقه الحنفي تدرّس الحديث والتفسير والقراءات والنحو والمعاني والبديع والأصول.

ومن أهم الكتب التي درّست بهذه المدرسة: كتاب «الجامع الكبير»، وكتاب «الهداية»، وكتاب «كنز الدقائق»، وأمّهات كتب الحديث، و«الكشاف» في التفسير، و«الكافية» في النحو، وغيرها من الكتب^(٥).

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٤٧.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٣٤٠؛ الأعلام الخطيرة، محمد بن علي بن شداد، تحقيق: يحيى عبارة، ص ٤١٢.

(٣) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٤) ذيل مرآة الزمان: ١ / ١٦.

(٥) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٨٢، ١٠٧.



كما أنشأ الملك المعظم أيضاً المدرسة النحوية في بيت المقدس، ووقف عليها وقوفاً حسنة، وخصّصها للاشتغال بالعربية، ورتب لها إماماً يصلّي الصلوات الخمس، ورتب لها طلبة النحو وشيخاً لهم، وقد استمرت هذه المدرسة تؤدي دورها في الحركة الفكرية منذ إنشائها في أوائل القرن السابع الهجري، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري^(١). وجدّد الملك المعظم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الزاوية النصرية لإقراء القرآن الكريم والاشتغال بالنحو^(٢).

- الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه: بنى المدرسة القاهرية بالموصل، ودُفن بها^(٣).

- الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر: أنشأ دار الحديث الناصرية بسفح قاسيون، وباشر مشيختها الشيخ كمال الدين الشريشي وابنه جمال الدين محمد^(٤).

- الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن شاهنشاه بن أيوب: وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين، بنى مدرسة للشافعية وأخرى للحنفية^(٥)، وبنى المدرسة التّقوية الشافعية، وله بمصر المدرسة المعروفة بمنازل العز، بناها للعلامة شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود الطوسي الشافعي، يقال: إنها كانت دار سكنه، فوقف عليها وقفاً كثيراً، وجعلها مدرسة. وله في الفيوم مدرستان: شافعية ومالكية، وعليها وقف جيد أيضاً، وبنى بمدينة الرها مدرسة^(٦).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ١١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٤) المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ١١٥.

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥ / ٥٥.

(٦) وفيات الأعيان: ٣ / ٤٥٦؛ الكامل في التاريخ: ١١ / ٣٦٦؛ المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٢١٧.

- الملك مظفر الدين كوكبوري: بنى دار الحديث المظفرية، وممن تولى مشيخة هذه الدار أبو محمد عبد القادر الرهاوي، وأبو عبد الله محمد ابن عمر المقدسي^(١).

ثانياً: اهتمام الأمراء الأيوبيين بميدان المدارس:

- سار أمراء بني أيوب على نهج ملوكهم في الاهتمام بميدان المدارس، مُدركين أهميته البالغة في الدعوة إلى الله تعالى، ومن أهم أولئك الأمراء:
- الأمير سيف الدين فارس الدوادار: وقف المدرسة الفارسية، وقرّر فيها لكل أمير في كل شهر خمسة عشر درهماً، وفي كل موسم وعيد لكل واحد خمسة عشر درهماً، وكان يُصرف لكل مدرس ثمانون درهماً، ولكل مقررٍ خمسة عشر درهماً^(٢).
 - الأمير ناصر الدين الحسين بن علي: أنشأ المدرسة القيمرية، ووقفها على القاضي شمس الدين علي الشهرزوري، وممن وليها عبد الله الأذري^(٣).
 - الأمير ركن الدين منكورس: أنشأ المدرسة الركنية البرانية، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وكان من خيار الأمراء، ينزل كل ليلة وقت السحر إلى الجامع وحده، ويواظب على حضور الصلوات فيه مع الجماعة، وكان قليل الكلام، كثير الصدقات^(٤).
 - الأمير أبو الفضائل بدر الدين بن لؤلؤ: وقد درس بها أبو المظفر محمد ابن علوان بن مهاجر الموصلية، ودرس كمال الدين موسى بن منعة^(٥).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٤٢٨.

(٣) المصدر السابق: ١ / ٤٤٣.

(٤) المصدر السابق: ١ / ٥١٩.

(٥) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٦٨.

- الأمير سيف الدين علي بن جندر: أسس مدرسة لتدريس مذهب الإمام مالك، ومذهب الإمام أحمد^(١).
- الأمير سيف الدين أيازكوج: مملوك أسد الدين شيركوه، وأحد أمراء صلاح الدين، أنشأ المدرسة الأزكشية، وجعلها وقفاً لفقهاء الأحناف^(٢).
- الأمير فخر الدين عثمان الياروقي: كان يشغل منصب أستاذ الملك الكامل، بنى المدرسة الفخرية^(٣).

ثالثاً: اهتمام علماء بني أيوب بميدان المدارس:

وقد عني العلماء بإنشاء المدارس والتدريس فيها، ومن العلماء البارزين الذين عُنوا بذلك بهاء الدين بن شداد، فقد كانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس، وليس فيها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى ابن شداد بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعُمّرت في أيامه المدارس الكثيرة. ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدوا الفقهاء من البلاد، وحصل بها الاشتغال والاستفادة، وكثر الجمع بها^(٤).

ومن أهم المدارس التي أنشأها رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على عهد الملك الظاهر غازي المدرسة الصاحبية على المذهب الشافعي^(٥).

ومن أهم المدارس التي أنشأها العلماء:

- المدرسة الحنبلية الشريفة بدمشق: واقفها الشيرازي الفقيه الواعظ

(١) الأعلام الخطيرة: ١ / ١١٣.

(٢) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥١.

(٤) وفيات الأعيان: ٧ / ٨٩ - ٩٠؛ زبدة الحلب في تاريخ حلب: ٣ / ١٣٢.

(٥) الأعلام الخطيرة: ١ / ١٠٢.



شيخ الحنابلة بالشام، كان إماماً عارفاً بالمذهب والفقه والأصول، صاحب عبادة، اشتغل عليه جماعة كثيرون، وكان فقيهاً بارعاً، وواعظاً فصيحاً^(١).

— المدرسة الضيائية المحاسنية: بناها ضياء الدين محاسن، يقول عنه ابن شداد: (كان رجلاً صالحاً، وفقياً عارفاً بالمذهب، وزاهداً، ما نافس في منصب قط ولا دنيا، ولا آذى مسلماً، ولا تنعم في ملبس ولا مأكلاً ولا زاد على ثوب وعمامة)^(٢).

— المدرسة الرواحية: بناها أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة، ووقفها على الشافعية، وفوض تدريسها ونظرها إلى الشيخ تقي الدين ابن الصلاح الشهرزوري، وله في حلب الشهباء مدرسة أخرى مثلها^(٣).

— المدرسة الجاروخية: بناها جاروخ برسم المدرّس أبي القاسم محمود ابن المبارك، أحد العلماء الأذكياء، والمحرّرين في المذهب، تفقه بالمدرسة النظامية، وسمع الحديث من جماعة، وكان ذكياً فصيحاً بليغاً^(٤).

— المدرسة البدرية: أنشأها بدر الدين الهكاري، ووقفها على فقهاء الشافعية في عهد الملك، المعظم عيسى، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة^(٥).

— دار الحديث المهاجرية: أنشأها أبو القاسم علي بن مهاجر الموصلية، ووقف عليها الوقوف الحسنة، والكتب النفيسة^(٦).

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ٢ / ٧٥.

(٢) المصدر السابق: ٢ / ٩٩.

(٣) المصدر السابق: ١ / ٢٦٥.

(٤) المصدر السابق: ١ / ٢٢٠.

(٥) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ١٠٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٧٠ - ٧٢.

– دار الحديث العروية: بالجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي، أول من فتحه شرف الدين محمد بن عروة، وبني فيه البركة، ووقف على الحديث دروساً، ووقف خزائن كتبه فيه^(١).

– مدرسة الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني: فقد بناها بجوار تربة الشافعي، وأوقف على تلك المدرسة أوقافاً، وأعطى في بنائها ألوفاً^(٢).

– دار الحديث الضيائية: أنشأها الحافظ ضياء الدين المقدسي، وأعانه عليها أهل الخير، وجعلها دار حديث، ووقف عليها كتبه التي وُصفت بأنها (كثيرة عظيمة).

وقد نمت كتب هذه المكتبة؛ إذ أوقف عليها مجموعة من العلماء كتباً؛ منهم: ابن الحاجب وابن سلام وابن هائل والحافظ عبد الغني والشيخ علي الموصلي. وقد تجمّع في مكتبة هذه المدرسة من الكتب الوقفية ما دفع بجمال الدين بن عبد الهادي إلى القول بأنه كان بها (كتب الدنيا والأجزاء الحديثية)، وكان فيها مذاهب الأئمة الأربعة، والتوراة والإنجيل^(٣).

ويجدر التنويه هنا بحكم قراءة كتب أهل الكتاب، ويمكن استنباط هذا من الدليل الآتي، فقد روي: أنه جاء عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مَرَزْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَةَ فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَةِ، أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَرَى مَا بَوَّجَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ عَمْرٌ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ

(١) المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٨٢.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٩٦ - ٩٧.

ديناً وبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً. قال: فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قال: «والذي نفسي بيده لو أَضْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْأُمَّمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ»^(١).

وروي عَنْ جَابِرِ ﷺ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَسْخَةٍ مِنَ التَّوْرَةِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ نَسْخَةٌ مِنَ التَّوْرَةِ، فَسَكَتَ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَوَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ يَتَغَيَّرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ثَكَلْتِكَ الثَّوَاكِلُ، مَا تَرَى بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَتَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَمِنْ غَضَبِ رَسُولِهِ، رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو بدأ لكم موسى فاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ، وَلَوْ كَانَ حَيًّا وَأَدْرَكَ نُبُوتِي لَا تَبْعَنِي»^(٢).

قال ابن حجر: (والذي يظهر كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم، والأولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكّن من العلم ويصبح من الراسخين في الإيمان، فهذا لا يجوز له النظر في شيء من ذلك، بخلاف الراسخ فيجوز، ولا سيّما عند الاحتياج إلى الردّ على المخالف. ويدلّ على ذلك نقل الأئمة قديماً وحديثاً من التوراة، وإلزامهم اليهود بالتصديق بمحمد ﷺ بما يستخرجونه من كتابهم، ولولا اعتقادهم بجواز النظر فيه لما فعلوه وتواردوا عليه، وأمّا غضب الرسول ﷺ فهو من فعل ما هو خلاف الأولى إذا صدر ممن لا يليق منه ذلك)^(٣).

(١) رواه أحمد في مسنده: ٤٧٠/٣، برقم (١٥٩٠٣)؛ صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٦٢٨/٧ وقال: حسن لغيره.

(٢) رواه الدارمي في سننه، تحقيق: حسين الأسد: ٤٠٣/١، وقال: الحديث حسن.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ١٣ / ٥٢٦.

- ومن المدارس التي أنشأها العلماء: مدرسة القاضي الفاضل بالقاهرة للشافعية والمالكية، وكان فيها قاعة للإقراء، وقد قرأ بها الإمام الشاطبي ناظم الشاطبية، ثم تلميذه أبو عبد الله القرطبي. وقد بلغ من عناية القاضي الفاضل بهذه المدرسة أن أوقف عليها خزانة كتب نفيسة ضمت أمهات الكتب الأصول^(١).

كما بنى بالقاهرة مدرسة بدر بملوخية، وقد استفتح التدريس بها يوم السبت مستهل المحرم من سنة ثمانين وخمسمئة^(٢).

- المدرسة الجوزية: أنشأها محيي الدين عبد الرحمن بن الجوزي في أيام الملك الصالح عماد الدين^(٣).

- المدرسة الدخوارية: وواقفها هو الطبيب المشهور عبد الرحيم بن علي بن حامد الدمشقي الملقب بالدخوار، والذي انتهت إليه معرفة الطب، وكان بارعاً في ذلك المجال، وصنف فيه التصانيف، وقد أوقف داره على الأطباء بدمشق، وأوقف عليها عدداً من الضياع، وأماكن أخرى تدُّ دخلاً وفيراً للصرف منه على الأطباء والطلاب، وكانت تلك المدرسة أشبه بكلية الطب، وظلت تقوم بدورها في تدريس الطب زمناً طويلاً^(٤).

رابعاً: اهتمام نساء بني أيوب بميدان المدارس:

لم يكن الاهتمام بميدان المدارس مقصوراً على رجال الدولة الأيوبية، بل اهتمت النساء الأيوبيات بهذا الميدان العظيم، وذلك لإدراكهن لأهمية دوره البالغ في مجال الدعوة إلى الله.

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٩٢؛ تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٢٥٠.

(٢) وفيات الأعيان: ٣ / ١٦٢.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ٢ / ٣٠.

(٤) المصدر السابق: ٢ / ١٢٧؛ الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٨٩.



ومن أبرز النسوة اللاتي اعتنن بهذا الميدان:

- الخاتون ست الشام ابنة نجم الدين أيوب، أخت السلطان صلاح الدين: كانت كثيرة البر والإحسان والصلاة وبابها ملجأً للقاصدين، أنشأت المدرسة الشامية البرانية، وهي من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأوقافاً، درّس فيها تقي الدين بن الصلاح^(١).
- وأنشأت أيضاً المدرسة الشامية الجوانية، وقد درّس فيها الشيخ تقي الدين بن الصلاح، وتاج الدين بن أبي عصرون^(٢).
- ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب، أخت السلطان صلاح الدين. زوجة مظفر الدين: قدمت إلى دمشق، وفي خدمتها العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، فأحببتها، وحصل لها من حبها أموال عظيمة، ونصحتّها ببناء المدرسة صاحبة بسفح قاسيون، فبنتها ووقفها على الحنابلة^(٣).
- صاحبة ضيفة خاتون بنت الملك العادل، وزوجة الملك الظاهر صاحب حلب: أنشأت مدرسة الفردوس، وألحقت بها رباطاً، وجعلت فيها مجموعة من الفقهاء والطلبة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة، وتعدّ هذه المدرسة من أكبر مدارس حلب، وتعاقب على التدريس فيها جماعة من الفقهاء والعلماء^(٤).
- الست الخاتون عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب، بنت أخي صلاح الدين، وأخت فروخشاه: أنشأت المدرسة العذراوية بمدينة دمشق، وهي وقف على الشافعية والحنفية^(٥).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٢٩؛ الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٢٧٧.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٢٩؛ الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٣٠١.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ١٦٢، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠هـ)؛ الدارس في تاريخ المدارس: ٢ / ٧٩، ١١٢.

(٤) الأعلام الخطيرة، ص ٤١٢؛ الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ١٠٠.

(٥) وفيات الأعيان: ٢ / ٤٣٥؛ الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٣٧٣.

- عزيزة خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين، وزوجة السلطان الملك المعظم: أنشأت المدرسة الماردانية، ووقفها، وجعلت شرط وقفها ألا يكون مدرستها مدرساً لغيرها^(١).
- بنت الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل: أنشأت المدرسة المرشيدية، وكان أول من درّس فيها صدر الدين أحمد بن شهاب الدين علي الكاشي^(٢).
- خاتون بنت الملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك زنكي، امرأة الملك الأشرف: أنشأت المدرسة الأتابكية وأوقفها، ولما تُوفيت دُفنت بها^(٣).
- زمرد خاتون: أنشأت المدرسة الخاتونية البرانية، وقد سمعت الحديث من أبي الحسن علي بن قبيس، واستنسخت الكتب، وحفظت القرآن الكريم، وبنت المسجد الكبير بصنعاء، ووقفت مدرسة كبيرة للحنفية، وجاورت المدينة المنورة، فماتت، ودُفنت هناك بالبقيع^(٤).
- والدة الملك الصالح إسماعيل: أنشأت المدرسة الشامية البرانية، ودرّس فيها تقي الدين بن الصلاح^(٥).
- السيدة عاشوراء زوجة الأمير أيازكوج الأسدي: وإليها تنسب المدرسة العاشورية، وقد أوقفها على فقهاء الحنفية^(٦).

(١) المدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٩٢.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٥٧٦.

(٣) المصدر السابق: ١ / ١٢٩.

(٤) المصدر السابق: ١ / ٥٠٢.

(٥) المصدر السابق: ١ / ٢٧٧.

(٦) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٢٥١.

خامساً: اهتمام الدعاة بتحويل بعض الأبنية إلى مدارس:

حرص الأيوبيون على إنكار ما يجدونه من منكرات في دولتهم، وتحويل بعضها إلى مدارس لتدريس العلم الشرعي.

من ذلك أنه بعد سقوط دولة العبيديين كان بمصر دار سجن تُسمّى (دار معونة) يُحبس فيها مَنْ يُراد حَبْسه، فأمر صلاح الدين بهدمها، وأزال ما كان فيها من الظلم، وبنها مدرسة للشافعية، وكان ذلك في سنة (٥٦٦هـ)^(١).

وبعد فتح بيت المقدس قام صلاح الدين بتحويل كنيسة القديس حنّا إلى مدرسة للشافعية، وعيّن الفقيه مجد الدين طاهر الكلابي الحلبي أول مدرس لها، وقد عُرفت فيما بعد بالمدرسة الصلاحية^(٢).

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً أنّ الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن العادل قام بشراء دارٍ للأمير صارم الدين قايماز النجمي، وكان بها حَمّام، فحوّل تلك الدار إلى دار حديث، وهدم الحَمّام، وبناه سكناً للشيخ المدرس بها، وجعل شيخها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الذي أملى بها الحديث^(٣).

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١٨٠/٢؛ الكامل في التاريخ: ٣٦٦/١١.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٢٢.

المطلب الثاني ميدان المعارك

استغلّ الدعاة الأيوبيون أرض المعركة ميداناً خصباً للدعوة إلى الله تعالى؛ وذلك لإدراكهم حاجة الجند وقادتهم للتوجيه والتذكير بفضل الجهاد، وأهمية إخلاص النية فيه لله تعالى، وتجديد التوبة؛ فقد تكون تلك اللحظات هي اللحظات الأخيرة بالنسبة لهم.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن العلماء والفقهاء في حصار عكا كانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامي بين الجند، ويبثون الشجاعة في نفوسهم، ويذكرونهم بما أعدّه الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم، ويستشهدون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ ليرفعوا من روحهم المعنوية، ويزيدوا من مصابرتهم في الجهاد، وكان القراء يقرؤون القرآن، ويحذرون الجند من الفرار^(١).

ويوجّه قائد الجيش صلاح الدين جنده بعد فتح اللاذقية فيقول لهم: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون في طاعته بالفرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وامثال أمره فيه بالانقياد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع أهل الأرض، ذات الطول والعرض؛ لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال بأعداد الأعداء^(٢).

وكان الدعاة يدعون الأسرى إلى الإسلام قبل أن يقيموا عليهم الحد الشرعي، فقد روي أنه قُتل كلُّ مَنْ أُسِرَ في معركة حطين من جنود ملل الصليبيين (الداوية والإستبارية) بعد عرض الإسلام عليهم أولاً ورَفُضِهِمْ^(٣).

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٣٠ - ٣٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٩٠.



وثمة موقف حدث بعد غارة من الغارات يُبيِّن مدى حرص الدعاة على التوجيه والنصح في كل وقت، وكل ميدان، يقول أبو شامة: (أغار عسكر حلب على عسكرنا في مدة مقامنا على عزاز، فأخذوا على حين غرة وغفلة ما تعجّلوه وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم، فما أدركوا إلا فارساً واحداً، فأمر السلطان بقطع يده. فقلت للمأمور وذلك بمسمع من السلطان: تمهّل ساعة لعله يقبل مني شفاعاة. ثم قلت: هذا لا يحلّ، وقدرك بل دينك عن هذه يجلّ. وما زلت أكرّر عليه الحديث حتى تبسّم، وعادت إليه عاطفته ورّجِم، وأمر بحبسه، وسرّني سلامة نفسه.

ثم دخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال: ما هذا الفشل والونى، وإن سكّتم أنتم، فما أسكت أنا. ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال: لِمَ لا يُقتل هذا الرجل، ولماذا اعتقل؟! فوعظه السلطان واستعطفه، وسكّن غيظه وتعطفه، وتلا عليه: ﴿وَلَا نَزْرُ وَأَزْدٌ وَلَا أٰخْرٰى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وأطلق سراحه، وتمّ في نجاته نجاحه^(١).

وتأكيداً لهذا الأمر العظيم، أمر الدعوة إلى الله في كل ميدان؛ يُطلعنا التاريخ الأيوبي على الحادثة التالية:

ففي سنة (٥٧٦هـ) هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وتوجّه إلى بلد الروم، فأصلح بين نور الدين محمد قرا أرسلان وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قليج أرسلان بن سعود، واجتمعوا على نهر يقال له: (كوك سو)، وكثرت ثمّ الهدايا والدعوات والأفراح والهبات^(٢).

وهكذا فإن على الدعاة اليوم أن يهتموا بميدان المعركة ويولوه عناية كبيرة، فذلك بلا ريب سيؤدي إلى نتائج دعوية عظيمة.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ٥٥.

المطلب الثالث ميدان القصر

من أبرز الميادين التي حرص الدعاة الأيوبيون على الدعوة فيها: القصر، وأشهر الدعاة الذين يُذكرون في هذا المجال صلاح الدين الأيوبي وأولاده ووزراؤه، وثمة مواقف كثيرة تؤكّد ذلك، وقد تخيّرْتُ منها الآتي:

لقد كان من أبرز مجالات الدعوة في القصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد حرص صلاح الدين على ملاحظة مستشاريه، ومدى تمسّكهم بالصلاح والمعروف، وقد ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أن صلاح الدين وجد مرة في مكتب مستشاره العماد دواة حبر محلّاة بالفضة، فما كان من صلاح الدين إلا أن أنكر عليه هذا الاستعمال، وبيّن له عدم جواز ذلك، فأجابه العماد أنّ في جواز ذلك وجهاً ذكره أبو محمد الجويني^(١).

وذكر المؤرخون أن مجالس صلاح الدين في القصر ما كانت تعرف الباطل والمزح الفارغ، قال الذهبي: (ولم يكن لِمُبْطَلٍ، ولا لِمَزَّاحٍ عنده نصيب)^(٢).

وكانت مجالسه في قصره حافلة بأهل العلم يتذكرون في نصوصه وآفاقه، وهو يُحسن الاستماع والمشاركة^(٣).

ويذكر المؤرخون أن الملك الكامل بن صلاح الدين كان عالماً من علماء الحديث، حريصاً على علمه ونقله، وللعلم عنده مكانة عظيمة، وذكر

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق: ٢١ / ٢٨٨.

(٣) المصدر السابق: ٢١ / ٢٨٢.



الذهبي أن الشيخ ابن الصفرأوي خرّج له أربعين حديثاً، وكان يحرص على نيل إجازات العلم من المشايخ، وعلى الاجتماع بالعلماء^(١).

أما الملك الأمجد فقد عُرف بأنه كان شاعراً، وله نظم رائع، وديوان^(٢).

وقد شهدت هذه القصور الأيوبية التخطيط البعيد لجهاد الدولة مع الصليبيين، كما شهدت استقبال أهل العلم، كما شهدت هذه القصور احتضان الوزراء الصالحين كالقاضي الفاضل، الذي عُرف عنه البذل والكرم وحب العلم، وتقديم العلم الخالص للملك صلاح الدين.

وتقع في القصر عدد من الحوادث الدالة على سعة صدر السلطان، وتغاضيه عن هفوات وأخطاء غلمانه وأتباعه، تربية له منهم على الأخلاق الكريمة، وتنبهها لأهل القصر على ما ينبغي أن يكون عليه الداعية الحق.

فقد رُوي أن السلطان صلاح الدين كان يوماً جالساً، وإلى جانبه بعض الغلمان يلعبون، فرمى أحدهم بحذاء، فأخطأته، ووقعت بالقرب من السلطان، فالتفت صلاح الدين إلى الجهة الأخرى، وكأنّه تغافل عنها وعن صاحبها^(٣). ولا يخفى على أحد أن السلطان كان في إمكانه أن ينتقم لنفسه من هؤلاء العابثين، ولكنه تغافل عن حظّ نفسه، وكان شيئاً لم يكن.

ورُوي أنه طلب مرّة الماء فلم يُخضِرْ له أحد شيئاً، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال: (يا أصحابي والله قد قتلني العطش)، ولم يُنكر على خَدَمته التمهّل في إحضار الماء^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ١٢٨.

(٢) وفيات الأعيان: ٢ / ٤٥٣.

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩٢.

(٤) الكامل في التاريخ: ٩٦/١٢.

ويذكر أبو شامة أنه كان لصالح الدين إماماً يُصَلِّي به، وهو يكتب له مثل خطّه، فاستغلّ الإمام ثقة صلاح الدين وزوّر لأصدقائه أوامر سلطانية بمنحهم أموالاً، وكان صاحب الديوان ومُتولّي الخزائن يشكّ في أنّ التوقيع صحيحٌ، ودام هذا الأمر سنين طويلةً، ثمّ انكشف أمره لدى السلطان، وجلسُ أمراء السلطان يُغرونه به، فقال له مستشاره العماد سراً: (تهبه للقرآن)، فقال: (نعم)، ونفّس من خناقِهِ، وأمر بإطلاقِهِ^(١). والسلطان في ذلك يُقيل عشرة ذوي الهيئات، وكان يستطيع أن يفتك به أشدّ الفتك، ولكنه نهج منهج العفو مجتهداً في ذلك.

وفي مرضه الأخير الذي مات بعده بمدةٍ قليلةٍ، جلس مُسنداً ظهره إلى وسادة وطلب ماءً، فأحضر له ماء فاتر فوجده شديد الحرارة فطلب تعديله، فعرض له ماء شديد البرودة، فلم يغضب ولم يقل سوى هذه الكلمات: (سبحان الله، لا يمكن لأحدٍ تعديل الماء!). يقول القاضي ابن شداد والذي حضر ذلك الموقف: (فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منّا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: أبصر هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مُفارقتها، والله لو أنّ هذا صدر من بعض الناس كان قد ضَرَبَ بالقَدَحِ رأسَ مَنْ أحضره)^(٢).

ولقد اقتدى الملك العادل بأخيه صلاح الدين في الاهتمام بهذا الميدان فنجده يهتم بدعوة وزيره النصراني إلى الإسلام، ويحرص على ذلك حتى أسلم. فقد روي أنه وزر للملك العادل أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال، مدة يسيرة، وكان نصرانيّاً، فأسلم على يده بعد عوده مع الأفضل علي بن صلاح الدين إلى مصر^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٩٨.

(٢) المصدر السابق: ٤ / ٣٦٠؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ٤١٧.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٩٢.



المطلب الرابع ميدان المسجد

للمسجد مكانة خاصة في الإسلام، فهو ميدان للدعوة بالموعظة الحسنة، وجذب العامة إلى آداب الإسلام وأخلاقه، وحلّ المشكلات التي تواجههم في معاشهم، وهو مكان رحب لعبادة الله تعالى وطاعته والتقرب إليه وطلب رضوانه، وهو المكان المقدس الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية، وسطع منه نور الإيمان، وفيه تأخت قلوب المسلمين، واتّحدت رايات الجهاد لإعلاء كلمة الحق تبارك وتعالى؛ لذلك حبا الله المسجد فضلاً عظيماً، وأعلى مكانته، وأضافه لنفسه سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

قال القرطبي: (والمراد البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة، وقال سعيد بن المسيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، فهذه الأعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد لغيره بها، وقال ابن عباس: المساجد هنا مكة التي هي القبلة، قال القرطبي: والقول الأول أظهر هذه الأقوال)^(١).

لذا تبوّأ المسجد منزلة عظيمة في قلوب المسلمين، فهو المكان الذي به تزكو نفوسهم، وتطمئن قلوبهم، وتتألف أرواحهم، يجتمعون فيه بقلوبٍ عامرة بالإيمان، خاشعين متذللين بين يدي الخالق المئان، وهو الميدان الرحب الذي يدعون فيه لشرع الله القويم، أمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، واعظين، معلّمين، مرشدين الإنسانية إلى ما فيه الخير والصلاح والفوز في الدارين.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢١ / ٢٩٧.

وعلى هذا فإن رسالة المسجد متنوعة، تشمل مجالاتٍ مختلفة، تهدف إلى نشر القيم الإسلامية، وغرس الآداب والأخلاق الحميدة، وتقويم حياة المسلم وتصحيح ما اعوجَّج من سلوكه.

ولقد تبوّأت المساجد مكانة عظيمة في عهد الأيوبيين، ووردت الكثير من الأخبار الدالة على عظيم عنايتهم بها؛ وما ذاك إلا لفهمهم العميق لكونها ميداناً عظيماً للدعوة إلى الله تعالى، وإعلاء رايته، ونشر تعاليمه، وإرشاد الخلق إلى ما فيه صلاحهم في حالهم ومآلهم، كما أنه ميدان دعوي عظيم لغير المسلمين، فهو مَعْلَمٌ بارز للمدن الإسلامية يلفت نظر الزوّار غير المسلمين، فهم لم يألفوه من قبل في بلادهم، فتدور في خلدكم أسئلة عن كُنه هذا الشيء ووظيفته، فيدفعهم ذلك إلى البحث والسؤال، والذي قد يؤدي إلى الاقتناع بالدين الإسلامي واعتناقه. كما أن سماعهم للأذان المرفوع من المساجد فيه دعوة لهم إلى التوحيد والإيمان بنبوة محمد ﷺ، لأن الأذان فيه تصريح بوحداية الله تعالى، ونبوة محمد ﷺ، ونقض لعقيدة التثليث الباطلة التي يعتقدها النصارى.

ومن الشواهد على ذلك أنه لما استأذن ملك صقلية من الملك الكامل في الدخول إلى القدس والمبيت فيها ذكر أن أهم أهدافه أن يسمع الأذان، فقد قال: (والله إن أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم بالليل)^(١).

ومن أبرز الشواهد على اهتمام الأيوبيين بالمساجد ما ذكره عن وجود (٦٦٠) مسجداً في دمشق^(٢).

(١) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ٢٣١/١.

(٢) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، الدكتور عبد الرحمن المزيني، ص ٧٧.



ومن أهم المساجد التي اعتنى بها الأيوبيون المسجد الأقصى، وقد رُوي الكثير من أخبار اهتمام الأيوبيين به؛ من ذلك أن صلاح الدين أمر بتعمير محراب له وترخيمه وتكميل حسنه وتتميمه، ووضع منبراً رسمياً في أول يوم قضى به الفرض. واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق، بحسنة لائق، وبجماله شائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك نور الدين محمود بن زنكي لبيت المقدس قبل فتحه بنيّف وعشرين سنة، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب، فحُمِل وعُمِل على ما أمر به وامتل (١).

وقد أمر السلطان بتنظيف ما حول المحراب من أفنية بحيث يجتمع الناس للجمعة في الساحة المتسعة، وفُرشت البسيطة بالبُسط، وتُلي التنزيل، وعُزل الإنجيل، وصُفّت السجادات، وصُفّت العبادات، وأُقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخُرس الناقوس، وعاد الإيمان الغريب إلى موطنه، واجتمع الزهاد والعباد، وتوافد الرُكّع والسجّد، وصدح المنبر، وأبكى الوعّاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء (٢).

وروي أنه رُتب لقبة الصخرة إماماً، وحمل إليها مصاحف وختمات، ورُتب قائمين بأمرها لرعاية مصالحها. كما أمر بإزالة ما في المسجد الأقصى من آثار النصرانية، وغُسلت الصخرة بعدة أحمال من ماء الورد، وبُخّرت وفُرشت، ورُتب في المسجد مَنْ يقوم بوظائفه، وجُعِلت به مدرسة للفقهاء الشافعية، وأغلقت كنيسة قمامة، ثم فُتحت، وقُرّر على مَنْ يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤدونها (٣).

ولقد تنافس بنو أيوب فيما يُؤثرونه في بيت المقدس من الآثار الحسنة،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٩٢.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ٣٧٧ - ٣٨٢.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٩٧.

وفيما يجمع لهم ودّ القلوب، وشكر الألسنة؛ فيُحكى أن الملك المظفر تقي الدين عمر حضر يوماً إلى قبة الصخرة ومعه ماء الورد ومال الصدقة، فتولّى بيده كَسَسَ تلك الساحات، ثم غسلها مراراً، ثم أتبع الماء بماء الورد، وكذلك طهّر حيطانها، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب وبخّرها، ثم فَرَّقَ ذلك المال على ذوي الاستحقاق. أما الملك الأفضل فقد فرش فيها الفرش الرفيعة، واعتمد بناء أسوار القدس، وحفر خنادقه^(١).

ومن المساجد التي اعتنى بها في هذا العصر المسجد النبوي الشريف، فقد ورد في الأخبار أن صلاح الدين أرسل (٢٤) خادماً خصياً لخدمة الحرم النبوي، وجعل عليهم شيخاً اسمه بدر الدين الأسدي، وكان هؤلاء بداية فئة الأغوات التي توالى على خدمة المسجد النبوي في الأجيال التالية، وارتبط اسمها باسمه، وأوقف لهم صلاح الدين قريتي قبالة ونقادة في صعيد مصر؛ ليكون دخلهما رواتب دائمة لهم ولِمَن يخلفهم^(٢).

ومن الأعيان الذين اهتموا بهذه الوسيلة الوزير ابن شكر فقد روي أنه عمّر جامع المزة، وجامع حرستا، وأنفق على أرضه مالاً كثيراً لتجهيز البلاط المناسب لساحاته ثم التفت إلى الفوّارة، وهي مجمع المياه؛ لتكون بين أيدي المصلين، وبعد ذلك تفرغ لبناء المصلى نفسه^(٣).

ونظراً لاهتمام القادة المسلمين بالمساجد اهتم بها بعض القادة من النصارى، واعتبروها وسيلة لكسب المسلمين الخاضعين لسيطرتهم. ومن ذلك مسجد القسطنطينية الذي دارت بشأنه العديد من السفارات بين صلاح

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٩٩؛ الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٤١.

(٢) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٨٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٢٩٥.



الدين وإمبراطور الروم، والذي كان يُبدي اهتمامه بهذا المسجد، وقد أرسل صلاح الدين من أجل ذلك إماماً وخطيباً للمسجد^(١). ولقد كان لدخول الإمام والخطيب إلى القسطنطينية أثر في إظهار الإسلام، وقد وصف ذلك ابن شداد فقال: (... وكان يوم دخولهم - أي الإمام والخطيب - يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار، ورقى الخطيب المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الإسلامية)^(٢).

وهكذا استطاع المسلمون لفت انتباه السلطة الرومية إلى أهمية المسجد في الإسلام، ومكانته في قلوب المسلمين، فحاز على اهتمامها وعنايتها، فساعد بذلك على تذليل المصاعب، وتمهيد الطرق أمام الدعوة الإسلامية لنشر تعاليمها في ذلك المجتمع.

ونظراً لكون المسجد ميداناً دعوياً مهماً في الدولة الإسلامية فإن أهم دور يقوم به هو تقديم الوعظ والإرشاد والنصح عن طريق الخطب والدروس والمواعظ، والتي تكون موجهة للمسلمين وغيرهم. وقد اشتهر في هذا العصر الكثير من الخطباء والوعاظ، ونشطوا كثيراً في إلقاء ما عندهم في مساجد هذا العصر^(٣).

وبعد: فهذه بعض الأمثلة عن عناية الأيوبيين بهذا الميدان العظيم، ودوره العظيم في مجال الدعوة إلى الله، وإرشاد المدعوين إلى طريق الخير والرشاد.

وهكذا بدت صورة اهتمام الأيوبيين بميادين الدعوة واضحة للعيان، فبنوا المساجد العظيمة، واتخذوا من المدارس، والقصور، وأرض المعركة

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: أشهر الوعاظ والخطباء، ص ٢٠٤ - ٢٠٦.



ميادين لنشر تعاليم الشريعة الكريمة، وأخلاق الإسلام الغراء، فكانت تلك الميادين بحق محضناً مناسباً للحائرين، ومشاعل منيرة للسائرين، أرشدتهم إلى ما فيه صلاح الدارين، وأضاءت لهم دروب الهداية في هذه الحياة. فحريّ بكل من نذر نفسه للدعوة إلى الله أن يقتدي بهؤلاء الدعاة الأفاضل، وأن يدعو إلى الله في كل مكان يراه مناسباً لإرشاد الخلق وإصلاحهم منتهزاً الفرص المواتية، فالفرصة إن ضاعت قد لا تعود ثانية، فيندم الداعية على تفويتها، ولات ساعة مندم.

* * *



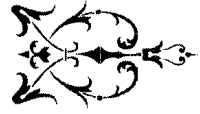
الفصل الخامس

معوقات الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

• معوقات داخلية.

• معوقات خارجية.

المبحث الأول معوقات داخلية



اعترض مسار الدعوة الإسلامية في العهد الأيوبي معوقات كان لها بعض الأثر في نشاط مظاهر الدعوة وتعثرها.

ولعل هذا أمر طبيعي في تاريخ كل دعوة صالحة إلى سواء الصراط، ولم تَحُلْ منها الدعوة في العهد النبوي نفسه، مع كونها معززة بالنبوي المعصوم ﷺ المسدّد بالوحي.

ومعظم هذه المعوقات في العصر الأيوبي ناشئة من ضخامة الموروثات السيئة التي ورثتها من جراء انحرافات قديمة متجذرة.

وسوف أعرض في هذا الفصل ما أعتقد أنه من أبرز هذه المعوقات، وكيف اجتهد ملوك هذه الدولة في التغلب عليها، وتثبيت المسار الصحيح للدعوة.

ولقد كان من أبرز العوائق التي اعترضت مسيرة الدولة الأيوبية:

- ١ - الفرق الضالة: العبيدية - الإسماعيلية.
- ٢ - التعصب المذهبي.
- ٣ - الضعف الديني ومظاهره.
- ٤ - الخلط بين السنة والبدعة.
- ٥ - التنافس بين الأمراء الأيوبيين وموقف العلماء منه.
- ٦ - الترف.
- ٧ - الجوائح.



قبل البدء بالحديث عن المعوقات سأذكر تعريف العلماء للعائق:
 - المعوقات لغة: جمع عائق، والعائق: من عاق عن الشيء وعَوَّقَه عنه،
 أي: منعه منه، وشغله عنه^(١).

- وما أعنيه في الاصطلاح: أنَّ العائق هو كل سبب من الأسباب التي
 تقف أمام حركة انتشار الدعوة، أو تُشَوِّه معناها ومضمونها الذي نصَّ عليه
 الكتاب والسُّنَّة، وتصبح هذه الدعوة بهذه العوائق جسماً بلا روح، ولم تُعَدَّ
 تُحَقِّق أغراضها التي أرادها الله ﷻ.

* * *

(١) المعجم الوسيط، مادة (عوق)، ص ٦٣٧.



المطلب الأول الفرق الضالة

كان لظهور عدد من الفرق الضالة في عصر الدولة الأيوبية أثر كبير في إعاقة الدعوة الإسلامية، وإضلال كثير من الناس.

ولقد واجه الدعوة في هذا العصر أتباع هذه الفرق، ووقفوا منهم موقفاً حاسماً، فحاربوهم، وبذلوا جهودهم في القضاء عليهم. ومن أبرز هذه الفرق:

أولاً: العبيدية:

من الفرق الضالة التي آذت الدعوة في هذا العصر وأضلت الناس، وكانت من أبرز العوائق الدعوية أمام الدولة الأيوبية: العبيدية، والتي كان مذهبها شيعياً رافضياً، وقد روت كتب التاريخ ما سببته هذه الفرقة من مصائب عظيمة للأمة الإسلامية.

من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما يرويه الذهبي عن الشيعة الرافضة، وما عملوه في ماتم عاشوراء ومبالغتهم في سب الصحابة رضوان الله عليهم^(١).

وأولئك العبيديون هم في الحقيقة ليسوا عبّيديين، وإنما هم أدياء يُنسبون إلى عبّيد، وكان اسمه سعيداً، وكان يهودياً حدّاداً ببلدة سلمية، وذكرت أشياء كثيرة في قبائحهم، وما كانوا يجهرون به في بعض الأحيان من الكفر وأشكاله^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٤١٦.

(٢) البداية والنهاية: ١٦ / ٤٥٨.

وقد استطاعت الدولة العبيدية منذ القرن الرابع الهجري أن توطّد نفوذها في مصر وجنوب الجزيرة العربية، ومضت في سياستها الرامية إلى تقويض الخلافة العباسية، ونشر الفكر الشيعي، وأرسلوا دعواتهم في شرق العالم الإسلامي وغربه يدعون إلى إسقاط الحكومة العباسية، ويُبشّرون بالعدل والرخاء في ظلّ الحكم العبيدي، واستطاعوا التأثير في صفوف العامة والجيش. واستمرّ هذا الحال حتى قدوم السلاجقة الذين أنقذوا الخلافة العباسية، وعقيدة أهل السُنّة، ولكن العبيديين تحالفوا مع الإسماعيلية الباطنية، ومضوا في تأليب عامة المسلمين، وإثارة الفتن وتنفيذ الاغتيالات^(١).

وقد حرص الأيوبيون على القضاء على هذه الدولة؛ لأنّ لهم انتماءً مذهبيّاً ضالّاً في ظلّ دولة عاشت مئات السنين تروّج لمبادئها، وكان قضاء صلاح الدين عليهم بمنزلة توفيق من الله أتاح لهذه المبادئ الضالة الانحسار، كما أتاح لمذهب أهل السُنّة والجماعة الانتشار، وأراح العالم الإسلامي من شرّهم ومكايدهم.

وقد انقطعت الخطبة العباسية بمصر سنة (٣٥٨هـ)، وعادت سنة (٥٦٧هـ)، وفي هذه السنة استقرت قدم بني أيوب في مصر^(٢).

وفي اليمن أصبح النفوذ العبيدي مهّدداً منذ قضاء صلاح الدين على الخلافة العبيدية، فقد أرسل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أخاه شمس الدولة توران شاه على رأس حملة عسكرية إلى اليمن للقضاء على دولة بني مهدي بزويد، والتي كانت تناصر العبيديين^(٣).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١ / ١٢٢.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٦٩؛ النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، الدكتور محمد

وقام العبيديون بعد أن أسقط صلاح الدين ملكهم بعدة محاولات بهدف استعادة ملكهم، ففي سنة (٥٦٩ هـ) قامت جماعة من الشيعة في مصر بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة العبيدية بمصر، وقد خططوا لذلك بالتحالف مع الصليبيين لمساعدتهم في القضاء على صلاح الدين ودولته، وذلك باستدعائهم ليهاجموا مصر من الشام، فينشغل بهم صلاح الدين، وبذلك يتيسر لأولئك المتآمرين تنفيذ ما يريدون. وكان على رأس هؤلاء المتآمرين الشاعر عمارة اليمني وعبد الصمد الكاتب والقاضي هبة الله العويرس وغيرهم من جند المصريين^(١).

ولعل مما يُثير الدهشة من أمر هذه المؤامرة أن يكون بعض قادتها من الفقهاء الذين تناسوا دورهم الرئيس في الجهاد ضدّ الصليبيين، وانساقوا وراء الهوى الذي لا طائل من ورائه سوى تمزّق وحدة المسلمين في هذه المدة العصيبة التي تمرّ بها الأمة الإسلامية.

وقد تمّ الكشف عن هذه المؤامرة بأمر الله عن طريق أحد الفقهاء المخلصين لصلاح الدين، والحريصين على مصلحة الدولة الإسلامية، وهو الفقيه الواعظ زين الدين بن نجا، فقد وثقوا به، وأطلعوه على نياتهم، وكان يُناجيهم فيما زُين لهم من سوء أعمالهم، ويُداخلهم في عزم خروجهم على الدولة^(٢)، فلما شعر ابن نجا بخطورة أمرهم قام بإخبار صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة، فأمره بمخالطتهم، وإخباره بما يتجدّد من عزائمهم، ففعل ذلك، وصار يخبره بكلّ ما رغبوا فيه، ثم إن صلاح الدين أمر بالقبض عليهم لمّا تأكّد من صحة ما نقله له الفقيه ابن نجا وأمر بصلبهم، والقضاء عليهم، وبذلك سكنت الفتنة.

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) المصدر السابق: ٢ / ٢٨٣.

وقد قرَّب السلطان زين الدين بن نجا، وأحسن إليه، وكان يستشيرَه، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لتقديم معرفته، وكريم سجاياه^(١).

وبعد أن انتهى صلاح الدين من أمر المتآمرين اعتقل أهل القصر بداية، ثم نُقلوا إلى أماكن مختلفة، وأعطى القصر لأخيه العادل، ذلك لأنَّ صلاح الدين رأى أنهم مهما بقُوا فيه فهم مادة لا تنحسر الأطماع عنها، فإن القصر حباله للضلال، منصوب للبدع والمؤامرات^(٢).

وبالرغم من قضاء صلاح الدين على الخلافة العبيدية إلا أنه كان لا يزال يُعَدُّ جند مصر وأهل القصر العبيدي أعداءً لدولته، ويتوقع منهم القيام بعمل ضده لذا كان متحرِّزاً منهم، فوضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار.

ومما يدلُّ على شدة حذره من هؤلاء الأعداء أنه أمر بإدخال العيون عليهم من جماعتهم، يقول المؤرخ أبو شامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (فدسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم)^(٣).

ومع ذلك استمرَّ عملهم سرِّياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة، فكان لا يمرُّ عليهم شهرٌ ولا سنةٌ إلا وهم يُدبِّرون المكائد، ويعقدون الاجتماعات، ويعثون الرسل إلى الصليبيين؛ ليُنسِّقوا معهم ما يعتمل في أنفسهم من تأمرٍ وكيد^(٤).

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٨٢/٢ - ٢٨٤؛ الكامل في التاريخ: ٥٣/١٠ - ٥٤؛ سير أعلام النبلاء: ٥٩٤/٢٠؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٥٣.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٢١/١؛ وانظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ٥٣/١.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١ / ٢٢١.

(٤) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٦٩.



وبالرغم من كل هذه الحيلة فقد ثار الشيعة أشياع العبيديين أكثر من مرة في محاولة لإعادة الخلافة العبيدية لحكم مصر، فقد رُوي أنه ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة، عدّتهم اثنا عشر رجلاً ليلاً، ونادوا بشعار العلويين: يا آل علي، وسلكوا الدروب ينادون، ظناً منهم أن رعية البلد يُلبّون، ويملكون البلد، فلم يلتفت أحدٌ منهم إليهم، ولا أعارهم سمعه، فلما رأوا ذلك تفرّقوا خائفين. فكتب بذلك إلى صلاح الدين، فأهمّه أمرهم وأزعجه، فدخل عليه القاضي الفاضل، فأخبره الخبر فقال له: (ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتمّ، حيث علمت من بواطن رعيّتك المحبّة لك والنصح، وترك الميل إلى عدوّك، ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيّتك، وخسرت الأموال الجليلة عليهم، لكان قليلاً... فسُرّي عنه)^(١).

وفي محاولةٍ أخرى لإعادة الدولة المصرية للحكم رُوي أن إنساناً يُقال له: (الكنز) نرح إلى أسوان، فأقام فيها، ولم يزل يُدبّر أمره، ويجمع السودان عليه، ويُخيّل إليهم أنه يملك البلاد، ويُعيد الدولة المصرية، فاجتمع عليه خلقٌ كثيرٌ وجمعٌ وافٍ من السودان، وقصد قوص، فأنتهى خبره إلى صلاح الدين، فجزّد عسكرياً عظيماً، وجعل مقدّمه أخاه العادل، فلقبهم بمصاف، فكسّرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شأفتهم، وأحمد نائرتهم، وذلك في صفر سنة (٥٧٠هـ) واستقرت له قواعد الملك^(٢).

واستمر رجال صلاح الدين يتتبعون من له ميل في الدولة العبيدية، فقتلوا منهم كثيراً، وأسروا كثيراً^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٦٠؛ الكامل في التاريخ: ١٢ / ٢٤.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٣٣٨؛ وفيات الأعيان: ٧ / ١٦٥.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٥٤.

وقد عثروا في سنة (٥٨٨ هـ) على رجل اسمه عبد الأحد من أولاد حسن ابن الخليفة العبيدي الحافظ لدين الله، وأحضر إلى الملك العزيز بالقاهرة، فقيل له: أنت تدعي أنك الخليفة؟ قال: نعم، فقيل له: أين كنت في هذه المدة؟ فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه، ووصل إلى طنبذة، فاختنى بها، ثم خرج إلى مصر، فأواه رجل، وشرع يتحدث له في الخلافة، وأنه وقع بعدة بلاد، وأقطع أناساً ممن بايعه، فسُجن. كما عثروا على بعض أقارب الوزير شاور، وقد ثار بالقاهرة، فسُجن هو وجماعته^(١).

ولم تكن مواجهة أولئك الباطنية من جانب الملوك فحسب، بل كان للعلماء دور كبير في مواجهتهم، وفَضْحِهم، وبيان فساد عقائدهم.

ومن أولئك العلماء ابن الجوزي الذي تحدّث عن فرقهم وعقائدهم، وبيّن كفرهم وباطل مذهبهم، وخروجهم عن الدين كليّة، ومما قاله في هذا المجال: (...ثم إنهم تفلسفوا، ولم يزالوا مستهزئين بالنواميس الدينية، والأوامر الشرعية، وتخصّصوا بالحصون، وكثرت شوكتهم، وأظهروا إسقاط التكاليف، وإباحة المحرمات، وصاروا كالحوانات العجماءات بلا ضابط ديني، ولا وازع شرعي)^(٢).

ومن العلماء الذين اجتهدوا في مواجهة الباطنية، والتحذير منها، وكشف ضلالها أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، فقد أفرد للحديث عنهم فصلاً كاملاً، تحدّث فيه عن تاريخهم ودعوتهم، وفصّح مذهبهم الخبيث، وأكّد عدم نسبتهم إلى السيدة فاطمة عليها السلام، وكان مما قاله عنهم: (وذكر جماعة من العلماء أنهم لم يكونوا أهلاً لنسبتهم إلى فاطمة عليها السلام، ولا نسبهم إليها صحيح، بل المعروف أنهم بنو عبيد، والذي كان والده من

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١١.

(٢) كيد الشيطان لنفسه قبل خلق آدم، ص ١٠٩.

نسل القداح الملحد المجوسي، وكان زنديقاً خبيثاً عدوّاً للإسلام، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالهم^(١).

وقال: (واشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون: الدولة الفاطمية، والدولة العلوية، وإنما هي الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملحدة)^(٢).
وعرض بعد ذلك جملة من مساوئهم وضلالاتهم بهدف التنبيه عليها، وتحذير الناس منها؛ حيث قال: (ولكن لا بدّ من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لمن يعتقد إمامتهم، وخفي عنه مُحالهم، ولم يعلم مكابرتهم، وليُعذر مَنْ أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وقلّل عدّتهم، وأفنى أمتهم، وأطفأ جمرتهم)^(٣).

وهكذا يتّضح كيف أن العبيديين كانوا عائقاً كبيراً في وجه الدعوة الإسلامية في عهد بني أيوب، ولكن وقوف الدعاة بقوة بوجه هذا العائق ساعد كثيراً بفضل الله تعالى على التخفيف من مخاطره، بل والقضاء على الكثير من أشياعه وأتباعه وإضعافه بشكل كبير.

ثانياً: الإسماعيلية الباطنية:

وهي من أبرز هذه الفرق وأشدّها، وقد نظروا إلى صلاح الدين على أنّه العدو المباشر لهم، لدوره البارز في إلغاء الخلافة العبيدية، وتحالفوا مع أعدائه الصليبيين، وكان مقرّهم بمصياف^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢١٤/٢ - ٢١٥.

(٢) المصدر السابق: ٢١٦/٢.

(٣) المصدر السابق: ٢١٨/٢.

(٤) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢١٢.

وقد حاصر صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قلاع الباطنية، وضيّق عليهم في عام (٥٧٢هـ)^(١)، كما شَرَّدوا من بلاد مصر ونُفِّوا^(٢)؛ لذا حَقَّد أتباع هذه الفرقة عليه، وحاولوا اغتياله أكثر من مرة، فقد رُوي أنهم وثبوا على صلاح الدين سنة (٥٧٢هـ)، وجرحوه^(٣).

كما حكى ابن الأثير أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا كان بمنبج وثب عليه باطني يريد قَتْلَهُ، فجرحه برقبته، فأسرع حراسه، ودفَعوا الباطني، وجاء ثان وثالث حتى نَجَّاه اللهُ منهم^(٤).

وفي بلاد الشام استمرَّ مؤيِّدو الباطنية بيثَّ الرعب، وإحَاكة مؤامرات الاغتيال، وعندما احتلَّ الصليبيون فلسطين والسواحل السورية، راح الباطنيون يستعينون بالصليبيين، ويعقدون معهم المحالقات ضدَّ المملكة السُّنية، وقاموا فيما بعد بمحاولتين لاغتيال السلطان صلاح الدين^(٥).

وممن سار على هدي هؤلاء الطوائف في إضلال الناس وفتنتهم عن دينهم رجلٌ ظهر بدمشق مُدَّعياً أنه عيسى ابن مريم وأصلُّ طائفة، فأفتى العلماء بقتله، وعلَّقوا رأسه مع كلبين ميّتين^(٦).

وبهذا يتضح لنا جلياً اهتمام دعاة هذا العصر بالوقوف بوجه الفرق الضالة التي تُعيق تقدُّم الدعوة، وحرصهم البالغ على نقاء الحياة الإسلامية، وحماية المسلمين من أفكار تلك الفرق الهدَّامة.

(١) صبح الأعشى: ١ / ١٥٨.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٧٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٠.

(٤) انظر: الكامل في التاريخ: ١١ / ٤٣٠.

(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٨٧.

(٦) تاريخ الإسلام، ص ٢٥، وفيات سنة (٥٩١ - ٦٠٠ هـ).



المطلب الثاني التعصّب المذهبي

على الرغم من أن المجتمع الإسلامي في عصر الدولة الأيوبية لم يَخُلُ من الدعوة المخلصين العاملين، وأنه كان هناك نشاط دعوي يعمل بدأب ونشاط، إلا أن هذا النشاط أعاقه التعصّب المذهبي والانقسام، وكان هذا التعصّب المذهبي من العوائق الدعوية البارزة في هذا العصر، فقد انقسم الناس إلى عدد من المذاهب، وتعصّب كلٌّ لمذهبه، ودافع عن رأيه بكل قوة وصرامة، وإن أدى الأمر إلى الاقتتال أو المعاداة ونحوها. وقد استنفذ هذا الصراع جهود الجميع، وقسم الأمة إلى فرقي متناحرة متنافرة.

ومن أبرز المذاهب التي تعصّب أصحابها وتناحروا فيما بينهم الحنابلة والشافعية، وكان لأصحاب هذين المذهبين دور عظيم، إلا أنهم وقعوا في أخطاء منهجية كبيرة، أثرت سلبياً في أداء الدعوة الإسلامية، وأعاقت تقدّمها، وبددت بعض جهود أبنائها.

ولقد تركّزت أخطاء هذه المذاهب في أنّ ولاء أصحابها كان لانتماءاتها المذهبية أكثر من ولائها للأصول الشرعية الصافية، أو للأمة التي تنتسب إليها، كما أن كلّ جماعة منها كانت تعدّ نفسها صاحبة الحق الوحيد في السّاحة بسبب تاريخها العريق^(١).

فقد رُوي أن الحنابلة ثاروا على البرهان البلخي لأنه نال منهم^(٢)، كما

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٢٧٦.

روي أن ابن عساكر كان يتوزّع من المرور في زقاق الحنابلة لئلا يأثموا بالوقية فيه، وذلك لأن العامة منهم يبغضون بني عساكر لكونهم أشاعرة^(١). وفي سنة (٥٨٠هـ) أنكر الحنابلة على الشهاب الطوسي تكلمه في مسألة من مسائل الكلام في مجلس وعظه، وترافعوا إلى الملك المظفر بمخيمه، فأصدر أمراً برفع كراسي وعظ الفريقين، وقد أطلق كلٌّ من الفريقين لسانه في الآخر^(٢).

أما في سنة (٥٧٨هـ) فقد قام الخبوشاني بنبش قبر أبي الكيزان الظاهري؛ لأنه دُفن إلى جانب قبر الشافعي وقال: (لا يكون صديق وزنديق في موضع واحد)، فثار الحنابلة عليه وصار بينهم حملات^(٣).

وأوضح مثال يبيّن عظم الفتنة بين الحنابلة والشافعية في هذا العصر، ومدى تفاقم المشاكل بين الطرفين: الفتنة التي جرت بين الحافظ عبد الغني والأشعرية الشافعية في سنة (٥٩٥هـ)، وكان أماراً بالمعروف، داعية إلى السُّنة، فقام عليه الأشاعرة، وأفتوا بقتله، فأخرج من الشام طريداً^(٤)، كما بلغت شدة تعصّب هؤلاء إلى أنهم قالوا بتكفير الحافظ عبد الغني^(٥)، بل همّوا بقتله.

أولاً: موقف الملوك الأيوبيين من التعصّب المذهبي:

وقد وقف ملوك بني أيوب إلى جانب الحافظ عبد الغني، ومن أبرزهم الملك العادل، فقد استدعاه وأكرمه، ثم إن العادل سافر إلى

(١) سير أعلام النبلاء: ٢ / ١٨٨.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٨٨.

(٣) العبر في خبر من غير: ٣ / ٩٥؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٨٠، وفيات سنة (٥٨١ - ٥٩٠هـ).

(٤) العبر في خبر من غير: ٣ / ١١٠؛ تاريخ الإسلام، ص ٢٣، وفيات سنة (٥٩١ - ٦٠٠هـ)؛ شذرات

الذهب في أخبار من ذهب: ٤ / ٣١٩.

(٥) تاريخ الإسلام، ص ٤٥٥، وفيات سنة (٥٩١ - ٦٠٠هـ).

دمشق، وبقي الحافظ بمصر، وهم ينالون منه، حتى عزم الكامل على إخراجه ثم تراجع، وسأل صفوة العلماء عنه، فأثنوا عليه، فقال: (لا يصل إليه مكروه)^(١).

وممن دافع عن الحافظ عبد الغني والحنابلة الملك العزيز، فقد رُوي أنه خرج إلى الصيد، فجاءته كتبٌ في أذية الحنابلة وفتنة الحافظ عبد الغني، فقال: (إذا رجعنا من هذه السفرة أخرجنا من بلادنا من يقول بهذه المقالة)، فاتفق أنه عدا به الفرس، فشبَّ به، فسقط، فمات^(٢).

أما الملك الأشرف فقد رُوي عنه كرهه للعصية في المذاهب، ومما يؤكد ذلك أنه لمّا وقعت الفتنة بين الحنابلة والشافعية تعصّب الشيخ عز الدين بن عبد السلام على الحنابلة، وكتب إلى الأشرف يقع فيهم، فأجابه الأشرف: (يا عز الدين الفتنة ساكنة لعن الله مثيرها)^(٣).

ولم يقتصر التعصب والتناحر بين أتباع المذاهب فحسب، بل نال الصوفية وأتباعهم في هذا العصر، حيث استقلَّ كل شيخ من مشايخ الصوفية بأتباعه في رباط خاص مما بينه الخلفاء والسلطين والوزراء في الحضر والريف والبادية، كذلك قامت الخصومات بين الفقهاء والمتصوّفة إلى جانب الفتن المذهبية^(٤)، وانتشرت طوائف الجهلة والبعيدين عن منابع العلم الشرعي، وأصبحت القضية ذات دلالاتٍ مستقاةٍ من حظّ النفس، ولم تعد مرتبطة بالإخلاص لله والسعي لرضاه.

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٦١.

(٢) المصدر السابق: ٢١ / ٢٩٢، ٤٦١.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٢٧٢، وفيات سنة (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ)؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:

١٤١/٥؛ سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٦.

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٦٢.

ومن هنا فإن الانتصار الحقيقي ينبغي أن يكون لشعائر الله التي نصت عليها أصول الشريعة، وليس للعادات والأعراف التي تصطدم بها. وقد وصل الأمر ببعض الصوفية أن خرجوا عن تعاليم الشريعة، واستباحوا المحرّمات، وذهبوا إلى أن المراد خلوص القلب إلى الله، أما التقيّد بالشرع فهو رتبة القاصرين عن الفهم والمقلّدين^(١).

ثانياً: آثار التعصب المذهبي:

كان لذلك التعصب المذهبي آثارٌ سلبيةٌ في الحياة الإسلامية: السياسية والاجتماعية والفكرية والتربوية والتعليمية:

١ - فمن الناحية السياسية أدّى التعصّب المذهبي إلى تنافس زعماء المذاهب في التقرب من السلاطين والقادة، ومكّر كلّ مذهب للإيقاع بالآخر، وللإستئثار دونه بمناصب الدولة ووظائفها تحت حجة الغيرة على الدين، وقد وجد بعضهم في الانتساب للمذاهب وسيلةً لتحقيق مطامعهم، فصار بعضهم يتنقلون بين هذه المذاهب حسب نفوذها في الدولة.

ونتيجة لهذا التعصّب أصبحت العلاقات بين المذاهب الإسلامية والحكومات القائمة تتشكّل حسب مواقف هذه الحكومات من تلك المذاهب، وحسب استجابتها أو رفضها لأطماع هذه المذاهب.

ونتيجة لهذا التنافس بين المذاهب على حطام الدنيا تحت شعار الحرص على الدين، استخفت الأمراء والحكّام بالمشايخ والوعاظ، وصاروا يُعيّنون القضاة والمدرّسين أو يعزلونهم، ويُنزلون بهم العقاب، ويتدخلون في وضع المناهج الدراسية، وتعيين المذهب الرسمي للدولة^(٢).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٥٧ - ٥٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٥٢ - ٥٣.



٢ - أما من الناحية الاجتماعية فقد أثر التعصب المذهبي في المجتمع، فأشاع التفكك والاضطراب، فقد صار المذهب الواحد يضمّ أخلاقاً من المشايخ والطلبة والتجار والعوام الذين يريدون المذهب وسيلة لمنافعهم الخاصة، وكانت تربط هؤلاء جميعاً روابط هشة تقوم على المظهر أكثر من الجوهر، إذ يكفي الفرد أن ينتمي للمذهب انتماءً اسمياً دون فهم أو تطبيق، وأن يصحب أفراد هذا المذهب في اجتماعاتهم لينال نصرتهم، ويشاركهم مكاسبهم. أما الذين يخالفون تعاليم المذهب أو ينفصلون عنه يصبحون هدفاً للإيذاء، وعرضةً للطعن في الدين والخلق مهما كانت منزلتهم من الفهم والإيمان والاستقامة.

ونتيجة لذلك انقسم الناس على بعضهم، وانصرفوا عن التحديات التي تهددهم من الداخل والخارج، واستنزفوا طاقاتهم في الخصومات والمصادمات المذهبية^(١). وأدى ذلك كله إلى ضعف مفهوم الأمة الإسلامية، وحلّت محلّه مفاهيم العصبية العشائرية والإقليمية والمذهبية^(٢).

٣ - وكما أثر التعصب في ترابط المجتمع الإسلامي، أثر أيضاً في الناحية الفكرية لهذا المجتمع، ولقد كان من أخطر هذه الآثار: انقطاع أتباع المذهب عن الاتصال المباشر بالقرآن والسنة، والتوجه إلى مؤلفات رجال هذا المذهب على اعتقاد أنها الفهم الصحيح للقرآن والسنة، وأسبغوا على كتبهم ومفكرهم ألقاباً، وجعلوهم فوق النقد والمناقشة، وعادوا كلّ مخالف^(٣).

كما تعطل الفكر الإسلامي عن الإبداع والاجتهاد، فصارت المؤلفات

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٨١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٤٣ - ٤٤.

إما تكراراً لأفكار السابقين من رجال المذهب، أو إطرأً وإشادة بتضحياتهم وأعمالهم، وفي كل هذه الأعمال الفكرية لم تنل المشكلات المعاصرة للأمة الإسلامية آنذاك سوى إشارات هامشيّة، ومن يخرج على تقاليد المذهب في الانغلاق والتعصّب وينفتح على الآخرين يصبح هدفاً للاتهام بالنفاق وعدم الالتزام، رُوي عن ابن عقيل قوله: (وكان أصحابنا الحنابلة يريدون مني هجران جماعة من العلماء، وكان ذلك يحرمني علماً نافعاً)^(١)، وجفّت أفهام الذين تعصّبوا لمذاهبهم، ولم يملكوا أن يُتجوا إلا الشروح والمختصرات والحواشي^(٢).

وبهذا نجد أنفسنا أمام واقع فرّض نفسه، وهو تحوّل مؤسسات الفكر الإسلامي عن رسالتها الرئيسة في ترشيد المجتمع، وتوجيهه إلى مؤسسات مهنية أكاديمية اتّسمت بالمذهبية والانقسام والابتعاد عن أصول الكتاب والسنة^(٣).

٤ - ولقد كان للتعصب المذهبي آثار تعليمية وتربوية خطيرة أيضاً، فقد تسرّب شيوخ المذاهب إلى المدارس، وانتشروا فيها، وأثروا في مناهجها وأهدافها واتجاهاتها، كما شاع الخلاف والتعصب والصراع بين الموجّهين والمرشدين والوُعّاظ والطلبة، فتحوّلت مجالس الدرس وساحات المدارس إلى ميادين لمناصرة آراء المذاهب، وتفنيد آراء المخالفين ومهاجمتهم، كما وقع الانشقاق بين الدراسات الإسلامية وبين العلوم الطبيعية والطب والفلك، وذلك بسبب تأثير الفقهاء في السلطات التي وقفت من العلوم الطبيعية موقفاً سلبياً يقوم على الريبة وعدم التشجيع.

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن ابن الجوزي: ٩ / ٢١٢؛ سير أعلام النبلاء: ١٩ / ٤٤٣.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٤٢ - ٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٩.



وهذا مثالٌ يُوضِّح الحالة السيئة الذي وصل إليها المجتمع نتيجة التعصب المذهبي، فقد قام جماعة من أنصار الشافعية بمهاجمة أبي جعفر ابن موسى - شيخ الحنابلة - وهو في مسجده، فدافع عنه أنصار الحنابلة، واقتتل الناس بسبب ذلك، وحين تفاقمت الأمور تدخلت السلطة، وجمع الخليفة بين شيوخ المذهبين، وسوّي الأمر، ومُنع الوعاظ من التدريس حتى لا يتعرضوا لآثار الفتنة. ولكن الفتنة اشتعلت في العام التالي، واشتبك طلبة النظامية من الحنابلة والشافعية، وانتصر لكل فريق أنصاره من العوام، وقُتل عشرون تقريباً وجُرح آخرون^(١).

* * *

(١) البداية والنهاية: ١٢ / ١١٤ - ١١٧.

المطلب الثالث الضعف الديني

مرّت الأمة الإسلامية في بعض سنوات العهد الأيوبي في مرحلة من الضعف الديني، وعدم التزام الحكّام بتعاليم الشرع الحكيم، فأدّى ذلك إلى انتشار المنكرات، وفساد الحياة الاجتماعية، وعدم الاكتراث بتوجيه الناس إلى المعروف، أو نهيهم عن اقتراف المنكر.

وعلى الرغم من الخطر الصليبي الذي كان يهدّد البلاد الإسلامية إلا أننا نلاحظ بوضوح ضعف المجتمع الإسلامي، وانتشار الفساد فيه في مختلف الميادين، كما نلاحظ أيضاً سوء وضع رؤسائهم، وانتهاهم إلى حالة من التفكك والصراع.

لذا استطاع الصليبيون - دون مقاومة تُذكر - أن يسيطروا على أراض واسعة، فلم يقيم بعض السلاطين إزاء ذلك الزحف بأي عمل يوقفه، وظلّت جماعات الأمة مشغولة بقضايا ليست ذات شأن يتنافسون فيها^(١).

ومن مظاهر الضعف الديني في هذا العصر:

١ - من أهمّها خطأ فادح وقع فيه بعض الخلفاء، وأثر بشكل واضح في سير الدعوة، وجعلها تواجه إشكالات كبيرة، وكان ذلك الخطأ يكمن في توسيد الأمر إلى غير أهله، وعدم انتقاء الشخص المناسب للمكان المناسب له، فتسبّب ذلك في إلحاق الظلم بالفرد والمجتمع، وانتشار الفساد والمنكرات في الرعيّة.

فقد قلّد السلاطين والولاة الكثير من وعّاظ المذاهب الذين كانوا

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٨٩ وما بعدها.

يعظون الناس بأسلوب، ويعيشون في بيوتهم بأسلوب آخر، وثمة نماذج من شيوخ المذاهب، حينما تقلدوا مناصب القضاء والأوقاف أخذوا الرشاوي، واقتنوا الجوارى، وآلات الموسيقى، وفرش الحرير^(١).

من ذلك ما رُوي أن الملك الظاهر أمر آيبك بن عبد الله على حمص، وكان عنده تشييع وجور على الرعيّة^(٢).

ومن أولئك الذين تولّوا وهم لا يصلحون للولاية الوزير عبد الله بن علي بن شكر حيث يُروى أنّه كان لا يأكل من الدولة ولا فلساً، ويُظهر أمانةً مُفرطَةً، فإذا لاح له مال عظيم اجتنحه، وكان له في كلِّ بلد ضيعة أو أكثر في مصر والشام، كما رُوي أنه كان يجتمع إليه بعض المنافقين مثل الجمال المصري وابن كسا البليسي والمجد البهنسي، وكانوا يوهمونه أنّه أكتب من القاضي الفاضل بل ومن ابن العميد، وفي الفقه أفضل من مالك، وفي الشعر أكمل من المتنبي، ويحلفون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان^(٣).

ومن هؤلاء أيضاً رئيس قضاة دمشق عبد العزيز الجيلي، وقد ولاه القضاء الملك إسماعيل، والذي كان متفلسفاً فاسد العقيدة دهرياً مستهتراً بأمر الشريعة، يجيء إلى صلاة الجمعة سكران وداره مثل الحانة^(٤)، ويُروى أنه كان عنده شهود زور، فكان الرجل يحضر إلى مجلسه، ويُدعى عليه، فيُنكر، فتحضر الشهود، فيُلزمه القاضي، ويحكم عليه، فيصلح غريمه على النصف، فاستبيحت أموال الناس^(٥).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٧٨.

(٢) ذيل مرآة الزمان: ٢ / ٤٣٧.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ١١١، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ).

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٦، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ).

(٥) المنهل الصافي: ٧ / ٢٨٢؛ تاريخ الإسلام، ص ١٢٥، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ).

وقد أذن ذلك القاضي للنساء في دخول جامع دمشق، فدخلنه، وامتلاً المسجد بالنساء والرجال ليلة النصف، وتأذى الناس بذلك^(١).

ومنهم أيضاً ابن صغرى مسند الشام، إذ يُروى أنه كان فيه شحّ بالتسميع إلا بعرض من الدنيا، فكان يأخذ من آحاد الأغنياء على التسميع^(٢).

ومن أولئك أيضاً أبو الحسن السامري وزير الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، كان يبائع في هدم الدين، وعند موته ظهر له من الأموال ما لا يوصف^(٣).

ولقد طال ذلك الفساد والضعف الديني بعضاً من مؤلفات هذا العصر، وكتاب «خريدة القصر» يُعطينا أنموذجاً واضحاً على ذلك الفساد، فيحفل ذلك الكتاب بأشعارٍ في بيان جمال الغلمان، وتعلّق الرجال بهم، ونحن اليوم نعجب من سيرورة هذا الضرب من الشعر، واستحلال هؤلاء الشعراء لهذا الفن، يقول فتیان الشاغوري أحد شعراء هذا العصر:

أنا في الهوى لَحْمٌ على وضمٍ لِمَا عَايَنْتُ من برح ومن برحاء
بمشمّر عن معصميه مُزَنَّر يهتز بين التيه والخيلاء
ظبي لواحظه أشدّ مَوَاقِعاً من شفرة بيديه في الأحشاء^(١)

٢ - ومن مظاهر الضعف الديني في العصر الأيوبي ما ظهر من فساد بعض الملوك، وارتكابهم لمنكرات عظيمة، فأعاق ذلك تقدم الدعوة الإسلامية، ووقف حائلاً دون تمسك الناس بتعاليمها، لأنهم عندما يرون فساد قوتهم المتمثلة في ملوكهم، فإنّ تمسكهم بدينهم سيضعف ويضمحلّ مع مرور الأيام.

(١) تاريخ الإسلام، ص ١٢٦، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ).

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٢٨٣.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٣٨٥، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ).



ومن الملوك الذين عُرفوا بسوء السيرة: الملك أقسيس بن الكامل صاحب اليمن، ويُلقب بالمسعود، فقد ذكرت كتب التاريخ أنه كان شاباً جباراً فاتكاً، قتل باليمن نحو ثمانمئة شريف، وكان من أفجر الملوك، وأكثرهم فسقاً، وأقلهم حياءً، وقد ذُكر عنه ما تقشعُرُ منه الأبدان، وتنكره القلوب^(١).

كما رُوي أنه نهب أموالاً كثيرة من التجار في اليمن، وقد رحل منها يطلب الشام، وكان معه (٥٠٠) مركب، و(١٧٠٠) خادم، و(١٠٠) قنطار عنبر، بالإضافة إلى ما روي عن وجود خمسمئة حُرّة من بنات الناس يطوّهن حراماً في قصره^(٢)، كما ذُكر أنه كان يرتكب المعاصي، ويعسف بالتجار دون أن يهاب، بل كان يشرب الخمر، ويرمي الطيور بالبندق في وسط الحرم الشريف بمكة، وقيل: إن أباه سُرّ بموته^(٣).

وقد ذكر صاحب «النجوم الزاهرة» أنه كان يسكر، وينام بدار على المسعى، فيخرج أعوانه يمنعون الناس من الصياح والضجيج في المسعى، ويقولون: (الأمير سكران نائم! لا ترفعوا أصواتكم بالذكر والتلبية)، وقد قتل خلقاً كثيراً من الأكابر والعظماء^(٤).

وعلى الرغم من اشتهاه الملك العادل بالسيرة الحسنة، والخلق القويم، إلا أنه كان ربما ترك الجهاد، وقاتل على الدنيا^(٥).

(١) البداية والنهاية: ١٧ / ٤٣؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٢١١.

(٢) كنز الدرر وجامع الغرر: ٧ / ٢٦٤.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٢٧٤، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٣٣١؛ كنز الدرر وجامع الغرر: ٧ / ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٤) تاريخ الإسلام، ص ٥٩، وفيات (٦١١ - ٦٢٠ هـ)؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٢١١.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٢٢٥.

ومن الملوك الذين اشتهر عنهم سوء السيرة توران شاه، والذي كان أكبر من صلاح الدين في السن، ولقد كان يرى في نفسه أنه أحق منه بالملك، وكانت تبدو منه كلمات في سكره في حق صلاح الدين، فلما بلغ ذلك صلاح الدين أبعدته بأن بعثه إلى اليمن، فسفك الدماء، وقتل الأمثال، وأخذ الأموال، وانهمك على الفساد مع الغلمان، وقدم الأراذل، ولم يطب له اليمن، فعاد إلى الشام على مضض من صلاح الدين، فأعطاه بعلبك، ولكن بلغه عنه أشياء، فأبعده إلى الإسكندرية، فتوجه إليها، وأقام بها معتكفاً على اللهو، ولم يحضر أي حروب أو غزوات مع أخيه صلاح الدين، ومات بالإسكندرية^(١).

ومن الملوك الذين صلحت سيرتهم مع وجود بعض السوء فيها الصالح إسماعيل، فقد رُوي أنه عزل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن الخطابة عندما ندد الشيخ به، وأجبره على ملازمة داره وألا يُفتي. وهنا غادر الشيخ الشام إلى مصر، فأراد إسماعيل مساومة العز للرجوع مقابل إعادة مناصبه له بتقبيله يد السلطان، فقال العز لمندوب السلطان: (يا مسكين ما أرضاه أن يُقبَّل يدي فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به)، فأمر الصالح إسماعيل باعتقاله، ولقد جاءت عساكر مصر فيما بعد، وانهمز الصليبيون، وتابع الشيخ مسيره إلى مصر.

وقد أراد الملك إسماعيل أن يتبجح أمام الصليبيين بما فعل مع الشيخ، فسخروا منه، وقالوا: (لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجله، وشربنا مرقها)^(٢).

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٨٧؛ تاريخ الإسلام، ص ٣٨٨، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠هـ).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤.

٣ - ومن مظاهر الضعف الديني السيئة انتشار الخمر بين الناس، واستحلال الكثير لشربه، وانعدام الإنكار عليهم، ففي سنة (٥٩٢هـ) غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطاني، واستيفاء رسمه بأيدي مستخدمي، وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار، وحصل منه شيء حُمل إلى العزيز، فصنع منه آلات الشرب.

ومثل ذلك حدث في سنة (٥٩٤هـ)، فقد كثرت التظاهر بعصير العنب، واستباحة الحرمات، وعدم المنكر لهذا الأمر^(١).

وإن استباحة الناس للخمر تعطينا تصوّراً واضحاً عن مدى الفساد الذي فشا في تلك المدّة، وعن ضعف تدبّر بعض حكام الدولة الأيوبية، وتهاونهم في بعض أحكام الإسلام، مما أدى إلى جعل مهمة الدعاة تغدو أصعب لإضافة المزيد من العوائق في طريق سيرها الشائك.

ومما ترويه كتب التاريخ عن ذلك ما ذكر أن الملك المعظم أعاد في سنة (٦١٥هـ) القيان والخمور وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان أبوه قد أبطلها، بحيث إنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل خمراً إلى دمشق إلا بالحيلة الخفيّة، واعتذر المعظم في صنعه هذا المنكر بقلّة الأموال على الجند، وما استشعر أن هذا يُدبّل عليهم الأعداء^(٢).

أما الأفضل فقد رُوي أنه أقبل بدمشق على اللعب ليله ونهاره، وتظاهر بلذاته، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب مع من حوله من الأصحاب، ثم ترك ذلك من غير سبب، وتاب، وجدّ في الذكر والزهد، وأُزال المنكرات وأراق الخمور، وأقبل على العبادة، ولبس الخشن من الثياب،

(١) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٣٦ - ١٤٢.

(٢) البداية والنهاية: ١٧ / ٧٦.

وشرع في نَسْخِ مصحف بخطه، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه، وواظب على الصيام، وجالس الفقراء، وبالغ في التقشف، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل^(١).

ومن الملوك الذين استباحوا بعض المنكرات كالخمر الملك القاهر، فقد رُوي أنه سكر فقتله الخمر^(٢).

ومنهم أيضاً الملك الناصر صاحب حماة الذي كان مذموم السيرة، يأخذ السُّكَّر منه فيطلب أشياء عجيبة وتُحَقَّق له^(٣).

وفي أيام العزيز كثر اجتماع النساء والرجال على الخليج وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بالمعاصي القبيحة^(٤).

وعلى نحوٍ عام فسد كثير من جوانب بعض أزمنة العصر الأيوبي، واقتصرت الممارسات الدينية على أداء الشعائر والعبادات، واختفت آثار التوجيه الديني في العلاقات والمعاملات، وصار الحديث عن المثل العليا والقضايا العامة إما وسيلة ثقافية يتكسب بها الخطباء والوعاظ والمدرسون، أو مثاليات وخيالات يستخفّ بها الكثيرون ولا يُعبرونها اهتماماً، وقد وصف أبو شامة مجتمع تلك المدة فقال: (كانوا كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً)^(٥)، وتطفح كتب التاريخ التي أرخت لتلك المدة بشواهد على ذلك الفساد ومظاهره.

٤ - ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل رافق هذا الفساد مضاعفات

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٢٤؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١١٩/١.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ١٢٢، وفيات (٥٨١ - ٥٩٠هـ).

(٣) المنهل الصافي: ٥ / ٢٩٤.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٣٦.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ١ / ٧.

في اللهو، فقد شاعت ألعاب مصارعة الحمام، كما شاع الزنى، وشرب الخمر، وانتشرت الملاهي والجواري والمغنيات إلى درجة ارتفعت من أجلها الشكاوي^(١).

ومن الشواهد على ذلك الفساد ما ذكره صاحب كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» أنه في سنة (٥٩٠هـ) كثرت المنكرات، وتجاهر عامة الناس بكل قبيح ومنكر من غير نكير عليهم، فترقّب أهل الدين حلول البلاء^(٢).

٥ - ومن المنكرات التي ظهرت في حقبة من هذا العصر: القتل، فقد ذكر أنه في سنة (٥٩٢هـ) كثر القتل بالقاهرة بأيدي السكارى، وأُعلن المنكر بها، فلم تنسلخ ليلة إلا عن جراح وقتل بين المعربدين، وكثر ذلك حتى حُطفت الأمتعة والمآكل من السوق، وأفحش الناس في إظهار المنكرات، ولم ينههم أحد. وفيها كثر وثوب السكارى على من يلقونه ليلاً، وضربهم إياهم بالسكاكين، فلا تخلو ليلة من قتيل أو قتيلين، ولم يؤخذ لأحد بثأر، ولا وقع كَشْفٌ عن مقتول منهم، ولم يتمكّن والي القاهرة من منعهم، ووُجد في الخليج ستة نفر قتلى مرتبطين، فلم يُسأل عنهم، ولا وقع إنكار لأمرهم^(٣).

كما يُعطي صاحب «السلوك لمعرفة دول الملوك» ملخصاً عن الفساد الذي حدث في سنة (٥٩٤هـ)، حيث استُبيح فيها ما كان محظوراً من فتح أبواب التأويلات، وأخذ ما بأيدي الناس بالمصادرات، وتظاهر الناس في هذه الأيام بالمنكرات من غير نكير^(٤).

(١) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٨٢ - ٨٣.

(٢) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٩.

(٣) المصدر السابق: ١ / ١٣٧ - ١٣٨.

(٤) المصدر السابق: ١ / ١٤٢.

كما ذكر صاحب كتاب «النجوم الزاهرة» شيئاً من ذلك الفساد، فقال: إنه في سنة (٦٤٩هـ) كَثُرَ الظلم بالديار المصرية، وعظُم الجور والمصادرات لكل أحد، حتى أخذوا مال الأوقاف، ومال الأيتام على نية القرض، ومن أرباب الصنائع كالأطباء والشهود^(١).

* * *

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٧ / ٢٣.



المطلب الرابع الخط بين السُّنة والبدعة

استطاع الأيوبيون بفضل الله تعالى القضاء على الدولة العبيدية الراضية في مصر بعد أن حكمتها قرنين وثمانين سنين، وكان العاضد آخر خليفة عُبيدي^(١).

وبعد وفاته تَوَلَّى صلاح الدين الخلافة، وبدأ يسعى سعياً حثيثاً إلى إضعاف المذهب الشيعي، وإعلان مذهب السُّنة^(٢)، ثم نشط في إعمار المدارس السُّنِّيَّة، وتعيين القضاة من الشافعية، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي^(٣).

وبالرغم من اهتمام الأيوبيين بالسُّنة وإحيائها ونشرها بين أفراد المجتمع إلا أنه وُجِدَ في هذا العصر بعض المظاهر البِدعية المخالفة للسُّنة، والتي انتشرت بين بعض الناس، ولاقت قبولاً لديهم، وبالتالي نجد أن العصر الأيوبي خلطَ بين السُّنة وبعض مظاهر البدعة. وسوف أضرب بعض الأمثلة على ذلك، وليس على سبيل الحصر، ومنها ظهور ما يُسمَّى بالخوانق والزوايا.

والخوانق كلمة أعجمية واحداها خانقاه، بمعنى دار الصوفية، وكتاب «الدارس في أخبار المدارس» للنعمي حافلٌ بأسماء الخوانق، ومنها ما أنشأه الملوك أنفسهم مثل الخانقاه الأَسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير^(٤)، والخانقاه النجمية أنشأها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين^(٥)، والخانقاه

(١) الكامل في التاريخ: ١١ / ٣٧٠.

(٢) الخطط: ١ / ٣٥٨؛ وانظر: الحروب الصليبية، ص ١٢٣.

(٣) العبر في خبر من غبر: ٣ / ٤٩.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ٢ / ١٣٩.

(٥) المصدر السابق: ٢ / ١٧٤.

الناصرية التي أنشأها صلاح الدين بجبل قاسيون^(١)، ومنها أيضاً الخانقاه الحسامية، منسوبة لأم حسام الدين بنت أيوب ست الشام أخت صلاح الدين^(٢). ولم أقف على حقيقة ما كان يجري في هذه الدور من مظاهر مخالفة للشرع.

كما انتشرت في هذا العصر الزوايا، وكان فيها الطائعات، ويذكر النعمي عن الزاوية الحريرية، التي كان عليها الشيخ علي الحريري، أبو محمد بن أبي الحسن علي بن مسعود الدمشقي الفقير، الذي نشأ بدمشق، ثم تمفقر، وعظّم أمره، وكثر أتباعه، وأقبل على السّماعات والمداح، وبالغ في ذلك، ومَن خَبَر أمره رمّاه بالكفر والضلال، فقد بدت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن الصلاح. وتبعه الفقراء المعروفون بالحريرية أصحاب الزيّ المنافي للشرعية الإسلامية، وباطنهم شرٌّ من ظاهرهم، وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة، والتهاون بها من إظهار شارة أهل الفسوق والعصيان، الشيء الكثير. وكان يجمع مجلسه بين الغناء الدائم والرقص وترك الإنكار على ذلك، وترك الصلوات، وقد أضلّ خلقاً كثيراً^(٣).

ومن تلك الزوايا الزاوية اليونسية، نسبة للشيخ يونس بن يوسف الشيباني، من أولي الشطح، المتوفى سنة (٦١٩هـ)، يقول عنهم النعمي: (وهم شرّ طوائف الفقراء، ولهم أعمال تدلّ على الاستهتار والانحلال قولاً وفعلاً، أستحيي من الله ومن الناس التفوّه بها، ولا يغتّر المسلم بكشف ولا بحال)^(٤).

وقد ظهرت عدد من البدع الأخرى كبدعة المولد النبوي، وتصديق المنجمين، وغيرها فصّلتُ الحديث عنها في مبحث العقيدة.

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ٢ / ١٧٨.

(٢) المصدر السابق: ٢ / ١٤٣.

(٣) المصدر السابق: ٢ / ١٩٧.

(٤) المصدر السابق: ٢ / ٢١٥.



المطلب الخامس التنافس بين الأمراء الأيوبيين

أولاً: النزاع بين الأمراء الأيوبيين:

سعى صلاح الدين في توحيد سورية ومصر، واستردّ بيت المقدس، وأنجز العديد من الإنجازات إلى أن توفي سنة (٥٨٩هـ)، ثم انقسمت الدولة إلى دويلات يتأمر بعضهم على بعض، فالعزیز على مصر، والأفضل على دمشق، والظاهر على حلب، وطغتكين على اليمن، والعاذل على الكرك والشوبك^(١).

وكانت قضية الوراثة المتجدّدة باستمرار في تلك المدة عامل ضعف في قدرة القيادة على مواجهة التحديات في الأوقات الحرجة، وفي تفكّك الوحدة التي حققها صلاح الدين تدريجياً، وإضافة لذلك فإن الطموح الشخصي لبعض أفراد الأسرة الأيوبية، والصراعات الداخلية فيما بينهم كان لهما دور في هذا التفكّك^(٢).

وكان السلطان صلاح الدين يشعر بأن وحدة الأمة الإسلامية التي بذل قصارى جهده في تحقيقها ستتأثر كثيراً بتنازع أبناء البيت الأيوبي، والصراعات الداخلية. فقد روى القاضي ابن شداد الحوار الذي دار بينه وبين السلطان في أحد الأيام، والذي يُستشف منه خوف صلاح الدين من الخلافات وآثارها، يقول ابن شداد: قال لي السلطان في بعض محاوراته في عقد الصلح: (أخاف أن أصالح وما أدري ما يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقيت لهم بلاد، فيخرجون لاستعادة ما في أيدي المسلمين، وترى كل واحد من هؤلاء - يعني أخاه وأبناءه - قد قعد كلٌّ في رأس تلّه - قلّعته -

(١) العز بن عبد السلام، ص ٢٢.

(٢) انظر: صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٤٢٧.

ويقول: (لا أنزل)، ويهلك المسلمون)، قال ابن شداد: (فكان والله كما قال، اختلفوا واشتغل كل واحد بناحيته، فكان الصلح مصلحةً^(١)).

ومن الخلاف الذي حدث قبل وفاة صلاح الدين، ما روي أنه لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق السلطان من نوابه باليمن، وذكر ما بين ولايتها من الإحن، فقد وصل له الخبر بما يجري فيها من الفتن، فندب إلى زبيد سيف الإسلام ومعه عدة من الأمراء، من جملةهم صارم الدين خُطُلبا، وظهير الدين طغتكين بن أيوب، وقد أمره أن يقطع ما بها من الفتن، ويحفظ البلاد، ويصلح الأمور التي يُخشى عليها من الفساد، وأن يولّي ويعزل ويعدل، فأجرى الأمور بها على أحسن نظام^(٢).

وبعد وفاة صلاح الدين ﷺ تنازع أولاده واختلفوا، ودبّ الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي، وصاروا يتقاتلون على حكم البلاد، فكانوا فرقا وأحزاباً متفرقين^(٣)، ولكن من لطف الله بهم أنهم لما تنازعوا واختلفوا يسّر الله نقص همّة الأعداء، وزالت الشهامة منهم^(٤).

وقد تأثرت وحدة البيت الأيوبي كثيراً بسبب تنازعهم، وتأثرت بذلك الأمة الإسلامية، مما أعاق الدعاة والعلماء من القيام بواجب الدعوة المنوط بهم.

ولقد فصلت كتب التاريخ في الحديث عن تلك المنازعات والخلافات، وأنا هنا لست بصدد سردها وإحصائها، وإنما أريد إعطاء أمثلة عنها لبيان مدى التأثير السيئ الذي أحدثته في العالم الإسلامي في تلك المدة.

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٩.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٩٤ - ٩٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٣؛ البداية والنهاية: ١٧ / ١٧٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٩.

من ذلك ما روي عن النزاع الكبير والقتال الذي حدث بين العادل والأفضل ابن صلاح الدين^(١).

ومنه أيضاً ما وقع بين الظاهر عبد الله صاحب اليمن والمجاهد من نزاع على الملك، فقد أمسك الملك المجاهد الملك الظاهر وحبسه بقلعة تعز، ثم خنقه، وأظهر أنه مات حتف أنفه^(٢).

كما جرى بين الأفضل والعزیز فتن وحروب، ثم اتفق العزيز مع العادل على الأفضل، وقصدا دمشق، وحاصراه، وأخذها منه، فالتجأ إلى صرخد^(٣). ولما طلب الأشرف من الكامل الرقة، امتنع وأرسل إليه عشرة آلاف دينار عوضها، فردّها، فغضب الكامل، وتنمّر الأشرف، ووقع الشقاق بين الأخوين بسبب ذلك^(٤).

ومن ذلك أن الملك الكامل سار ليأخذ دمشق من ابن أخيه الناصر داود، وأغاثه أسد الدين صاحب حمص، فاستنجد الناصر بعمه الأشرف^(٥).

وفي سنة (٦٣٤هـ) قويت الخلافات بين الكامل وأخيه الأشرف^(٦).

كما حكى صاحب «تاريخ الإسلام» عن المواجهات التي حدثت بين الملك الصالح والملك الناصر^(٧).

وروي أنه لما بلغ الكامل وفاة الأشرف، سار لدمشق وقد تملّكها الصالح، فحاصره، وأخذها منه وملكها^(٨).

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٦٢ - ٦٣.

(٢) المنهل الصافي: ٧ / ٨١.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ١٢٣، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ).

(٤) المصدر السابق، ص ١٩، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ).

(٥) العبر في خبر من غبر: ٣ / ١٩٤؛ ذيل مرآة الزمان: ١ / ١٢٨.

(٦) تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر: ٢ / ٢٤١.

(٧) تاريخ الإسلام، ص ٣١، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ).

(٨) المصدر السابق، ص ٢٥٧، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ).

كما رُوي أنه لما بلغ السلطان المسعود موت عمه المعظم، تجهّز ليأخذ الشام، وكان ثقله في خمسمئة مركب، ومعه ألف خادم^(١).

ومن ذلك عصيان المظفر غازي بن الملك العادل على أخيه الملك الأشرف في حكم خلاط سنة (٦١٢هـ)، واستولى الأشرف على خلاط، وأخذها من أخيه غازي. وجرى القتال على دمشق، واستولى الملك الكامل عليها من أخيه الأشرف^(٢).

ومن صور تلك النزاعات أيضاً أنه لما أخذ الصالح إسماعيل دمشق، اعتقل عمر بن الصالح نجم الدين أيوب في قلعة دمشق، ثم توفي، فتألم أبوه لموته، واتهم عمه بأنه سقاه، وتجهّز له وحاربه^(٣).

وقد بلغ من شدة النزاع بين الأمراء الأيوبيين أن استعان بعضهم بالفرنج ضد بعض، فقد روي أن إسماعيل بن العادل صاحب دمشق استعان بالفرنج على حرب أخيه، وأطلق لهم حصن الشقيف، وكانت جناياته على المسلمين عظيمة^(٤).

كما وصلت شدة الخلاف بين الأمراء إلى حدّ الاختلاف، والافتتال في أيام الحج، وعدم احترام هذا الموسم العظيم، ففي سنة (٦١٠هـ) حجّ الظاهر خضر بن صلاح الدين من حلب، فلما قارب مكة صده فُصّاد الملك الكامل محمد بن العادل عن الحج، وقالوا: (إنما جئت لأخذ بلاد اليمن)، فقال الظاهر خضر: (يا قوم قيّدوني ودعوني أقضي مناسك الحج)، فقالوا: (ليس معنا مرسوم إلا بردك)، فُرد إلى الشام من غير أن يحج، فتألم الناس لذلك^(٥).

(١) تاريخ الإسلام، ص ٢٧٤، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ).

(٢) تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر: ٢ / ٢٣٥.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ١٣٣، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ).

(٤) المصدر السابق، ص ٣٨٣، وفيات (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ).

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٧٧ - ١٧٨.

كما رُوي أن الأمير شمس الدين بن المقدم محمد بن عبد الملك لما توجه إلى الحج، رفع علم صلاح الدين، فأنكر عليه أمير الركب العراقي طاشكتين، وقال: (لا يُرفع هنا إلا علم الخليفة)، فتقاتل الفريقان، وجرح ابن المقدم، فتوفي من جراحه^(١).

ولما حج الملك المسعود بن الملك الكامل من اليمن في عسكر عظيم، مَنَعَ عَلمَ الخليفة أن يصعد الجبل، وأصعد علم أبيه ولبس السلاح، وقال لجنده: (إن أصعدوا علم الخليفة فاكسروه، وانهبوا البغاددة)^(٢).

ولم يقتصر الصراع والخلاف على الأمراء بل تعدى إلى العلماء، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما حدث بين شمس الدين العماد المقدسي والتقي شبيب الحراني من شَتَان، نتيجة عزل أخ لشبيب كان يعمل مع شمس الدين، فحمل شبيباً تعصبه لأخيه وكتب رقعة إلى الملك الظاهر يتهم فيها الشمس بسلب ودائع للتجار، وأنه يقدر في الدولة، وكتب محضراً، فحُبس الشمس، ثم أُطلق سراحه، وحُبس شبيب لتحامله^(٣).

ثانياً: موقف العلماء والدعاة من النزاع بين أبناء البيت الأيوبي:

ولم يقف كلٌّ من العلماء والدعاة أمام تلك الخلافات والنزاعات مكتوفي الأيدي، بل بذلوا جهودهم في التوفيق بين الأمراء ومحاولة إزالة الخلاف والشقاق فيما بينهم.

(١) البداية والنهاية: ١٦ / ٥٩٩.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٥٨، وفيات (٦١١ - ٦٢٠ هـ).

(٣) ذيل مرآة الزمان: ٢ / ٤٧٠.

ومن أبرز العلماء الذين كان لهم دور في ذلك:

١ - الفقيه عيسى الهكاري:

بعد أن تولّى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة العاضد، اعترض بعض الأمراء النورية، ورفضوا طاعة صلاح الدين، وكادت تحدث فتنة، لولا لطف الله ثم الدور الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري، فقد أخذ يسعى جاهداً بين هؤلاء الأمراء، إلى أن استطاع أن يُقنعهم، ويجمعهم بالترغيب والترهيب^(١).

وبهذا يتضح لنا الدور العظيم البارز الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري في تثبيت دعائم الدولة الأيوبية، فقد استطاع بعد توفيق الله له، ثم بقوة شخصيته وذكائه أن يُوطد الأمور لصلاح الدين حتى يُتيح له التفرغ للجهاد ضدّ الصليبيين.

٢ - القاضي بهاء الدين بن شداد:

قام القاضي بهاء الدين بن شداد بالتوفيق بين أبناء البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين، فقد توجه إلى حلب لجمع كلمة أبناء صلاح الدين، وتحليف بعضهم لبعض^(٢)، كما كان له دور بارز في تهدئة الأمور، وفضّ كثير من المنازعات بين الملك العزيز عثمان صاحب مصر، والملك العادل من جانب، والملك الأفضل من جانب آخر^(٣).

٣ - القاضي الفاضل:

أما القاضي الفاضل فقد كان مقيماً بدمشق عند الملك الأفضل بعد

(١) انظر: الكامل في التاريخ: ١٧/١. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٧٠/٢ - ٧١؛ وفيات الأعيان: ١٥٣/٧ - ١٥٥.

(٢) وفيات الأعيان: ٧ / ٨٨.

(٣) زبدة الحلب في تاريخ حلب: ٣ / ١٣٥.

وفاة صلاح الدين، وقد رأى من تصرفات الملك الأفضل ما استنكره، مثل وضع كلِّ ثقته في وزيره الجديد القاضي الضياء بن الأثير، الذي حسَّن للأفضل إبعاد أمراء أبيه، وأكابر أصحابه، وقد نصحه القاضي الفاضل ولكن لم يستجب لنصحه، فعزم عندئذ الفاضل على ترك دمشق، والتوجُّه إلى الديار المصرية عند الملك العزيز، الذي كان على العكس من الأفضل، فقد كان يقرب أصحاب أبيه ويكرمهم، فعظم بذلك شأنه.

وقد أحسن العزيز استقبال القاضي الفاضل، وجعله عنده في محلِّ والده احتراماً وتقديراً له^(١).

واستطاع القاضي الفاضل بعد ذلك بما له من مكانة وخبرة وهيبة وحكمة أن يُوفِّق بين الأخوين: الملك العزيز عثمان والملك الأفضل، وتقرَّر الصلح بينهما على يديه على أن يُقيم العادل بمصر عند العزيز ليقرَّر قواعد ملكه، وأن يرجع الأفضل إلى دمشق، وتعاهد الجميع على ذلك^(٢).

ولقد كان القاضي الفاضل مُستاءً كثيراً من الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي، ومما يؤكِّد استيائه، ذلك الكتاب الفاضلي الذي جاء فيه: (أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجمٌ ما في الحيلة تشريقه، وإذا بدأ خريق ثوبٍ فما يليه إلا تمزيقه، وهيئات أن يسدَّ على قدرٍ طريقه، وقد قُدِّر طروقه، وإذا كان الله مع خصمٍ على خصمٍ، فمن كان الله معه فمن يطيقه)^(٣).

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب: ٣ / ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٤٣٤.

٤ - سبط ابن الجوزي:

وهذا سبط ابن الجوزي رحمته الله يسهم إسهاماً كبيراً في إزالة الخلاف بين المعظم والأشرف، واتحاد كلمة الأيوبيين، ووقفهم ضد الصليبيين الموجودين في مصر، مما ساعد على انسحابهم من دمياط، واسترداد المسلمين لها في سنة (٦١٨هـ).

وقد حكى سبط ابن الجوزي ما قام به للتوفيق بين الأخوين، فقد ذكر أنه خرج من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة، فاجتمع بالمعظم في حمص، فأرسله إلى أخيه الأشرف بكتاب من ثمانين سطرّاً ليعاتبه على تأخره عليه. فخرج سبط ابن الجوزي ووصل إلى الأشرف الذي استقبله، فطلب سبط ابن الجوزي منه الاجتماع مع المعظم للوقوف في وجه الصليبيين قائلاً له: (المسلمون في ضائقة، فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية، وملكوا إلى حضرموت، وعفوا إلى مكة والمدينة والشام، وأنت تلعب؟ قم الساعة وارتحل).

فاقتنع الأشرف بكلام السبط، وأمر بالرحيل إلى المعظم، ووصل الجيش إلى مصر، ووقفوا بوجه الصليبيين، وتمكنوا من استعادة دمياط. وكانت فرحة الفقهاء والعلماء عظيمة بعودة دمياط، فأخذوا يتبارون بإنشاء قصائد التهتة بهذا النصر العظيم^(١).

٥ - القاضي محيي الدين بن الجوزي:

وممن قاموا بالإصلاح أيضاً القاضي محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، فقد روي أنه لما توفي الملك الأشرف، توجه الملك الكامل إلى دمشق ومعه أخوه الناصر داود صاحب الكرك ونابلس والقدس،

(١) الذيل على الروضتين، ص ١٢٨ - ١٣٠.



وحاصروا دمشق حصاراً شديداً، حتى سلّم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل على أن له بعلبك وبصرى، وسكن الأمر، وكان الصلح بينهما على يد ذلك القاضي من جهة الخليفة في بغداد^(١).

٦ - القاضي كمال الدين بن العديم:

وفي عام (٦٣٥ هـ) توجه القاضي كمال الدين بن العديم رسولاً من حلب؛ للتوفيق بين الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والملك المظفر صاحب حماة. وقد بذل ابن العديم في سفارته هذه أقصى جهوده ليوفق بين الملكين المتنازعين، ولكن أبى كلّ منهما أن يجيب صاحبه إلى ما يريد، فاضطر ابن العديم للرجوع إلى حلب^(٢).

وبهذا نخلص إلى نتيجة واضحة بيّنة، وهي أهمية اتحاد كلمة الدعوة، وخطورة وقوع الاختلاف بينهم، وقد حذر الله تعالى من الاختلاف بين الدعوة، وبيّن نتائجه الوخيمة على الأمة الإسلامية، فقد قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

* * *

(١) البداية والنهاية: ١٧ / ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب: ٣ / ٢٣٥.

المطلب السادس الترف

أذن الله ﷻ بفتح الكثير من البلاد على يد أبناء الدولة الأيوبية، فغنموا من ذلك مغنم عظيمة، وتجمّع لدى الكثير منهم ثروات وأموال طائلة، وقد أدّى ذلك إلى شيوخ الترف والبذخ والتبذير في صرف الأموال، ولا شك أن ذلك ألهى الناس، وأشغلهم بأمور الدنيا وملذاتها عن القيام بواجب الدعوة.

ومن صور الترف التي روتها كتب التاريخ - على سبيل التمثيل لا الحصر - ما ذكره صاحب «تاريخ الإسلام» أن دار الملك الظاهر بالقلعة كانت مزيّنة بأواني الذهب الكثيرة^(١)، كما روي أنه لما زُفّت إليه بنت العادل صفية خاتون، تزوّجها على خمسين ألف دينار، وحمل جهازها على ثلاثمئة جمل، وخمسين بغلاً، وجوارٍ على مئة جمل، منهن مئة مغنية يلعبن بأنواع الملهى، ومئة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة، وكان دخولها لحلب يوماً عظيماً، وخلع عليها الزوج جواهر بثلاثمئة ألف درهم، منها خمسة عقود جوهر بمئة وخمسين ألف درهم، وعصابة جوهر لا نظير لها، وعشر قلائد عنبر مذهب، وخمس قلائد بغير ذهب، ومئة وسبعون قطعة من ذهب وفضة، وعشرون تختاً من ثياب، وعشرون جارية، وعشرة خدم^(٢).

وفي سنة (٦١٠ هـ) ولدت صفية لابن عمها الظاهر مولوداً سماه محمداً، ولقبه بالملك العزيز غياث الدين، فزيّنت حلب، واحتفل الظاهر احتفالاً زائداً، وأمر فصيح له من الذهب والفضة جميع الصور والأشكال ما

(١) تاريخ الإسلام، ص ١٥٩، وفيات سنة (٦١١ - ٦٢٠ هـ).

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٢٢٩؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٧٦.



وزن بالقناطير، وصيغ له عشرة مهود من ذهب وفضة، سوى ما عمل له من الأبنوس والصندل والعود وغيره، ونسج للصبي ثلاث فرجيات من لؤلؤ، في كل فرجية أربعون حبة ياقوت وزمرد، ودرعان وخوذتان وبركستوان، كل ذلك من لؤلؤ وثلاثة سروج مجوهره، في كل سرج عدة قطع من جواهر رائع وياقوت وزمرد، وثلاثة سيوف علائقها وقبضاتها من ذهب مرصع بأنواع الجواهر، وعدة رماح من ذهب أسنتها جواهر^(١).

* * *

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٦ - ٢٩٧؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٧٧.

المطلب السابع الجوائح

نزل بالناس في عهد الدولة الأيوبية عددٌ من الجوائح الخطيرة من وباء وفقر وجوع وغلاء، أدت إلى انشغال الناس عن أمور الدعوة، بل وارتكبوا المحرمات والمعاصي في سبيل مواجهة تلك الجوائح.

وقد عقد السيوطي في «حسن المحاضرة» فصلاً بعنوان (ذكر الحوادث الغربية بمصر من غلاء ووباء وزلازل)^(١).

ففي سنة (٥٩٧هـ) جرت أمور تتجاوز الوصف في الجوع المفرط، فلو قال قائل: مات ثلاثة أرباع أهل الإقليم لما أبعد، وأُكلت لحوم الآدميين^(٢). كما كثر الفقراء بمصر في تلك السنة، وخلت الأرياف، واشتد بالناس الجوع، وأكل بعضهم بعضاً، وأكلوا الميتة^(٣).

وكانت أشد أزمئة القحط في السنة الأولى من سلطنة الملك العادل، ويروى أنه حدث في عهده قحط أدى إلى مجاعات رهيبة في البلاد أدت إلى أن يتصرف الناس فيها تصرفات غير لائقة^(٤).

كما يروي صاحب «تاريخ الإسلام» الكثير من الأخبار عن غلاء فاحش أصاب البلاد^(٥)، وبسبب ذلك الغلاء الفاحش كثر حمل الغلّة من البحيرة إلى بلاد المغرب، وكثرت بين الأمراء إشاعة أنّ إقطاعاتهم ستؤخذ منهم،

(١) حسن المحاضرة، ص ٢٧٤.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٤ / ٣٢٨.

(٣) كنز الدرر وجامع الغرر: ٧ / ١٤٨.

(٤) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٥٣؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ١٧٣.

(٥) تاريخ الإسلام، ص ٣١، وفيات سنة (٥٩١ - ٦٠٠ هـ).

فقصّروا في عمارة البلاد، وارتفع السعر بالإسكندرية، وبلغ القمح كلَّ إردبٍ بدينار، وأخذ في الزيادة، وتعدّر وجود الخبز، وضجّ الناس^(١).

كما عمّت البلوى بتحصيل الضرائب، وخرجت في التزيّد عن الحدّ، ودخلت الشبهة في أحوال الكثير من الناس بسببها، وكان صلاح الدين رفعها ومحا آثارها، وعوّضه الله عنها بما حازه في الفتوحات^(٢).

وفي سنة (٦٣٢هـ) كان الوباء العظيم بمصر، فقد مات في شهر نيّف وثلاثون ألف إنسان^(٣). وقد وصل الجوع ببعض جهّال المسلمين أنهم كانوا يُزوّدون الفرنج بالغلّات مقابل المال، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً في بعض الأزمات التي تصيبهم^(٤).

إن هذه الصورة المختصرة لوضع الحياة الاقتصادية في تلك المدة تعطينا صورة عن إهمال الدولة للمصالح العامة، إذ لم تنل تلك المصالح شيئاً من الإنفاق، فأهملت العناية بالريّ والزراعة، والطرق، وشؤون الأمن، وعانى جماهير المسلمين من ضروب الجوع، فعمّ الفقر، وكثرت المصائب، والأمراض سنة بعد سنة، وأصبحت سمة ميّزت المجتمعات الإسلامية، وأسهمت إسهاماً بالغاً في إضعافها أمام الأخطار الخارجية، والوقوف بوجه الدعوة الإسلامية، وإعاقة تقدمها^(٥).

وبعد، فهذا عرض للمعوقات التي وجدتُ أنها واجهت مسار الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية، وكانت حجر عثرةً أمام تقدمه. ولا شك

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٩.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٣ / ٥٣٨.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٢٨٧.

(٤) تاريخ الإسلام، ص ٦٨، وفيات سنة (٥٨١ - ٥٩٠هـ).

(٥) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٧٨ - ٨٠.

أَنَّ كل ظلم وعسف وجور سيكون مقابله عقوبة من الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ لا يظلم الناس مثقال ذرة، ولكن الناس قد ظلموا أنفسهم، وما وقفوا أمام اجتياح المنكرات، ولو أنهم آمنوا واتقوا لنزلت عليهم من السماء البركة العميمة. والواقع أن هذا العصر مليء بشواهد تدل على الخير والشر، وعلى الحق والباطل، وعلى المنكر والمعروف.

وكم كنت أودُّ من الأسرة الأيوبية بمجموعها وامتداد حكمها أن تكون قد تابعت سيرة الملك الصالح صلاح الدين، إذن لاستمر عزُّ الدولة وبقيت صلتها بالله صلةً قوية متينة، ولأثر ذلك بلا ريب في نجاح الدعوة الإسلامية وتقدّمها على مختلف الأصعدة والمجالات.

* * *

المبحث الثاني معوقات خارجية



كان وصول الأيوبيين إلى سدّة الحكم في مصر والشام فاتحة خير عميم على واقع الأمة الإسلامية بعد عصور طويلة من الفوضى والضعف والتشرذم والتأخر الحاد في مسيرة الدعوة الإسلامية؛ إذ استسلم الناس للبدع والتفرّق، وضعت الشخصية المسلمة بعد تفوّق الصليبيين، وتمكّنهم من ناصية البلاد.

وجاء الأيوبيون وقد عصفت بالدعوة رياح عاتية تحدّثت عن مظاهر معوّقاتها الداخلية قبلاً، وأودّ الآن أن أشير إلى معوّقاتها الخارجية؛ إذ يشاء الله وهو الحكيم الخبير أن تواجه الدولة الأيوبية أكبر تحدّ يواجه الأمة بأسرها، وهو الخطر الصليبي.

ويقيناً لو أن هذا الزحف الرهيب قد تمكّن وحقق أغراضه لعاث في الدعوة الإسلامية فساداً؛ وذلك لأنّ منطلق قادة هذا العدوان منطلق ديني بحت، بالإضافة إلى الأطماع المادية، وهذا ما أوضحه خطاب البابا في الجنود الذاهبة للحرب في المشرق: (اذهبوا وأزْعجوا البرابرة، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار، هبّوا اليوم، وقدموا قواكم، وسواعدكم ثمناً لإيمانكم، وتسلّحوا بسلاح الدين والتقوى، فأنتم بذلك تنالون النعيم الدائم. إنكم إن انتصرتكم على عدوّكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً، وأنتم إذا خذلتكم، فستموتون حيث مات يسوع، فلا ينساكم الرب من رحمته، فيُحلّكم محل أوليائه. يا قوم إذا دعاكم الرب يسوع إلى مساعدته فلا تتواروا في بيوتكم قاعدين، ولا تفكّروا في شيء إلا فيما

وقع فيه إخوانكم المسيحيون من الذل والهوان والمسكنة، ولا تسمعوا إلا إلى القدس وزفراته، واذكروا جيداً ما قاله المسيح: الذي يترك بيته ووطنه وزوجه وأولاده حباً فيّ ومن أجلي، فسيخلد في النعيم^(١).

ثم أخذ بطرس الناسك يجوب أرجاء أوروبا ركباً حماراً أعجف، مرتدياً ملابس رثة، حافي القدمين، يحمل على صدره صليباً كبيراً، ويعلو صوته في بكاء متشجج، وهو يحكي آلام المسيحيين في المشرق، وكيف بال عربيّ الهمجي على قبر المسيح^(٢).

وقد بذل الصليبيون جهدهم في تشويه صورة المسلمين في نظر شعوبهم؛ ليُشجّعوهم على قتال المسلمين، فصوّروا صورة المسيح وصورة عربي يضربه، فإذا سألوهم: من هذا الذي يضرب المسيح؟ قالوا: (هذا من بني العرب يضربه، وقد جرحه ومات)، فينزعجون ويخرجون لنصرتة^(٣).

ولم يكن الصليبيون يَخْرُجون رجالاً فقط، بل خرجت نساؤهم أيضاً. قال العماد في «الفتح القسي»: (وفي الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس في زيّ الرجال، ويحاربن عبادة)^(٤).

ونقل عنه أبو شامة قوله: (ووصلت في مركب فيه ثلاثمئة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعت من جزر البحر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القُربان، وزعمن أن هذه قربة، ما فوقها قربة، ولا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزوبة)^(٥).

(١) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ١٨ - ٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) البداية والنهاية: ١٦ / ٦١٢.

(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٤٩.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٠٥.



ولما بلغ الفرنجة نية المسلمين بفتح بيت المقدس، حشدوا، وتجمّعوا من كل فج عميق، وسيّر البطريرك يستصرخ ملوك الفرنجة، ويقول لهم: (الموت عليكم بهذه الأرض المقدّسة أخير لكم مما تسلمون بيت معبودكم). وبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فقال: (نعم نأخذه منهم بحول الله وقدرته، ونخرب بيوتهم، ونكسر لاهوتهم، ونهدم القمامة، التي يدعون أنها القيامة محل صلاتهم)^(١).

وقد أثار انتصار المسلمين في حطين، وعودة بيت المقدس إلى الحكم الإسلامي حقد الفرنجة وملوك أوروبا^(٢).

وكانت هذه الحروب الصليبية أكبر معوّق خارجي لمسيرة الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية التي انشغلت انشغالاً تاماً لا يهدأ بمواجهة خطرها، والوقوف أمام زحفها الهادر.

وكانت الحرب بين الطرفين سجالاً، ويكمن خطرهما في أنها كلّفت خزينة الدولة من المال الذي كان يمكن إنفاقه على الإصلاحات الداخلية التي تلزم لازدهار الدعوة وتقدّمها، بالإضافة إلى إزهاق الأرواح، وتخریب البلاد، وانشغال البال بما ينتج عنها.

وعلى كل حال فقد أفردت في مبحث وسائل الدعوة حديثاً عن جهاد المسلمين والحروب الصليبية، ودور الملوك الأيوبيين فيها، ولم تعرف الدعوة في عهد الدولة الأيوبية معوقاً خارجياً ذا شأن غير هذه الحروب.

* * *

(١) كنز الدرر وجامع الغرر: ٧ / ٨٤.

(٢) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢٥٤.



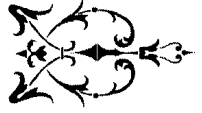
الفصل السادس

نتائج الدعوة وعوامل نجاحها

في عهد الدولة الأيوبية

- نتائج الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.
- عوامل نجاح الدعوة في عهد الدولة الأيوبية.

المبحث الأول نتائج الدعوة في عهد الدولة الأيوبية



إنَّ مَنْ يَطَّلِع على أحوال كثير من بلدان العالم الإسلامي قبيل زمن الدولة الأيوبية تستوقفه مظاهر الفوضى، والفساد، وتأخر مسيرة الدعوة الإسلامية المبنية على الكتاب والسنة.

ومن هنا كان لاعتلاء هذه الدولة مقاليد الحكم ثمار يانعة، وخير عميم، ونتائج باهرة على أحوال العالم الإسلامي، والدعوة الإسلامية.

ويمكن أن أوجز نتائج الدعوة في عهد الدولة الأيوبية فيما يلي:

- ١ - تصحيح المسار العقدي.
- ٢ - دخول الكثير من غير المسلمين في الإسلام.
- ٣ - تغيير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين وتأثرهم بعادات المسلمين وأخلاقهم.
- ٤ - وحدة العالم الإسلامي.
- ٥ - انحسار المد الصليبي.
- ٦ - رعاية شؤون الحرمين.
- ٧ - ازدهار الحركة العلمية.



المطلب الأول تصحيح المسار العقدي

تبيّن من خلال البحث أن الدولة العبيديّة وبعض المذاهب الباطنية كانت تعيثُ فساداً في مصر واليمن والحجاز وبعض القلاع والحصون في بلاد الشام، وقد صاحب هذا رواج العقائد الباطلة التي سبق أن فضّلتُ فيها القول.

وبوصول الأيوبيين إلى الحكم تمّ القضاء على هذه العقائد، وعادت لمذهب أهل السنّة سيادته، ففتحت المدارس التي تُدرّس المذاهب الأربعة، ونشط العلماء الذين حاربوا ما كان قد انتشر من البدع، وانحسر أنصار العبيدية والباطنية^(١).

وقد حرص الأيوبيون على تصحيح المسار العقدي؛ لأن العقيدة الإسلامية الصحيحة هي السبيل الوحيد للخلاص من التفرق، وتوحيد صفوف المسلمين عامة، والعلماء والدعاة خاصة، فهي من وحي الله تعالى، وهدى نبيّه ﷺ، وما كان عليه الرّاعيل الأول من الصحابة الكرام، وأيّ تجمع على غيرها مصيره التفرق، والتنازع، والإخفاق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ أَرْسُولَ مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والحقيقة أن تصحيح المسار العقدي مرتبط بازدهار العلم، وكثرة العلماء، ومجالس العلم، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

(١) انظر: جهود الأيوبيين في القضاء على المذاهب الباطلة، ص ٧٥ - ٧٩.



ويُذكَرُ للأيوبيين عنايتهم الكبيرة في هذا الجانب، فأنشؤوا المدارس السُّنِّيَّة، واحترموا العلماء، وأولَّوهم الرعاية، واستشاروهم في أعمالهم^(١).
 على أنني أشرتُ في دراستي هذه إلى ما كان في العصر من بدعٍ كانت عائقاً أمام تثبيت العقيدة الصحيحة^(٢).

* * *

(١) انظر: مبحث عوامل نجاح الدعوة، ص ٥٠٣ في هذا الكتاب.

(٢) انظر: مبحث المعوقات الداخلية، ص ٤٣٩ في هذا الكتاب.



المطلب الثاني دخول الكثير من غير المسلمين في الإسلام

كان من أعظم نتائج الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية إعجاب عدد كبير من النصارى بالإسلام، ثم اعتناقه والدخول فيه بنفس راضية. ومن الشواهد على ذلك إسلام كثير من الجنود الصليبيين، والانضمام لجيش صلاح الدين ضد قومهم^(١).

ومن ذلك أيضاً إسلام فارس صليبي يُدعى (روبرت أوف سانت ألبانس) سنة (٥٨٠هـ)، وتزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين^(٢)، وفارس آخر صليبي مشهور يُدعى (رانيود) أسلم، وانضم بفرقة العسكرية إلى المسلمين^(٣).

بل إن ابني أخت الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد هربا من المعسكر الصليبي سنة (٥٨٧هـ)، والتحقا بجيش المسلمين، وقد أكرمهما السلطان صلاح الدين، وأحسن إليهما^(٤).

وقد حكى القاضي جمال الدين يعقوب الحاكم أنه شاهد مرة الشيخ عبد الله اليونيني وهو يتوضأ؛ إذ مرّ نصراني ومعه جملٌ بغل، فعثرت الدابة، فسقط الجمل، فرآه الشيخ، وقد فرغ من وضوئه، فأعانه على رفع الجمل، فأعجب النصراني بحسن معاملة الشيخ اليونيني له، وأسلم على يديه^(٥).

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام، ص ١١١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٤) انظر: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٤٨.

(٥) البداية والنهاية: ١٧ / ١٠٣.



وقد حكى ابن الجوزي عن آثار دعوته للنصارى فقال: (وأسلم على يديّ نحو مئتين من أهل الذمة)^(١)، وفي رواية أخرى: (وأسلم على يدي عشرون ألفاً)^(٢).

ولقد كانت دماثة أخلاق صلاح الدين، وحسن تعامله مع النصارى تجذبهم إلى اعتناق الدين الإسلامي، وقد وصف ذلك آرنولد فقال: (... حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية)^(٣).

ومن الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في ذلك العصر رجال الدين النصارى، ومن الأمثلة على ذلك: إسلام (دانيال) أسقف خابور^(٤)، وإسلام عبد الواحد الصوفي الذي كان قساً راهباً بكنيسة مريم سبعين سنة، وقد أسلم قبل موته بأيام^(٥).

وقد أشار آرنولد نقلاً عن المصادر اللاتينية إلى خلوّ كثير من الأسقفيات القبطية في مصر من الأساقفة، فمثلاً: في دير مكاروريوس وحده لم يبق غير أربعة قساوسة بعد أن كان عددهم يتجاوز الثمانين^(٦). كما ذكر آرنولد نقلاً عن بعض المصادر الغربية كثرة اعتناق القساوسة الصليبيين الإسلام في هذا العصر^(٧).

ولحسن معاملة الأيوبيين لأقباط مصر تحوّلت أعداد كبيرة منهم إلى الإسلام^(٨).

(١) لفته الكبد إلى نصيحة الولد، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ١١١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٥) البداية والنهاية: ١٧ / ٢٥٧.

(٦) الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٢٩.

(٧) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٨) المصدر السابق، ص ١٣٠.



وقد علق آرنولد على إسلام الأقباط قائلاً: (ولكثرة عدد الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبي يعدّونهم أشد ميلاً لقبول الدين الإسلامي من أي طائفة أخرى)^(١).

ولا ريب أن ما ذكر في المصادر التاريخية عن إعجاب غير المسلمين بالإسلام، وتحولهم إليه لا يعدو أن يكون نماذج وأمثلة بسيطة؛ وذلك لأن تلك المصادر لم تهتمّ بإحصاء عدد من اعتنق الإسلام، بل كان جلّ اهتمامها منصباً على تأريخ الأحداث العسكرية، أو كتابة سير العلماء والقادة ونحو ذلك.

* * *

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ١٢٦ - ١٢٧.

المطلب الثالث

تغير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين وتأثرهم بعبادات المسلمين وأخلاقهم

كان من النتائج البارزة للدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية تغير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين، وتأثر بعضهم بعبادات المسلمين وأخلاقهم، فأدى ذلك إلى تحوّل مشاعر الكره والبغضاء في نفوسهم تجاه المسلمين إلى صداقة، ووُدّ، وحسن تعامل معهم.

فبعد نجاح المسلمين في فتح بيت المقدس، ونتيجة لمخالطة الكثير منهم للنصارى، بدأ أولئك النصارى يتأثرون بعبادات المسلمين، ويأخذون منها الشيء الكثير كإطلاق اللحى، وبعض أنواع اللباس، والطهارة، وعدم أكل لحم الخنزير، والحجاب، بل وحسن التعامل، ودمائة الأخلاق^(١).

ومن الشواهد على ذلك ما حكاه أسامة بن منقذ من استغرابهم لاهتمام المسلمين بالنظافة الشخصية، ومحاولتهم تقليد المسلمين في ذلك، وترددهم على الحمامات لهذا الغرض^(٢).

ومن الأخلاق الإسلامية الحسنة التي اكتسبوها من معاشرتهم للمسلمين: الغيرة على النساء، فقد كانت مفقودة عندهم، وقد لاحظ أسامة بن منقذ ذلك من مشاهدته لحياتهم، ومعاشرته لهم، ويقول عن ذلك: (وليس عندهم من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي مع امرأته، فيلقاه رجل آخر فيأخذ المرأة، ويتحدث معها، والزوج واقف ينتظر، فإذا طوّلت عليه تركّها مع المتحدث، ومضى)^(٣).

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية: ٧٢٦/٢.

(٢) انظر: كتاب الاعتبار، ص ١٥٥.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٥٤.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن تلك العادة القبيحة بدأت تتغير نسبياً في الجيل الثاني بعد اختلاطهم بالمسلمين^(١).

ومن الأمور الحسنة التي تغيرت عند بعضهم ترك أكل لحم الخنزير، ومما يدل على ذلك أن صديقاً لأسامة دعاه إلى مرافقته لزيارة أحد الفرنجة في بيته، فلما دخلوا عليه دعاهم إلى مائدة حسنة، وطعام في غاية النظافة والجودة، فلما رأى ذلك الإفرنجي أسامة بن منقذ متوقفاً عن الأكل قال له: (كُلْ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَأَنَا مَا أَكَلُ مِنْ طَعَامِ الْإِفْرَنْجِ، وَلِي طَبَاخَاتُ مَصْرِيَّاتٍ مَا أَكَلُ إِلَّا مِنْ طَبِيخِهِنَّ، وَلَا يَدْخُلُ دَارِي لَحْمَ خَنْزِيرٍ)^(٢).

ومن الأمور الهامة التي اكتسبها الفرنج من مخالطتهم بالمسلمين لين الطباع وحسن التعامل، وقد لاحظ ذلك أسامة بن منقذ فقال: (ومن الإفرنج قوم عاشروا المسلمين، ففارقوا سوء طبعهم، فهم أصلح من قريبي العهد ببلادهم)^(٣).

ونظراً لمخالطة المسلمين للنصارى بدأ بينهم نوع من الصداقة والألفة، ومن الشواهد على ذلك ما روي أن أسامة بن منقذ كان له أصدقاء من النصارى يمكثونه من الصلاة في المسجد الأقصى، ويمنعون أحداً من إزعاجه، وذلك عندما كان المسجد الأقصى تحت سيطرة النصارى^(٤).

وقد جرت مسابقات وألعاب بين المسلمين والفرنج في بعض الأحيان على سبيل الترفيه^(٥).

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية: ٧٥٢/٢.

(٢) انظر: كتاب الاعتبار، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٥٩.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٥) انظر: النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٦٩ - ١٧٠.

والإسلام لا يمنع من وقوع مثل هذا البرِّ والتلاطف والتعامل الحسن بين المسلمين وغير المسلمين، وقد جاء التصريح بإباحة ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: (﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾، وتصلوهم، ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، فالله يحب المنصفين الذين يُنصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برّهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم^(١).

وقال الشوكاني: (إن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل)^(٢).

واستطاع المسلمون أن يغيّروا نظرة غير المسلمين الحاقدة والعدائية إلى الإسلام والمسلمين، وأن يستبدلوا بها نظرة إعجاب واحترام وتقدير لتعاليم الدين الإسلامي وعدل المسلمين وتسامحهم وأخلاقهم الرفيعة، بل ودفعت عدداً كبيراً منهم إلى تفضيل الحياة في ظل الحكم الإسلامي.

ويؤكد ذلك ما نقله توماس آرنولد عن بعض الكتاب الغربيين، كقول أحدهم: (ومن المؤكّد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين)^(٣).

(١) تفسير الطبري: ٥٧٣/٢٢.

(٢) فتح القدير: ٢١٢/٨.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ١١٦.

وقول آخر: (ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين رحّبوا بالسّادة الجدد، واطمأنوا إليهم، ورضوا بحكمهم)^(١).

ولم يكن عامة الصليبيين هم الذين تغيّرت نظرتهم للإسلام والمسلمين فحسب، بل تغيّرت نظرة علماء اللاهوت المسيحي أيضاً، وذلك نتيجة اختلاطهم بالمسلمين، فكوّنوا رأياً أكثر إنصافاً عن الإسلام^(٢).

إن تغيّر نظرة الصليبيين إلى المسلمين وإعجابهم بهم وتقديرهم لهم ما هو إلا نتيجة الجهود الدعوية العظيمة التي بذلها الدعاة في العصر الأيوبي.

* * *

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٠.



المطلب الرابع وحدة العالم الإسلامي

لا ريب أن ما شهده العالم الإسلامي قبيل زمن الدولة الأيوبية أمرٌ لافتٌ للنظر بالنسبة إلى تفرّقه دولاً وأشتاتاً، ومن هنا فإن الأيوبيين سَعوا إلى إيجاد وحدة حقيقة لأرجاء واسعة من العالم الإسلامي؛ إدراكاً لأهمية هذه الوحدة في تقوية الدولة، كما بذلوا جهودهم في إلغاء مظاهر الضعف التي كانت تعصف بأجزائها.

وقد امتدّ حكم الأيوبيين بفضل الله تعالى ليشمل: مصر، والنوبة، والسودان، وبلاد الشام، وبعض مدن الجزيرة الفراتية كالرّها، ونصيبين، وسنجار، وأمد، وكيفا، وميفارقين^(١)، وقد فصّلتُ في الحديث عن ذلك في التمهيد.

إن الوحدة التي شهدها العالم الإسلامي وقت الحكم الأيوبي وحدة تميّزت في تاريخ الأمة الإسلامية، وقد استثمر الملوك الأيوبيون هذه الوحدة في نشر مذهب أهل السُنّة، والوقوف أمام الغزو الصليبي، وإشاعة جوّ من الأمن في ربوعه، كما كان لهذه الوحدة أثر كبير في التخفيف من الفتن والثورات التي كانت معهودة في العصور السابقة.

* * *

(١) الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ١٠، وانظر: ص ٢٠.

المطلب الخامس انحسار المدّ الصليبي

انتهزت القوى الصليبية المدعومة من أوروبا حال العالم الإسلامي المتفكك، فأرسلت الحملات تلو الحملات للسيطرة على الأماكن المقدسة، والقضاء على أية صحوة يمكن أن يشهدها المسلمون، وكان ثمة تفهقر واضح في الصف الإسلامي لمواجهة الزحف الصليبي العارم.

ولكن الأيوبيين استطاعوا فعلياً الوقوف المباشر أمام محاولات الصليبيين، وشهد عصرهم صراعاً طويلاً بين الجانبين، سواء في العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه صلاح الدين، أو في عصر أبنائه من بعده، وإن الخسائر الكبيرة التي مُني بها الصليبيون في العهد الأيوبي كانت تجعلهم يُعيدون حساباتهم في استيلائهم على الأماكن المقدسة وغيرها. وقد تكلفوا كثيراً من الأرواح والعدّة، فشعروا أنهم أمام خصم شديد البأس ما كانوا يشهدونه قبل مجيء صلاح الدين وأبنائه. وقد سبق لي التفصيل في مظاهر هذا الجهاد المبارك^(١).

* * *

(١) انظر: مطلب وسيلة الجهاد في وسائل الدعوة، ص ٢٦٢ في هذا الكتاب.



المطلب السادس رعاية شؤون الحرمين

كان الحرمان الشريفان قبيل زمن الدولة الأيوبية في أيدي العبيدين وأنصارهم، كما كانت الطرق إلى الحرمين غير آمنة، فكثرت النهب والسلب للحجاج والمعتمرين، وكانت المكوس الباهظة تُرهقهم.

وعندما تسلّم الأيوبيون مقاليد الحرمين أصلحوا شأنهما بالخدمات المعمارية والمعاشية، وأبطلوا المكوس على القادمين، يقول القاضي الفاضل: (وانتشر الأمن في الطرق المؤدية إليهما)^(١)، كما تبين في ثنايا هذا البحث^(٢).

وقد عاشت المدينة المنورة فترة انتعاش في عهد صلاح الدين، ومعظم العهد الأيوبي بعده، لا يُقلقها شيء سوى الحملة الصليبية التي هددتها سنة (٥٧٧هـ)^(٣).

وقد أبطل صلاح الدين ما يؤخذ من الحاج بجدة، مما يأتي إليها عن طريق البحر، وفي المقابل عوّض صاحب مكة كلّ سنة (٨٠٠٠) إردب قمحاً، وأمر أن يُحمل لفقراء الحرمين مثلها^(٤)، كما عُني بإصلاح المرافق، وحفر الآبار، وأرسل أموالاً للقبائل المقيمة على طريق الحرمين؛ لكي لا يتعرّضوا للحجاج^(٥)، وألغى الجملة التي كان المؤذنون في الحرمين يضيفونها إلى الأذان الشرعي، وهي (حي على خير العمل)^(٦).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٢٠ - ١٢١؛ حسن المحاضرة، ص ٢٠، بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٤٩.

(٢) انظر: ص ١٣٨ - ١٤١، ٤٣١ وما بعدها في هذا الكتاب.

(٣) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٨٣.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٩٣.

(٥) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٨٢.

(٦) المصدر السابق: ٢ / ١٩٥.

واهتم العادل بالحرمين كاهتمام صلاح الدين، فواصل إرسال الأموال والأعطيات، وبخاصة بعد أن اتسع ملكه ليشمل جميع البلاد التي كان يحكمها صلاح الدين^(١).

وقد روي أن الملك المعظم بنى في طريق الحجاز آثاراً حسنة^(٢).

وقد أشار القاضي الفاضل إلى تلك الإصلاحات في أحد كتبه فقال: (من البشائر التي لا عهد لحاجّ ديار مصر بمثلها، ولا عهد لملك من الملوك المصرية بالحصول على فخرها وأجرها: انقطاع المكّاسين^(٣) عن جدة وعن بقية السواحل)، وأشار إلى أن الحرّمين الشريفين كانا مهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، وقال: (والمحروم من قدر فيهما على خير، فأضاع فرصته بترك البدار)^(٤).

وتحوّلت مكة والمدينة في العهد الأيوبي إلى بيئة سنّية تزخر بالعلماء، وبذلك يكون الأيوبيون قد عزّزوا حسناتهم، وآثارهم الطيبة، برعاية شؤون الحرّمين، وما يتّصل بهما.

* * *

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٩٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٧ / ٤٢.

(٣) المكّاسون: أخذوا الضرائب.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٠.



المطلب السابع ازدهار الحركة العلمية

شهد هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً للحركة العلمية في إنشاء المدارس، وما صاحبها من إقامة الأوقاف الغنية التي تدعم المسيرة العلمية لهذه المدارس^(١)، كما شهد وفرة في تأليف المصنّفات، والموسوعات العلمية؛ وذلك لكثرة علماء هذا العصر.

وكان لتقريب العلماء من الحكّام أثر كبير في هذا الازدهار، فأولوهم الكثير من العناية والاهتمام.

وكان أولئك الحكام إلى جانب ذلك مهتمّين بالعلم، فكانوا من طلبة العلم ومن المؤلفين، فقد شهدوا بأنفسهم مجالس العلم، وتركوا لنا مؤلفات قيمة، وكان لهم مشاركات في أحداث عصرهم العلمية، ولعل من أشهر علماء العصر أسرة المقادسة الذين عاشوا في هذا العصر، فقد تركوا فيه موسوعات علمية مهمة، ومن أشهر العلماء من الملوك صلاح الدين وأبناؤه كالمعظم والأفضل والظاهر وغيرهم^(٢).

ومن أَرخ للحياة العلمية لهذا العصر خرج بنتائج تؤكّد كثرة العلماء، وتعدّد المصنّفات. وبذلك حفظ لنا هذا العصر جهود المتقدّمين؛ لأن كثيراً من كُتُب هؤلاء المتقدّمين قد ضاعت ولم تصلنا، ولم نتعرف عليها إلا من خلال موسوعات علماء الدولة الأيوبية في كثير من العلوم والتخصصات^(٣).

(١) انظر: ص ٤١١ - ٤٢٥ في هذا الكتاب.

(٢) انظر: ص ٥١٢ - ٥٣٥ في هذا الكتاب.

(٣) انظر: الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري.

وهكذا أثمرت الجهود الدعوية للدولة الأيوبية ثماراً يانعة، فقد قدمت للأمة الإسلامية خدمات عظيمة، واستطاعت خلال مدة حكمها أن تؤثر بشكل إيجابي في المسار العقدي، فقد بذلت جهوداً مضيئة في تصحيحه، ولملمت شتات أمة الإسلام بتوحيدها لأرجائها، ووقفت في وجه الزحف الإفرنجي الصليبي، وحفظت للحرمين الشريفين قداستهما، فاعتنت بهما عناية خاصة، وأنزلت العلم والعلماء منزلة كريمة، ولم تأل جهداً في خدمة العلم وأهله.

* * *

المبحث الثاني

عوامل نجاح الدعوة في عهد الدولة الأيوبية



تحتاج الدعوة الإسلامية لتصل إلى الهدف المنشود منها إلى عدد من العوامل التي تساعدها على النجاح إلى حد بعيد في مجالاتها المختلفة، وتحقق لها التقدم، وتمنح الدعاة القدرة على التأثير والتفاعل، وتعينهم على عرض مبادئهم وأفكارهم في كل وسط، وعلى كل صعيد.

وبالاطلاع على أحداث عصر الدولة الأيوبية تبين لي أن أهمّ العوامل التي ساهمت في نجاح الدعوة في عهد الدولة الأيوبية بعد توفيق الله تعالى تتركز في الأمور التالية:

- ١ - صدق اللجوء إلى الله تعالى والإخلاص له وشكره على الفتح.
- ٢ - اهتمام الملوك والعلماء بالعلم.
- ٣ - الإصلاحات.
- ٤ - تعيين الولاة.
- ٥ - حرص الملوك والعلماء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٦ - صلاح البطانة.
- ٧ - الأخذ بأسباب القوة والحنكة العسكرية.
- ٨ - الشورى.
- ٩ - علو همة الداعية.

وسأتحدّث عن هذه العوامل بالتفصيل في المطالب التالية:

المطلب الأول صدق اللجوء إلى الله تعالى وشكره على الفتح

إن الاستعانة بالله تعالى، والتوكل عليه سبحانه، وشكره تعالى على نعمه من أهم ما ينبغي للداعية التركيز عليه، وعدم إغفاله، وما ذاك إلا للأسرار العظيمة التي تكمن في هذه العبادات العظيمة، فيا لخسارة من لا يستعين بربه سبحانه، ولا يلجأ إليه في الملمات والشدائد، ولا يشكره تعالى على عطايه وهباته، فمثل هذا من أين يستلهم النصر، وينتظر الفرج؟!.

والداعية في استعانتها بالله تعالى، ولجوءه الدائم له، ممثلة لأوامر الله تعالى، مقتدة بالرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيّفاً على ثلاثمئة، فاستقبل القبلة، فجعل يدعو، ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، وأخذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فوضع رداه عليه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: كفاك - يا نبي الله بأبي وأمي - مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] (١).

(١) والحديث رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم: ٦٨/١٢، برقم (٤٥٢٤).

ولقد ضرب الدعاة الأيوبيون أروع الأمثلة في الاستعانة بالله، واللجوء إليه في الشدائد والمحن، وشكره تعالى على ما منّ عليهم من نصر وفتح.

أولاً: أمثلة على الاستعانة بالله واللجوء إليه في الملمات والشدائد:

كان السلطان صلاح الدين يقصد دائماً بوقعاته الجُمع، ولاسيما أوقات صلاة الجمعة؛ تَبْرُكاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة^(١).

ويصف المؤرِّخ أبو شامة السلطان صلاح الدين في معركة حطين: (والسلطان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد وثق بنصر الله، فهو يمضي بنفسه على الصفوف، ويحضُّهم ويعدُّهم من الله بنصره المألوف، ويُغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إِيَّاهم يجيدون ويجدُّون، ويصُدُّون العدو ويَرُدُّون)^(٢).

أمَّا العماد فيصِفُ ذلك المشهد في كتابه «البرق الشامي»: (وهذا مكثراً للتكبير ومنتظراً للتكبير، وهذا ناجٍ للسعادة، وهذا راجٍ للشهادة، والسلطان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد وثق بنصر الله، فهو يمضي بنفسه على الصفوف، ويحضُّهم ويعدُّهم من الله بنصره المألوف)^(٣).

وفي حصار عكا عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نُصْرته، وهو يَمْرٌ بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحضُّ على حظِّ الأبد، ويحث على الجِلاَد والجِلْد^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ٢٨١ - ٢٨٢.

(٤) المصدر السابق: ٤ / ٩٥.

وكان السلطان ﷺ يلجأ إلى الله، ويستخيره جلّ وعز عندما يحزبه أمرٌ ما ويشغله. ومن ذلك: ما حدث له عندما تشاور مع أصحابه قبل الوصول إلى عسقلان، فانتهوا إلى أن المصلحة في خرابها خشية أن يستولي عليها الإفرنج وهي عامرة، فيقتلوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا بها طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك، وعلم عجز المسلمين عن حفظها، فلما أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيداً منها، فبات هناك مهموماً بسبب الخراب، وما نام إلا قليلاً.

يقول صاحب «النوادر السلطانية»: (ولقد دعاني في خدمته سحراً، وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل، فحضرت، وبدأ الحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الملك الأفضل، وشاوره في ذلك، وطال الحديث في المعنى. ولقد قال لي: والله لأنّ أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله ذلك وعيّن له حفظ مصلحة المسلمين كيف أصنع؟! ثم استخار الله تعالى، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها)^(١).

وثمة موقفٌ عظيمٌ يحكيه لنا ابن شداد في «نواده» يُظهر لنا بجلاء استعانة صلاح الدين بالله دائماً، ولجوءه إليه عندما تدلّه الشدائد، وتتكاثر الهموم، يقول ابن شداد: (كان الفرنج - خذلهم الله - نازلين بموضع قريب من القدس الشريف، وكان السلطان صلاح الدين بالقدس، وقد سَيَّر الجواسيس على العدو، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس، ومحاصرته، وتركيب القنابل عليه، فاشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك، فاستحضر الأمراء وشاورهم، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها، وأصرّ الجميع

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٨٦ - ١٨٧؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٧٨/٤ - ٢٧٩.



على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فإنها مخاطرة بالإسلام، وذكروا أنهم يقصدونهم، ويخرج هو بطائفة من العسكر يكون حول العدو يمنع ميرتهم ويُضيق عليهم، ويكونون هم بصدِّ حِفْظ البلد، والدفع عنها، وانفصل مجلس المشورة على ذلك، وهو مُصِرٌّ على أن يبقى بنفسه علماً منه إن لم يقم لم يقم أحد، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء منهم خبر أنهم لا يقيمون إلا أن يُقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده، حتى يكون هو الحاكم عليهم، فعلم أن هذا إشارة منهم إلى عدم الإقامة، فضاق صدره، وتقسّم فكره.

ولقد جلسْتُ في خدمته في تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة - من أول الليل إلى أن قارب الصبح، وكان الزمان شتاءً، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، فَأَخَذَنِي الإشفاق عليه، فشفت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فما وصلت لبيتي، وأخذت لبعض شأني إلا وأذّن المؤذن، وطلع الصبح، فدخلت على السلطان، وهو يمرُّ الماء على أطرافه، فقال: ما أخذني النوم أصلاً، ثم اشتغلنا بالصلاة، وجلسنا فقلت له: قد وقع لي واقع، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى، فقال: وما هو؟ قلت: الإخلاق إلى الله تعالى، والإناية إليه، والاعتماد في كشف الغمة عليه. فقال: وكيف نصنع؟ فقلت: اليوم جمعة، يغتسل المولى عند الرواح، ويُصَلِّي على العادة بالأقصى، ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به، ويصلي ركعتين بين الأذان والإقامة، ويدعو الله في سجوده، وتقول في باطنك: (إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاق إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل)، فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك.

ف فعل ذلك كله، وصَلَّيْتُ إلى جانبه على العادة، وصلى الركعتين، ورأيته ساجداً، ودموعه تتقاطر على شبيبته، ثم على سجداته، ولا أسمع ما

يقول، فما انقضى ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك يخبر فيها أن الفرنج متخبّطون، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء، ووقفوا إلى قائم الظهيرة، ثم عادوا إلى خيامهم، ثم جاءت رقعة ثانية تخبر أنّهم رحلوا عائدين إلى الرملة، فهذا ما شهدته من آثار إخلاده إلى الله تعالى^(١).

ومن المواقف التي تحكي صدق لجوء السلطان إلى ربه ﷻ ما قام به عندما اشتدّ به المرض طوال شهر رمضان وشوال، فنذر رُكَّ الله أنه إن خلّصه الله من نَبْوة هذه النبوة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية، اشتغل بفتح بيت المقدس، ولو يبذل الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله، والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام، وألا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، وإنجاز الموعود^(٢).

واقتردى جموع المسلمين بسلاطنتهم في صدق اللجوء إلى الله، وطلب العون منه، فيصف لنا ابن الأثير معنويات المسلمين في المعسكر الصلاحي أثناء إحدى المعارك: (وأما المسلمون فقد طمعوا فيهم، وكانوا قبل يخافونهم، فباتوا يُحَرِّض بعضهم بعضاً، فأكثروا من التهليل والتكبير)^(٣).

وفي سنة (٦١٤هـ) أيام الملك العادل، وصل الفرنج إلى الناس، ففزعوا، وابتهلوا إلى الله، وكثر ضجيجهم بالجامع^(٤).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢١٧؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣٠٩/٤ - ٣١٠.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٦٥/٢.

(٣) الكامل في التاريخ: ١١ / ٥٣٤.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١٨٦.

وجاء في أحد كتب القاضي الفاضل ما يدلّ على أهمية الاستعانة بالله، واللجوء إليه في كلّ حال، قال: (إنما أتينا من قبل نفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، فلا يستخضم أحدٌ إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يرجُ إلا ربه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يعتقد أنه يُقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير، فكلُّ هذه مشاغل عن الله، ليس النصر بها، فالنصر بالله، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله من ذنوبنا، فلولا أنها تسدّ طريق دعائنا، لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق)^(١).

ثانياً: أمثلة على شكر الله تعالى على ما أنعم به :

من ذلك أن السلطان صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما فتح حلب ركب، وصعد إلى قلعتها، سُمع وهو صاعد يقرأ: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال: والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقرّ وثبت^(٢).

كما قرأ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضاً في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ وَأَوْثَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيُدْبِرَهُمْ وَأَمُوتَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، ثم صار إلى المقام، فصلى ركعتين أطال فيهما السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيم، وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموال عظيمة^(٣).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ١٨٠.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ١٦٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

ويذكر ابن الأثير اللحظات الأخيرة من معركة حطين عمن حكى له عن الأمير الشاب الأفضل الذي كان إلى جانب والده يرقب التطورات، قال: (كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهده، فلما صار ملك الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملة منكراً على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، قال: فنظرت إليه وقد علته كآبة واربدّ لونه وأمسك لحيته، وتقدّم وهو يصيح: كذب الشيطان، فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصدّوا التلّ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى وعطف المسلمون عليهم، فألحقوهم بالتلّ، فصحت أيضاً: هزمناهم، فالتفت إلي والدي وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي ذلك سقطت الخيمة، فنزل السلطان مباشرة، وصلّى، وسجد شكراً لله تعالى، وبكى من الفرحة، وجدّد الاستبشار بما وجد^(١)).

وفرح الناس كثيراً بالنصر في معركة حطين، وباتوا ليلتهم على أتم سرور وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر لله والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح^(٢).

وكان القاضي الفاضل غائباً عن وقعة حطين، فلما بلغته كتب رسالة إلى السلطان يصف فيها مدى فرحة الناس بالنصر، وشكرهم العظيم لله تعالى، وقد جاء في تلك الرسالة: (ليهنّ المولى أن الله قد أقام به الدين القيم، وأنه قد أسبغ عليه نعمتين: الظاهرة والباطنة، وأورثه الملكين: ملك

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٨٧؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ١٩٣؛ الكامل في التاريخ: ١١ / ٥٣٦.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٩٧.



الدنيا والآخرة، كتب المملوك هذه الرسالة والرؤوس إلى الآن لم تُرفع من سجودها، والدموع لم تُمسح من خدودها، وكلّما فكّر المملوك أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة، يقال اليوم فيه: إنه واحد، جدّد الله شكراً، تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه^(١).

ولما فتح صلاح الدين بيت المقدس توجّهت جموع المجاهدين إلى الأقصى المحرّر، ونظّفوه مما تراكم فيه من أوساخ المحتلّين وقاذوراتهم، وفي أول جمعة أُقيمت فيه امتلاء الجامع، وسالت لركة القلوب المدامع^(٢).

ولقد كان فتح السلطان لبيت المقدس فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق كثير، ذلك أنه لما بلغ الناس ما منّ الله به على السلطان من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وخطّ الصليب الذي كان على قبة الصخرة، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً^(٣).

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٠٠.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٣٠٥.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٣٢.

المطلب الثاني الاهتمام بالعلم

العلم الشرعي هو أفضل ما اكتسبته النفوس، وعمرت به القلوب، وشغلت به الأوقات؛ فيه يرفع الله أقواماً، ويضع آخرين قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

إنه حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، وهو الميزان الذي توزن به الرجال والأقوال والأعمال، وبه يتمكن العبد من تحقيق العبودية لله تعالى.

إنّ مذاكرة العلم الشرعي تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ودراسته تعدل الصيام والقيام، فالحاجة إليه فوق كل حاجة، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين.

وبالعلم الشرعي يعرف المؤمنون ربهم، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وبه يعرفون أمره، ونهيه، وحدوده، وشرعه، وبهذا كله يتحقق لهم خشية الله ﷻ قال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تفسير هذه الآية: (أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة له أتم، والعلم به أكمل؛ كانت الخشية أعظم وأكثر)^(١).

وبالعلم يُخرج الله الناس من الظلمات، ويحصلون على أكمل السعادات،

(١) تفسير ابن كثير: ٣ / ٧٢٤.

وأعظم المنازل، قال الله تعالى: ﴿أَوْمَنَ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُتِنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد أدرك دعاة بني أيوب - ملوكاً وعلماء - هذه الأهمية الكبيرة للعلم، وذلك الفضل العظيم لأهله، فحرصوا أشد الحرص على طلبه وتعلمه والاستزادة منه دون كللٍ أو ملل، بهمة عالية، وصدر رحب، ونفسٍ تواقفة لما هو أسمى وأعلى.

وتحفل كتب التاريخ التي أرخت للدولة الأيوبية بالكثير من الأمثلة التي يلمس فيها القارئ بجلاء اهتمام كل من الملوك والعلماء بالعلم، وتطلّعهم الدائم لتحصيله، فكان ذلك من أهم العوامل التي ساعدت على رعاية الدعوة الإسلامية في عصرهم، وتقدّمها بشكل ملحوظ.

أولاً: اهتمام ملوك بني أيوب بالعلم:

١ - اهتمام صلاح الدين بالعلم:

ومن أبرز هؤلاء الملوك صلاح الدين، فقد اعتنى بالعلم عناية بالغة، وجعله من أولى اهتماماته، وكان عنده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه^(١).

وقد رُوي أنه سمع من أبي الطاهر السلفي، والفقير علي بن بنت أبي سعد^(٢)، وإسماعيل بن مكّي^(٣)، ولما سار إلى الإسكندرية قال: (نعتنم حياة

(١) الكامل في التاريخ: ١٢ / ٩٧.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٧٨.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ١٠٢، وفيات (٥٨١ - ٥٩٠هـ).

الشيخ أبي طاهر بن عوف الزهري)، فسمع هو وأولاده «الموطأ» عليه^(١)، وجاء في بعض الروايات أنه شرع في قراءة «الموطأ» ثاني يوم دخوله إلى الإسكندرية^(٢)، ودرس على الشيخ قطب الدين النيسابوري الذي كتب عقيدة الإسلام له ولأولاده^(٣).

وكان ﷺ شديد الرغبة في سماع الحديث، ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد^(٤)، فإذا سمع عن شيخ رواية عالية استحضره، وسمع عليه، وأسمع أولاده ومماليكه، وإن لم يحضر الشيخ تردد هو إليه، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، وقد تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية، وزوى عنه أحاديث كثيرة^(٥).

وقد سمع من القاضي بهاء الدين بن شداد واستحضره وأكرمه وسأله عن جزء حديث ليسمع منه، فأخرج له جزءاً فيه أذكار من البخاري، فقرأه عليه بنفسه، ثم جمع كتاباً مجلداً في فضائل الجهاد وأحكامه وآدابه وقدمه له ولازمه^(٦).

وكان ﷺ يحب أن يقرأ الحديث، فإذا مرّ بحديث فيه عبّرة رَقَّ قلبه ودمعت عيناه^(٧).

-
- (١) البداية والنهاية: ١٦ / ٥٥١؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٤ / ٢٦٨؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٨٩؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٩٨.
- (٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧٦.
- (٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٧؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٧٨.
- (٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧.
- (٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٨-٩؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٢.
- (٦) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٣٨٥؛ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣ - ٤، ٨٦؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٩.
- (٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٠.



كما واظب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على سماع الحديث الشريف حتى بين الصنفين في المعركة^(١)، وذلك استجابة لنصيحة القاضي ابن شداد فقد قال له: (قد سُمع الحديث في مواطن كثيرة، ولم يُنقل أنه سُمع بين الصنفين، فإن رأى المولى أن يُؤثر عنه ذلك كان حسناً)، فأذن السلطان في ذلك، فأحضر جزأه، كما أحضر مَنْ له به سماع، فقرأ عليه والعسكر على ظهور الدواب بين الصنفين يمشون تارة ويقفون تارة^(٢).

وقد عيّن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لسماع الأحاديث النبوية - بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي - ميقاتاً^(٣)، وكان يحفظ الحماسة، ويظنّ أن كل فقيه يحفظها^(٤)، وحدث عنه يونس الفاروقي والقاضي عماد الدين الكاتب وغيرهما^(٥).

أما مجالسه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فكانت حافلة بأهل العلم والفضل^(٦)، وقد شهد بذلك الموفق عبد اللطيف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: (أول ليلة حضرته وجدت مجلسه حافلاً بأهل العلم يتذكرون، وهو يُحسن الاستماع والمشاركة، ويأتي بكلّ معنى بديع)^(٧).

وقد ذكر ابن شداد أن السلطان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يُلمُّ بكل ما يدور في مجلسه من أحاديث الفقه، ويشارك فيها برأيه، ويقول قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء^(٨).

(١) حسن المحاضرة، ص ٢١.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٧٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢؛ الأعلام: ٨ / ٢٢٠.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٧.

(٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٨؛ تاريخ الإسلام، ص ٣٥٥، وفيات (٥٨٠-٥٩٠هـ).

(٧) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢.

(٨) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٥.



ولقد بلغ من اهتمام السلطان صلاح الدين بالعلم أن اهتمّ به حتى في مرضه، فقد رُوي أنه مرض مرّة، فكان مجلسه لا يخلو من أولي فضل وذوي نباهة ونبُل، يتجاذبون بحضرته أطرف الفوائد، فتارة أحكام شرعية ومسائل فقهية، وآونة في صناعات شعرية وألغاز عربية ومعانٍ أدبية، ومرّة في أحاديث الأجواد وشيم الأجواد، ودفعة في ذكر فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد^(١).

٢ - اهتمام المعظم بالعلم:

ومن الملوك الذين اهتموا بطلب العلم الملك المعظم، فقد حفظ القرآن الكريم، وتفقه في مذهب الإمام أبي حنيفة على الشيخ جمال الدين الحصري، وبرع فيه، وانفرد عن بني أيوب بالمذهب الحنفي، فإنه لم يكن فيهم حنفي غيره بل كلهم شافعية، كما لازم التاج الكندي مدة، وكان ينزل إلى داره بدرج العجم من القلعة والكتاب تحت إبطه، فيأخذ عنه كتاب سيبويه، وشرحه للسيرافي، وأخذ عنه الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي، والحماسة وغير ذلك من الكتب المطوّلة، وقرأ مسند الإمام أحمد على حنبل بن عبد الله الرصافي، وقرأ سيرة ابن هشام على ابن المحلي القاضي أبي محمد عبد الله بن محمد، واعتنى بشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات بمعاونة غيره، وله كتاب في العروض، وكان يحب كتاب سيبويه، وطالعه مرّات، ولما وقع على «تاريخ بغداد» وجد فيه مطاعن على أبي حنيفة، فردّ عليه في كتاب سمّاه: «السهم المصيب في الردّ على الخطيب».

وقد شجّع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ العامة على طلب العلم حيث جعل لمن يحفظ «الإيضاح» ثلاثين ديناراً سوى الخلع، ولمن يحفظ «الجامع الكبير» مئتي دينار، ولمن

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٣٩.



يحفظ «المفصل» للزمخشري مئة دينار، وقد روي أن جماعة كبيرة حفظوا كتابين، فوقى الملك المعظم بوعده.

كان يتكلم مع العلماء ويناظر ويبحث، وكان عالماً بعدة علوم فاضلاً فيها، وقد أمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يُرتَّب له مسند الإمام أحمد، وقد يفوته الوزن العروضي في كتاباته، مع أن له تصنيفاً في العروض، وله ديوان شعر، وكان يحب العلماء ويكرمهم ويجتهد في متابعة الخير، ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وكتاب سيبويه^(١).

وقد رُوي أنه كان له ولعٌ في الكتب، وأسس مكتبة نادرة^(٢).

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قدوة لطلبة العلم، فقد أنهى حفظ كتاب في الفقه من عشرة مجلدات، فعجب الناس منه، وقالوا له: إن أكبر مدرّس في الشام يحفظ هذا المتن مع تفرّغه، وأنت مع شغلك تحفظه؟ فأجاب: أسألوني عن جميع مسائلها، فإن قصرتُ كان الصواب معكم، وإلا فسلموا لي^(٣).

والداعية عندما يُعنى بمتابعة العلوم الشرعية يصبح له سمتٌ وهدىٌ خاص مصبوغ بالتوجيهات الشرعية، وهذه ثمرة يانعة من ثمار الدعوة ومكتسباتها.

٣ - اهتمام الكامل بالعلم:

ومن الملوك المحبّين للعلم الملك الكامل حيث كان مُحبّاً للحديث وأهله، حريصاً على حفظه ونقله، وللعلم عنده سوق قائمة على سوق. خرّج له أبو القاسم ابن الصفراوي أربعين حديثاً.

(١) انظر: تاريخ الإسلام، ص ٢٠٣، وفيات سنة (٦٢٠-٦٣٠ هـ)، ص ١٦٧، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ)، ص ١٤٥، وفيات (٦١١-٦٢٠ هـ)؛ الدارس في تاريخ المدارس: ٥٨٠/١ - ٥٨٢؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٧٦ - ٢٨٠.

(٢) معجم البلدان: ٢ / ٢٧٠.

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٧٧.

كان معظماً للسنة، راجباً في نشرها والتمسك بها، مؤثراً للاجتماع مع العلماء^(١)، وعنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يسأل عنها العلماء، وكان مغرمًا بسماع الأحاديث النبوية، وقد تقدّم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية، وبنى له دار الحديث، وكان يبيت عنده أكثر الليالي مع جماعة من أهل الفضل^(٢).

يقول عنه الذهبي في «سيره»: (كان الكامل عنده مسائل الفقه والنحو يوردها، فمن أجاب فيها حظي عنده، كان محبباً للحديث وأهله، حريصاً على حفظه ونقله، مؤثراً للاجتماع بالعلماء والكلام معهم حضراً وسفراً، يبحث ويفهم)^(٣).

ويحكي لنا ابن النجار عن اهتمام الكامل بالعلم فيقول: (لما دخلت مصر طلبني السلطان - يعني الكامل - فحضرت عنده، وكان يسألني عن أشياء من الحديث، وأيام الناس، وأمرني بملازمة القلعة، فكنت أحضر فيها كل يوم)^(٤).

٤ - اهتمام الأفضل بالعلم:

وممن اهتم بالعلم أيضاً من الملوك الأفضل، فقد روي أنه كان ذا فضيلة ومعرفة وكتابة ونباهة^(٥)، وقد اهتم بتجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية^(٦).

سمع ﷺ من أبي الطاهر بن عوف، وعبد الله بن بَرِّي النحوي، والفضل ابن البانياسي، وأجاز له جماعة، وحدث^(٧).

(١) تاريخ الإسلام، ص ٢٥٥، وفيات (٦٣٠ - ٦٤٠ هـ).

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٠٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٧ - ١٢٩.

(٤) المصدر السابق: ٢٣ / ١٣٣.

(٥) وفيات الأعيان: ٣ / ٤٢٠.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٢٥٥.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٧؛ تاريخ الإسلام، ص ١٢٣، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ).



٥ - اهتمام المظفر بالعلم:

ومن المهتمين بضرب من العلوم الفلكية عَلم من الملوك هو الملك المظفر، فقد رُوي أنه استخدم الشيخ علم الدين قيصر، وكان مهندساً في العلوم، فبنى له أبراجاً بحماة، وطاحوناً على نهر العاصي، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصدة، وكان المظفر يحضر وهو يرسمها، ويسأل عن مواضع دقيقة منها^(١).

٦ - اهتمام المحسن بالعلم:

أما الملك المحسن فقد رُوي أنه سمع «تاريخ بغداد» من الحافظ عز الدين محمد بن عبد الغني^(٢)، وسمع الحديث بدمشق من صدقة الحرّاني وحنبل وابن طبرزد، وبمصر من البوصيري، وبمكة من الحصري، وببغداد من الداھري^(٣)، وروى عن يحيى الثقفي، وابن صدقة، وكتب الكثير، وقرأ^(٤).

٧ - اهتمام الظاهر بالعلم:

والملك الظاهر من المهتمين بالعلم أيضاً، فقد سمع من الفقيه أبي الطاهر بن عوف في الإسكندرية، ومن ابن برّي النحوي في مصر، ومن الفضل البانياسي في دمشق، وحدث بحلب^(٥)، وقد روي أنه اشترى كتاب «صورة الأقاليم» للبلخي^(٦).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٤٠٦.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ١٦٧، وفيات (٦١٠ - ٦٢٠ هـ).

(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٦٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ١٨.

(٥) تاريخ الإسلام، ص ١٥٨، وفيات (٦١١ - ٦٢٠ هـ)؛ سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٦) معجم البلدان: ٦ / ١٤٦؛ الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٤١٤.



٨ - اهتمام المنصور بالعلم:

ومن الملوك الذين اعتنوا بالعلم، وألوه عناية بالغة الملك المنصور، فقد كان في خدمته مئتا فقيه ونحوي ومهندس، وألف تاريخاً كبيراً في مجلدات، وألف «طبقات الشعراء»، وكتاب «مضمار الحقائق» نحو عشرين مجلدة، وجمع في خزانته من الكتب ما لا مزيد عليه، وكان كثير البحث والمطالعة، وله ديوان شعر، ولقد ورد عليه أبو الحسن علي بن الأمدى فبنى له مدرسة، وواظب على حضور مجلسه^(١).

٩ - اهتمام المؤيد بالعلم:

يذكر صاحب «شفاء القلوب» عن الملك الأيوبي المؤيد أن لديه علوماً متنوّعة من فقه وطبّ وأدب، وله كتاب «تقويم البلدان» و«المختصر في أخبار البشر»، ونظم كتاب «الحاوي» فأجاده، وله موشّحات^(٢).

١٠ - اهتمام الأعز بالعلم:

ومن المهتمين بالعلم الملك الأعزّ بن صلاح الدين، فقد سمع من ابن برّي، وأجاز له جماعة، وحَدّث بعرفة ودمشق^(٣).

١١ - اهتمام العزيز بالعلم:

وتحدّث الذهبي عن الملك العزيز في «سيره»، وذكر أنه حدّث عن أبي طاهر السلفي وابن عوف^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٤٦؛ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٤ / ٧٨.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٤٦٢.

(٣) تاريخ الإسلام، ص ٣٠٠، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠هـ).

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٢.



١٢ - اهتمام توران شاه بالعلم:

ومن المهتمين بالعلم الأمير توران شاه بن الناصر صلاح الدين، فقد سمع الحديث بدمشق من محيي الدين بن الثقفي، وأجازه ابن البري، وانتقى له الدمياطي^(١).

١٣ - اهتمام المعظم بن العادل بالعلم:

ومن المبرزين في هذا المجال الملك المعظم ابن الملك العادل، فقد قصده الفقهاء فأكرمهم وأعطاهم، ولم يُسمع منه كلمة نزقة، وتردد مدة في الفقه إلى الحصري حتى تأهل للفتيا^(٢).

ثانياً: اهتمام العلماء بالعلم:

لم يقتصر الاهتمام بالعلم وطلب الاستزادة منه في عهد الدولة الأيوبية على الملوك فحسب، بل كان هذا المطلب السامي من أبرز ما تطلع إليه علماء هذا العصر وطلبة العلم، ومن أبرز العلماء الذين اهتموا بتعزيز المسيرة العلمية في هذا العصر:

١ - القاضي الفاضل:

فمن أبرز علماء هذا العصر القاضي الفاضل، حيث كان له ولع بالكتابة وتحصيل الكتب، وكان قليل النحو، لكن له دربة قوية توجب قلّة اللحن، كتب في الإنشاء ما لم يكتبه أحد، نُقل عنه أنه قال: (إن مسودات رسائله في المجلّدات والتعليقات في الأوراق إذا اجتمعت ما تقصر عن مئة مجلدة)، قيل: إن كتبه التي ملكها تكون مئة ألف مجلدة، وله نظم كثير^(٣).

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ١٢٠.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٩٢.

ولقد حذا ابنه القاضي الأشرف بهاء الدين أحمد حذوه، فقد رُوي أنه كان مثابراً على سماع الحديث وتحصيل الكتب^(١).

٢ - الإمام النووي:

أما الإمام النووي فقد ضربَ به المثلُ في انكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وهجره النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو التردد على شيوخ، حتى إنه كان في ذهابه وإيابه في الطريق يشتغل في تكرار محفوظه^(٢).

٣ - التاج الكندي:

ومن العلماء المهتمين بطلب العلم التاج الكندي المقرئ النحوي الأديب، كان أوحد عصره في فنون الآداب، وعلو الآداب، وشهرته تغني عن الإطناج في وصفه، وكان قد لقي جلة المشايخ، وأخذ عنهم، وسافر إلى الديار المصرية، واقتنى من كتب خزائنها كل نفيس، وعاد إلى دمشق، واستوطنها، وقصده الناس، وأخذوا عنه، وله كتاب مشيخة على حروف المعجم^(٣).

٤ - الحوراني:

ومن العلماء البارزين الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المقرئ التاجر، قرأ بالروايات، وسمع الحديث، ورحل إلى بغداد، وسمع بها من أبي القاسم بن حصين، وكان يصلي بجامع دمشق بحلقة الحنابلة صلاة التراويح، ويقرأ فيها بعدة روايات يخلطها، ويردد الحرف المختلف فيه، فأنكر ذلك عليه، وقالوا: هذا مذهب ترتيب النظم في القرآن الكريم^(٤).

(١) وفيات الأعيان: ٣ / ١٦٣.

(٢) المجموع، ص ٣٠.

(٣) وفيات الأعيان: ٣ / ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ٢ / ١١٤.



٥ - ابن عساكر:

وابن عساكر من العلماء البارزين الذين لهم باع طويل في الاهتمام بالعلم، فقد ذكر صاحب «السير» أنه لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف، حتى في نزهه وخلواته، وكان يحاسب نفسه على كل لحظة تذهب في غير طاعة^(١).

٦ - القاسم بهاء الدين:

ومن العلماء أيضاً القاسم بهاء الدين أبو محمد، الذي عمل كتاب الجهاد، وسمعه منه السلطان صلاح الدين سنة (٥٧٦هـ)^(٢).

٧ - الجماعيلي:

ومن الفضلاء المهتمين بالعلم أيضاً عماد الدين المقدسي الجماعيلي، الذي حفظ القرآن، وكان عالماً بالقراءات والنحو والفرائض، وقرأ بالروايات وأقرأ بها، وصنّف «الفروق في المسائل الفقهية»، وكتاباً في الأحكام لكنه لم يتمّه، حيث لم يكن يتفرغ للتصنيف من كثرة اشتغاله وإشغاله^(٣).

٨ - المزيد من العلماء:

ومنهم أيضاً سبط ابن الجوزي فقد روي أنه كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف، مصنّفاً لأهل العلم والفضل، مبايناً لأهل الخزية والجهل^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٥٥٦.

(٢) المصدر السابق: ٢١ / ٤١١.

(٣) المصدر السابق: ٢٢ / ٤٩ - ٥١.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٤٧٧.

وكذلك ابن أبي عصرون الذي كان من علماء الدولة^(١).

أما صدر الدين محمد بن عباد الخلاطي، فقد كان إماماً عالمياً بالفقه، تفقّه على جمال الدين الحصري، ودرس بالمدرسة السيوفية، من مؤلفاته: «تلخيص الجامع الكبير» في الفقه^(٢).

ومنهم حسام الدين محمد الإخسيكتي، كان إماماً في الفروع والأصول، تفقّه على محمد بن محمد العيدي وهو أستاذه، له مؤلفات منها: «المنتخب الحسامي»، وهو مختصر مشهور في أصول الفقه^(٣).

ومن علماء هذا العصر العالم القدوة سيّد القراء القاسم الرّعيني الشاطبي، كان يتوقّد ذكاءً، وله الباع الطويل في فنّ القراءات والرّسم والنحو والفقه والحديث، وله النظم الرائق، سمع من السّلفي، وكان نزيل القاضي الفاضل، فرتبّه بمدرسته لإقراء القرآن، وإقراء النحو واللغة، وقد انتهت إليه رياسة الإقراء، وقد جاء عنه: (لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا ينفعه الله بها؛ لأنني نظمتها لله)، وكان إذا قرئ عليه «الموطأ»، و«الصحیحان»، يُصحّح النسخ من حفظه، وكان يتجنّب فضول الكلام، ولا ينطق إلا لضرورة، ولا يجلس للإقراء إلا على طهارة^(٤).

وفي العصر الأيوبي قام عدد من العلماء بمشروعٍ علميٍّ ضخم، وهو ترتيب «مسند الإمام أحمد»، ففي سنة (٦٢٣هـ) أحضر البكريّ المحتسب الجمال بن الحافظ والشرف الإربلي والبرازيلي، وقوّر معهم أن يرتّبوا «مسند أحمد» على الأبواب، وقوّر للجمال في الشهر خمسين درهماً، وللآخرين ستين درهماً، وبذل لهم الورق، وأجرة النساخ^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ١٢٥.

(٢) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ١٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٦١ - ٢٦٤.

(٥) تاريخ الإسلام، ص ٢٣، وفيات (٦٢٠ - ٦٣٠هـ).

ثالثاً: اهتمام العلماء بالمذاهب الأربعة:

ولقد تميز عهد الدولة الأيوبية باهتمام العلماء بالمذاهب الفقهية الأربعة، فنجد بروز كثير من العلماء في كلٍّ منها:

١ - من علماء المذهب الحنفي:

مجد الدين محمد بن محمود الأستروشنى، فقد كان من الفقهاء المتقدِّمين في عصره، ومن المجتهدين، درس على أبيه وعلى ابن الشهيد السمرقندي، له مؤلفات منها: «جامع أحكام الصغار» و«الفصول»^(١).

ومنهم أيضاً جمال الدين محمود بن أحمد الحصري، انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه، ولد في بخارى، وتفقّه فيها على الحسن بن منصور قاضيخان، عاش بالشام ودرس بالمدرسة النورية بدمشق، وتولّى الإفتاء، وتفقّه عليه الملك المعظم عيسى، ويوسف سبط ابن الجوزي، من مؤلفاته: «التحريير في شرح الجامع الكبير» و«الوجيز في فقه الحنفية»^(٢).

٢ - من علماء المذهب المالكي:

جمال الدين بن الحاجب عثمان بن عمر، فقيه مالكي من كبار العلماء بالعربية، درس بزواية المالكية في جامع دمشق، وذاع صيته بها حتى قال عنه شهاب الدين أبي شامة: (كان ابن الحاجب ركناً من أركان الدين في العلم والعمل، بارعاً في العلوم الأصولية، مُتقناً لمذهب الإمام مالك ابن أنس، ثقة حجة، مصتفاً للعلم وأهله، ناشراً له)، من مؤلفاته: «منتهى السؤل في علمي الأصول والجدل»، و«مختصر منتهى السؤل والأمل»، وقد لاقت كتبه القبول التام لجزالتها وحسنها^(٣).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٥ - ٢١٦.

ومنهم أيضاً نجم الدين عبد الله بن محمد بن شاس الجذامي السعدي، عمدة محقق أخذ عن أئمة، وحدث عنه الحافظ زكي الدين المنذري، درس بالمدينة المجاورة للجامع العتيق بمصر، من مؤلفاته: «الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة»^(١).

٣ - من علماء المذهب الشافعي:

عماد الدين محمد بن يونس الموصللي، نشأ بالموصل، وتفقه ببغداد، وولي القضاء بالموصل، وكان له صلة كبيرة في دولة الأمير نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وكان يستشيريه ويستفتيه، وصنف له رسالة في علم الكلام، ولم يزل معه حتى انتقل من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي، ولم يكن في بيت الملك أمير شافعي سواه، وقد أوكلت إليه الخطابة في الجامع المجاهدي مع التدريس في المدرسة النورية والعزية والزينية والبغشية والعلانية، وقد كان إمام عصره، وانتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي، وكان ورعاً نظاراً أصولياً فقيهاً، من مؤلفاته: «اختصار المحصول في أصول الفقه»^(٢).

ومن علماء هذا المذهب سيف الدين علي بن أحمد الأمدي الفقيه الأصولي الحنبلي ثم الشافعي، تفتن في علوم النظر والكلام والحكمة وأصول الفقه وأصول الدين، قال عنه سبط ابن الجوزي: (لم يكن في زمانه من يُجاره في الأصولين وعلم الكلام)، وقد تنقل بين آمد وبغداد والديار المصرية والشام، من مؤلفاته: «منتهى السؤل في علم الأصول»^(٣).

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٢١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٢.

ومن العلماء أيضاً عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، الذي تفقّه على والده وغيره من العلماء حتى صار إماماً في الفقه والتفسير والحديث والأصول وسائر العلوم النقلية والعقلية، كان طاهر اللسان كثير الأدب، من مؤلفاته: «شرح المسند للإمام الشافعي» و«المحمود في الفقه»^(١).

ومن علماء المذهب الشافعي البارزين شهاب الدين أبو شامة، مؤرخ محدث باحث، ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق، قال عنه الغزاري: (بلغ شهاب الدين درجة الاجتهاد، والحق أنه لم يكن في وقته مثله مكانة وديانة وعقّة، وكان متواضعاً)، من مؤلفاته: «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» و«شرح الشاطبية»^(٢).

٤ - من علماء المذهب الحنبلي:

نصير الدين محمد بن عبد الله السامري، برع في الفقه والفرائض، وولي القضاء بسامراء وأعمالها مدة، ثم ولي القضاء والحسبة في بغداد، من مؤلفاته: «البستان في الفرائض» و«الفروق في الفقه»^(٣).

ومن علماء هذا المذهب البارزين موفق الدين محمد بن قدامة المقدسي، فقيه من أكابر الحنابلة، مجتهد، كان ثقة حجة في المذهب الحنبلي، برع وتبحر في فنون كثيرة، ومجلسه معمور بالفقهاء والمحدثين. من مؤلفاته: «الروضة في أصول الفقه»، و«ذمّ الوسواس»، و«المغني»، و«المقنع» وغيرها^(٤).

ومن العلماء أيضاً مجد الدين عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٠.

الحرّاني، فقيه أصولي محدّث مفسّر، صنّف ودّرّس، وكان أعرف أهل زمانه بالمذهب الحنبلي، من مؤلفاته: «الأحكام الكبرى في الفقه» و«المنتقى في أحاديث الأحكام» وغيرها^(١).

رابعاً: اهتمام النساء بالعلم:

ولم يكن طلب العلم في عهد الدولة الأيوبية مقصوراً على الرجال فحسب، بل طلبت المرأة العلم أيضاً، وغدّت من العالمات الفقيهات في عصرها. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

– الشيخة أم عبد الكريم فاطمة بنت سعد الخير الأنصاري: درست على يد كثير من العلماء، وتزوجت الداعية المشهور زين الدين علي ابن نجا الواعظ الموصوف بالدهاء، وحنكة الرأي. ولقد شاركت الشيخة فاطمة زوجها في مسيرته الدعوية، وتنقلت معه في كل من دمشق ومصر، فقد ألقت الدروس والمواعظ، وحدّث عنها عدد كبير من العلماء، وأجازت الحافظ المنذري، وأحمد بن الخير سلامة شيخ الذهبي^(٢).

– ومثلها الشيخة الصالحة المسندة عفيفة بنت أحمد الفارفانية: درست على جماعة كبيرة من العلماء، وحصلت على إجازات عالية من أصبهان وبغداد حتى وصل عدد الشيوخ الذين درست عليهم أكثر من خمسمئة شيخ، ثم جلست للتدريس، وخرّجت كبار العلماء^(٣).

– ومنهن الشيخة عائشة بنت الحافظ معمر بن الفاخر القرشية: التي

(١) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٢٦١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤١٢ - ٤١٣.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٣١٢.



درست على كثير من العلماء، وحين أكملت دراستها جلست للتدريس، ودرس عليها الكثير من مشاهير العلماء وأجازتهم^(١).

– ومنهن كريمة بنت المحدث العدل أبي محمد عبد الوهاب بن علي بن الخضر أم الفضل القرشية الأسدية: شبيخة صالحه، مسنده الشام، سمعت من عدد من العلماء، كانت امرأة صالحه جليلة، طويلة الروح على الطلبة، لا تملّ الرواية^(٢).

– ومنهن أيضاً عائشة بنت المجد عيسى بن العلامة موفق الدين بن قدامة أم محمد المقدسية الصالحة العفيفة: سمعت من جدّها وغيره^(٣).

خامساً: اهتمام الملوك بالعلماء:

ومن أهم العوامل المساعدة على نجاح الدعوة، والإسهام في وصولها إلى الهدف المنشود منها: اهتمام الملوك بالعلماء واحترامهم وتقديرهم، ووضعهم في المكان اللائق بهم؛ لأن ذلك سيؤدّي إلى اهتمام العامة بهؤلاء العلماء، فينشأ أبناء الأمة الإسلامية على احترامهم وتقديرهم، وبالتالي الاهتمام باتباعهم، وتطبيق ما يدعون إليه من أحكام وآداب شرعية، فيحقق الداعية ما يصبو إليه - بإذن الله تعالى - من نتائج مرضية، ويؤثّر بشكل مباشر في تقدّم الأمة الإسلامية في المجالات كافة.

وقد أدرك ملوك بني أيوب ذلك، واهتموا بالعلماء اهتماماً بالغاً، ومنحوهم كل تقدير واحترام وتوقير.

فقد رُوي أن سبط ابن الجوزي حَظي عند ملوك بني أيوب، وقدموه،

(١) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٤٩٩ - ٥٠٠.

(٢) الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، ص ٢٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

وأحسنوا إليه^(١)، كما روي أن الملوك وأرباب الدولة كانوا يأتون إليه زائرين وقاصدين، وقد رُبِّيَ رَضِيَ اللهُ فِيهِ في طول زمانه في جاهٍ عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة^(٢).

كما رُوي عن صلاح الدين أنه كان ينتقي أمثال العلماء ليكون قريباً منهم، وقد أَلْحَى عَلَى الْقَاضِي ابْنِ شَدَادٍ - وهو ابن الموصل - ليكون معه^(٣)، كما يذكر صاحب «السير» أن صلاح الدين كان محبباً للفقهاء وأهل الخير محسناً لهم^(٤)، وكان يحترم ابن الزكي قاضي دمشق^(٥).

ومن شدة اهتمامه رَضِيَ اللهُ بِالْعُلَمَاءِ كان يحمل معه في الغزو الفقهاء، وقد أُسِرَ الْفَقِيهَ عَيْسَى الْهَكَارِي وَأَخُوهُ الظَّهَيْرِي فِي وَقْعَةِ الرَّمْلَةِ، وافتداه السلطان بعد سنتين بستين ألف دينار^(٦).

وكان ابن نجية معظماً عند صلاح الدين، وكان صلاح الدين ي كاتبه، ويحضر مجالسه، وكذلك ولده العزيز من بعده^(٧).

كما كان ابن الصلاح أيضاً مُعْظِماً عِنْدَ السُّلْطَانِ^(٨).

أما الملك العادل فقد اعتنى بالعلماء، وأنزلهم المنزلة اللائقة بهم، من ذلك ما روي عن عنايته البالغة بالشيخ جمال الدين بن الحرستاني بحيث جهّز له ما يُفْرَشُ تَحْتَهُ، وما يَسْتَنْدُ عَلَيْهِ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ

(١) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد: ١ / ١٣٣.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٤٧٧.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٤.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١١٣.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٣٥٨.

(٦) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٩٤.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٣٩٤.

(٨) المصدر السابق: ٢٣ / ١٤٠.



لضعفه وكبره^(١). أما الملك الأفضل فقد روي أنه كان يحبّ العلماء ويعظّم حرمتهم^(٢).

ومثله الملك الظاهر الذي قيل فيه: إنه كان محبباً للعلماء^(٣)، وكانت دولته معمورة بالعلماء، وكان يزور الصالحين ويتفقدهم، كما أحسن إلى طلبة الحديث كثيراً^(٤).

ومن الملوك الذين اهتموا بالعلماء الملك المنصور، فقد ذكر الذهبي عنه أنه كان محبباً للعلماء، يقربهم ويُعطيهم، وكان في خدمته ما يناهز مئتي معمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والكتّبة^(٥).

أما الملك المظفر فيُروى أنه كان يحب أهل العلوم^(٦)، ومثله الملك الكامل، ويروى أنه كان يحب العلماء^(٧)، ومن اهتمامه واحترامه لأهل العلم أنّه كان يُنزل العلماء منازلهم، فقد رُوي أنّ أولاد الشيخ صدر الدين ابن حمويه كانوا أكابر دولته^(٨)، كما كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يفتخر بخطيب الإسكندرية وقاضيها، ويعتقد بركته^(٩).

سادساً: اهتمام الدولة الأيوبية بالأطباء:

اهتمت الدولة الأيوبية بالطب والأطباء، ومن أشهر الأطباء الذين اعتنت

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٣٨٩.

(٢) وفيات الأعيان: ٣ / ٤٢٠.

(٣) المصدر السابق: ٤ / ٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٦ - ٢٩٧، ٢٣ / ١٨.

(٥) المصدر السابق: ٢٢ / ١٤٦؛ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٣٨.

(٦) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٤٠٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٠٠.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٠١.

(٩) سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٢٧٣.



بهم الدولة الأيوبية يوسف الرحبي، والذي أقبل على معالجة المرضى، وقرر له الملك صلاح الدين ثلاثين ديناراً على القلعة والبيمارستان، ولم يزل مُبجَّلاً في الدولة^(١).

ومن الأطباء البارزين حكيم الزمان عبد المنعم بن عمر الغساني الأندلسي الجلياني، والذي كان علامة زمانه في صناعة الطب والكحل وأعمالهما، وصناعة الكيمياء، بارعاً في الأدب وصناعة الشعر، وعمل المديحات، أتى من الأندلس إلى الشام، وأقام بدمشق إلى حين وفاته، وكانت له دكان في اللبّادين لصناعة الطب، وكان صلاح الدين يحترمه، وكان له منه الإحسان الكثير والإنعام الوافر، وله في صلاح الدين مدائح كثيرة، وصنف له كتباً.

وقد خلّف ولده عبد المؤمن بن عبد المنعم، وكان كحّالاً، ويشعر أيضاً، ويعمل مديحات، وقد خدم بصناعة الكحل الملك الأشرف أبا الفتح موسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب^(٢).

ومن الأطباء الذين اعتني بهم في ظل هذه الدولة مهذب الدين بن النقاش، الذي ولد ونشأ ببغداد، وكان عالماً بعلم العربية والأدب ويتكلم الفارسية، وقد خدم بصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك دمشق، وحظي عنده^(٣).

ومنهم أيضاً أبو زكريا يحيى الأندلسي البياسي، من الفضلاء المشهورين، والعلماء المذكورين، أتقن الصناعة الطبية، وتميز في العلوم

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٣٧١.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين أبو العباس المعروف بابن أبي أُصَيْبَةَ: ٢ / ١٥٧.

(٣) المصدر السابق: ٢ / ١٦٢.



الرياضية، وقد وصل من المغرب إلى ديار مصر، وأقام بالقاهرة مدة، ثم توجه إلى دمشق، وقطن بها، وقرأ على مهذب الدين بن النقاش، ولازمه، وكتب بخطه كتباً كثيرة في الطب وغيره، وكان يعرف النجارة، وعمل لابن النقاش آلات كثيرة تتعلق بالهندسة، وقد خدم الملك الناصر صلاح الدين بصناعة الطب وبقي معه مدة، ثم استعفى من ذلك، وطلب المقام بدمشق، فأطلق له الملك الناصر أعطيات، وبقي مقيماً في دمشق وهو يفيد منها إلى أن توفي رحمته الله^(١).

ومن الأطباء المشهورين في هذا العصر القاضي شمس الدين أحمد بن الخليل، كان أوحد زمانه في العلوم الحكيمة، وعلامة وقته في الأمور الشرعية، عارفاً بأصول الطب وغيره، محباً لفعل الخير، وكان رحمته الله ملازماً للصلاة والصيام وقراءة القرآن، ولما ورد إلى الشام في أيام السلطان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل استحضره، وسمع كلامه، فوجده أفضل أهل زمانه في سائر العلوم، وكان الملك المعظم عالماً بالأمور الشرعية والفقه، فحسن موقعه عنده، وأكرمه، وأطلق له عطاء وجراية، وبقي معه في الصحبة، ثم جعله مقيماً بدمشق.

وقد ولاه الملك المعظم القضاء، وجعله قاضي دمشق، وله تصانيف لا مزيد عليها في الجودة، وكان ساكناً في المدرسة العادلية، ويلقي بها الدرس للفقهاء، ولم يزل على هذه الحال إلى أن توفي رحمته الله وهو في سن الشباب^(٢).

ولم يكن اهتمام الدولة الأيوبية بالأطباء المسلمين فحسب، بل شمل غير المسلمين أيضاً ترغيباً لهم في الإسلام، ورغبة فيما عندهم من العلوم

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٢ / ١٦٣.

(٢) المصدر السابق: ٢ / ١٧١.

النافعة، وهذا أمر شائع ومعروف في التاريخ الإسلامي فالرسول عليه الصلاة والسلام وُلد في زمن كانت السيطرة فيه للقوى الأجنبية كالفرس والروم، فاستعان ﷺ بنقدهم وعمّالهم المهرة المتخصصين في الصناعة الحربية وغيرها من العلوم والصناعات المفيدة، وكذلك الصحابة ﷺ استفادوا من معارف غيرهم من الأمم، وعمر بن الخطاب ﷺ استفاد من طرق تنظيم الدواوين والحسابات وتنظيم بيت المال من علوم غير المسلمين، ولم تستقل الدولة الإسلامية بعلومها إلا بعد فترة طويلة نسبياً، وذلك عندما قامت بإكمال مظاهر السيادة، ومنها صك عملتها الخاصة، واستغنت عن العملات الأخرى الفارسية والرومية، وقامت بتنظيم أمور التجارة والبريد والمواصلات على أسس جديدة.

والخلاصة أن المسلمين استفادوا من علوم وخبرات غيرهم حتى أنشؤوا كيانهم الخاص، وبدؤوا بعد مدة بتصدير العلوم والخبرات لمن حولهم، وهذا هو المنطق والعقل، فالحكمة ضالة المؤمن، وأينما وجدها التقطها، فهي نور من الله، والمؤمن هو أولى بالعلم، فنحن أمة «أقرأ»^(١)، وكما قال الرسول ﷺ لأصحابه: «نحن أولى بموسى منهم»^(١)، وبالفرح بنجاته وسيرته وإنجازاته.

ومن أبرز الأمثلة من السيرة النبوية على الاستعانة بغير المسلمين استعانة رسول الله ﷺ بمرشد يدلّهم على طريق المدينة في رحلة الهجرة، فقد روي عن عائشة ؓ: أنها قالت: (واستأجر النبي ﷺ وأبو بكرٍ رجلاً من بني الدليل ثم من بني عبد بن عديّ هادياً خريّتا - الخريّيت: الماهرُ بالهداية - وهو على دين كفار قريش؛ فأمناهُ، فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ، فأتاهما براحلتيهما صبيحةً ليالٍ ثلاثٍ فازتحلا، وانطلق

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء: ٩/٨، برقم (٢٦٠٩).

مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالذَّلِيلُ الدَّيْلِيُّ فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ وَهُوَ طَرِيقُ السَّاحِلِ^(١).

ومثال نبوي آخر عظيم في الاستعانة بغير المسلم: ما روي أنه كان فكاك بعض أسرى معركة بدر، وهم من الكفار (ومن المحاربين أيضاً)، تعليم أطفال الصحابة القراءة والكتابة، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)^(٢).

وفي العصر الأيوبي كان من الأطباء غير مسلمين البارزين عفيف بن عبد القاهر سكرة اليهودي، من أهل حلب، عارف بصناعة الطب، مشهور بأعمالها، وجودة النظر فيها له، وأكثر أولاده مشغولون بصناعة الطب، ومقامهم بمدينة حلب، ولعفيف مقالة في القولنج ألفها للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٣).

وهكذا نخلص إلى أن الاهتمام بالعلم وأهله عامل هام من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية في هذا العصر، وهذا يُثبت للدعاة مكانة العلم وأهله، وأنه أساس كل تقدّم ونمّو، ومشعل كل حضارة ورقّي.

* * *

(١) رواه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: استئجار المشركين عند الضرورة، ٧٥٠/٢، برقم (٢١٤٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٩٢/٤، برقم (٢٢١٦)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١٦٣ / ٢.

المطلب الثالث الإصلاحات

يشير المؤرخون إلى حسنات يذكرونها عن تاريخ الملوك الأيوبيين، تتعلق بالجهود الكبيرة التي بذلوها في سبيل الإصلاحات المادية التي تُيسّر للناس معيشتهم، وتجعلهم يحسّون بالاستقرار والأمان.

والحقيقة أن ثمة فارقاً كبيراً بين ملك اتخذه الناس وليّ أمر لهم، فينشغل بمرافقه ومصالحه وراحة بطانته ولا يعنيه أمر الرعية، فيبيتون وهم قلقون في معاشهم ومواصلاتهم، وبين ملك تهّمه مصالح الناس فيسهر عليها، ويُذلل مصاعبها ومشكلاتها.

ألم تجعل نصوص الشريعة إمطة الأذى عن الطريق - مثلاً - شعبة من شعب الإيمان، وذلك في الحديث الشريف: «الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ أو بضعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

ولنتأمل قول الرسول ﷺ: «لا يسترعي الله عبداً رعية يموت حين يموت وهو غاشر لها إلا حرم الله عليه الجنة»^(٢).

أرأيت إلى غش أكبر من أن يتغافل ولي الأمر عمّا يستطيعه من إصلاح شؤون معاش مَنْ يليهم؟!.

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان عَدَدِ شُعْبِ الْإِيمَانِ وَأَفْضَلِهَا وَأَدْنَاهَا وَفَضِيلَةَ الْحَيَاءِ وَكَوْنِهِ مِنَ الْإِيمَانِ: ٦/٢، برقم (١١٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار: ١٣٦/٢، برقم (٣٢٠).



ولنقرأ الحديث الآخر: «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يَجْتَهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة»^(١).

أرأيت إلى تباطئه وانشغاله عن رعيته بشؤون نفسه، إن هذا الوالي كما في الحديث: «النار أولى به».

ومن هنا نخرج إلى أن عناية وليّ الأمر بمثل هذه الإصلاحات المادية له فيها مثوبة كبيرة عند ربه من ناحية، وللناس فيها فوائد كبيرة في تخفيف وطأة المعيشة عليهم، فينصرف الواحد منهم إلى عبادة ربّه بكثير من الاطمئنان، ولا ينشغل عنها بصوارف مختلفة.

ولعلي أشرع الآن في بيان بعض هذه الجهود الحثيثة التي بذلها الملوك الأيوبيون لإصلاح شأن الممالك التي يلونها، ولا يخفى على أحد ما لهذه الإصلاحات من دور في تهيئة الأجواء المناسبة للدعاة؛ ليقوموا بشأن الدعوة في مناخ مناسب.

أولاً: إصلاحات الأيوبيين:

١ - إصلاحات صلاح الدين:

ولقد كان لصلاح الدين قصب السبق في هذا المجال، فقد روي أنه جمع أطباق الذهب وسيوف الزينة التي أخذت من القصر الفاطمي، وشيّد بأثمانها الوفيرة مدارس وملاجئ ومستشفيات^(٢).

ولقد أقيمت في عهده الخانات والفنادق على طرق القوافل بين المدن والمقاطعات، وأجري فيها الماء والصهاريج، وبُنيت الأسواق التجارية،

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار: ١٣٧ / ٢، برقم (٣٢٢).

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٨٦.

وازدهرت الصناعات المختلفة والزراعة الواسعة حتى أصبح كلٌّ من مصر والشام تموج بالبساتين والمروج، وتزخر بالمحاصيل والصناعات، كما اعتنى بالتجارة وبناء القناطر والجسور، وأسند الإشراف على هذه المهمة لخيرة قوّاده وهو الأمير بهاء الدين قراقوش^(١).

كما روي أنه رَضِيَ اللهُ أَنْشَأَ البيمارستان وزوّده بأشهر الأطباء، وأنفق عن سعة في بنائه وإحضار أدوات العلاج^(٢)، وجَهَّزَ أيضاً السُّبُلَ للحجاج^(٣).

كما روي أنه لما دخل الإسكندرية سنة (٥٧٧هـ) شرع في عمارة الخليج، ونقل فوهته إلى مكان آخر^(٤).

ومما قام به السلطان أيضاً في مجال الإصلاحات أن أنشأ ديواناً خاصاً بالأسطول، وخصّص له موارد هامة؛ منها: متحصلات إقليم الفيوم، وإيراد ديوان الزكاة، فضلاً عن حصالة النظرون، وقد قسّم السلطان الأسطول إلى قسمين: قسم لحماية سواحل مصر، وقسم لحماية سواحل الشام، ومنذ عام (٥٧٥هـ) أصبح الأسطول قوة ضاربة^(٥).

ومن ذلك أيضاً أمره بإبطال النقود التي وقع الاختلاف فيها وتضرّر بها العامة، كما أمر أن يكون ما يُضرب من الدينار ذهباً مصرياً، ومن الدراهم الفضة الخالصة، وأبطل الدراهم السود لاستثقال الناس الميزان، فسُرَّ الناس بذلك^(٦).

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٢) صبح الأعشى: ٣ / ٤١٧؛ السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧٦.

(٣) إتحاف الوري بأخبار أم القرى: ٢ / ٥٥٩.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٧٦.

(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٩٨.

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٩٧.



٢ - إصلاحات المعظم:

حج الملك المعظم سنة (٦١١هـ)، وجدّد المصانع والبرك، وأحسن إلى الحجّاج كثيراً. أما في الشام فقد بنى سور دمشق، وبنى بالقدس مدرسة، وبنى بجانب جعفر الطيار مسجداً، وبنى بمعان دار مضيف، وحمّامين، وكان قد عزم على تسهيل طريق الحجّاج، وأن يبني في كلّ منزلة مكاناً^(١).

٣ - إصلاحات الكامل:

ومن الملوك الذين اهتموا بإصلاح الطرق، وتوفير عوامل السلامة فيها الملك الكامل، فقد رُوي أن الطرق كانت آمنة في زمانه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٢). كما يروى أنه كان في زيادة النيل يخرج بنفسه، وينظر في الجسور وإصلاحها، ويرتّب على كلّ جسرٍ من الأمراء مَنْ يتولّاه، وأيُّ جسرٍ اضطرب عاقب مُتولّيّه، وعُمِرَت في أيامه ديار مصر^(٣).

٤ - إصلاحات المنصور:

ومن الملوك المهتمين بالرعية، وإصلاح شؤون البلاد الملك المنصور، حيث روي أنه كان يقضي في أمور الرعية من الصبح إلى الليل، كما كان مؤثراً لعمارة بلده، وبنى القلعة^(٤).

٥ - إصلاحات الأمير مظفر الدين كوكبوري:

أما الأمير مظفر الدين كوكبوري بن علي، أمير صلاح الدين على الرها وحران، فقد نقل المؤرخون عنه أموراً عجيبة من الإصلاحات، ووجوه

(١) الدارس في تاريخ المدارس: ١ / ٥٨٢.

(٢) تاريخ الإسلام، ص ٢٥٦، وفيات (٦٣١ - ٦٤٠هـ).

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥ / ١٥٧.

(٤) المصدر السابق: ٤ / ٧٨.

الخير، فقد عُني هذا الأمير بخدمة صلاح الدين الأيوبي وتمكّن منه، وزوّجه صلاح الدين أخته الست ربيعة خاتون بنت أيوب، وقد أبان مظفر الدين عن نجدة وعزيمة وقوة نفس، وكان في وقعة حطين نعم النصير لصلاح الدين^(١).

وقد بنى أربعة مساكن للزّمنى والعميان، وملاًها بهم، وكان يأتيهم بنفسه كل خميس وإثنين، ويدخل إلى كلّ واحد في بيته، ويسأله عن حاله، ويتفقده بشيء، وينتقل إلى الآخر حتى يدور على جميعهم، وهو يُبسطهم ويمزح معهم^(٢).

وبنى داراً للنساء الأرامل، وداراً للضعفاء الأيتام، وداراً للملاقيط رتب بها جماعة من المراضع^(٣)، وكان يدخل البيمارستان، ويقف على كل مريض، ويسأله عن حاله^(٤).

وكان له دار ضيافة يُقدّم إليها كلّ قادم من فقير أو فقيه، فيأكل فيها الغداء والعشاء، وإذا عزم على السفر أعطوه ما يليق به^(٥).

وكان يبعث أمناءه في العام مرتين بمبلغ يطلق به سراح الأسرى، فإذا وصلوا إليه أعطى كلّ واحد شيئاً^(٦).

ويقيم في كل سنة سبيلاً للحجّ، ويبعث في العام بخمسة آلاف دينار للمجاورين، وهو أول من أجرى الماء إلى عرفات، وعمل آباراً بالحجاز، وبني له هناك تربة^(٧).

(١) وفيات الأعيان: ٤ / ١١٥.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٥ / ٥٤؛ وفيات الأعيان: ٤ / ١١٦.

(٣) وفيات الأعيان: ٤ / ١١٦.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) المصدر السابق نفسه.

وكان مظفر الدين كوكبوري ينفق في كلِّ سنة على الخانقاه مئتي ألف، وعلى دار المضيف مئة ألف، وعلى الأسارى مئتي ألف دينار، وفي الحرمين والسبيل ثلاثين ألف دينار^(١).

ومن المعلوم أنّ وجوه الخير التي يُؤدّيها ولي الأمر للرعية لها أثر كبير في الراحة، والاستقرار النفسي، وتوفّر الجو المناسب لممارسة الأنشطة الدعوية.

ثانياً: من أهم البلاد التي حظيت باهتمام الأيوبيين:

واهتمّ الملوك الأيوبيون رحمهم الله بالمناطق التي كانت تقع تحت حكم الدولة الأيوبية، وتنقل لنا كتب التاريخ مظاهر هذا الاهتمام، ومدى التطوير الذي أدخلوه على تلك البلاد.

ومن أبرز البلاد التي اهتم بها ملوك بني أيوب:

١ - الإسكندرية:

وهي أول بلدة سار إليها صلاح الدين في أيام سلطانه، حيث مرّ عليها، وعمّ أهلها بالإحسان، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها^(٢).

وبعد مدة مرّ عليها السلطان مرة أخرى، وخيّم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جدّدها، والعمارات التي مهّدها، وأمر بالإتمام والاهتمام^(٣).

وهذا يعطي الدعاة درساً في ضرورة متابعة ما أنجز من أعمال ومراجعتها، وتفقدتها بين حين وآخر؛ للاطمئنان على سير الدعوة، والمساهمة في إنجاحها.

(١) وفيات الأعيان: ٤ / ١١٧.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٨٢.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ٨٩.

٢ - القاهرة:

وهي من أهم البلاد التي لاقَت الاهتمام والعناية من الملوك الأيوبيين، وإلى صلاح الدين يرجع الفضل بعد الله ﷻ في جعلها مأوى للعامّة والخاصة من أبناء البلاد، لأنَّ مَنْ سَبَقَهُ من الحكّام كانوا يبنون ديارهم في حَيِّزٍ مستقلٍّ عُرِفَ بالقطائع أو العسكر، فلا يسمحون لغير الحراس من الجند أن يقيموا في هذه العواصم المستحدثة^(١).

وقد بلغت القاهرة أعظم اتساع لها، وشهدت عصراً زاهراً من العمران والبناء في عهد صلاح الدين، وآثاره فيها تنطق بمدى اهتمامه بالعاصمة المصرية^(٢).

ومن أعظم الآثار التي خلفها الأيوبيون في القاهرة: السدّ العظيم وقلعة الجبل، والتي كانت من الإنشاءات العسكرية الهامة التي ميّزت عصرهم، وقد رأوا أنها تحمي البلاد وتقيها غزوات الصليبيين^(٣).

ومن الآثار المهمة للأيوبيين أيضاً بناء السور الجديد المحيط بالقاهرة ومصر؛ لأنه كان قد تهدّم أكثره، وصار طريقاً لا يردُّ داخلاً ولا خارجاً، وقد أنفقوا عليه أموالاً لا تُحصى، وكُلِّفَ بهذا المشروع الضخم بهاء الدين قراقوش، إلا أنّ الأجل لم يمتدّ بصلاح الدين ليرى المشروع كاملاً، فلم يتمّ البناء إلا في عهد ابن أخيه الملك الكامل^(٤).

(١) الخطط: ١ / ٣٦٤؛ صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ١١٩؛ تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٣٠٥.

(٢) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٣٠٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٧٩؛ العبر: ٣ / ٦١؛ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ١٨٤.



هذا بالإضافة إلى إنشاء كثير من المدارس التي ساعدت بشكل ملحوظ على عمران القاهرة، وقد امتد العمران ليشمل القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع^(١).

٣ - بلاد الشام:

اعتنى الأيوبيون ببلاد الشام عناية كبيرة، فقد رُوي أنَّ صلاح الدين زار حلب، وانطلق منها إلى حمص، فرتب أمورها، وأسقط المكوس منها^(٢).

كما رُوي أنه لما عاد من عسقلان عن طريق الساحل إلى دمشق، تفقد في طريقه المدن، والحصون التي مرَّ بها، يقول صاحب «النوادر السلطانية»: (ويمرّ على البلاد يتفقد أحوالها، ويودعها الرجال والعُدَد حتى أتى عكا)^(٣).

ومن الملوك المهتمين ببلاد الشام الملك الظاهر غازي، الذي عمّر أسوار حلب^(٤)، كما روي أنه أجرى الماء من جيلان إلى حلب، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة، وبقي البلد يجري الماء فيه^(٥).

٤ - بلاد الحرمين:

عاشت المدينة المنورة فترة انتعاش في عهد صلاح الدين، ومعظم عهد الأيوبيين من بعده، لا يقلقها شيء سوى قلق الحملة الصليبية التي هدّتها عام (٥٧٧هـ)^(٦).

(١) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٣٠٦.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٩١.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٩٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٩٨.

(٥) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٢٥٤.

(٦) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٨٣.



ومن أبرز ما قدّمه صلاح الدين للمدينة المنورة إرساله الأموال الكثيرة إليها؛ لإصلاح مرافقها، وتأمين الطرق إليها، وحفر الآبار فيها، كما أرسل ﷺ أموالاً للقبائل المقيمة على طريق الحرمين لكيلا يتعرّضوا للحجاج والمسافرين^(١).

واهتم الملك العادل بالحرمين كاهتمام صلاح الدين، فواصل إرسال الأموال والأعطيات وبخاصة بعد أن اتسع ملكه، وشمل البلاد التي كان يحكمها صلاح الدين^(٢).

ومن الملوك الذين ذكر التاريخ اهتمامهم بالحرمين: الملك المظفر، وروى أنه كان يدعم ركب الحجاج، ويدفع الأموال بالحرمين للمحتاجين، وله بمكة آثار، وهو أول من أجرى الماء إلى عرفات، وعمّر بالجبل مصانع للماء^(٣).

ومنهم أيضاً الملك المعظم، ويروى أنه حجّ في سنة (٦١٦هـ)، وبنى في طريق الحجاز آثاراً حسنة^(٤).

٥ - بيت المقدس:

كان المسجد الأقصى قبل فتح صلاح الدين له في حالة يرثى لها، إذ وضع الفرنج فيه الخنازير والخبث والمراحيض وسدّوا المحراب، فبادر المسلمون إلى تنظيفه وتطهيره، وبسطوا فيه البسط، وعُلّقت القناديل، وفرح صلاح الدين بالفتح إذ هتأ الله ثانياً بعد عمر بن الخطاب ﷺ في هذا الفتح^(٥).

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) المصدر السابق: ٢ / ١٩٤.

(٣) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب: ٥ / ٥٥.

(٤) البداية والنهاية: ١٧ / ٤٢.

(٥) تاريخ الإسلام، ص ٢٦، وفيات (٥٨١-٥٩٠هـ).



واعتنى السلطان بيت المقدس عناية كبيرة، وقد ذكر صاحب «الروضتين» أنّ بيت المقدس لم يزل ملحوظاً بالعمارة والتحصين في عهد السلطان^(١)، ومن أبرز إصلاحاته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في بيت المقدس بعد هذا الفتح العظيم قيامه بتحصين المدينة وترتيب أمورها^(٢)، وتشيد أسواره وتحسينها، وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذا خبرة في شؤون البناء والإصلاحات، ومن المواقف التي حدثت معه في بيت المقدس أنه عند بناء أسوار بيت المقدس وخنادقه قال له الصانع: (هذه الحجارة التي تُقَطع من أسفل الخندق رخوة)، فقال: (كذا تكون الحجارة التي تلي القرار والنداوة، فإذا ضربتها الشمس صلبت)^(٣).

كما زاد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في وقف المدرسة سوقاً بدكاكينها وأرضاً ببساتينها، وكذلك عيّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية^(٤)، كما أزال ما حول قبة الصخرة من المنكرات والصور والصلبان^(٥)، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً^(٦)، ولم ينصرف من بيت المقدس إلى دمشق حتى بنى فيها مدارس ومستشفيات^(٧).

وقد أمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ القاضي أبا المحاسن بالمقام بالقدس لعمارة بيمارستان أنشأه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه، ثم انطلق لإزالة المظالم عن نابلس^(٨).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٣٤.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٣٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٨٢.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٣٢.

(٥) البداية والنهاية: ١٦ / ٥٩٤.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٩٨.

(٧) الأعلام: ٨ / ٢٢٠.

(٨) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٤٣.

وممن اهتم ببيت المقدس من العلماء الفقيه عيسى الهكاري، فقد رُوي أنه صنع شبابيك من حديد حول الصخرة العظيمة؛ لصيانتها من أي عبث، وذلك بعد أن أزال صلاح الدين ما أقامه الصليبيون من منكرات وصور وصلبان حولها^(١).

ويمكننا أن نَعُدَّ قضاء صلاح الدين على العبيديين من أعظم إنجازاته في مجال الإصلاحات التي قَدَّمها للأمة الإسلامية، فقد رُوي أنه رَكَّ اللَّهُ ضَبْط محتويات قصر الخليفة العبيدي، ووَكَّل بها بهاء الدين قراقوش، فما كان يدخل إلى القصر شيء ولا يخرج منه شيء إلا بمراى منه^(٢).

كما احتاط رَكَّ اللَّهُ على أهل الملك العبيدي العاضد وأولاده في موضع خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقَرَّر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرَّق بين النساء والرجال ليكون أسرع إلى انقراضهم، واستعرض مَنْ بالقصر من الجواري والعبيد، والعدَّة والعديد، فأطلق مَنْ كان حرّاً، وأعتق مَنْ رأى إعتاقه، ووهب مَنْ أراد هبته، وفرَّق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً^(٣).

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٩٨.

(٢) المصدر السابق: ٢ / ١٨٤.

(٣) المصدر السابق: ٢ / ١٩١ - ١٩٣، ٢١٠.



المطلب الرابع تعيين الولاة

كان الملوك الأيوبيون - ولاسيما صلاح الدين بوصفه أكثرهم فتحاً للبلدان - يهتمون بتعيين الولاة على المناطق الجديدة، وإمدادهم بالوصايا المفيدة، وأخذ العهد عليهم بالسير على منهاج الله، ومتابعتهم من حين لآخر؛ ليطمئنوا على سير الأمور في تلك المناطق، والتزامهم بشرع الله القويم، إذ لا فائدة من الاستمرار في المعارك والفتوحات دون تزويد تلك البلاد المفتوحة بالولاة المسؤولين عن إدارتها وقيادتها إلى ما فيه السعادة الدينية والدنيوية، ولكي تسير حياة المجتمع الجديد بأمن ونظام. وسأذكر في السطور التالية أمثلة على تعيين الملوك للولاة، والوصايا التي زودوهم بها.

فقد رُوي أن السلطان صلاح الدين لما دخل مدينة آمد، وجلس في دار الإمارة، حلف نور الدين بن قرا أرسلان على أن يُظهر بها العدل ويقمع الجور، ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان، مع معاداة الأعداء، ومصافاة الخلان في كل وقت وزمان، وأنه متى استمدّه من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان، وإليه عطشان^(١).

ولما تسلّم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَبَلَة سلّمها إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضي جَبَلَة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً، ووقفه، وصرّفه في أملاك آبائه، وحكّمه في ولاية حُكمه وقضائه^(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٥٦.

(٢) المصدر السابق: ٤ / ٢٠.



ولما فُتحت عكّا حضر القاضي الفاضل إلى الكنيسة، ورتّب بها المنبر والقبلة، ثم ولى السلطان الفقيه جمال الدين عبد اللطيف السهروردي الخطابة والإمامة، وولاه مناصب الشريعة فقد تولّى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف^(١).

ومن البلاد التي فتحها صلاح الدين أيضاً عسقلان، وفوّض القضاء والحكم والخطابة والحسبة وجميع الأمور الدينية فيها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي^(٢).

ولما فتح السلطان بيت المقدس صلّى مع الأمراء الجمعة الأولى في الكنيسة العظمى، بعد أن قام القاضي الفاضل بترتيب المنبر والقبلة، وكان الخطيب والإمام والفقيه: جمال الدين عبد اللطيف السهروردي، الذي ولاه السلطان مناصب الخطابة والقضاء والحسبة والوقف^(٣).

وقد عيّن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على المسجد الأقصى النظار والأئمة والخطباء وغيرهم من العاملين الذين يُحتاج إليهم للإشراف على هذا المسجد الشريف، والمساجد الأخرى التي أُعيد تجديدها بعد مدّة طويلة من الإهمال، كما قام بترتيب إدارة المدينة، فعَيّن الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري والياً عليها^(٤)، ورتّب أيضاً في قبة الصخرة إماماً حسناً^(٥).

وفوّض القضاء إلى القاضي بهاء الدين بن شداد^(٦)، كما أوكل إليه

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣١٢.

(٢) المصدر السابق: ٣ / ٣٢٩.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٠١.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣٩.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٣٩٨؛ البداية والنهاية: ١٦ / ٥٩٤.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٣٨.

النظر في الأوقاف التي أوقفت وزيدت على المسجد الأقصى وقبة الصخرة والخانقاه والمدرسة الشافعية والبيمارستان الذي أنشأه في كنيسة داخل مجمّع الإستبارية السابق^(١).

ومما اهتم به صلاح الدين في بيت المقدس بعد فتحه له: محراب داود، إذ رتب له إماماً ومؤذنين وقوّاماً، وأمر بعمارة جميع المساجد^(٢).

أما الملك العادل فقد رُوي أنه لما دخل حلب في رمضان، خلع على المقدمين والأعيان العطاءات، وولّى القلعة صارم الدين بُزْغَش، وولّى الديوان والإقطاعات شجاع الدين بن البيضاوي، وولّى الإنشاء وما يتعلّق بأمور المسلمين للصنيعة ابن النّحال، وكان نصرانياً وأسلم على يد العادل^(٣).

إن اهتمام الملوك الأيوبيين بانتقاء أفضل الولاة، وتعيينهم على البلاد المفتوحة، أسهم على نحو كبير في تهيئة البيئة المناسبة للبذرة الدعوية؛ لتنمو ويشتدّ سوقها بعون من الله، ثم رعاية الولاة والدعاة الصالحين.

* * *

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٣٩.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٤٠٠.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ١٩٤.

المطلب الخامس

الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز ما يميّز الأمة الإسلامية، وهي خصيصة من خصائصها، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولهذه الشعيرة منزلة عظيمة في الإسلام؛ وذلك لما لها من أهمية وفضل، فهي مهمة الأنبياء والرسل، والمجتمعات المسلمة في حاجة ماسة إليها، ولا يخفى على أحد أنها عبادة من أجلّ العبادات وأكرم الطاعات، وبهذه الشعيرة تظهر شعائر الدين، وتعلو أحكامه، وتُحفظ حرّامات المسلمين من الشرور والفتن، ويُعزّز أهل الإيمان، ويُذلّ أهل العصيان، ويتمّ استقرار المجتمع وشتوع الأمن فيه^(١).

ولتحقق الدعوة الإسلامية النجاح في مسيرها كان لا بد لأبنائها من الحرص على دعوة الناس إلى تطبيق الأوامر التي أمرنا الشارع بها، والنهي عن المنكرات التي أمرنا الشارع بتركها والابتعاد عنها.

واهتمّ الدعاة الأيوبيون ملوكاً وعلماء بهذا الأمر والنهي، وحرصوا على تطبيقه وممارسته في مجتمعهم، ولهذا الاهتمام وذلك الحرص الكثير من الأمثلة والتطبيقات، وسأذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر.

(١) انظر في منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدكتور عبد الرحيم بن محمد المغدوي، ص ١٠٠.

أولاً: اهتمام الملوك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من ذلك نفي صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للشاعر ابن عنين من دمشق بسبب وقوعه في الناس، وكان ذلك الشاعر مولعاً بالهجاء، وثلب أعراض الناس، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق وسَمَّاهَا: «مقراض الأعراض»^(١).

وفي سنة (٥٩٠هـ) ركب السلطان للصيد بالجيزة، ومرّ بباب زويلة، فأنكر بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق، وأمر بهدمها، فهُدمت بمباشرة محتسب القاهرة، ومرّ بصناعة العمائر، فرسم بسدّ طلقات الدور المجاورة للنيل، فسُدَّت^(٢).

ومن الملوك الذين حرصوا على إنكار المنكر الملك العادل الذي أمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإبطال الخمر والقيان^(٣).

ومثله الملك الظاهر الذي أمر بإراقة الخمر في سائر بلاده، وتوعّد مَنْ يعصرها بالقتل، فأريق منها ما لا يُحصى^(٤).

ومنهم أيضاً الملك الأشرف موسى بن العادل، فقد حكى عن نفسه قائلاً: (مات مملوك من ممالكي، وترك ولداً ليس يكون في الناس بتلك البلاد أحسن شباباً ولا أحلى شكلاً منه، فأحببته وقربته، وكان مَنْ لا يفهم أمري يتهمني به، فاتفق أنه عدا عليه إنسان، فضربه حتى قتله، فاشتكى عليه أولياء المقتول، فقلت: أثبتوا أنه قتله، فأثبتوا ذلك، فدافع عنه ممالكي وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات فلم يقبلوا، ووقفوا لي في الطريق، وقالوا: قد

(١) وفيات الأعيان: ٥ / ١٤.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١٠ / ١٢٠.

(٣) البداية والنهاية: ١٧ / ٤٥.

(٤) ذيل مرآة الزمان: ٢ / ٤٥٤.

أثبتنا أنه قتله، فقلت: خذوه، فتسلموه فقتلوه، ولو طلبوا مني ملكي فداء له لدفعته إليهم، ولكن استحيت من الله أن أعارض شرعه بحظ نفسي^(١).
ومن الملوك الذين أشاد التاريخ بإنكارهم للمنكر الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد، وقد ولاه صلاح الدين حمص بعد وفاة والده، فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة، وكان من أحسن الملوك سيرة، وطهر بلاده من الخمر والمكوس والمنكرات، وكانت في غاية الأمن والعدل^(٢).

ثانياً: اهتمام العلماء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كان ابن عساكر صاحب «تاريخ دمشق» من أبرز العلماء المهتمين بهذا الأمر، وقد اشتهر بكثرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة الالتفات إلى الأمراء^(٣).

ومنهم القاضي الفاضل، فقد روي أنه نهى الملك العزيز عن التساهل في إقامة الشعائر الإسلامية^(٤).

ومن المهتمين أيضاً بذلك أسرة المقادسة، ومنهم أبو عمر المقدسي الجماعيلي، فقد روي أنه كان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته، ويكتب فيه إلى الملك، حتى إن بعض الملوك كان يقول: هذا الشيخ شريك في الملك^(٥).

ومنهم الضياء المقدسي فقد وصفه الذهبي أنه كان أقاراً بالمعروف^(٦).

ومنهم أيضاً العز بن عبد السلام والذي كان إمام عصره، والقائم بالأمر

(١) البداية والنهاية: ١٧ / ٢٣٣.

(٢) المصدر السابق: ١٧ / ٢٤٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٥٥٦؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٢ / ٢٣٩.

(٤) بدائع الزهور: ١ / ٢٥٠.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢٢ / ٥.

(٦) المصدر السابق: ٢٣ / ١٢٦.

بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، ولم يُر مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق وشجاعة وقوة جنان وسلاطة لسان، وكان في الحق لا يخشى لومة لائم^(١)، قال عنه الكتبي: (كان أماراً بالمعروف نهاءً عن المنكر)^(٢).

ومن أشهر مواقفه في هذا المجال أنه لما انتقل ﷺ إلى مصر رحّب به الملك الصالح نجم الدين، وولاه الخطابة والقضاء، وكان أول ما لاحظته بعد توليه القضاء قيام الأمراء المماليك المملوكين للدولة الإسلامية بالبيع والشراء وقبض الأثمان، وهو ما يتعارض مع الشرع؛ إذ إنهم في الأصل مملوكون لا يحق لهم البيع والشراء والزواج من حرائر نساء مصر، فكان لا يمضي لهم بيعاً ولا شراءً، حتى تكالبوا عليه، وشكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه فتوى الشيخ العز، فذهب إلى الشيخ يسأله أن يُعدّل من فتواه، ولكن الشيخ أصرّ أن ينادي عليهم وبييعهم.

إلا أن السلطان لم يذعن لحكم العز بن عبد السلام، فجمع الشيخ أمتعته ووضعها على حمار، ولكن الناس تجمعوا وراءه وتبعه العلماء والصلحاء والتجار والنساء والصبيان، حتى كادت مصر تخلو من سكانها، فخرج الملك الصالح مسرعاً، ولحق بالعز، وأدركه في الطريق وترضّاه، وطلب منه أن يعود، وينفذ حكم الله، فتم له ذلك^(٣).

وهكذا يتبين كيف كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عاملاً قوياً من عوامل نجاح الدعوة في هذا العصر، فبحرص الدعاة على ذلك صلح ولاتهم، وصلحت مجتمعاتهم، فتقدّمت الأمة الإسلامية وارتفعت على مختلف المستويات.

(١) الذيل على الروضتين، ص ٢١٦.

(٢) فوات الوفيات: ١ / ٥٩٥.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٨ / ٢١٦؛ بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٦٩.

المطلب السادس صلاح البطانة

إن اعتماد الدعاة على الرجال الثقات في كل ما يمتّ للدعوة بصلة، من الأمور الهامة لتحقيق النجاح لهذه الدعوة المباركة، إذ يساعد أولئك الرجال الداعية في مهمته الربانية، ويمدونه دائماً بالنصائح القويمة، والآراء السديدة.

والمملوك الدعاة من أحوج الناس لبطانة سالحة، وذلك لكثرة المشاكل، والمعضلات التي تمرّ بهم في تسيير دولتهم، فيحتاجون حينها إلى حكيم بعيد النظر يُحسن الإدلاء برأي سديد، ونصيحة قويمة.

وقد حرص صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على اختيار الصالحين الثقات ذوي الرأي الحكيم ليكونوا بطانته المقربين إليه، يعتمد على آرائهم وتوجيهاتهم في كل ما يعرض له من مشكلات. فقد روي أن مماليكه وخواصه، بل وأمراؤه وأجناده كانوا أعفّ من الزهاد والعبّاد^(١).

كما روي أن من أبرز قضاته: كمال الدين الشهرزوري، وشرف الدين ابن أبي عصرون، وأبا حامد بن أبي عصرون، ومحيي الدين بن الزكي، أما وزيره فالصفي بن القابض، وكاتبه: القاضي الفاضل، والعماد الكاتب^(٢).

وشكّل الأكراد الهكارية أمراء جيش صلاح الدين وقادته، ومن أشهرهم سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن من أمراء الدولة من يُضاهيه

(١) الفتح القسّي في الفتح القدسي، ص ٦٥٩.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ١٩٦.



في المنزلة، وكانوا يسمُّونه الأمير الكبير، ووصف القاضي الفاضل موته بأنه: (تهدّم به بنيان قوم، والدهر قاضٍ ما عليه لوم)^(١).

كذلك كان ضياء الدين عيسى الهكاري، الذي كان من أكبر أمراء الجيش في الدولة الأيوبية، وكان فقيهاً تفقه على الإمام أبي القاسم بن البزري، وسمع من الحافظ أبي الطاهر السلفي، والحافظ ابن عساكر، وكان يتمتع بشجاعة فائقة، وحنكة عسكرية، وقد روي أنه أسر، فخلّصه صلاح الدين بمبلغ ستين ألف دينار^(٢).

ولم يكتف صلاح الدين في فكّ الفقيه عيسى بفدائه بالأموال فحسب، بل أطلق لأجله جماعة من الكفار ممن كانوا عنده في الأسر، وهذا دليل على عِظم قدر الفقيه لدى صلاح الدين^(٣).

ولقد كان أحد أسباب تلك العلاقة الحميمة بين السلطان والفقيه عيسى رأي حكيم نفع الله به الأمة الإسلامية نفعاً عظيماً، فحفظه له السلطان والتاريخ؛ فقد رُوي: أنه لما توفي أسد الدين شيركوه اتفق الفقيه عيسى وبهاء الدين قراقوش على ترتيب السلطان صلاح الدين موضعه في الوزارة، ودققا الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود، فلما تولّى صلاح الدين رأى له ذلك، واعتمد عليه، ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس، نفع بجاهه خلقاً كثيراً^(٤).

وتتوالى الأحداث لتؤكّد أهمية ومكانة الفقيه عيسى، وذلك عندما أراد صلاح الدين في عام (٥٧٨هـ) أن يحاصر الموصل، ويستعيدها

(١) وفيات الأعيان: ١٨٢ / ٧١ - ١٨٣.

(٢) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٣، ٢٧٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٤٦٤؛ الكامل في التاريخ: ١ / ٨٦.

(٤) وفيات الأعيان: ٣ / ٤٩٧.

من صاحبها عز الدين مسعود، ويضمّها إلى الجبهة الأمامية، ولكن بعد مناقشات عديدة بين الطرفين تدخل الخليفة العباسي، وأرسل صدر الدين شيخ الشيوخ مندوباً عنه للتوسّط في الصلح بين الطرفين، فأرسل صدر الدين إلى صلاح الدين يطلب منه إنفاذ بعض ثقاته لحضور مباحثات الصلح بين الطرفين، فتقدّم السلطان إلى الفقيه عيسى الهكاري وإلى القاضي الفاضل أن يحضرا، فمضيا وحضرا عند شيخ الشيوخ، وقام كلٌّ من القاضي الفاضل والفقيه عيسى بالتباحث مع شيخ الشيوخ نيابة عن صلاح الدين حتى استقرّ الصلح بين الطرفين، وحُقنت بذلك دماء المسلمين^(١).

وبذلك يتضح لنا اعتماد صلاح الدين على الثقات من رجال الدين في دولته في المهام الدبلوماسية، والتّحدث في الأمور الهامة نيابة عنه؛ وذلك لثقته في بُعد نظرهم وحكمتهم ورأيهم القويم.

كما يتّضح لنا أيضاً ضرورة استعانة الداعية بالبطانة الصالحة، وأثر ذلك في سير أمور الدولة على خير ما يُراد.

ومن خيرة بطانة صلاح الدين وملازميه: القاضي الفاضل، ولم يختره السلطان إلا لمعرفته التامة بأخلاقه الرفيعة، وصفاته الحسنة، فقد رُوي أنه كان كثير الحسنات، دائم التهجد، ملازم القرآن، نَزْهاً عفيفاً، قليل اللذات، وكان لباسه لا يساوي دينارين، ولا يصحبه سوى غلام له، ويكثر زيارة القبور، ويُشيع الجنائز، ويعود المرضى، وكان له صدقات، واستخلصه السلطان لنفسه^(٢).

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١١٦ - ١٢٥؛ مفرج الكروب

في أخبار بني أيوب: ١١٨/٢ - ١٢٣؛ الكامل في التاريخ: ١٠ / ١١٤ - ١١٥.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٤ / ٣٢٥.



وقد خصّ السلطان نفسه بزين الدين بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي، وجعله من مستشاريه، ويصوّر أبو شامة طبيعة العلاقة بين الاثنين فيقول: (وكان السلطان يستشيريه، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيّته)^(١).

وممن ذكرهم التاريخ من أصدقاء صلاح الدين، ومعاونيه في بعض الأحيان القاسم بن مهنا الذي تسلّم إمارة المدينة المنورة سنة (٥٦٣هـ)، وكان عاقلاً تقيّاً محبوباً كثير الأسفار، اتصل برجال عصره، وأقام معهم علاقات وطيدة، فقد سافر إلى بغداد، وأكّد ولاءه للعباسيين، وسافر إلى مصر، واتصل بصلاح الدين، فأحبه صلاح الدين، وقامت بينهما علاقات وطيدة، واصطحبه معه في بعض معاركه، وكان يتفاهل بوجوده معه، ويستبشر بالنصر^(٢).

ومن خيرة قواد صلاح الدين ومعاونيه الأمير بهاء الدين قراقوش، وكان عالماً فقيهاً، كرس نفسه للخدمة العسكرية والإدارية، وكانت سياسته في القاهرة حكيمة وحازمة، وقد ساعد ذلك على إزالة آثار العبيديين، وتضييق الخناق على بقاياهم، لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربتة إلا بالإشاعات وتشويه السمعة^(٣).

ولم تقتصر خدمة هذا الأمير للسلطان صلاح الدين فحسب، بل كان من خيرة بطانة الملك المنصور محمد بن عثمان، وكان قراقوش هو القائم بأمر دولته، فساس الناس أحسن سياسة^(٤).

* * *

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٥٨.

(٢) التاريخ الشامل للمدينة المنورة: ٢ / ١٨٢.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١ / ٢٥٢.

المطلب السابع الأخذ بأسباب القوة والحنكة العسكرية

أمر الله ﷻ المسلمين بأن يعدوا ما استطاعوا من القوة والحذر واحتياطات الأمن لنشر الدعوة وحماية منجزاتها، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وحذّر تعالى الأمة المسلمة من الغفلة، وغيوبة الوعي، وأمرها أن تبقى يقظة حذرة من مكاييد عدوها، فقال جلّ وعزّ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

وينبغي للداعية أن يمتاز بقدر من الذكاء والحكمة والحنكة العسكرية، فتبعات الدعوة إلى الله كثيرة، وهي من المهمات الصعبة، ولكي يتحقق لها النجاح، وتصل إلى أهدافها المنشودة ينبغي أن يُخطط الداعية لها جيداً، ويأخذ بأسباب النجاح، ويفكر بحنكة وذكاء وحكمة في كل الطرق التي قد تؤدي إلى نجاحها، وتساعد على تحمّل تبعات الدعوة، وذلك ليستطيع أن يتصرف التصرف السليم إبان الظروف الصعبة، والمواقف الحرجة التي قد تصادفه أثناء قيامه بأمر الدعوة، أو خلال تعامله مع أصناف متباينة من المدعوين.

إن أي عمل يسير بعشوائية دون تخطيط سابق سينتهي بفشل ذريع، أو على الأقل لا يحقق إلا جزءاً يسيراً من الأهداف المرجوة، والداعية إلى طريق الله تعالى يسير دائماً على هدى ونور، ويخطط لدعوته، ويأخذ بأسباب القوة، ثم يتوكل على الله تعالى متيقناً بالنجاح والفلاح لدعوته في الدنيا والآخرة.



ولقد كان ملوك الدولة الأيوبية متمتعين بقدر كبير من الدهاء والحنكة العسكرية، حريصين كثيراً على الأخذ بأسباب القوة، وكان الأنموذج الأمثل للذكاء والحنكة: صلاح الدين، لذا سأقتصر في هذه الفقرة على ذكر أمثلة عن حنكته وذكائه وسياسته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في التعامل مع الأحداث الهامة في عصره دون ذكر ما يتعلّق ببقية الملوك الأيوبيين، حيث إن ذكر ما يتعلّق بسياسة صلاح الدين وذكائه يغني عن ذكر مَنْ سواه من الملوك.

لقد وصف المؤرخون صلاح الدين بأنه كان رجل سياسة وحرب، عالي الهمة، بعيد النظر، متواضعاً مع جنده، وأمراء جيشه، لا يستطيع المتقرّب منه إلا أن يُحسّ بحب له ممزوج بهيبة^(١).

ولقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثير العناية بجسمه، مهتماً بتقويته دائماً، لا يغفل يوماً عن تمرين جسمه بالرياضة البدنية، وذلك ليستعين بذلك على تحمّل الشدائد^(٢).

وثمة حادثة وقعت مع صلاح الدين قبل تولّيه الحكم دلّت على حنكته العسكريّة، وعظيم دهائه، فقد روي أن شاور كان يركب في الأبهة العظيمة، والعدّة الحسنة، والآلة الجميلة على عادتهم الأولى، وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق، وكان شاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصّدونه، ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاور دخل داره، وناوله سيفه وعمامته؛ فتأوّل أسد الدين بالقبض عليه، وأخذ منصبه.

ثم إن شاور ركب يوماً في أبعته وجلاله، فلما عاينه الأمراء هابوه، وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضباب، وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على صلاح الدين، فتقدّم صلاح الدين فسلم عليه ودخل

(١) الأعلام: ٨ / ٢٢٠.

(٢) الحروب الصليبية، ص ١٥٠.

موكبه، ثم سايره، ثم مَدَّ يده إلى تلابيبه، وصاح عليه، فرجّله. ولمّا رأى ذلك عسكر شاور نهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاور راجلاً إلى خيمة لطيفة، وأراد قتله، فلم يمكنه دون مشاورة أسد الدين.

وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين، فقتله في الحال، وأنفذ رأسه إلى القصر، ولما بلغ الكامل بن شاور قتل أبيه هرب إلى القصر، وخلع العاضد على أسد الدين، وقلّده الوزارة، وأنفذ إليه في طبق فضة رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاده وإخوته^(١).

وبعد أن قام صلاح الدين بإزالة العوائق التي يمكن أن تقف أمامه، قام بإعلان الخطبة العباسية، وقد تمّ ذلك على مراحل بعد استشارة أمرائه كعادته:

- ١ - أمر قراقوش بتشديد السيطرة على القصر بحيث صار العاضد معتقلاً في أيدي الأتراك.
- ٢ - في يوم الجمعة أمر الخطيب بالدعوة للإمام أبي محمد، فتخاله العامة العاضد، وهو يريد أبا محمد المستضيء العباسي، وقد عرف العاضد بذلك، وكان مريضاً.
- ٣ - وفي الجمعة التالية حُطِبَ للخليفة المستضيء، وهو الذي قلّد صلاح الدين بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، وتوفي العاضد بعدها بثلاثة أيام أو أربعة، وبذلك اتّحدت مصر والشام تحت قيادة واحدة^(٢).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٦٣، ١١١؛ وفيات الأعيان: ٢ / ٤٤١.

(٢) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٤٥ - ١٤٦.

وقام صلاح الدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد ذلك ببعض التحركات الدقيقة، والتي كان يهدف من خلالها تقوية دولته، وتثبيت أسسها، ففي سنة (٥٦٤هـ) توجه الواعظ الدمشقي زين الدين إلى بغداد، حيث كان مكلفاً بمهمة خاصة غير رسمية كلفه بها صلاح الدين (بموافقة نور الدين) لإطلاع الخليفة المستنجد والوزير الجديد على ما حصل في مصر حقيقة، ودون ضجة تُثير انتباه العام والخاص من الناس، فاستُقبل في ديوان الخلافة، وخالع الخليفة عليه أهبّة سوداء، فكانت عنده يلبسها في الأعياد^(١).

ولما تخوّف نور الدين من اتّساع نفوذ صلاح الدين، ساسه صلاح الدين، واعترف له بالملك، وفي هذه الأثناء سيّر جيوشه إلى اليمن فامتلكها، ثم توفي نور الدين، فزالت الفجوة بين صلاح الدين والزنكيين^(٢).

وعندما تولى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ القيادة أبدى مقدرةً فائقةً على تصريف الأمور، فاستمال قلوب الناس، واسترضى الأمراء الناقمين عليه، فاستتبّ الأمر له بلا منازع، ولم يبق للخليفة العبيدي العاضد إلا الاسم، ولاح لنور الدين صاحب الشام أن يقطع الخطبة العبيدية، وأن يقيم الخطبة العباسية بمصر، فأرسل إلى صلاح الدين بذلك، فنقذ ذلك، وكان العاضد مريضاً ثم مات دون أن يُعلمه بذلك^(٣).

ومع أنه تمكّن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من القضاء عليهم إلا أنه كان دائم اليقظة والتحرّز من حركاتهم وأخطارهم، يخبرنا بذلك المؤرخ أبو شامة فيقول: (ولم يزل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يتوسّم من جند مصر، ومن أهل القصر بعد ما أزال من بدعتهم، ونقّض من عُرا دولتهم، أنهم أعداء وإن تعدّت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٢) الحروب الصليبية، ص ١٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٦.

شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكولة، وخطراته في التحرُّز منهم مستعملة، لا تخلو سنة تمرُّ، ولا شهر يكرُّ من مكر، يجتمعون عليه، وفساد يتسرَّعون إليه، وحيلة يُبرمونها، ومكيدة يتممونها.

وكان أكثر ما يتعلَّلون به، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة إلى الفرنج خذلهم الله، والتي يوسَّعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سؤلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحليل في مفاوضاتهم سير (جرج) كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشمل عليه في وقته علمنا^(١).

وبعد اشتداد ساعد الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين، واستقرار الشام ومصر أمناً، تحوَّل تدريجياً من سياسة المهادنة المتجددة مع الصليبيين (أي الدفاع) - وكان هذا نتيجة ضعف القدرة السياسية والعسكرية في السابق - إلى سياسة الهجوم في العمق داخل المناطق التي كان الصليبيون يسيطرون عليها، وقد اتَّسمت سياسته هذه بالمرونة والصبر، وبهذا تمكَّن من تحقيق الوحدة الضرورية التي أرادها^(٢).

ومن باب إعداد الجيش الإسلامي كان صلاح الدين يهتم بإعداد جنده إعداداً عسكرياً جيداً، فكان يتعهدهم بالعناية، ويسمح للمحارب أن يُحارب ساعات ثم يستريح، أو يذهب إلى ذويه كما هو الحال في أرقى الجيوش الحديثة^(٣)، وفي الشتاء كان يُعطي العساكر إجازة^(٤).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٢) انظر: صلاح الدين - القائد وعصره، ص ١٨٦.

(٣) الحروب الصليبية، ص ٢٠٣.

(٤) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٦٥.



وثمة أحداث عظيمة وقعت مع صلاح الدين دلت على ذكائه وحنكته:
 - من ذلك ما روي أن السلطان كان رافضاً رفضاً قاطعاً للصلح مع الصليبيين، وقد نقل ابن شداد عنه قوله: (متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج، والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت)^(١).
 - وتتجلى سياسية صلاح الدين بوضوح في ذلك الموقف الذي حكاه صاحب «كتاب الروضتين»، فقد ذكر أنه لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته، فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أُرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: (هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعمّا تصديت له تصدك؛ وأنت قد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده).
 فلما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبمنفسه، وبالغ في إكرامه، والإحسان إليه، ثم أحضره بعد ثلاثة لسماع الرسالة منه، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقع بتلك التموهيات العاطلة، لم يُعره السلطان ﷺ طرفاً ولا سمعاً، ولا ردّ عليه خفضاً ولا رفعاً، بل ضرب عنه صفحاً وتغاضياً، وترك جوابه إحساناً وتجاufياً، وجرى في ميدان أريحيته، واستنّ في سنن مروءته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: (يا هذا اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحيطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكفّ عادية المعتدين)^(٢).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٣٤٦.

- ومن الحوادث الدالّة على حكمته، وحنكته العسكرية ما روي أنه أرسل كتاب تعزية حارّاً إلى ملك بيت المقدس الصليبي يتأسّف فيه على فقد والد الملك الراحل، ويدعو الملك الجديد إلى احترام ما كان بينهما من موثيق.

وقد أخذ الناقدون ذلك على صلاح الدين، ولكن هذه حنكة سياسية تحسب لصلاح الدين، ولا تحسب عليه؛ لأنه أدري بظروفه الحربية، فهو يعرف أن المعركة إذا سبقت ميعادها المناسب قد تكون نتيجتها وخيمة بالنسبة له، وفي الملك الجديد شباب مندفع، وقد تُسوّل له نفسه أن ينقض الهدنة، فيضطر البطل إلى النزال دون استعداد كافٍ، فمن الحكمة كلّ الحكمة أن يكتب إليه معزياً، وأن يُذكّره بمعاهده مع والده، وأن يُعلن تمسّكه الشريف بما كان من تعاهد.

لقد كانت رسالة التعزية هذه مصدرَ هدوء نفسي للمتعهدين معاً، وإذا تركت لصلاح الدين أن يفرغ إلى إعداد خطة منتظرة؛ فقد أكسبته وقتاً طيباً كان في حاجة إليه^(١).

وبعد، فهذا غيض من فيض عن أخذ هذا السلطان بأسباب القوة، وحنكته ودهائه، مما كان له أكبر الأثر في تقدّم الدعوة في عهده، وعهد مَنْ تبعه من ملوك الدولة الأيوبية.

* * *

(١) انظر: صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٢١٥ - ٢١٦.



المطلب الثامن

الشورى

الشورى مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام، حث الله ﷻ عباده عليه في عدد من الآيات القرآنية، وأكّده شواهد من السُّنة النبوية.

ويدل على مكانة الشورى في الإسلام تسمية الله ﷻ لسورة كاملة في القرآن بالشورى؛ تنبيهاً لأهميتها، وعظيم مكانتها، كما أن الله تعالى ذكر من أوصاف المؤمنين المستجيبين لأمر الله تعالى تشاورهم فيما بينهم في أمورهم، فقال جلّ وعزّ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

كما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه، مع عدم حاجته لآرائهم، لأن الله تكفل بإرشاده وتوجيهه، ولكنّ الهدف من ذلك إرشاد الأمة الإسلامية إلى أهمية الشورى، وأثرها العظيم، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

واستجاب رسول الله ﷺ لأمر الله، وتوَكَّد ذلك السُّنة العملية، فقد كان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس مشورة لأصحابه في أحواله كلّها، في السلم والحرب، في الحياة الخاصة والعامة، وكانت عبارته عليه الصلاة والسلام إذا أراد استشارة أصحابه في أي أمر: «أشيروا عليّ»^(١)، طالباً من أصحابه مشورتهم.

ومن أبرز الأمثلة على حرص رسول الله ﷺ على استشارة أصحابه ما حدث قبل غزوة بدر، فقد روي عن أنسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاوَرَ،

(١) رواه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف: ٩٦/١٧، برقم (٦٩٧١).



حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ. قَالَ: فَتَكَلَّمْتُ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمْتُ عُمَرَ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّاَنَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لِأَخْضَانَهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْعِمَادِ لَفَعَلْنَا^(١).

وكان ﷺ يستشير النساء أيضاً فقد روي أنه بعد أن تم صلح الحديبية، لما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم اخلقوا». قال الراوي: (فوالله ما قام منهم رجلٌ، حتى قال ذلك ثلاث مرّات، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَهُ، ودعا حالقهُ فحلَقهُ. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً)^(٢).

ولقد اعتنى دعاة الدولة الأيوبية بالتشاور فيما بينهم، وكان تمسكهم بهذا المبدأ العظيم من عوامل نجاحهم في الدعوة إلى الله، ويؤكد هذا الأمر شواهد عديدة من تاريخهم، وكان أكثر ملوكهم تمسكاً بهذا المبدأ العظيم مؤسس الدولة صلاح الدين الأيوبي، فقد كان ﷺ - قبل تأسيس الدولة الأيوبية - لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين^(٣)، وبعد أن أسس الدولة الأيوبية عُرف عنه أنه كان كثير الشورى لأصحابه^(٤)، ولقد اقتدى به إخوانه وأبناؤه من بعده.

(١) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة بدر: ٩٩ / ١٢، برقم (٤٥٧٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب: ٩٧٢ / ٢، برقم (٢٥٨١).

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٢٠٥.

(٤) الكامل في التاريخ: ١٢ / ٥٠.

وسأتحدث عن اهتمام دعاة الدولة الأيوبية بمبدأ الشورى من خلال النقاط التالية:

- ١ - أبرز المستشارين في الدولة الأيوبية.
- ٢ - مجالس الشورى في الحرب.

أولاً: أبرز المستشارين في الدولة الأيوبية:

عُرف عدد من الدعاة في عهد الدولة الأيوبية بالحكمة والحنكة والفقہ وسداد الرأي، مما جعل الحكّام والناس يأخذون رأيهم، ويلجؤون إليهم فيما يعرض عليهم من قضايا ومشكلات.

ومن هؤلاء الدعاة:

١ - الملك العادل:

كان أمراء الدولة الأيوبية يحترمون الملك العادل، فقد روي أن صلاح الدين كان يُعظّمه، ويعمل برأيه في جميع أموره، ويتيمّن بمشورته، ولا يُعلم بأن العادل أشار على السلطان بأمر فخالفه، وكان الأمراء إذا اجتمعوا للمشورة وكان الملك العادل حاضراً سُمع رأيه، وإن لم يكن حاضراً كُتب له وأخذ برأيه^(١).

وهذا في دلالة واضحة على حُسن رأي العادل وحنكته، كما يدلّ على اهتمام الأمراء بالشورى، وتمسّكهم بهذا المبدأ العظيم.

٢ - القاضي الفاضل:

كان السلطان صلاح الدين شديد الوثوق بمكان القاضي الفاضل، دائم الاعتماد والاستناد إلى إحسانه، فإن استقدمه خاف على من وراءه من

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ١٩١ - ١٩٢.

المهام، وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام، وكان يُكاتبه دائماً بشرح الأحوال رغبة في استشارته^(١).

وكان رَضَّيَّه عندما يعزم على الخروج للغزاة يبدأ بزيارة القاضي الفاضل، ليستضيء برأيه فيما يريد أن يفعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه^(٢).

ولقد صرَّح رَضَّيَّه بسداد رأي القاضي الفاضل فقال عنه: (لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي الفاضل)^(٣). وقد اقتدى ملوك الدولة الأيوبية بمؤسسهم فكانوا يُقدِّرون القاضي الفاضل ويعملون برأيه.

٣ - زين الدين بن نجا:

خصَّ صلاح الدين نفسه بزين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي، وجعله من مستشاريه، وكان يعمل برأيه؛ لسداد رأيه، وسعة حيلته، وكان يسميه عمرو بن العاص، ويصوِّر أبو شامة طبيعة العلاقة بين الاثنين فيقول: (وكان السلطان يستشيريه، ويروقه تدييره، ويميل إليه، لتقديم معرفته، وكريم سجيَّته)^(٤).

وكذلك كان كثير من أرباب الدولة، وأهل السُّنَّة في مصر، فقد كانوا لا يخرجون عمّا يراه لهم ابن نجا، وقد روي أن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قال له: (إذا رأيت مصلحة في شيء فاكتبه إلي بها، ما أعمل إلا برأيك)^(٥).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٢٣٨.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢ / ٢٥٥.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ١٥٧.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢ / ٨٥.

(٥) ذيل طبقات الحنابلة، عبد الرحمن بن رجب: ١ / ٤٣٧ - ٤٣٨.



٤ - القاضي ابن شداد:

كان أفراد البيت الأيوبي يعودون دائماً إلى القاضي ابن شداد ويستشيرونه^(١)، وما ذاك إلا لعظم قدره، وسداد رأيه وحنكته في حلّ المشكلات.

وثمة حادثة وقعت بينه وبين صلاح الدين تبين ذلك، وتؤكد على ثقة صلاح الدين برأيه، وذلك بمسارعته بتطبيق ما أشار به عليه، فقد روي أن صلاح الدين عرض له ما يهّمه، فاستشار القاضي ابن شداد، فقال له: قد وقع لي واقع وأظنّه مفيداً إن شاء الله، وما هو إلا الإخلاق إلى الله تعالى، والإنابة إليه، والاعتماد في كشف الغمّة عليه، فقال: وكيف نصنع؟ فقال ابن شداد: اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح، ويصليّ على العادة بالأقصى، موضع مسرى النبي ﷺ، ويُقدّم المولى التصدّق بشيء خفية على يد من يثق به، ويصلي ركعتين بين الأذان والإقامة، ويدعو الله في سجوده، فقد ورد فيه حديث صحيح، وتقول في باطنك: (إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبق لي إلا الإخلاق إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل)، فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك. ففعل صلاح الدين ذلك كله، وصلى ابن شداد إلى جانبه على العادة، وصلى ركعتين بين الأذان والإقامة، ورآه ساجداً، ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجاده، حتى جاء الفرج^(٢).

ثانياً: مجالس الشورى في الحرب:

حرص الدعاة المجاهدون في هذا العصر على عقد مجلس للشورى قبل الإقدام على ابتداء أي خطوة في معركة من المعارك، فقد كان القائد

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢.

يُبادر باستشارة جنده، والاستنارة برأيهم، كما أن الجند كانوا يسارعون بإبداء رأيهم ووجهة نظرهم فيما يعود على الجيش الإسلامي بالخير والفلاح.

وتؤكد الشواهد التاريخية لهذا العصر على ذلك الاهتمام بالشورى، مما يعطي القادة والجند درساً في الحث على الأخذ بهذا المبدأ العظيم، والتطبيق العملي له في كل جوانب الحياة، ولا سيما الشؤون العسكرية.

ومن أبرز الشواهد التاريخية على الشورى في الحرب في العهد الأيوبي التالي:

١ - لما بلغ السلطان صلاح الدين عزم الفرنج على قصد القدس أحضر الأمراء ليلة عنده، فلما اجتمعوا أمر القاضي ابن شداد أن يكلمهم ليحثهم على الجهاد، فذكر ما يسر الله من ذلك، وكان ممّا قاله: (إن النبي ﷺ لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من تأسى به، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة، والتّحالف على الموت، فلعلّ ببركة هذه النية يندفع هذا العدو)، فاستحسن الجماعة ذلك، ووافقوا عليه^(١).

فقال صلاح الدين بعد أن سكت زماناً: (الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام ومَنَعْتُهُ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرايرهم معلّقة في ذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويثتم أعنتكم طوى البلاد كطيّ السجّل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، فإنكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلّقون بكم، والسلام).

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: (يا مولانا نحن مماليكك

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٠٦.



وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا، وكبرتنا، وعظمتنا، وأعطيتنا، وأغنيتنا، وليس لنا إلا رقابنا، وهي بين يديك، والله ما يرجع أحدٌ منا عن نصرتك إلى أن يموت).

فقال الجماعة مثل ما قال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس، وطاب قلبه^(١).

٢ - طلب الصليبيون من المسلمين عقد صلح بينهم وبين المسلمين، بشرط أن تعود لهم القدس وسورية، مع شروط أخرى ذكرها، فعقد المسلمون مجلساً للتشاور، وإبداء رأيهم في هذه الشروط، وبعد مداوات تمّ الاتفاق على الجواب التالي: (القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله، وننتفع به، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها)^(٢).

٣ - لما انتهى المسلمون من فتح بيت المقدس قرروا أن يتوجهوا إلى صور ليفتحوها، فرحلوا إليها سنة (٥٨٣ هـ)، فوجدوها مدينة حصينة قد بالغ الصليبيون في تحصينها، وحفروا حولها خندقاً، وشحنوها بالأسلحة والعدد والمقاتلة، فحاصرها المسلمون، وطال حصارهم عليها، وأصاب

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤ / ٣٠٧.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٩٤.

الضجر والملل الكثيرين من أمراء المسلمين، فأشاروا على قائدهم صلاح الدين بالرحيل حتى لا تفتنى الرجال، وتقلّ الأموال، ولا سيما بعد أن اشتدّ البرد عليهم، وعندئذ استشار صلاح الدين الفقهاء والعلماء الذين كانوا معه، وفي مقدّمتهم عيسى الهكاري، فأشاروا عليه بالمصابرة والاجتهاد والثبات إلى الفتح، لئلا يضيع ما تقدّم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقد أخذ صلاح الدين برأي العلماء والفقهاء، وطلب من جنده الصبر والثبات وعدم تعجّل الأمور حتى تتمّ المهمة بنجاح، فوافقوه دون أن يُخلصوا النية له، ولم يصدّقوا القتال، ولذلك اضطر المسلمون للرحيل عن صور، وتوجهوا إلى عكا، تاركين أمر حصار هذه المدينة لوقت لاحق^(١).

٤ - دعا السلطان صلاح الدين بعد انتهاء معركة عكا لعقد مجلس الشورى، وقد حضره أرباب المشورة والأمراء، وأمثال القاضي ابن شداد والعماد الأصفهاني الكاتب، وذلك للبحث في أمر عكا، وقام صلاح الدين بإلقاء خطبة عليهم، قال فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلّموا أن هذا عدو الله وعدونا، قد نزل في بلدنا، وقد وطئ أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فلينجزن كل منكم ما عنده في ذلك)^(٢).

وبعد مشاورات ومناقشات كثيرة انقسم أعضاء المجلس إلى فريقين،

(١) انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٣ / ٤١١ - ٤١٣.

(٢) الفتح القسبي في الفتح القدسي، ص ٣٢٢.

فقد أيّد الفريق الأول الاستمرار في القتال قبل أن يجمع العدو شمله ويسعفه البحر بالإمداد، بينما كان رأي الفريق الثاني الاستجمام والراحة في الخروبة حتى يتقوّوا على القتال فيما بعد، واضطر صلاح الدين أن ينزل عند رأي المعارضين، وانتقل العسكر إلى الخروبة، وهناك أصيب الفقيه عيسى الهكاري بمرض أدى إلى وفاته، وهو في ركاب صلاح الدين، مستعدّاً كعادته لتلبية نداء الجهاد في سبيل الله، وقد جاء رحيل السلطان وعساكره عن عكا فرصة كبيرة للصليبيين انتهزوها، وأحكموا حصارهم حول عكا، وحصّنوا أنفسهم، واتخذوا كل الاحتياطات اللازمة لحماية أنفسهم من الأيوبيين، وقد نتج عن هذا ضياع عكا في النهاية بعد حصار دام عامين كاملين^(١).

ولقد كان نزول السلطان عند رأي المعارضين اقتداء برسول الله ﷺ عندما شاور جنده من شباب الصحابة قبل غزوة أحد، فلما أشاروا عليه برأيهم عمل به، مع عدم اقتناعه بذلك الرأي^(٢).

٥ - قبل فتح بيت المقدس قرر كبار قادة الصليبيين مفاوضة المسلمين لتسليم المدينة مقابل عهد أمان بشروط مناسبة، وخرج وفد من الكبراء والوجهاء للتفاوض مع المسلمين، لكن قائد المسلمين صلاح الدين رفض العرض بشدة وقال: (لا آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة هجرية، فإنهم استباحوا القتل).

وعاد الوفد دون الحصول على الأمان، وتردّدت الرسل بين الجانبين

(١) الفتح القسّي في الفتح القدسي، ص ٣٥٥.

(٢) السيرة النبوية: ٣-٤ / ٦٣؛ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٣٨١، قال الشيخ مهدي رزق الله في حكمه على هذا الحديث: رواه الطبري بإسناد حسن، وصححه الحاكم، وصححه الألباني بمجموع طرقه.

في المفاوضات مدة خمسة أيام، أصّر المسلمون فيها على رأيهم الحازم، ثم إن قائد الصليبيين هدد المسلمين بتخريب الدور وقبة الصخرة، وقتل الأسرى الموجودين بالقدس، وإتلاف الأموال التي عندهم، عندها عقد المسلمون مجلساً للشورى، انتهى إلى قبول تسليم المدينة بالأمان حسب الشروط التي سيحددها الجانب الإسلامي^(١).

٦ - في سنة (٥٨٥هـ) لما كان المسلمون محاصرين لقلعة شقيف أرنون، قرر الصليبيون في صور فرض الحصار عليها، فقرر المسلمون عقد مجلس شورى لاتخاذ قرار فيما يجب أن يفعلوه إزاء اقتراب هذا الخطر الصليبي، وكان هذا المجلس ينعقد كلما دعت الحاجة إليه، ويتكوّن من صلاح الدين وإخوانه وأولاده والأتباع، ووزيره القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، ولقد كان رأي قائدهم صلاح الدين الإسراع بمهاجمة الصليبيين قبل وصولهم إلى عكا، بينما كان رأي مجلس الشورى تزك الصليبيين حتى يصلوا إلى عكا، عندئذ يزحف الجيش الإسلامي عليهم فيحاصرونهم، فاضطر صلاح الدين للنزول عند رأي المجلس، ويذكر العماد الأصفهاني في هذا الصدد: (وتبيّن لنا بالعاقبة أنّ الرأي السلطاني كان أصوب، فإن نزالهم بعد نزولهم كان أصعب)^(٢).

٧ - لما هاجم الصليبيون من صور مدينة عكا (٥٨٥هـ)، وحاصرتّها جميع الجيوش الصليبية، سقطت بأيدي الفرنج في سنة (٥٨٧هـ)، بعد صراع دموي حاد، ومصابرة عظيمة من المسلمين، وتداول الطرفان الصراع، ونال كل طرف من الآخر، وانتهت الحرب بعقد صلح الرملة بين ريتشارد قلب الأسد والأيوبيين في سنة (٥٨٨هـ)، ولم يكن صلاح الدين يميل إلى

(١) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٣٢٨ - ٣٣٠.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.



عقد الصلح، وعندها عقد المسلمون مجلساً للتشاور في أمر الهدنة، وقد كان رأي صلاح الدين عدم قبول الهدنة^(١).

وقد كتب العماد الأصفهاني بأسلوبه رأي صلاح الدين: (نحن بحمد الله في قوة، وفي ترقب نصره مرجوة، وقد ألفنا الجهاد، وألفنا به المراد، والفظام عن المألوف صعب، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو، رأيي أن أخلف رأي الهدنة ورائي، وأقدم بتقديم الجهاد اعترازي وإليه اعتزائي، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه)^(٢).

٨ - جرت معركة قوية بين الأيوبيين والصليبيين أسر فيها عدد كبير من قوات المملكة الصليبية، فعقد المسلمون بعد هذا النصر مجلس مشورة بقيادة صلاح الدين، وقد ضمّ كبار أمراء جنده وأهل حاشيته، وتبادلوا فيها الآراء حول مختلف الجوانب المتعلقة بحصن بيت الأحزان الذي أنشأه الصليبيون، وكان سبباً لكثير من المعارك والقحط والغلاء في بلاد الشام.

واستقرّ الرأي في نهاية النقاش على إبقاء قطعة من الجيش بقيادة عز الدين فرخشاه في بانياس للحراسة، وعودة صلاح الدين والأمراء والجند إلى دمشق؛ للاستعداد والتجهيز لحملة كاملة تمكّنه من تحقيق الهدف الأساسي، وهو الاستيلاء على حصن بيت الأحزان^(٣).

وبهذا يتبين لنا أهمية الشورى في الإسلام، والفوائد العظيمة التي يجنيها الداعية عند استشارته لأصحابه.

* * *

(١) انظر: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، ص ١٨٤ - ١٨٨.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٦٠٣.

(٣) صلاح الدين - القائد وعصره، ص ٢٢٤.

المطلب التاسع عُلُوُّ هَمَّةِ الدَّاعِيَةِ

من أبرز عوامل نجاح الدعوة علوُّ همة الداعية، وقبل البدء بالحديث عن ذلك سأتطرق إلى معنى الهمة في اللغة والاصطلاح.

- الهمة لغة: هَمَّه الأمرُ هَمًّا وَمَهَمَّةً وَأَهَمَّهُ فَاهْتَمَّ، واهْتَمَّ به. ولا هَمَامٌ لي (مبتياً على الكسر).

والهَمَّةُ: واحدةُ الهِمَمِ، والمُهَمَّاتُ من الأمور: الشدائدُ المُحْرِقَةُ.

وهَمَّ بالشيء يهْمُهُ هَمًّا: نواه، وأرادَه وعزَمَ عليه^(١).

- أما الهمة في الاصطلاح: فهي توجُّه القلب وقصده بجميع قواه إلى جانب الحق؛ لحصول الكمال له أو لغيره^(٢).

وقد وصف ابن القيم الهمة العالية فقال: (علو الهمة ألا تقف النفس دون الله، ولا تتعوّض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، ولا تتبع حظّها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدها الآفات من كل مكان)^(٣).

إن اتّصاف الداعية بعلو الهمة من أبرز العوامل المؤدّية إلى نجاح

(١) لسان العرب، مادة (همم): ١٢ / ٦١٩.

(٢) التعريفات، ص ٣٢٠.

(٣) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية: ٣ / ١٧١.



دعوته، وحمائتها من الخذلان والزلل. فذو الهمة العالية لا يرضى من الأشياء إلا أعلاها، أما مَنْ دنت همّته وانحطّت فهو يرضى بأن يكون في الصفّ المتقاعس المتأخر. ومن أعظم ما يهتم به الداعية هداية الناس، فيبذل جهده في نصحهم وتوجيههم.

ولو تأملنا سيرة عظماء رجالات الإسلام من الرعيل الأول ومن بعدهم لرأينا أنّ أهم سبب لنجاح دعوتهم - بعد توفيق الله لهم - هو علو همّتهم، فقد وقفوا حياتهم لحراسة الملة، وخدمة الأمة، ولو لم يتحلّوا بعلو الهمة لما انتشرت هذه الدعوة في أقاصي المعمورة، ولما جعل الله لهم لسان صدق في الآخرين.

وكان أسوة أولئك الهمامين رسول الله ﷺ، الذي حمل همّ هذه الدعوة على عاتقيه، وبذل جهده في هداية البشرية إلى الدين الحق القويم. وبهذا يتضح لنا جلياً أن لعلو الهمة في الدعوة إلى الله شأنًا عظيمًا، وهي صفة لازمة لكلّ داعية يريد أن تُكَلِّل دعوته بالنجاح.

ولو سبرنا أغوار التاريخ وأحوال الدعاة على مرّ الزمان والعصور لوجدنا أن القاسم المشترك بينهم جميعاً هو علو همّتهم في دعوة الخلق إلى طريق الحق وهدايتهم إلى الصلاح والفلاح.

وفي الدولة الأيوبية تميّز عدد من ملوكها وعلمائها بهمم عالية، واستطاعوا بهمهم تلك الرّقي بعبادتهم وعلمهم ودعوتهم وجهادهم. والأمثلة على علو همة ملوك الدولة الأيوبية وعلمائهم كثيرة، وسأكتفي هنا بذكر بعضها.

من ذلك ما صرّحت به بعض المراجع التاريخية بعلو همة بعض منهم، وذكرت شواهد لذلك، ومن الأمثلة على ذلك:



لما حذّر القاضي ابن شداد صلاح الدين من المخاطرة بنفسه مبيّناً له أنه سور الإسلام ومَنَعته، قال له صلاح الدين: أنا أستفتيك ما أشرف الميِّتتين؟ قال القاضي: الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميِّتتين. ثم أخبره أنه يرغب في أن يركب البحر، ويغزو مواطن الفرنجة في أوروبا لنشر الإسلام، ويُعلّق ابن شداد على ذلك فيقول: (فانظر إلى هذه الطويّة ما أظهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه)^(١).

وفي رواية أخرى: أن صلاح الدين قال لابن شداد: (أحكى لك شيئاً من نفسي، إنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسّمتُ البلاد، وأوصيتُ، وودّعتُ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره، وأتبعْتُهم (أي الكفار) حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت)^(٢).

فصلاح الدين يرنو إلى ما وراء البحار لنشر الدعوة الإسلامية غير هيّاب بالمخاطر التي تعتريه، وذاك شأن الداعية الجسور الذي يضع همّ الدعوة، وهداية الناس نُصب عينيه وفق مركزه، وإمكاناته التي هيّأها الله له، ومثل صلاح الدين جدير بمثل هذه المطامح العالية، ومن هنا دخل الرجل التاريخ من أوسع أبوابه.

وقد شهد المؤرّخون لصلاح الدين بهذه الهمة العالية، قال الذهبي عنه: (كان مهيباً شجاعاً، كثير الغزو، عالي الهمة، وكانت له همة في إقامة الجهاد، وإبادة الأضداد ما سُمع بمثلها لأحدٍ في دهر)^(٣).

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، ص ٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١ / ٢٧٩ - ٢٨١.

وقال صاحب «شذرات الذهب»: (ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، ولم يبلغ ستين سنة)^(١).

ومن الملوك الذين وُصفوا بعلوِّ الهمة الملك الصالح، فقد قال عنه صاحب «الشفاء»: (كان عالي الهمة، عفيفاً، طاهر اللسان والذيل، كثير الصمت)^(٢).

ومن الأمراء الذين ذكرهم التاريخ بعلوِّ همّتهم العالية بهاء الدين قراقوش، وزير صلاح الدين، فقد وصفه صاحب «وفيات الأعيان»: (أنه كان صاحب همة عالية، حسن النية، لذا وثق صلاح الدين بمعرفته وكفايته، واعتمد في أحوال المملكة عليه)^(٣).

إن علوِّ همة هؤلاء الأفاضل، وسعة طموحهم يعطيان الداعية درساً مهماً في أهمية اتصاف الداعية بهذه الصفات العظيمة، فشحن الداعية نفسه بعلوِّ الهمة، والطموح البعيد يساعده على التخطيط الجيد لدعوته، ويسهل عليه الوصول إلى هدفه الدعوي المنشود.

وقد مرّ بنا سابقاً في فصول هذه الرسالة الكثير من المواقف لملوك هذه الدولة وعلمائها في العديد من المجالات كالعبادة وطلب العلم والدعوة والجهاد دلّت دلالة واضحة على علو همّتهم، ولولا الله عز وجل ثم وجود هذه الهمة لديهم لما نجحوا في إرشاد المجتمع إلى طريق الحق، ولما استطاعوا أن يفتحوا ما فتحوه من بلاد، ويوصلوا الدعوة إليها.

إنّ الدعاة الأقوياء مذ تيقظوا ما ناموا، ومذ سلكوا طريق الدعوة ما وقفوا، فهتمهم الصعود والارتقاء بالنفس، باذلين جهدهم الحثيث في إيصال

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٤ / ٢٩٩.

(٢) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٨١.

(٣) وفيات الأعيان: ٤ / ٩١ - ٩٢.



الدعوة الإسلامية إلى البشرية جمعاء، مُضْحِّينَ فِي ذَلِكَ الْغَالِي وَالرَّخِيسِ،
مُتَطَلِّعِينَ إِلَى هِدَايَةِ اللَّهِ الْمَوْعُودَةِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ
لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]^(١).

مما تقدم يتبين لنا خصوصية أجواء الدعوة الإسلامية، وازدهارها في
العصر الأيوبي، وذلك بما هياه الله سبحانه من ملوك حريصين على هذه
الدعوة مهتمين بها راعين لما يصلح شأنها، فبدلوا الأموال والأوقات
والإمكانات المتاحة لهم، كما أن توافر العلماء والرجال المخلصين دفع
بهذه الدعوة أشواطاً متقدمة مما كان له أثر كبير في تحقيق نجاح متميز
للدعوة وقضاياها في هذا العصر.

وينبغي أن نستذكر التركة الثقيلة التي ورثها هذا العصر عن العصور
السالفة قبله، فقد كان في تلك العصور، وعلى طول البلاد وعرضها جهل
وضعف في البنية العلمية للناس مما أضر سير الدعوة.

وعلى كل حال فينبغي الاعتراف بأن تحقيق الدعوة الإسلامية للنجاح
في هذا العصر أمر لا يقاس بطبيعة الحال بالعهود الزاهرة الأولى، ولكنه
يعدُّ نجاحاً إذا ما قيس بعهود الأمة قبله وبعده.

ومن هنا فإننا وبكل يقين نعدُّ العصر الأيوبي ولا سيما وقت حكم صلاح
الدين عصراً متميزاً فريداً له مكانته في تاريخ حكم أهل السنة والجماعة.

فرحمة الله على هذا القائد المظفر وعلى الدعاة المصلحين في هذا
العصر، وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير.

* * *

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٤ / ٢٩٩.

الخاتمة

الحمد لله الذي أعانني في هذه الدراسة العلمية التي تناولت حقبة من تاريخنا المجيد، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أولاً: ملخص الدراسة:

لقد خرجتُ من هذه الدراسة إلى أن الوضع الديني والاقتصادي السائد قبيل قيام الدولة الأيوبية وفي بداية نشأتها كان وضعاً سيئاً إلى حدّ بعيد، ولاسيما في مصر مركز الدولة العبيدية الراضية. وبقضاء الدولة الأيوبية على الدولة العبيدية، واستيلائها على مصر والشام واليمن وغيرها تحسّنت الكثير من الأوضاع، وعادت للمذهب السني هيئته، وبدأ الخير والاستقرار يعثّان أرجاء البلاد التي حكمها الأيوبيون.

وقد تبين من هذه الدراسة أيضاً أهم سمات الدعوة الإسلامية لهذا العصر، وقد وُجد في هذا العصر بفضل الله أنموذج أمثل للداعية الحقّ، تتمثل في شخصية مؤسس الدولة صلاح الدين الأيوبي، إذ توافرت في شخصيته ﷺ ما يحتاج إليه الداعية من صفات أساسية وصفات لازمة.

وأظهرت الدراسة أنّ تعدّد الفتوحات الإسلامية، وجهاد المسلمين ضد الصليبيين كان من السمات الدعوية الهامة أيضاً لهذا العصر، بالإضافة إلى النشاط العلمي المميّز، والحرص على توجيه الدعوة إلى غير المسلمين.

وتبيّن من خلال البحث أن الدعوة الإسلامية في هذا العصر مرّت بعدد من المراحل، وفق الظروف المحيطة بها، فبدأت بمرحلة المداراة، ثم انتقلت إلى مرحلة الجهر، ثم انتهت إلى مرحلة الانكماش التدريجي حتى سقوط الدولة الأيوبية وزوالها.

ثم بيّنت الدراسة أنّ دعاة الدولة الأيوبية اعتنوا بموضوعات الدعوة الرئيسة، وهي: العقيدة والشريعة والأخلاق، فكان نشر عقيدة السُنّة والقضاء على ما يخالفها هو شغلهم الشاغل، وكان لتعظيم أوامر الشريعة الإسلامية، ولتطبيق أحكامها مكانة كبيرة في نفوسهم، كما كان التخلّق بالأخلاق النبوية السامية مما يحرص عليه دعاة تلك الدولة.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى تنوّع أصناف الدعاة والمدعويين في ذلك العصر، فممارسة واجب الدعوة لم يكن حكراً على العلماء والوعاظ والخطباء بل شملت الملوك والأمراء والمستشارين والوزراء، كما وُجّهت الدعوة لكلّ من يحتاج إليها سواء أكان ملكاً أم أميراً أم من عامة الناس، أم من أهل الذمة والصلبيين.

وكشفت الدراسة عن أبرز الوسائل والأساليب الدعوية التي استخدمها الدعاة وعُنوا بها في ذلك العصر، وكيف كان لها الدور الكبير في إيصال الرسالة إلى المدعويين.

كما بيّنت اهتمام الدعاة بتنويع تلك الوسائل والأساليب، واختيار ما يناسب المدعو تبعاً لوضعه، فتعدّدت الوسائل من رسائل ومناظرة وخطابة وجهاد، كما تعدّدت الأساليب من قدوة وموعظة وحكمة وتعليم وتربية، واستخدام ذلك كلّه من أجل إيصال الحق للمدعويين وإقناعهم به. كما تطرّقت إلى أبرز الميادين الدعوية التي أدّى بها الدعاة رسالتهم الدعوية، من مدارس ومعارك وقصور ومساجد.



كما كشفت هذه الدراسة عن أهم المعوقات الداخلية والخارجية التي واجهت الدعوة في العصر الأيوبي، وكيف كان لها الأثر الكبير في تأخر الدعوة. ومن هذه المعوقات: الفِرَق الضالة والتي كانت تؤلّف خطراً داخلياً كبيراً وعائقاً في مسيرة الدعوة، ولكن وقوف الدولة الدائم في وجهها خفف من حدة خطرها.

ومن عقبات الدعوة البارزة التي أظهرتها الرسالة: التعصّب المذهبي؛ فبيّنت آثاره السيئة وموقف بعض الملوك منه، وكان لهذا الموقف الدور الكبير في التخفيف من مظاهره، كما كان الضعف الديني والخلط بين السنّة والبدعة يؤلّفان عائقاً كبيراً أمام تقدّم الدعوة وسيرها الصحيح.

ومن أهم المعوقات التي تجلّت في هذه الدراسة التنافس بين الأمراء الأيوبيين، وما ترتّب على ذلك من ضعف الأمة عن مواجهة أعدائها.

كما كان للترف الذي ابتلي به بعض الحكام، والجوائح التي أصابت الأمة أثرٌ في تقليل فرص النجاح في مجال الدعوة في تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي.

ولقد كان الصليبيون عائقاً كبيراً أمام المسلمين في ذلك العصر، وقد أشغل التجهيز للجهاد والاستعداد له المسلمين كثيراً عن واجبه الدعوي المنوط بهم، وأنهكهم من الناحيتين الجسدية والفكرية.

تم بيّنت الدراسة النتائج الدعوية لجهود الدعاة في هذا العصر، وكان من أبرزها تصحيح مسار العقيدة وتصفيتها من الشوائب التي أصابها بسبب العقائد الباطلة التي هيمنت على بعض البلاد في ذلك العصر، وكان من أبرزها العقيدة الرافضية.

وكان تغير نظرة كثير من النصارى للإسلام والمسلمين ودخول طوائف



منهم في الدين الإسلامي من أبرز النتائج العظيمة للدعوة في هذا العصر، والتي كان لها أثر كبير في المجتمع الإسلامي وشرائحه. كما أن محاولة تحقيق وحدة العالم الإسلامي والوقوف في وجه المدّ الصليبي كانا نتيجتين عظيمتين لجهود الدعاة في هذا العصر المبارك.

وقد نتج عن الجهود الدعوية المبذولة في ذلك العهد أن ازدهرت الحركة العلمية، فوجد الكثير من العلماء في شتى التخصصات، وألّفوا فيها مصنفات علمية موسوعيّة، وحُفظت مكانة الحرمين الشريفين وبُذلت الجهود لرعايتهما أحسن رعاية.

وتّمّ الكشف في هذه الدراسة عن أهم العوامل التي ساعدت على تقدّم الدعوة ونجاحها في العصر الأيوبي، فبيّنت أن من أبرز تلك العوامل كان الاهتمام بالعلم من قِبَل الملوك والعلماء والنساء، بالإضافة إلى الإصلاحات التي قامت بها الدولة لتيسير أمور الناس ومعاشهم، وانتقاء أفضل الولاة المؤهلين، مع الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واللجوء إلى الله تعالى في الملمات وشكره تعالى على ما يسّره من الفتح، كلّ ذلك كان من العوامل الهامّة التي أثرت في الدعوة، وساعدت في إنجاحها.

وكان حرص الملوك على انتقاء البطانة الصالحة، وأخذهم بأسباب القوة والحكمة العسكرية، وتمسّكهم بمبدأ الشورى النبوي، مع علو همّتهم وتطلّعهم دوماً إلى معالي الأمور وترفعهم عن سفاسفها، ساعد ذلك كلّ على توفير الجوّ المناسب، والتربة الخصبة لجني ثمار الدعوة اليانعة.

وفي ختام هذه الرسالة أعرض أهم النتائج التي وصلت إليها، وبعض التوصيات في ضوئها.



ثانياً: أهم النتائج:

أما بالنسبة لما توصلت إليه من نتائج فهي كالتالي:

- ١ - برز من خلال هذه الدراسة أن ما اتّسمت به الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية من سمات مميزة ساعد في توفير بيئة مناسبة للدعوة الإسلامية في ظلال هذه الدولة، وساعد إلى حدّ كبير في تقدّم الدعوة الإسلامية في أرجائها.
- ٢ - كما ظهر أنه لا بد للداعية من وضع خطة مرحلية محكمة قبل البدء في دعوته، وذلك ليضمن أفضل النتائج المرجوة منها، كما أظهرت أن انكماش الدولة ونهايتها هو نتيجة حتمية للتنازع والاختلاف.
- ٣ - ومن نتائج الدراسة أن العناية بموضوعات الدعوة من عقيدة وشريعة وأخلاق يسهم إلى حدّ بعيد في تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية، والوصول إلى ما ينشده الداعية من نجاحات وإصلاحات.
- ٤ - كما بيّنت الدراسة أن الإسهام في المجال الدعوي ليس حكراً على العلماء وطلبة العلم، فقد أدلى كلّ من الملوك والأمراء والوزراء بدلوه، وأسهموا في تقدم الدعوة في زمانهم إسهاماً فعّالاً.
- ٥ - تبين من هذه الدراسة أنه ينبغي للدعاة في كل زمان ومكان أن يحرصوا على أن تكون دعوتهم موجهة لكل أصناف المجتمع وطبقاته، فلا يكون التركيز على صنف من المدعوين دون الآخر، فلكلّ منهم الحق في إيصال رسالة الإسلام له.



٦ - ظهر من خلال هذه الدراسة عظيم الفائدة بالاطلاع على أهم ما استُخدم في هذا العصر من وسائل وأساليب وميادين دعوية، وتبين أنه لا بد للداعية من استخدام كافة الوسائل والأساليب الدعوية المتوافرة لديه، مع التنويع فيها على ما يقتضيه الحال، وليحرص على تنويع ميدان دعوته فلا يقتصر على ميدان دون آخر.

٧ - كما أوضحت أن أي دعوة إصلاحية لا بد أن يقف في وجهها عوائق داخلية وخارجية، تُعيق نجاحها وتحدّ من تقدّمها، والداعية الحصيف يحاول جهده مقاومتها والقضاء عليها ليستطيع إنجاح دعوته وإيصالها إلى المدعوين.

٨ - أوضحت الدراسة نتائج الدعوة الإسلامية في هذا العصر، والعوامل التي أسهمت في نجاحها، وهذا يعطي الداعية الحق الذي يروم جني ثمار دعوته درساً مهماً في التركيز على العوامل التي تساعد دعوته على الوصول إلى النجاح.

ثالثاً: أهم التوصيات:

وأودّ في ختام هذه الدراسة أن أقدم بعض التوصيات التي أراها مناسبة بعد أن عشت مدّة زمنية واسعة مع أبوابها وفصولها ومباحثها:

١ - أوصي بأن تُعنى أقسام الدعوة في الجامعات الإسلامية بدراسة مراحل التاريخ الإسلامي، واستنباط الدروس منها، والتعرّف على مسيرة الدعوة الإسلامية فيها؛ وذلك لأن في التاريخ ضوءاً كاشفاً يفيد الحاضر الذي نعيشه بما يحمله هذا التاريخ من تجارب ثرة للدعاة والمحتسبين.



٢ - كما أوصي بالتعاون العلمي مع الأقسام المختلفة في الجامعات للإفادة من الرسائل العلمية في التخصصات المختلفة كالتاريخ والتربية والحضارة؛ وذلك لأن في هذا التعاون خيراً للدراسات المعمّقة، كما أن فيها توفيراً للوقت والجهد على الباحثين؛ لكيلا تتكرّر الجهود في المجال الواحد.

٣ - وأوصي أخيراً بدراسة هذا الفيض الكبير من علماء العصر الأيوبي ودعاته، ممن لهم جهود في خدمة مذهب أهل السُنّة والجماعة؛ ليكون في هؤلاء إثارة لهمم دعاة عصرنا، ودَفْعٌ للمزيد من الجهود في سبيل الدعوة.

٤ - كما أوصي بإعطاء كل ذي حق من رجالات التاريخ الإسلامي حقه، فنصفه إن استحقّ الإنصاف، ونذكر هِناته وأخطائه إن وقع له شيء من ذلك، ولا ننسى أبداً أنّ كلّ إنسان يؤخذ من كلامه ويُردّ إلا نبينا ﷺ.

وفي ختام هذه الرسالة، أسأل الله تعالى أن يبارك في عملي هذا وينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري

أسكننا الجنة الفردوس
www.moswarat.com



الفهارس

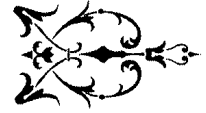
- ١ - فهرس الآيات القرآنية.
- ٢ - فهرس الأحاديث النبوية.
- ٣ - فهرس الأعلام.
- ٤ - فهرس المصادر والمراجع.
- ٥ - فهرس الموضوعات.

رَفَعُ

جَدِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْبَخْتَرِيِّ
أَسْكَنْتَهُ اللَّهُ الْفَرْدَوْسَ

www.moswarat.com

١. فهرس الآيات القرآنية



الصفحة	السورة: الآية	الآية
٥٥	البقرة: ٨٣	﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾
٥٦	البقرة: ١٥٣	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾
٢٦٦	البقرة: ١٩٠	﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾
٢٦٣	البقرة: ١٩٣	﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾
٢٦٤	البقرة: ٢١٨	﴿ إِنَّ الدِّينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
٣٦٥	البقرة: ٢٣٢	﴿ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُم يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾
١٨٣	البقرة: ٢٣٥	﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾
٣٧٨	البقرة: ٢٥١	﴿ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَنَّا يَشَاءُ ﴾
٩٧	البقرة: ٢٥٦ - ٢٥٧	﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾



الصفحة	السورة: الآية	الآية
٣٣٠	البقرة: ٢٦١	﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾
٣٧٩	البقرة: ٢٦٩	﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾
٣٦٤	البقرة: ٢٧٥	﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾
٥٠٩	آل عمران: ٢٦	﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ وَمَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
٨٧	آل عمران: ٢٨	﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾
٢٥٦	آل عمران: ٤٥	﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُمْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾
٣٤٠ - ١٨١	آل عمران: ٩٢	﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْهِيهِمْ عَلَيْهِمْ ﴾
٩	آل عمران: ١٠٢	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
٢٣٩	آل عمران: ١٠٣	﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾



الصفحة	السورة: الآية	الآية
٥٥٠	آل عمران: ١١٠	﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾
٣٤٦	آل عمران: ١٣٥	﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَخْلَقْ لَهُ مِمَّا يَخْتَارُ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾
٣١٣	آل عمران: ١٣٩	﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
٥٠٤	آل عمران: ١٤٦ - ١٤٧	﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾
٣٦٦ - ١٦١ - ٥٦٥	آل عمران: ١٥٩	﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾
٣٧٤	آل عمران: ١٨٧	﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾
٢٩٣	آل عمران: ٢٠٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
٩	النساء: ١	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

الصفحة	السورة: الآية	الآية
١٣٣	النساء: ٥١	﴿ وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾
١٤٤ - ١٦٣	النساء: ٥٨	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾
٣٦٦	النساء: ٦٣	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾
٥٥٨	النساء: ٧١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾
٢٦٥	النساء: ٧٥	﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾
٤٨٨	النساء: ١١٥	﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾
١٣٣	النساء: ١٧٦	﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾
٣٧٤	المائدة: ٢	﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُونِ ؕ وَأَنزَلُوا اللَّهَ

الصفحة	السورة، الآية	الآية
١٦٣	المائدة: ٨	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾
١٦٣	المائدة: ٤٢	﴿ وَإِن حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾
٣٤٥ - ٣١٣	المائدة: ٥٤	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ءَأَذَلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ؕ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ؕ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾
٢٣٣	المائدة: ٦٧	﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ؕ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰفِرِينَ ﴾
٢٤٦	الأنعام: ٤٣	﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَآءَهُم بِءَآسِنَا تَضَرَّعُوا وَلٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾
٢٦٠	الأنعام: ٤٥	﴿ فَفُطِعَ ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ؕ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
٢٤٦	الأنعام: ٦٤	﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ؕ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾
٣٢٣	الأنعام: ٩٠	﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَدٰنِهِمْ ءَأَقْدَرُهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾
٥١٣	الأنعام: ١٢٢	﴿ ءَأَمِنَ كَانَ مِثًا فَآحْيَيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ؕ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
١٩٠	الأنعام: ١٥٢	﴿ وَيَهْدِي اللَّهُ ءَأَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَنَعْنَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾
٤٢٧	الأنعام: ١٦٤	﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾
١٧٠	الأعراف: ١٣	﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴾

الصفحة	السورة: الآية	الآية
٣٦٦	الأعراف: ٨٥ - ٩٠	﴿ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾
٣٤٦	الأعراف: ٢٠١	﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾
٥٠٤	الأنفال: ٩	﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾
٤٧٥ - ٢٩٨	الأنفال: ٤٦	﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾
٢٦٦ - ٢٨٨ - ٥٥٨ - ٢٩٣	الأنفال: ٦٠	﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَالِيَّيْنِ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾
٣١٢	الأنفال: ٦١	﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
٣١٣	التوبة: ١٤	﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُم مِّنْ دِينِهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾
٢٦٦	التوبة: ٣٦	﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

الصفحة	السورة: الآية	الآية
٣١٤	التوبة: ٣٨	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَالْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِينَا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾
٢٦٣	التوبة: ٧٣	﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾
١٨٣	التوبة: ١١٤	﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾
٣٩٣	التوبة: ١٢٢	﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾
٤٠٣	يوسف: ١٢	﴿أَرْسِلْهُ مَعَا غَدَا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾
٤٠٣	يوسف: ١٧	﴿قَالُوا يَا بَنَاتَنَا إِنَّا زَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾
٦٠	يوسف: ٣٦ - ٤١	﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْجَقَانِهِ إِلَّا بِتَأْتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانِ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَصْحَجِي السِّجْنَ ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ ءَأَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَصْحَجِي السِّجْنَ ءَأَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ءَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ ءَأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾



الصفحة	السورة: الآية	الآية
٩٩	يوسف: ١٠٨	﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
١٧٣	الحجر: ٤٧	﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾
٩٨	النحل: ٣٦	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾
١٣٣	النحل: ٤٤	﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾
٣٦٦ - ٢٥٢ ٣٧٨ -	النحل: ١٢٥	﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾
١٥٦	النحل: ١٢٨	﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾
٣٨١	الإسراء: ١٠٦	﴿ وَقرءَ أَنَا فَوْقَهُ لِنُقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾
٣٦٦	مريم: ٤١ - ٤٧	﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمْنَكَ وَاهْجُرْنِي مِلًّا * قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾
٣٦٠	الأنبياء: ٩٢	﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾
٢٤٤	الحج: ١	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

الصفحة	السورة: الآية	الآية
٢٤١	الحج: ٤٠	﴿وَلْيَنْصُرِكِ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
٢٦٤	الحج: ٧٨	﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾
٩٨	المؤمنون: ٢٣	﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾
٣٤٧ - ٣٤٨	النور: ٢٢	﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
١٤٣	النور: ٥١	﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
٢٦٤	الفرقان: ٥٢	﴿فَلَا تَطِيعَ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾
١٧٦	الفرقان: ٦٣	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْآرِضِ هُونًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾
٢٣٠	الشعراء: ٢١٤	﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾
١٧٠ - ٣٧٤	الشعراء: ٢١٥	﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
٢٤٣ - ٥٨٠	العنكبوت: ٦٩	﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
٣٤٩	لقمان: ١٧	﴿يَبْنَئُ أَقْبِرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾
٢٤٤	الأحزاب: ٢١	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾



الصفحة	السورة: الآية	الآية
٥٠٩	الأحزاب: ٢٧	﴿ وَأَوْزَقْنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَدْبِرْهُمْ وَآمُوتَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾
١٤٣	الأحزاب: ٣٦	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾
٣٢٦	الأحزاب: ٤١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾
٩	الأحزاب: ٧٠ - ٧١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۗ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾
٢٦٧	سبأ: ٢٨	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
٥١٢ - ٤٨٨	فاطر: ٢٨	﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾
١٨٣	الصفافات: ١٠١	﴿ فَبَشِّرْهُ بِبَعْلِ لَيْلَىٰ ۗ وَسُوَّءَ مَا يَصِفُ ﴾
١٧٠	الزمر: ٦٠	﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾
٥٣	الزمر: ٩٠	﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾
٨٦	غافر: ٢٨	﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۗ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾
٥٦٥	الشورى: ٣٨	﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

الصفحة	السورة: الآية	الآية
٣٨٧	الشورى: ٤٠	﴿ وَحَرَزُوا سَنِينَ سِنِينَ مِثْلَهَا مِمَّنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾
٣٥٧	الزخرف: ٢٢	﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾
٣١٣	محمد: ٣٥	﴿ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَخْلَاقُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴾
٣٦٠	الحجرات: ١٠	﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَأَقْبُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
١٧٧	الذاريات: ٢٤	﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾
٣٧٤	الذاريات: ٥٥	﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
٥١٢ - ٣٩٣	المجادلة: ١١	﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾
٣٦٠	الحشر: ٩	﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
١٥١	الحشر: ١٠	﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾
٣٢٣	المتحنة: ٦	﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيءُ الْحَمِيدُ ﴾
٤٩٥	المتحنة: ٨	﴿ لَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾



الصفحة	السورة: الآية	الآية
٢٢٩ - ١٦١	القلم: ٤	﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
٣٦٥	نوح: ٢ - ٤	﴿ قَالَ يَفْقَرُ إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّبْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
٤٣١	الجن: ١٨	﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾
٣٠٨	الإنسان: ٨	﴿ وَيُطِيعُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْدٍ وَنَسِيحًا وَأَسِيرًا ﴾
٥٢	البينة: ٥	﴿ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾

* * *

٢. فهرس الأحاديث النبوية



الصفحة	الحديث
٨٧	(اِذْنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ - أَوْ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ...)
١٧٧	(أَبْشُرْ، فَوَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصَدَّقَ الْحَدِيثَ...)
٤٠٥	(أَخَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَرَارًا...)
٣٤١	(إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ...)
٢٩١	(اسْتَعِينُوا عَلَىٰ إِجْحَاقِ الْحَوَائِجِ بِالْكَتْمَانِ...)
٥٦٥	(أَشِيرُوا عَلَيَّ)
٣٤١	(أَصَابَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَرْضًا بِحَبِيبٍ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَأْمُرُهُ...)
٣٦٤	(أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)
٢٦٥	(أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...)
٢٥٨	(إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ بَعْدِي، كُلُّ مَنْافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ)
٥٥	(إِنْ الرَّفْقُ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)
١٧٩	(إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكِرَامَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيُكْرَهُ السُّفْسَافَةَ)



الصفحة	الحديث
٥٥	(إن الله يحب الرفق في الأمر كله)
٣٦١	(إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ)
٣٧٥	(إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ...)
٣٩٤	(إن رسول الله ﷺ علّمنا سنن الهدى، وإن من سنن الهدى...)
٣٨٨	(إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنى...)
١٨٣	(إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)
٣٠٦	(انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى سبّقوا المشركين إلى بدر. وجاء المشركون...)
٩٨، ٦١	(إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا...)
١٦١	(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)
٣٧٤	(إنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم)
٣٨١	(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكُر الجنة والنار...)
١٤٥	(إنه ليس بدواء، ولكنه داء)
٣٩٥	(أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير...)
٥٣٦	(الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله...)
٢٣٣	(بعث رسول الله ﷺ أربعة نفر إلى أربعة وجوه...)
٤١٠	(بيننا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرجل فقال...)
٣٦٧	(تصدقن، فإن أكثرن حطب جهنم. فقامت امرأة من وسط النساء...)

الصفحة	الحديث
١٥١	(تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم)
٣٠٨	(جاء بشامة بن أثال - سيد بني حنيفة - أسيراً، فزُبط بسارية المسجد...)
١٩٤	(إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ...)
٨٢	(خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء من بعدهم قوم...)
٣٧٤	(الدين النصيحة: لله ولكتابه ورسوله، وأئمة المسلمين وعامتهم)
٢٦٦	(ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقلت: يا رسول الله من خير...)
٢٦٤	(رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)
١٥٠	(سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وذكر منهم...)
١٥١	(السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله...)
٥٧٣	(شاور رسول الله ﷺ جنده من شباب الصحابة...)
٥٧	(الصبر عند الصدمة الأولى)
٣٤٧	(صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِحْدَى صَلَاتِي الْعَشِيِّ...)
٢٩٧	(عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)
٣٠٧	(غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِيبْتُ عَنْ...)
٣٠٦	(في غزوة أحد نادى رسول الله ﷺ في جنوده: من يأخذ هذا..)
٣٦٧	(كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا)
٢٥٨	(كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وضع له المنبر، سمعنا...)



الصفحة	الحديث
١٦١	(كان خلقه القرآن)
٢٩٢	(كان رسول الله ﷺ يرتب الصفوف ويُعبئهم عند القتال بيده...)
٣٩٤	(كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا الشُّورَةَ...)
٣٩٤	(كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الإِسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ...)
١٧٩	(كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالأَخِيْرِ مِنَ الرِّيْحِ المُرْسَلَةِ)
٤٠١، ١٥٢	(كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا)
٥٣٥	(كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعّل...)
٢٣٣	(كَتَبَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ...)
١٤٤	(كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه)
٣٧٥	(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ...)
٤٤٠	(كنت مع النبي ﷺ فِي غَزَاةٍ فَأَبْطَأَ بِي جَمَلِي وَأَعْيَا فَأَتَى عَلَيَّ...)
٣٧٩	(لَا حَسَدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ...)
٣٠٤	(لا والله ما أعطينا الدنيا من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله...)
٣٦١	(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ - أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)
٥٣٦	(لا يسترعي الله عبداً رعية يموت حين يموت وهو غاشر لها إلا حرّم الله عليه الجنة)
٤٠٤	(لِتَعْلَمَ الْيَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فَسْحَةً إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ)
٥٦٦، ٣٢٢	(لَمَا فَرَّغَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنْ قَضِيَةِ الْكِتَابِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ...)
٢٣٠	(لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، قَالَ: جَمَعُ...)

الصفحة	الحديث
٥٠٤	(اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام...)
٣٧٩	(اللهم علمه الحكمة)
١٧٣	(اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا...)
٣٧٥	(اللهم من ولي من أمري شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمري...)
١٥٥	(لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)
١٩٤	(لولا أنني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها)
١٨٣	(ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)
٦١	(ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر)
٦١	(ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي...)
١٧٠	(ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)
١٩٠	(ما غزت على امرأة ما غزت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوّجني...)
٥٣٧	(ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)
٣٣٠	(ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط...)
٣٥٩	(ما منكن امرأة تُقدم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاباً من النار)



الصفحة	الحديث
٣٦١	(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُهُمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ...)
٣٩٣	(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً...)
٣٤٧	(مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْمٍ يُلَقَّحُونَ. فَقَالَ: (لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ) قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصاً. فَمَرَّ...)
٣٧٤ ، ١٥٢	(الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ...)
٣٤١	(من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه ورية...)
٣٤٦ ، ٣٤١	(من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله الناس، ومن أسخط الله برضا الناس...)
٣٣٠	(من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب...)
٣٩٤	(من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة...)
٥٣	(مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)
٥٣٤	(نحن أولى بموسى منهم)
٣٩٥	(هذا أمين هذه الأمة)
٥٣٤	(واستأجر النبي ﷺ وأبو بكرٍ رجلاً من بني الدليل...)
٤٢١	(والذي نفس محمد بيده لو بدأ لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن...)



الصفحة	الحديث
٤٢١	(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ...)
٥٦٦	(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاَهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ...)
٣٤٨	(والله لا أنزعها منه أبداً)
٣٤٨	(والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي...)
٣٢٦	(يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)
١٦٣	(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)
٤٠٩	(يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك...)

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٢. فهرس الأعلام

- أرناط ١٥٨، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٧٢،
٢٨٦، ٣١٤، ٣١٥
- أروى الحرة الصليحية ٣٥
- أسامة بن منقذ ١١٨، ١٦٦، ٢٨٢،
٤٩٣، ٤٩٤
- إسماعيل عليه السلام ١٨٣
- إسماعيل بن جعفر الصادق ١٠٤
- إسماعيل بن العادل ٤٧٠
- إسماعيل بن مكي ٥١٣
- أشج عبد قيس ١٨٣
- الأشرف بن العادل ٤٢، ٤٥، ١١٠،
١١٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٤٠، ١٧٤،
١٨١، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩، ٢١٣،
٢١٨، ٢٤٧، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٧٣،
٤١٤، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٥١، ٤٦٩،
٤٧٠، ٤٧٤، ٥٣٢، ٥٥١
- الأصفهاني ٥٤، ٥١٤
- الأعز بن صلاح الدين ٥٢٠

(i)

- إبراهيم عليه السلام ١٧٧، ١٨٣، ٢٥٢،
٣٨٩، ٣٦٦
- إبراهيم بن عبد الواحد (العماد
المقدسي) ١١٩، ١٤١، ١٩٨، ٣٢٩،
٣٩٨
- إبراهيم الكردي ٢٧٥
- ابن أبي شيبه ٢٣٣
- ابن الأثير ١٧٢، ١٧٧، ١٨٦، ٢٠١،
٢٨٣، ٤٤٨، ٥٠٨، ٥١٠
- أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي
٧٩، ٨٠، ٢٤٧، ٢٥٥
- أحمد (بن حنبل) ١١٨، ٤١٨، ٥١٦،
٥٢٤، ٥١٧
- أحمد بن الخير سلامة ٥٢٨
- أحمد بن القاضي الفاضل ٥٢٢
- أحمد بن عمر المقدسي ٢١٤، ٢٨٤
- أرسطو ٢٥٦

- بدر الدين الأسدي ٤٣٤
- بدر الدين لؤلؤ ٤١٧
- بدر الدين مودود ١٩٤
- بدر الدين الهكاري ٤١٩
- بدر بن محمد الجزري ١٨٢
- البراء بن عازب ١٧٢، ٣٩٥
- البرازيلي ٥٢٤
- أبو البركات الهاشمي ٣٩٩
- برناردي بلاكفورت ٦٧
- البرهان البلخي ٤٤٩، ٥١٩
- ابن البري ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١
- بطرس الناسك ٤٨٢
- بكتمر ١٩٦
- بكر محمد بن الأمير نجم الدين
- أيوب ٣٣٦
- أبو بكر الصديق ٣٣، ٣٤، ٣٤٧
- ٥٦٦، ٥٣٤، ٥٠٤، ٣٨٢، ٣٤٨
- البكري ٥٢٤
- ابن بطال ٨٧
- بلال (بن رباح) ٣٦٧
- بنان الراهب ٧٩
- بنت الملك المعظم شرف الدين
- عيسى بن الملك العادل ٤٢٤

- الأفضل بن صلاح الدين ٤٤، ٤٥،
- ٧٢، ٩٣، ١١٤، ١٥١، ١٨٠، ١٨٧،
- ٢٨٠، ٢٩٥، ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٥٠،
- ٤٣٠، ٤٣٤، ٤٦١، ٤٦٧، ٤٦٩،
- ٤٧٢، ٤٧٣، ٥٠١، ٥٠٦، ٥١٠،
- ٥٣١، ٥١٨
- أقيس بن الكامل ٤٥٩
- أكيدر دومة ٣١٢
- أبو أمامة ٣٨٨
- أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي
- ٤٢٣
- الأمجد بن صلاح الدين ١١٤،
- ٢١٨، ٣٥١، ٤٢٩
- أنس بن مالك ١٥٢، ٢٣٣، ٣٠٦،
- ٣٤٧، ٣٩٥، ٤٠١، ٥٦٥
- أنس بن النضر ٣٠٧
- الأوحى بن العادل ٤٢
- أيك المملوكي ٤٥
- أيك بن عبد الله ٤٥٧
- أيطغان بن ياروق ١٥٩
- (ب)
- البخاري ٥٤، ٨٦، ٤١٤، ٥١٤
- بدر الجمالي ٣٣

- توران شاه ٤٢، ٤٤، ٦٣، ٦٤، ١٠٨،
- ١٣٦، ١٨٠، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨١،
- ٤١٣، ٤٤٢، ٤٦٠، ٥٢١
- توماس آرنولد ٨١، ٤٩٢، ٤٩٥
- ابن تيمية ١١١، ٢٥٣، ٢٦٢، ٣٢٦،
- ٣٤١، ٥٢٧

(ث)

- ثمامة بن أثال ٣٠٨، ٣٠٩

(ج)

- جابر بن عبد الله ٢٥٦، ٣٦٧، ٣٩٤،
- ٤٠٤، ٤٢١
- جاروخ ٤١٩
- ابن جبير ٢٠٩، ٣٣٧، ٣٤٢
- الجرجاني ٣٦٥
- جعفر الطيار (ابن أبي طالب) ٥٣٩
- أبو جعفر بن موسى ٤٥٥
- جفري ٣١٥
- جمال الدين أبو محمد عبد الله بن
- عمر الدمشقي ٥٤٨
- جمال الدين الحصري ٢١٣، ٣٥٣،
- ٥١٦، ٥٢٤، ٥٢٥
- جمال الدين الريغي ٢٠٠، ٣٥٨

- بهاء الدين بن شداد ٥٤، ٥٥، ١١٧،
- ١٣١، ١٣٣، ١٤٧، ١٥٠، ١٦٦،
- ١٦٨، ١٧١، ١٧٨، ١٨٤، ١٨٥،
- ١٨٦، ٢١٨، ٢٤٨، ٢٨٤، ٢٩٧،
- ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٣١، ٤١٥،
- ٤١٨، ٤١٩، ٤٣٠، ٤٣٥، ٤٦٧، ٤٦٨،
- ٤٧٢، ٥٠٦، ٥١٤، ٥١٥، ٥٣٠، ٥٤٨،
- ٥٦٣، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٤، ٥٧٨

- بهاء الدين عبد الملك بن القاهر
- ٤١٥

- بهاء الدين قراقوش ٦٠، ٥٣٨، ٥٤٢،
- ٥٤٦، ٥٥٥، ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٧٩

- البوصيري ٥١٩

- بوهمند ٧١

(ت)

- تاج الدين بن أبي عصرون ٤٢٣،
- ٥٢٤

- تاج الدين المسعودي ٣٩٩، ٥١٥

- التاج الكندي ٥١٦، ٥٢٢

- تاج الملوك ٥٧

- الترمذي ٢٦٠

- تقي الدين بن الصلاح ٢٥٥، ٤٢٣،

- ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٦٦، ٥٣٠



- ابن حجر ٨٦، ٨٧، ٤٢١
- حسام الدين بن لاجين ١٤٠
- حسام الدين لؤلؤ ٢٨٢، ٣١٦
- حسام الدين محمد الإخسيكي ٥٢٤
- الحسن (بن علي) ٢٩٤
- أبو الحسن السامري ٤٥٨
- أبو الحسن علي بن قبيس ٤٢٤
- الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني ٥٢٢
- الحسن بن منصور قاضيخان ٥٢٥
- الحسين (بن علي) ٤١٣
- الحصري ٥١٩
- الحصري ٥٢١
- حنا (القديس) ٤٢٥
- حنبل بن عبد الله الرصافي ٥١٦، ٥١٩
- أبو حنيفة ٥١٦، ٥٢٦

(خ)

- خاتون بنت الملك عز الدين مسعود
- ابن قطب الدين ٤٢٤
- خديجة (بنت خويلد) ١٧٧، ١٩٠
- أبو الخطاب ابن دحية ١٢٢
- ابن خلكان ٣٣، ١٢٣، ٤١٤

- جمال الدين المصري ١٥٣، ٤١٤، ٤٥٧
- جمال الدين المقدسي ٤١٥
- جمال الدين بن الحاجب عثمان بن عمر ٥٢٥
- جمال الدين بن الحرستاني ١٦٨، ٣٥٢، ٣٣٠، ١٧٦
- جمال الدين بن عبد الهادي ٤٢٠
- جمال الدين بن منقذ ٢٤٩
- جمال الدين محمد بن كمال الدين الشريشي ٤١٦
- جمال الدين يعقوب الحاكم ٤٩٠
- الجمال بن الحافظ ٥٢٤
- الجواد ١٤٢
- ابن الجوزي ٧٨، ٢١٣، ٢١٨، ٣٦٨، ٤٩١، ٤٤٦، ٣٧١
- جوهر ١٠٤
- الجويني ١٤١، ٣٩٨، ٤٢٨

(ح)

- الحاجب لؤلؤ ٣٣٧
- الحارث بن عوف ٣٠٤
- أبو حامد محمد بن كمال الدين الحرستاني ٢١٤، ٣٦٣



- راشد الدين سنان بن سلمان ١٠٤،
- ٢٧٠، ١٠٥
- الراغب الأصفهاني ٢٥١، ٢٦٢
- رانيود ٤٩٠
- ربعة خاتون بنت نجم الدين أيوب
- ٣٤٤، ٤٢٣، ٥٤٠
- ابن رسول اليميني ٤٣
- ركن الدين منكورس ٤١٧
- روبرت أوف سانت ألبانس ٤٩٠
- ريتشارد قلب الأسد ٥٧، ٢٩٤،
- ٣٠٣، ٣٨٦، ٤٩٠، ٥٧٤
- ريموند الثالث ٢٧٠
- رينالد ٧١

(ز)

- الزبيدي ٤١٤
- زكريا عليه السلام ١٤٠
- زكي الدين المنذري ٥٢٦، ٥٢٨
- الزمخشري ٥١٧
- زمرد خاتون ٤٢٤
- ابن الزنجاري ١٤٠
- ابن زهير الدمشقي ١٦٥
- ابن زين التجار ٤١٣

(د)

- دانيال ٤٩١
- الداھري ٥١٩
- داود عليه السلام ٣٧٨، ٥٤٩
- داود بن العاضد ١٠٥
- الدخوار (عبد الكريم بن علي بن حامد الدمشقي) ٤٢٢
- أبو الدرداء ٤٠٥
- أم الدرداء ٤٠٥
- الدمياطي ٥٢١
- الدواداري ١٤٧
- الدولعي ١١٩، ٢٦٠

(ذ)

- الذهبي ٦٢، ١١٦، ١١٨، ١١٩،
- ١٢٠، ١٢٤، ١٤٧، ١٦٧، ١٧٢،
- ١٧٤، ١٧٨، ١٨٧، ١٩٥، ١٩٧،
- ١٩٨، ٢٠٢، ٢١٠، ٢١٤، ٢٥٥،
- ٢٧٩، ٣٢٨، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤١،
- ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢٨، ٥٥٢، ٥٧٨
- ذو اليدين ٣٤٧

(ر)

- الرازي ٢٥٦

- سلمان الفارسي ٤٠٥
- أم سلمة ٣٢٢، ٥٦٦
- سليمان المغربي ١٥٩
- سماك بن خرشة (أبو دجاجة) ٣٠٦
- سنقر ١١٥
- السهروردي الساحر ١١١
- ابن سيده ٣٢١، ٣٦٤
- سبيويه ٥١٦
- السيرافي ٥١٦
- سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ٩٣،
١٠٣، ١٤٦، ١٥٧، ٢٣٥، ٢٧٤،
٢٨٢، ٤٦٧، ٤٦٨
- سيف الدين أياكوج ٤١٨
- سيف الدين عبد الله بن عمر الحنبلي
٢٠٠
- سيف الدين علي بن جندر ٤١٨
- سيف الدين غازي ٣٣
- سيف الدين فارس الدوادار ٤١٧
- سيف الدين المشطوب الهكاري
٥٥٤، ٥٧٠
- ابن سينا ١٠٩، ٢٥٦
- السيوطي ٤٧٨

- زين الدين بن إبراهيم بن نجا
٢١٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٤٤٣، ٤٤٤،
٥٢٨، ٥٥٧، ٥٦٨
- زين الدين (الواعظ الدمشقي) ٥٦١

(س)

- سابق الدين عثمان ٥٤٧
- أبو سالم بن همام الحلبي ١٣٦
- سبط ابن الجوزي ٢١٣، ٢٦١، ٣٣٥،
٣٦٨، ٣٦٩، ٣٩٠، ٤٧٤،
٥٢٣، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٩
- ست الشام ابنة نجم الدين أيوب ٣٣٦،
٣٤٤، ٣٦٣، ٤٢٣، ٤٦٦
- سراج الدين الأرموي ٢٥٠
- أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال
٧٢، ٤٣٠، ٥٤٩
- سعيد بن المسيب ٤٣١
- أبو سفيان ٥٦٦
- سعد بن عبادة ٣٠٤، ٥٦٦
- سعد بن معاذ ٣٠٤، ٣٠٧
- ابن سلام ٤٢٠
- السلفي (أبو طاهر) ١١٦، ١٨٦،
١٨٨، ٢١٠، ٣٩٨، ٥١٣، ٥٢٠،
٥٥٥، ٥٢٤



(ش)

- شاعبي ١٢٤، ٢٥٦، ٣٤٣، ٣٨٢، ٤١٣، ٤٢٠، ٤٥٠، ٥٢٦، ٥٢٧
- أبو شامة ٦٢، ٨٩، ١١٢، ١٣١، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٩، ١٧٩، ١٨٥، ١٨٧، ١٩١، ٢٢٣، ٢٣٦، ٢٧٨، ٣١١، ٣١٧، ٣٤٣، ٣٥٩، ٣٦٩، ٤١٣، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٦٢، ٤٨٢، ٥٠٥، ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٥٧، ٥٦١، ٥٦٨
- شاه أرمين ٢٧١
- شاور ٣١، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٣٨١، ٤٤٦، ٥٥٩، ٥٦٠
- شبيب الحرائي ٤٧١
- شجاع الدين بن البيضاوي ٥٤٩
- شجرة الدر ١٥٥
- الشرف الإربلي ٥٢٤
- شرف الدين أبو حامد بن أبي عصرون ٣٩٨، ٥٥٤
- شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم ٢١٣
- شرف الدين محمد بن عروة ٢١٩، ٤٢٠
- شعيب ٣٦٦
- الشقيف ٢٥٤
- شقيف أرنون ٥٧٤
- ابن شكر ٤٣٤
- شمس الدين أحمد بن الخليل ٥٣٣
- شمس الدين الخويي ٢١٥
- شمس الدين بن أبي عمر ١٥٣
- شمس الدين بن عطاء ١٥٤
- شمس الدين بن قدامة ٤١٥
- شمس الدين بن المقدّم محمد بن عبد الملك ٦١، ٤٧١
- شمس الدين بن الكمال ٤١٥
- شمس الدين بن كمال المقدسي ١٩٧، ٣٩٧، ٤٧١
- الشنقيطي ٣٢٢
- شهاب الدين الطوسي ٣٥٨، ٣٩٨، ٤١٦، ٤٥٠
- ابن الشهيد السمرقندي ٥٢٥
- الشهرزوري ٤١٧
- الشوكاني ٢٦٣، ٢٦٥، ٣٢٢، ٣٩٣، ٤٩٥
- الشيخة بنت سعد الخير ٤٠٠



- علي الكاشي ٤٢٤
- صدر الدين بن حمويه ٥٣١
- صدر الدين بن دباس الشافعي ١٠٢
- صدر الدين شيخ الشيوخ ٥٥٦
- صدر الدين بن المجاور ٢١٩، ٤٠٢
- صدر الدين محمد بن عباد الخلاطي ٥٢٤
- صدقة الحراني ٥١٩
- ابن صدقة ٥١٩
- ابن صعري ٤٥٨
- ابن الصفراوي ٤٢٩
- الصفيّ بن قابض ١٩٤، ٥٥٤
- صلاح الدين الأيوبي ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ٢٢، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٥، ٨١، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١

- ابن الشيرازي الدمشقي ١٦٨، ٤١٨
- شيركو بن محمد ١٣٠، ١٤١، ١٤٨، ٢٠٨، ٣٦٢، ٤٦٩، ٤٧٥، ٥٥٢
- أسد الدين شيركو الكبير ٣١، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٦٠، ١٢٧، ١٣٦، ١٤٧، ١٨٠، ٣٨١، ٤٠٢، ٤١٣، ٤١٨، ٤٦٥، ٥٥٩

(ص)

- ابن الصابوني ١٥٦
- صارم الدين برغش ١٠٧، ٥٤٩
- صارم الدين خُطْبُبا ٤٦٨
- صارم الدين قايمآز النجمي ٣٣٧، ٤٢٥
- الصالح ١١٨، ١٨٤، ٤٦٩، ٥٧٩
- الصالح إسماعيل بن نور الدين ٤١، ١٤٥، ٢٣٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٤٢٢، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٧٠، ٤٧٥
- صالح بن الحسين الجعفري ٧٨، ٧٩
- الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ٣٩٧، ٣٥٧
- صدر الدين أحمد بن شهاب الدين

٤٤٢، ٤٣٥، ٤٣٤، ٤٣٣، ٤٣٠،
 ٤٤٨، ٤٤٧، ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٤٣،
 ٤٦٩، ٤٦٨، ٤٦٦، ٤٦٥، ٤٦٠،
 ٤٨٠، ٤٧٩، ٤٧٣، ٤٧٢، ٤٧١،
 ٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩١، ٤٩٠، ٤٨٣،
 ٥٠٩، ٥٠٦، ٥٠٥، ٥٠١، ٥٠٠،
 ٥٣٠، ٥٢٣، ٥١٦، ٥١٣، ٥١١،
 ٥٣٩، ٥٣٧، ٥٣٥، ٥٣٣، ٥٣٢،
 ٥٤٤، ٥٤٣، ٥٤٢، ٥٤١، ٥٤٠،
 ٥٥٢، ٥٥١، ٥٤٩، ٥٤٧، ٥٤٦،
 ٥٥٩، ٥٥٧، ٥٥٦، ٥٥٥، ٥٥٤،
 ٥٦٤، ٥٦٣، ٥٦٢، ٥٦١، ٥٦٠،
 ٥٧٢، ٥٧٠، ٥٦٩، ٥٦٧، ٥٦٦،
 ٥٨١، ٥٧٩، ٥٧٨، ٥٧٥، ٥٧٣

• صفية خاتون ٤٧٦

(ض)

• ضرغام ٣٨

• الضمري ٣١٢

• الضياء بن الأثير ٤٧٣

• ضياء الدين (الملك) ٢٥٦

• ضياء الدين محاسن ٤١٩

• ضياء الدين محمد بن الحسن

العجمي ٤١٥

١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩،
 ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧،
 ١٥٩، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦،
 ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨،
 ١٧٩، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧،
 ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥،
 ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٨، ٢١٩،
 ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤،
 ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨،
 ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥،
 ٢٤٨، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٧،
 ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢،
 ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩،
 ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥،
 ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،
 ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦،
 ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣،
 ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٥، ٣١٦،
 ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٢،
 ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧،
 ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٦٢،
 ٣٦٣، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٦، ٣٨١،
 ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦،
 ٣٩٠، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠١،
 ٤٠٢، ٤٠٦، ٤١٣، ٤١٦، ٤٢٣،
 ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩



- الظاهر خضر بن صلاح الدين ٤٧٠
- الظاهر غازي ٥٤٣
- ظهير الدين (أخو عيسى الهكاري)
- ٢٨٣، ٢٨٤، ٥٣٠

(ع)

- عائشة (بنت أبي بكر الصديق) ٨٧،
- ١٦١، ١٩٠، ٣٤٧، ٣٨١، ٤٠٤،
- ٥٣٤
- عائشة بنت الحافظ معمر ابن الفاخر
- ٥٢٨
- عائشة بنت المجد عيسى ٥٢٩

- العادل ٤٢، ٤٥، ٧٢، ٩٣، ١١٠،
- ١١٨، ١٣٤، ١٣٥، ١٤١، ١٤٨،
- ١٤٩، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩،
- ١٦٠، ١٦٨، ١٦٩، ١٨٠، ١٨٨،
- ١٩٦، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٤، ٢٣٨،
- ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٦١،
- ٢٨٠، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١١،
- ٣١٦، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٣٥،
- ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٢، ٣٩١،
- ٤١٤، ٤٣٠، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٠،
- ٤٥٩، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧٢،
- ٤٧٣، ٤٧٨، ٥٠٠، ٥٠٧، ٥٠٨،
- ٥٣٠، ٥٤٤، ٥٤٩، ٥٥١، ٥٦٧، ٥٧٢

- ضياء الدين المقدسي ١٢٠، ١٩٧،
- ٤٢٠، ٥٥٢
- الضياء الطبري ١٥٩، ٣٦٥
- ضيفة خاتون بنت الملك العادل
- ١٣٨، ١٦٩، ٤٢٣

(ط)

- طارق بن سويد الجعفي ١٤٥
- طاشكتين ٤٧١
- أبو طاهر الحسيني ٢٧٠
- أبو طاهر بن عوف الزهري ٥١٤،
- ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠
- ابن طبرزد ٥١٩
- الطبري ٢٩٣، ٣١٢، ٤٩٥
- الطحاوي ١١٨
- الطراز ١١٦، ١١٩

(ظ)

- الظاهر ٤٤، ٤٥، ٧٣، ٧٨، ٩٣، ١١١،
- ١٢٤، ١٣٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٨٠، ٢١٨،
- ٢٤٤، ٢٧١، ٢٨١، ٢٩٥، ٣٣٩، ٣٥١،
- ٣٦٢، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٩٠، ٤١٥،
- ٤١٨، ٤٢٣، ٤٣١، ٤٥٧، ٤٦٧،
- ٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٦، ٥٠١، ٥١٩، ٥٥١



- عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني
٥٢٧
- عبد الكريم زيدان ٢٥٩، ٣٢٣، ٣٢٤،
٣٩٥
- عبد اللطيف (بن صالح نجم الدين)
٣٥٥
- عبد اللطيف السهروردي ٥٤٨
- عبد الله الأذرعي ٣٥٨، ٤١٧
- عبد الله بن برّي النحوي ٥١٨
- عبد الله بن أبي الحسن الجُبَّائي
الطرابلسي ٨١
- عبد الله بن أم مكتوم ٣٩٥
- عبد الله بن رواحة ١٧٣
- عبد الله بن عباس ٩٨، ١٧٩، ٢٥٣،
٣٧٩، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤٣١، ٥٣٥
- عبد الله بن عثمان اليونيني ١١٤،
١٢١، ١٤٩، ٢٠١، ٢١٤، ٢١٥،
٢١٨، ٢٨٢، ٣٥٠، ٤٠٠، ٤٩٠
- عبد الله بن علي بن شكر ٤٥٧
- عبد الله بن عمر ٢٦٥، ٣٤١
- عبد الله بن مسعود ٣٦٧، ٣٩٤، ٤٢٠،
أبو عبد الله القرطبي ٨٧، ٣١٢، ٤٢٢،
٤٣١

- ابن عاشور ٣٢٢
- عاشوراء زوجة الأمير أيازكوج
الأسدي ٤٢٤
- العاضد الفاطمي ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤،
٣٨، ٣٩، ٤٠، ٥٩، ٦٠، ٨٩، ٩١،
١٠٠، ١٠١، ١٠٦، ١٣٤، ١٩٣،
٣٣٤، ٣٣٧، ٣٥٨، ٣٨١، ٣٨٣،
٣٨٤، ٤٦٥، ٤٧٢، ٥٤٦، ٥٦٠، ٥٦١
- عامر بن فهيرة ٥٣٥
- عبد الأحد بن حسن بن الحافظ لدين
الله ٤٤٦
- عبد الرحمن بن منقذ ٢٩٠
- عبد الرحمن السعدي ٨٦، ٢٦٣،
٢٦٥
- عبد الصمد الكاتب ٤٤٣
- عبد الصمد بن محمد بن الحرستاني
١٥٣، ١٥٤، ٣٢٩
- عبد بن عدي ٥٣٤
- عبد العزيز بن عبد الواحد ١٠٨
- عبد العزيز الجيلي ٤٥٧
- عبد الغني المقدسي ١٢٠، ١٢٤،
١٨٨، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٥٤، ٣٣٨،
٣٤٩، ٣٥٠، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٢٠،
٤٥٠، ٤٥١



- عز الدين عثمان بن الزنجيلي ٣٤٤
- عز الدين جرديك ٥٠٨
- عز الدين قليج أرسلان بن سعود ٤٢٧
- عز الدين محمد بن عبد الغني ١٨١، ٣٢٩، ٣٦٢، ٥١٩
- عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه ٥٥٦
- عز الدين موسك الهذباني ١٥٢
- العزيز ٤٤، ٤٥، ٦٥، ٧٨، ٩٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٤١، ١٤٩، ١٥٧، ١٦٧، ١٨٠، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠١، ٢١٩، ٤٠٢، ٤٤٦، ٤٥١، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٧٣، ٥٢٠، ٥٣٠، ٥٥٢، ٥٦٨
- عزيزة خاتون بنت الملك قطب الدين ٤٢٤
- ابن عساكر ١٩٨، ٢١٠، ٢١٤، ٢٨٤، ٣٢٨، ٣٥١، ٤٥٠، ٥٢٣، ٥٥٥، ٥٥٢
- عصمة الدين بنت معين الدين أتر ١٤٤، ٢٠٩، ٣٣٦، ٣٤٥
- عفيف بن عبد القاهر سكرة اليهودي ٥٣٥

- أبو عبد الله محمد بن عمر المقدسي ٤١٧
- أبو عبد الله المهدي ٣٤
- أبو عبيدة بن الجراح ٣٩٥
- عبد المجيد بن عمر بن القدوة ٢٥٦
- عبد المنعم بن عمر الغساني الأندلسي الجلياني ٥٣٢
- عبد النبي بن مهدي ٦٤، ١٠٧، ٢٧٤
- عبد الواحد الصوفي ٤٩١
- عبد المؤمن بن عبد المنعم ٥٣٢
- عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري ١٠٩
- عثمان بن عفان ٣٣، ٣٨٢
- ابن العديم الحنفي ١٧٦، ٤٧٥
- عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب ٤٢٣
- عز الدين بن فرّخشاه ١٨١، ٥٧٥
- عز الدين بن عبد السلام ١١٥، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٤، ١٤٦، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٦، ١٨٩، ١٩٩، ٢١٤، ٢١٨، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٨٣، ٣٣٨، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤٠٠، ٤٥١، ٤٦٠، ٤٦٦، ٥٥٢، ٥٥٣



- ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٥٩، ٣٦٢، ٤٢٨،
- ٤٣٠، ٤٨٢، ٥٠٥، ٥١٥، ٥٥٤،
- ٥٧٢، ٥٧٤، ٥٧٥
- عماد الدين أبو الفتوح عثمان ١٩٧،
- ٣٣٦
- عماد الدين زنكي ١٦، ٣٣، ٣٤،
- ٣٧، ١٢٧، ١٥٧
- عماد الدين صاحب سنجار ٢٩٥
- عماد الدين بن المشطوب الهكاري
- ١٨١، ٣٥٩
- عماد الدين المقدسي الجماعيلي
- ١٧٥، ١٩٧، ٢٥٥، ٣٢٩، ٥٢٣
- عمارة اليميني ٤٠، ١٠٢، ١٤٤، ٤٤٣،
- عمر بن الصالح نجم الدين أيوب
- ٤٧٠
- عمر الخلاطي ١٦٦
- عمر بن الخطاب ٣٣، ٣٤، ١٣٩،
- ٣٢٢، ٣٤١، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٨٢،
- ٤٢٠، ٤٢١، ٥٠٤، ٥٣٤، ٥٤٤
- عمر بن دحية ٥١٨
- عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي
- ٣٧٠
- أبو عمر المقدسي الجماعيلي ١٥٢،
- ٣٣٩، ٣٤٩، ٣٦٣، ٥٥٢

- عفيفة بنت أحمد الفارفانية ٥٢٨
- ابن عقيل ٤٥٤
- علاء الدين خرّم شاه بن عز الدين
- مسعود ١٨٠، ٢٧٥
- علاء الدين علي بن إسماعيل
- السنجاري ٤١٢
- علم الدين قيصر ٥١٩
- علي بن أحمد الأمدي ١١٠، ١١١،
- ٣٤٥، ٥٢٠، ٥٢٦
- علي الحريري ٤٦٦
- أبو علي الفارسي ٥١٦
- علي بن أبي طالب ٣٣، ١٠٤، ٢٣٠،
- ٣٨٢، ٤٠٥
- علي بن بنت أبي سعد ٥١٣
- علي بن عريف النحاسين ٢٧٧
- علي بن محمد الصليحي ٣٥
- علي بن مهاجر الموصلي ٤١٩،
- ٤٢٠
- علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني
- القفطي ٧٨
- العماد الأصفهاني (الكاتب) ١٥٢،
- ١٧٤، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٧٢، ٢٧٨،
- ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٢٥،

(ف)

- الفارابي ٢٥٦
- فاطمة عليها السلام ١٠٢، ٤٤٦
- فاطمة بنت سعد الخير الأنصاري ٥٢٨
- أبو الفتوح بن العاضد ٨٩
- فتیان الشاغوري ٤٥٨
- فخر الدين عثمان الياروقي ٤١٨
- فخر الدين محمد بن عمر الرازي ٢٥٥
- فخر الدين يوسف بن حمويه ٧٣، ٢٤٩
- ابن فرج ٢١٠
- فروخشاہ ٣١٥، ٤٢٣
- فريدريك الثاني ٧٣، ٢٤٩
- الفضل بن البانياسي ٥١٨، ٥١٩
- أبو الفضل المنجم ١١٣
- الفيروز آبادي ٣٢٢
- ابن القابلة الحنبلي ١٢٠

(ق)

- القاسم (حاكم المدينة) ١٠٣
- أبو القاسم بن البزري ٥٥٥

• عمرو بن أمية ٢٣٣

• أبو عمرو بن الحاجب ٢١٣، ٣٥٣، ٤٢٠، ٣٥٤

• أبو عمرو بن الصلاح ١١٠، ١١١، ٤١٤، ٣٩٧

• عمرو بن العاص ١٥٠، ٥٦٨

• ابن العميد ٤٥٧

• عمير بن الحمام ٣٠٧

• ابن عنين ٥٥١

• عيسى عليه السلام ٧٢، ٧٣، ١٠٧، ٤٤٨

• عيسى العوام ٢٧٨

• عيسى الهكاري ١٦٠، ٢١١، ٢٢١

• ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٤، ٣٦٣، ٤٧٢

• ٥٣٠، ٥٤٦، ٥٤٨، ٥٥٥، ٥٥٦

• ٥٧٢، ٥٧٣

• عيينة بن حصن ٣٠٤

(غ)

• الغزاري ٥٢٧

• الغزالي ٤٠٥

• أبو الغنائم محمد بن المعلم ١١٣

• غياث الدين محمد بن بهاء الدين

• سام ٢٥٥، ٢٥٦، ٤٧٦



- ابن قدامة ١١٩، ٢٥٥، ٤٠٠، ٤٠٣
- قديد القفاص ١٠٨
- قطب الدين ينال بن حسان ٥٦٣
- القطب النيسابوري ٥٣، ١١٧،
١٧٦، ٣٤٣، ٥١٤
- ابن قيم الجوزية ٥٧٦

(ك)

- الكامل بن صلاح الدين ٤٢٨
- الكامل بن العادل ١٧، ٤٥، ٧٢، ٧٣،
٧٧، ٨٠، ١٠٦، ١١١، ١١٩، ١٢٠،
١٢٤، ١٣٥، ١٤٢، ١٥١، ١٥٧،
١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٨٨، ٢٠٨،
٢٢٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٦١، ٢٨١،
٣٤٤، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٣،
٣٧٣، ٤١٥، ٤١٨، ٤٣٢، ٤٥١،
٤٦٩، ٤٧٠، ٥١٧، ٥١٨، ٥٣٩، ٥٤٢
- الكامل بن شاور ٥٦٠
- الكامل محمد بن غازي ٣٢٢، ٣٢٨
- الكتبي ٣٥٢، ٥٥٣
- ابن كثير ١١٠، ١١٩، ٥١٢
- الكروخي ٢٦٠
- كريمة بنت عبد الوهاب بن علي
٥٢٩

- أبو القاسم بهاء الدين أبو محمد
٥٢٣
- أبو القاسم بن حصين ٥٢٢
- القاسم الرعيني الشاطبي ٤٢٢، ٥٢٤
- أبو القاسم بن رواحة ٤١٩
- أبو القاسم بن الصفراوي ٥١٧
- أبو القاسم محمود بن المبارك ٤١٩
- القاسم بن مهنا ٥٥٧
- القاضي الفاضل ٨٩، ١١١، ١٢٨،
١٣١، ١٣٢، ١٤٥، ١٤٩، ١٦٠،
١٧٤، ١٧٥، ١٨٦، ١٩٥، ١٩٨،
٢١٠، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢،
٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٣٢٨،
٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٨، ٣٤٥، ٤٢٢،
٤٢٩، ٤٣٠، ٤٤٥، ٤٥٧، ٤٧٢،
٤٧٣، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٩، ٥١٠،
٥٢١، ٥٢٤، ٥٤٨، ٥٥٢، ٥٥٤
- ٥٥٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٤
- القاضي شهاب الدين ١٨٤
- القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين
أرسلان شاه ٤١٦، ٤٦٢
- قتادة ٢٩٤
- القداح (الملحد المجوسي) ١٠٠،
٤٤٧

- المتنبّي ٤٥٧
- المجاهد بن صلاح الدين ١٤٨، ٤٦٩
- المجد البهنسي ٤٥٧
- مجد الدين طاهر الكلابي الحلبي ٤٢٥
- مجد الدين قاضي الطور ٤١٥
- مجد الدين محمد بن محمود الأستروشنّي ٥٢٥
- أبو المحاسن (القاضي) ٥٤٥
- محاسن الدين بن عبد الملك الحموي ٢٠٠
- المحسن بن أبي المضاء ٤٠٢
- المحسن ١٧٥، ٥١٩
- ابن المحلي القاضي أبو محمد عبد الله ٥١٦
- أبو محمد بن أبي الحسن علي بن مسعود الدمشقي الفقير ٤٦٦
- محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي ٣٥٩، ٣٢٨، ٢١٢
- محمد بن علي الزكي ١١١
- محمد بن محمد العيدي ٥٢٤
- محمد بن محمد المقرّي شمس الدين ابن الجزري ٤١٢

- ابن كسا البليسي ٤٥٧
- كمال الدين أبو البركات الأنباري ٣٩٩
- كمال الدين الشريشي ٤١٦
- كمال الدين بن الشهرزوري ١٧٢، ٥٥٤، ١٨٧
- كمال الدين العجمي ١٦٨
- كمال الدين موسى بن منعة ٤١٧
- كمشكين ٢٦٩، ٢٧٠
- الكنز ٤٤٥
- أبو الكيزان الظاهري ٤٥٠

(ل)

- ابن لاون ٣١٤
- لؤلؤ (الأمير) ٢٠٩
- لوزيفيان ٣١٠

(م)

- ماجد الكيلاني ١٢٧
- مالك ٤١٨، ٤٥٧، ٥٢٥
- أم مالك البهزية ٢٦٦
- مؤمن آل فرعون ٨٦
- المبارك بن فضالة ٢٩٤



- مظفر الدين كوكبوري ١١٩، ١٢٢،
٤١٧، ٤٢٣، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١
- المظفر تقي الدين بن عمر ٤٢، ٦١،
٣٨٥، ٣٩٨، ٤٣٤
- المظفر غازي بن العادل
٤٢، ١٣٠، ١٤٨، ١٥١، ١٦٥، ١٨٠،
٢٠٨، ٤١٦، ٤٥٠، ٤٧٠، ٥٣١، ٥٤٤
- المظفر (صاحب حماة) ٢٨١، ٣٣٥،
٤٧٥
- أبو المظفر محمد بن علوان الموصللي
٤١٧
- معاذ بن جبل ٦١، ٩٨، ٤١٠
- أبو المعالي محمد بن يحيى القرشي
١٩٨
- أبو المعالي مسعود بن محمد
النيسابوري ٢١٩، ٣٩٨، ٤٠٢
- المعظم ١٣٠، ١٨٠، ٢٠٨، ٢١٤،
٢١٩، ٢٧٥، ٣٥١، ٣٩٠، ٤٦١،
٤٦٨، ٤٧٤، ٥٠٠، ٥٠١، ٥١٦،
٥١٧، ٥٣٩، ٥٤٤
- المعظم عيسى بن العادل ١١٨، ١٣٨،
١٧٥، ٢١٣، ٢٦١، ٢٨١، ٤١٤، ٤١٥،
٤١٦، ٤١٩، ٤٢٤، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٣٣
- المفضل ١٠٢

- محمد بن الموفق الخبوشاني ٩١،
١٥٦، ٢٠٠، ٣٥٨، ٤١٣، ٤٥٠
- محمد بن يونس الموصللي ٥٢٦
- أبو محمد عبد القادر الرهاوي ٤١٧
- محمود بن همام الدمشقي ١٢٠،
٣٥٨
- محيي الدين بن الجوزي ٤٢٢، ٤٧٤،
٥٢١
- محيي الدين بن العربي ١٠٨
- محيي الدين بن زكي الشافعي ٢٥٩،
٢٦٠، ٢٨٧، ٥٣٠، ٥٥٤
- المركيس (صاحب صور) ٢٤٨
- المستضيء بنور الله العباسي ٣٢،
٩٠، ١٠١، ٢٦٧، ٣٨٣، ٣٨٤،
٥٦٠
- المستنجد (العباسي) ٥٦١
- المستنصر العبيدي ٣٥
- المستعصم بالله ١٥٥
- مسطح بن أثاثة ٣٤٧، ٣٤٨
- المسعود ٦٥
- مسعود يوسف بن كامل ٤٣، ٤٧٠،
٤٧١
- مصعب بن عمير ٣٩٥

- ناصر الدين بن أسد الدين ٤٢٧
- الناصر لدين الله ٣٧٠
- ناصر الدين محمد بن العزيز ١٣٤،
١٣٥
- الناصر داود ٣٥٤، ٤٦٩، ٤٧٤
- الناصر صلاح الدين بن العزيز ٤١٦
- ابن النجار ٥١٨
- نجم الدين الخبوشاني ١٠١، ١٣٤،
٤٢٠
- نجم الدين بن أيوب ٣٧، ٣٨، ٩١،
١٢٧، ١٣٦، ١٥٥، ١٥٦، ٢٥٠،
٣٢٧، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٨٢، ٣٨٣،
٤٠١، ٤٠٦، ٤٦٥، ٥٥٣
- نجم الدين عبد الله بن محمد بن
شاش الجذامي السعدي ٥٢٦
- نجم الدين مختار بن محمود
الزاهري ٢٥٥
- ابن نجية ١٤٤، ٤٠٠، ٥٣٠
- نزار بن المستنصر ١٠٥
- نصر المقدسي ٣٤٣
- نصير الدين محمد بن عبد الله
السامري ٥٢٧
- النعيمي ٤١١، ٤١٢، ٤٦٥، ٤٦٦

- المقرزي ٢١٩
- مكث بن عيسى الهاشمي ١٣٨، ٢٣٩
- المكرم الصليحي ٣٥
- المنصور محمد بن عثمان ٣٤٤،
٥٢٠، ٥٣١، ٥٣٩، ٥٥٧
- ابن منظور ٢٥١، ٣٢١
- المهدي المنتظر ٦٤، ١٠٤، ٢٧٤
- مهذب الدين بن النقاش ٥٣٢، ٥٣٣
- أبو موسى الأشعري ٣٤٨
- موسى عليه السلام ٧٢، ٧٣، ٢٥٢، ٤٢١
- موسى بن العادل ٣٨٦، ٣٨٧
- الموفق بن قدامة المقدسي ١٢١،
١٧٦، ٢٠١، ٢١٥، ٣٤٩
- موفق الدين عبد الله بن قدامة ٣٩٨،
٤٠٣
- موفق الدين محمد بن قدامة
المقدسي ١١٩، ٥٢٧
- الموفق عبد اللطيف ٥٥، ١٧٣،
٣٢٥، ٣٦٢، ٥١٥
- المؤيد ٥٢٠

(ن)

- الناصر (صاحب حماة) ١٨٠، ٤٦٢
- الناصر ١٣٦، ٤٦٩، ٥٦٠، ٥٦٣



- ابن هشام ٥١٦
- هولكو ٤٢، ٣٤٩
- ابن واصل ١٢٢، ١٣٠، ١٤٤، ١٤٨،
٣٦٢

(و)

- وجيه الدين بن المنجا محمد بن
عثمان ٤١٢

(ي)

- يحيى الأندلسي البياسي ٥٣٢
- يحيى الثقفي ٥١٩
- اليزيدي ٢٦٠
- يعقوب عليه السلام ١٤٩
- يوسف الرحبي ٥٣٢
- يوسف عليه السلام ٥٩، ٤٠٣
- يونس الفاروقي ٥١٥
- يونس بن يوسف الشيباني ٤٦٦
- يوسف بن رافع بن عناب ٣٣٩

- النمرود ٢٥٢
- نوح عليه السلام ٣٦٥
- نور الدين أرسلان شاه ١٧٩، ٤٢٧،
٥٤٧، ٥٢٦

- نور الدين محمود زنكي ١٦، ٣١،
٣٤، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٥، ٦٣،
٩٠، ٩١، ١٣٦، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٧،
١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٦٨،
٢٦٩، ٢٨٧، ٢٩٠، ٣٢٤، ٣٨٢،
٣٨٣، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٣٣، ٥٦٠،
٥٦١، ٥٦٣، ٥٦٦

- النووي ١١٥، ٢٠٠، ٢١٢، ٣٤١،
٣٥١، ٣٧٤، ٥٢٢
- النيسابوري ٢١٨

(هـ)

- ابن هائل ٤٢٠
- هبة الله العويرس ٤٤٣
- أبو هريرة ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤٧

رَقْعٌ

عبد الرحمن العجمي

أسكنم الله الفردوس

www.moswarat.com

٤. فهرس المصادر والمراجع

- ١ - إتحاف السورى بأخبار أم القرى، النجم عمر بن فهد بن محمد، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط١، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ٢ - الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، أحمد بن إدريس القرافي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٣ - إحياء علوم الدين، الغزالي، ط. دار الكتب، بيروت.
- ٤ - أدلة الوجدانية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: عبد الرحمن دمشقية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٥ - أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، ط. دار المعرفة، بيروت.
- ٦ - أصول التربية الإسلامية، عبد الرحمن النحلاوي، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩م.
- ٧ - أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ٨ - الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبد الرحيم بن محمد المغذوي، ط. الأمانة العامة لجائزة المدينة المنورة، ١٤٢١هـ.
- ٩ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ط. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ١٠ - الأطلس التاريخي، عدنان عطار، دمشق.

- ١١ - الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، محمد بن علي بن شداد، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق، ١٩٧٨م.
- ١٢ - الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.
- ١٣ - الإمام النووي، عبد الغني الدقر، ط٤، دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ١٤ - الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، د. محمود ياسين التكريتي، ط. وزارة الثقافة العراقية، بغداد، ١٩٨١م.
- ١٥ - البحث العلمي، عبد العزيز الربيع، الطبعة الثالثة، الرياض، ١٤٢٤هـ.
- ١٦ - بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس، تحقيق: محمد مصطفى، ط٢، مصر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ١٧ - البداية والنهاية، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط١، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١٨ - بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، عائشة عبد الله باقازي، ط١، دار مكة، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ١٩ - بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، د. سليمان عبد الغني مالكي، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٢٠ - بلوغ المرام فيمن تولّى ملك اليمن من ملك وإمام، القاضي حسين أحمد القرشي، مصر، ١٩٣٩م.
- ٢١ - تاج العروس، الزبيدي، تحقيق: علي شيري، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٢٢ - تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، الملك المؤيد بن أيوب، تحقيق: محمود ديوب، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٢٣ - تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق: عمر تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- ٢٤ - تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن، ط١، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٦٧م.
- ٢٥ - التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ط٥، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ٢٦ - التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د. أحمد شلبي، ط٣، مصر، ١٩٧٧م.
- ٢٧ - تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، د. محمد سهيل طقوش، ط١، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ٢٨ - تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، أحمد سعيد سليمان، ط. دار المعارف، مصر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- ٢٩ - التاريخ الشامل للمدينة المنورة، د. عبد الباسط بدر، ط١، ١٩٩٣م.
- ٣٠ - تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، د. فتحة النبراوي، ط٧، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ١٩٩٤م.
- ٣١ - تاريخ مدينة دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: محب الدين العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ٣٢ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ط. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.
- ٣٣ - تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: د. محمود قدح، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ٣٤ - التدرج في الأساليب الدعوية وأثره في الدعوة إلى الله، عبد الله عياد الجهني، المدينة المنورة، رسالة ماجستير-كلية الدعوة، ١٤١٣-١٤١٤هـ.
- ٣٥ - التعريفات، الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.



- ٣٦ - تلبس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دراسة وتحقيق وتعليق: د. السيد الجميلي، ط ٨، دار الكتاب العربي، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ٣٧ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المثنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط ٣، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- ٣٨ - ثلاثة الأصول وأدلتها، الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، الرياض، مؤسسة النور.
- ٣٩ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله عبد المحسن التركي ورفاقه، ط ١، دار هجر، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- ٤٠ - الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- ٤١ - الحافظ ابن عساكر، د. محمد مطيع الحافظ، ط. دار القلم، دمشق، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ٤٢ - الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، د. جميل حرب، ط ١، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ٤٣ - الحروب الصليبية، رفيق التميمي، ط ١، مطبعة اللواء، القدس، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
- ٤٤ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي، تحقيق: حسن أبو الفضل إبراهيم، ط. دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.
- ٤٥ - الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٤٦ - الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري، د. عبد الرحمن سليمان المزيني، ط. مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ.



- ٤٧ - خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق: د. شكري فيصل، ط. مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.
- ٤٨ - الخطابة، محمد أبو زهرة، ط٢، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٨٠م.
- ٤٩ - الخطط (انظر: المواعظ والاعتبار)، المقرئزي.
- ٥٠ - الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق: جعفر الحسني، ط. مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
- ٥١ - درء الاعتراض، ابن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.
- ٥٢ - الدعوة، حمد بن ناصر العمار، ط١، كنوز إشبيليا، الرياض، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- ٥٣ - دعوة المسلمين للنصارى، سليمان بن عبد الله الرومي، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- ٥٤ - الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وآخرين، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٥٥ - الدعوة قواعد وأصول، د. جمعة أمين عبد العزيز، ط. دار الدعوة، القاهرة.
- ٥٦ - الدولة الفاطمية في مصر، د. محمد جمال الدين سرور، ١٩٦٥-١٩٦٦م.
- ٥٧ - ذيل الروضتين، للحافظ أبي شامة المقدسي، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
- ٥٨ - ذيل طبقات الحنابلة، زين الدين عبد الرحمن بن رجب، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.
- ٥٩ - ذيل مرآة الزمان، قطب الدين اليونيني، ط. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ٦٠ - رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير، ط. دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

- ٦١ - الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: د. محمد محمد حسنين، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
- ٦٢ - رسالة إلى ولدي، ابن الجوزي، تحقيق: عمر عبد المنعم، ط. دار السلام، مصر، ١٩٩١م.
- ٦٣ - زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف طه، مصر، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- ٦٤ - زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين بن العديم، تحقيق: سامي الدهان، ط. منشورات المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥١-١٩٦٨م.
- ٦٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الرياض.
- ٦٦ - السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مصر، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.
- ٦٧ - سنا البرق الشامي، الفتح بن علي بن محمد البنداري، تحقيق: فتحية النبراوي، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٦٨ - سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي.
- ٦٩ - سنن الدارمي، الإمام الدارمي، تحقيق: حسين الأسد، ط ١، دار المغني، الرياض، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- ٧٠ - سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٧١ - السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه، ط. مؤسسة علوم القرآن، جدة.
- ٧٢ - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ط ١، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

- ٧٣ - سيف المهند في سيرة الملك المؤيد، بدر الدين العيني، تحقيق: فهم شلتوت، ط. دار الكتاب العربي، مصر، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
- ٧٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الفكر، بيروت.
- ٧٥ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق: ناظم رشيد، ط. وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٨م.
- ٧٦ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط. دار الفكر، بيروت.
- ٧٧ - الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ٧٨ - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط ٣، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٧٩ - صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، دار المعارف، الرياض، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- ٨٠ - صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- ٨١ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.
- ٨٢ - صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، د. محمد رجب البيومي، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- ٨٣ - صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحيارى، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ٨٤ - صيد الخاطر، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د. عبد الرحمن البر، ط. دار اليقين، المنصورة، ١٤١٣هـ.
- ٨٥ - طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب السبكي، ط. عيسى الحلبي، القاهرة، ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.

- ٨٦ - الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، سهام مهدي جبار، ط. المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٨٧ - العبر في خبر مَنْ غُبر، الذهبي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥هـ.
- ٨٨ - عز الدين بن عبد السلام (سلسلة أعلام المسلمين: ٣٩)، د. محمد الزحيلي، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ٨٩ - عقائد الثلاث والسبعين فرقة، أبو محمد اليماني، تحقيق: محمد عبد الله الغامدي، ط. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤١٤هـ.
- ٩٠ - علم دراسة الأديان عند المسلمين، د. محمود قدح، نشر دار البخاري، المدينة المنورة.
- ٩١ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين أبو العباس المعروف بابن أبي أصيبعة، مصر، ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م.
- ٩٢ - الفاطميون في مصر، د. حسن إبراهيم حسن، مصر، ١٩٣٢م.
- ٩٣ - فتاوى ابن الصلاح، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ٩٤ - فتاوى سلطان العلماء العز بن عبد السلام، تحقيق: مصطفى عاشور، ط. مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٩٥ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار الفكر.
- ٩٦ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.



- ٩٧ - فتح القسّي في الفتح القدسي، العماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق: محمد محمود صبح، ط. الشركة الدولية للطباعة، مصر، ٢٠٠٣م.
- ٩٨ - فقه الموازنات الدعوية، د. معاذ محمد البيانوني، دار الإبداع، الكويت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- ٩٩ - فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، ط. دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.
- ١٠٠ - القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط. مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
- ١٠١ - قواعد أساسية في البحث العلمي، د. سعيد صيني، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ.
- ١٠٢ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام، مصر.
- ١٠٣ - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ط. دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- ١٠٤ - كتاب الاعتبار، أسامة بن منقذ، تحقيق: قاسم السامرائي، ط. دار الأصاله، الرياض، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ١٠٥ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ١٠٦ - كشاف اصطلاحات الظنون، محمد التهانوي، تحقيق: علي دحروج، ط١، مكتبة لبنان، ١٩٩٦م.
- ١٠٧ - كنز الدرر وجامع الغرر، دواداري، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر، ١٩٩٨م.

- ١٠٨ - كيد الشيطان لنفسه قبل خلق آدم، عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، ط١، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٢٠هـ.
- ١٠٩ - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- ١١٠ - اللطائف في الوعظ، ابن الجوزي، تحقيق: محمد إبراهيم سنبل، ط. دار الصحابة، طنطا، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ١١١ - لفظة الكبد إلى نصيحة الولد، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط١، مكتبة الإمام البخاري، مصر، ١٤١٢هـ.
- ١١٢ - المجموع شرح المذهب، الإمام محيي الدين بن شرف النووي، ط. مطبعة الإمام، القاهرة.
- ١١٣ - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن قاسم، مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- ١١٤ - مدارج السالكين، ابن القيم، ط. دار الكتب العلمية، ١٩٧٢م.
- ١١٥ - المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، د. صالح بن حمد العساف، ط٣، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ١١٦ - مدخل إلى علم الدعوة، د. أبو الفتح البيانوني، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ١١٧ - مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، ط. دائرة المعارف العثمانية، الدكن، حيدر آباد، الهند.
- ١١٨ - المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- ١١٩ - مسند أحمد، بإشراف: د. عبد الله التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- ١٢٠ - مسند أحمد، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة التراث، مصر.

- ١٢١ - المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ١٢٢ - المصنف، الإمام أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، ط١، شركة دار القبلة، جدة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- ١٢٣ - معالم الشريعة الإسلامية، د. صبحي الصالح، ط٤، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م.
- ١٢٤ - معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحَمَوِي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٢٥ - المعجم الكبير، للحافظ الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، ط٢، دار إحياء التراث العربي.
- ١٢٦ - المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى وزملاؤه، إشراف: عبد السلام هارون، مجمع اللغة العربية، مصر.
- ١٢٧ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة، أحمد مصطفى طاش كبري زاده، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ١٢٨ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق: جمال الدين الشَّيْثَال، مصر، دون تاريخ.
- ١٢٩ - مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ط. دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ١٣٠ - مقام الصلبان ومراتع أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، ط٢، مكتبة وهبة، مصر، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- ١٣١ - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ط. دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٣م.
- ١٣٢ - مكتبات المساجد، د. مكّي الرفاعي، ط١، مركز الملك فيصل، الرياض، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

- ١٣٣ - الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: أحمد فهمي أحمد، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ١٣٤ - مناهج البحث وتحقيق التراث، د. أكرم العمري، ط. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- ١٣٥ - مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر الألمعي، ط٢، الرياض، ١٤٠٠هـ.
- ١٣٦ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ط١، دائرة المعارف العثمانية، الدكن، حيدر آباد، ١٣٩٥م.
- ١٣٧ - المنهل الصافي، يوسف بن تغري بردي، تحقيق: د. محمد محمد أمين، مصر، ١٩٩٣م.
- ١٣٨ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المقرئ، بيروت.
- ١٣٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين بن تغري بردي، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.
- ١٤٠ - النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، د. محمد جمال الدين سرور، ط١، دار الفكر العربي، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.
- ١٤١ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد، تحقيق: جمال الدين الشّيال، ط١، مصر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- ١٤٢ - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، ط٣، دار القلم، دبي، الإمارات، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- ١٤٣ - الوابل الصيّب من الكلم الطيب، شمس الدين الزرعي الدمشقي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ١٤٤ - وفيات الأعيان، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلّكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.

فهرس الموضوعات



- الإهداء ٥
- شكر وتقدير ٧
- المقدمة ٩

الفصل التمهيدي

موقع الدولة الأيوبية ونشأتها

- المبحث الأول: الموقع الجغرافي للدولة الأيوبية ٢٩
- المبحث الثاني: الأحوال السائدة قبيل نشأة الدولة الأيوبية ٣١
- المبحث الثالث: نشأة الدولة الأيوبية والأحوال السائدة فيها ٣٧

الفصل الأول

سمات الدعوة الإسلامية ومراحلها في عهد الدولة الأيوبية

- المبحث الأول: سمات الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية ٤٩
- المطلب الأول: وجود أنموذج الداعية الأمثل ٥١
- أولاً: صفات الداعية الأساسية ٥٢
- ١ - قوة الصلة بالله ٥٢
- ٢ - الإخلاص ٥٢
- ٣ - العلم ٥٣
- ٤ - القدوة الحسنة ٥٤
- ٥ - الرفق ٥٥
- ٦ - الصبر ٥٦

- ٥٨ ثانياً: صفات الداعية اللازمة
- ٥٨ ١ - التخطيط للدعوة
- ٥٩ ٢ - انتهاز الفرص
- ٦١ ٣ - ترتيب الأولويات
- ٦٣ المطلب الثاني: الفتوحات
- ٦٦ المطلب الثالث: الجهاد ضد الصليبيين
- ٦٨ المطلب الرابع: النشاط العلمي
- ٧٠ المطلب الخامس: دعوة غير المسلمين
- ٧٠ أولاً: توجيه الدعوة إلى الرؤساء
- ٧٤ ثانياً: توجيه الدعوة إلى العامة
- ٧٧ ثالثاً: جهود العلماء في دعوة غير المسلمين
- ٨٠ رابعاً: جهود العامة من المسلمين في دعوة غير المسلمين
- ٨٥ • المبحث الثاني: مراحل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة الأيوبية
- ٨٦ المطلب الأول: مرحلة المداراة
- ٨٨ أولاً: التقرب من الناس والإحسان إليهم
- ٩٠ ثانياً: جلوس صلاح الدين لعزاء العاضد
- ٩٠ ثالثاً: تأخير الخطبة للعباسيين
- ٩١ المطلب الثاني: مرحلة الجهر
- ٩٣ المطلب الثالث: مرحلة الانكماش

الفصل الثاني

موضوع الدعوة

- ٩٧ • المبحث الأول: موضوع العقيدة
- ٩٧ تمهيد
- ١٠٠ المطلب الأول: محاربة الباطنيين
- ١٠٧ المطلب الثاني: دعاة باطل



- المطلب الثالث: علوم المنطق والأوائل ١٠٩
- المطلب الرابع: المنجمون ١١٢
- المطلب الخامس: الوقوف أمام المنكرات العقدية ١١٤
- المطلب السادس: الحرص على العقيدة الصحيحة ١١٧
- المطلب السابع: مخالفات بعض ملوك الدولة الأيوبية ١٢٢
- المبحث الثاني: موضوع الشريعة ١٢٧
- تمهيد ١٢٧
- المطلب الأول: تعظيم أوامر الشريعة الإسلامية ١٢٩
- أولاً: الاهتمام بأصول الدين الإسلامي وركائزه الأساسية ١٢٩
- ثانياً: الحرص على استفتاء العلماء ١٣٣
- ثالثاً: الحرص على إزالة المنكر ١٣٥
- ١ - إنكار منكرات تتعلق بالجانب الاقتصادي ١٣٦
- ٢ - إنكار منكرات تتعلق بالمساجد ١٣٨
- ٣ - إنكار منكرات تتعلق بجوانب متفرقة ١٤١
- المطلب الثاني: تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ١٤٣
- أولاً: الحرص على تنفيذ الأوامر الشرعية والدعوة إليها ١٤٣
- ثانياً: الابتعاد عما نهى الشارع الحكيم عنه والدعوة إلى ذلك ١٤٧
- ثالثاً: تطبيق أحكام السنة النبوية الشريفة ١٥٠
- رابعاً: التطبيق العملي لأحكام الشريعة الإسلامية ١٥٣
- المبحث الثالث: موضوع الأخلاق ١٦١
- المطلب الأول: خلق العدل ١٦٣
- أولاً: مظاهر من عدل صلاح الدين ١٦٤
- ثانياً: مظاهر من عدل الملك الكامل ١٦٧
- ثالثاً: مظاهر من عدل الملك العزيز ١٦٧
- رابعاً: مظاهر من عدل القضاة الأيوبيين ١٦٨
- خامساً: مظاهر من عدل النساء في العصر الأيوبي ١٦٩



- المطلب الثاني: خلق التواضع ١٧٠
- أولاً: مظاهر من تواضع صلاح الدين ١٧١
- ثانياً: من مظاهر تواضع الملك الأشرف ١٧٤
- ثالثاً: من مظاهر تواضع الملك المعظم ١٧٥
- رابعاً: من مظاهر تواضع العلماء ١٧٥
- المطلب الثالث: خلق الكرم ١٧٧
- أولاً: من مظاهر كرم صلاح الدين ١٧٧
- ثانياً: من مظاهر كرم الملوك الأيوبيين ١٨٠
- ثالثاً: من مظاهر كرم العلماء ١٨١
- المطلب الرابع: خلق الحلم ١٨٣
- أولاً: من مظاهر حلم صلاح الدين ١٨٤
- ثانياً: من مظاهر حلم الملك الأفضل ١٨٧
- ثالثاً: من مظاهر حلم الملك العادل ١٨٨
- رابعاً: من مظاهر حلم الملك الكامل ١٨٨
- خامساً: من مظاهر حلم الملك الصالح ١٨٨
- سادساً: من مظاهر حلم العلماء ١٨٨
- المطلب الخامس: خلق الوفاء ١٩٠
- المطلب السادس: خلق الورع ١٩٤
- أولاً: من مظاهر ورع صلاح الدين ١٩٤
- ثانياً: من مظاهر ورع الملك العزيز ١٩٥
- ثالثاً: من مظاهر ورع الملك الأشرف ١٩٥
- رابعاً: من مظاهر ورع الملك العادل والملك عماد الدين ١٩٦
- خامساً: من مظاهر ورع العلماء ١٩٧
- المطلب السابع: أخلاق متنوعة ٢٠١



الفصل الثالث

أصناف الدعاة والمدعوين في عهد الدولة الأيوبية

- المبحث الأول: أصناف الدعاة في عهد الدولة الأيوبية ٢٠٧
- المطلب الأول: الملوك ٢٠٨
- المطلب الثاني: الأمراء والوزراء والمستشارون ٢٠٩
- المطلب الثالث: العلماء ٢١٢
- المبحث الثاني: أصناف المدعوين في عهد الدولة الأيوبية ٢١٧
- المطلب الأول: الملوك والأمراء المسلمون ٢١٨
- المطلب الثاني: العامة ٢٢٠
- المطلب الثالث: أهل الذمة والصلبيون ٢٢١

الفصل الرابع

وسائل الدعوة وأساليبها وميادينها في عهد الدولة الأيوبية

- المبحث الأول: وسائل الدعوة في عهد الدولة الأيوبية ٢٢٩
- المطلب الأول: الرسائل والرسل ٢٣٢
- أولاً: أهمية وسيلة الرسائل والرسل ٢٣٢
- ثانياً: رسائل الحكّام ٢٣٤
- ١ - رسائل صلاح الدين في الحث على الجهاد ٢٣٤
- ٢ - رسائله في الحث على الإخلاص
وبيان أنه القصد الأساس من الجهاد ٢٣٦
- ٣ - رسالة في بيان عدم التنازل عن القدس ٢٣٧
- ٤ - رسالة في إبطال المكوس ٢٣٨
- ٥ - رسالة في النهي عن التعصّب المذهبي والخلاف بين المذاهب ٢٣٨
- ٦ - رسالة في النهي عن الظلم ٢٣٩

- ٢٤١..... ثالثاً: رسائل العلماء.....
- ٢٤١..... ١ - الحث على الجهاد والمصابرة في سبيل الله.....
- ٢٤٣..... ٢ - النصيحة بتعليق الحج.....
- ٢٤٤..... ٣ - رسالة في التعزية.....
- ٢٤٥..... ٤ - مناصحة وتذكير.....
- ٢٤٨..... رابعاً: وسيلة الرسل.....
- ٢٥١..... المطلب الثاني: المناظرة.....
- ٢٥١..... أولاً: تعريف المناظرة.....
- ٢٥٢..... ثانياً: أهمية وسيلة المناظرة.....
- ٢٥٣..... ثالثاً: من الملوك الذين استخدموا وسيلة المناظرة.....
- ٢٥٤..... رابعاً: من العلماء الذين استخدموا وسيلة المناظرة.....
- ٢٥٧..... المطلب الثالث: وسيلة الخطابة.....
- ٢٥٧..... أولاً: تعريف الخطابة.....
- ٢٥٨..... ثانياً: أهمية وسيلة الخطابة.....
- ٢٥٩..... ثالثاً: استخدامها في العصر الأيوبي.....
- ٢٦٢..... المطلب الرابع: وسيلة الجهاد.....
- ٢٦٢..... أولاً: تعريف الجهاد.....
- ٢٦٤..... ثانياً: أهداف الجهاد وغاياته.....
- ٢٦٧..... ثالثاً: فتوحات الأيوبيين.....
- ٢٦٧..... ١ - بداية الفتوحات.....
- ٢٦٨..... ٢ - الفتوحات الشامية.....
- ٢٦٩..... ٣ - فتح حلب.....
- ٢٧١..... ٤ - فتح خلاط.....
- ٢٧٢..... ٥ - معركة حطين ثم فتح بيت المقدس.....
- ٢٧٤..... ٦ - فتح اليمن.....



- ٧ - فتح بلاد النوبة ٢٧٥
- ٨ - القضاء على الدولة الخوارزمية ٢٧٥
- ٩ - أفكار جديدة لتحقيق مقاصد الجهاد ٢٧٦
- رابعاً: أبرز مجاهدي العصر ٢٧٩
- خامساً: الجهاد ضد الصليبيين ٢٨٤
- سادساً: آداب الجهاد ٢٨٨
- ١ - التخطيط والاستعداد للجهاد ٢٨٨
- أ - التدريب العسكري المكثف ٢٨٨
- ب - التحصينات العسكرية ٢٨٩
- ج - توحيد القوى العسكرية ٢٩٠
- د - مواقف تدلّ على استعداد الأيوبيين وتخطيطهم للجهاد ٢٩١
- ٢ - الصبر ٢٩٣
- أ - صبرهم في حصار مدينة صور ٢٩٦
- ب - صبرهم أثناء حصار مدينة صفد ٢٩٧
- ج - صبرهم عند فتح مدينة كوكب ٢٩٨
- د - صبرهم في حصار مدينة عكا عندما أخذها العدو قسراً من المسلمين ٢٩٨
- هـ - صبر المسلمين عند تخريب عسقلان ٣٠١
- ٣ - الإصرار على الجهاد ٣٠١
- ٤ - تشجيع الجيش على القتال ٣٠٥
- ٥ - المعاملة الحسنة مع الأسرى ٣٠٨
- ٦ - التسامح ومنح الأمان في الوقت المناسب ٣١١
- ٧ - عزة الجندي المسلم ٣١٣
- المبحث الثاني: أساليب الدعوة في عهد الدولة الأيوبية ٣١٩
- المطلب الأول: أسلوب القدوة الحسنة ٣٢١
- أولاً: أهمية أسلوب القدوة الحسنة ٣٢١

- ثانياً: القدوة في الإكثار من العبادة ٣٢٦
- ثالثاً: القدوة في الإنفاق في سبيل الله ٣٣٠
- ١ - إنفاق صلاح الدين ٣٣١
- ٢ - إنفاق بقية الملوك الأيوبيين ٣٣٥
- ٣ - إنفاق بطانة صلاح الدين ٣٣٧
- ٤ - إنفاق العلماء ٣٣٨
- ٥ - الوقف ٣٣٩
- رابعاً: القدوة في الجرأة على قول الحق والرجوع إليه ٣٤٥
- ١ - جرأة الملك الكامل ٣٤٨
- ٢ - جرأة العلماء ٣٤٩
- ٣ - رجوع الدعاة إلى الحق ٣٥٩
- خامساً: القدوة في الحرص على مصالح الناس ٣٦٠
- المطلب الثاني: أسلوب الموعدة الحسنة ٣٦٤
- أولاً: تعريف الموعدة الحسنة ٣٦٤
- ثانياً: أهمية أسلوب الموعدة الحسنة ٣٦٥
- ثالثاً: من أشهر الوعاظ الأيوبيين ٣٦٨
- رابعاً: نماذج من أسلوب الوعظ لدى دعاة العصر الأيوبي ٣٧١
- ١ - مواعظ ابن الجوزي ٣٧١
- ٢ - من مواعظ العز بن عبد السلام ٣٧٢
- ٣ - موعدة الإمام النووي للسلطان الظاهر ٣٧٤
- المطلب الثالث: أسلوب الحكمة ٣٧٧
- أولاً: تعريف الحكمة ٣٧٧
- ثانياً: أهمية أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله ٣٧٨
- ثالثاً: نماذج من حكمة دعاة الدولة الأيوبية ٣٧٩
- ١ - التدرج ٣٨٠
- ٢ - مراعاة الأولويات ٣٨٤

- ٣٨٥ ٣ - مراعاة اختلاف الظروف
- ٣٨٧ ٤ - استخدام المنهج المناسب
- ٣٩٢ المطلب الرابع: أسلوب التربية والتعليم
- ٣٩٢ أولاً: أهمية أسلوب التعليم والتربية
- ٣٩٦ ثانياً: جهود الدولة الأيوبية لدعم مسيرة التعليم والتربية
- ٣٩٧ ثالثاً: نماذج من الدعاة المُعَلِّمين
- ٤٠٠ رابعاً: العناية بتربية الأطفال وتعليمهم
- ٤٠٣ خامساً: الاهتمام بالترفيه
- ٤٠٩ • المبحث الثالث: ميادين الدعوة في عهد الدولة الأيوبية
- ٤١١ المطلب الأول: ميدان المدارس
- ٤١٢ أولاً: اهتمام الملوك الأيوبيين بميدان المدارس
- ٤١٧ ثانياً: اهتمام الأمراء الأيوبيين بميدان المدارس
- ٤١٨ ثالثاً: اهتمام علماء بني أيوب بميدان المدارس
- ٤٢٢ رابعاً: اهتمام نساء بني أيوب بميدان المدارس
- ٤٢٥ خامساً: اهتمام الدعاة بتحويل بعض الأبنية إلى مدارس
- ٤٢٦ المطلب الثاني: ميدان المعارك
- ٤٢٨ المطلب الثالث: ميدان القصر
- ٤٣١ المطلب الرابع: ميدان المسجد

الفصل الخامس

معوقات الدعوة في عهد الدولة الأيوبية

- ٤٣٩ • المبحث الأول: معوقات داخلية
- ٤٤١ المطلب الأول: الفرق الضالة
- ٤٤١ أولاً: العبيدية
- ٤٤٧ ثانياً: الإسماعيلية الباطنية



- ٤٤٩.....المطلب الثاني: التعصب المذهبي
- ٤٥٠.....أولاً: موقف الملوك الأيوبيين من التعصب المذهبي
- ٤٥٢.....ثانياً: آثار التعصب المذهبي
- ٤٥٦.....المطلب الثالث: الضعف الديني
- ٤٦٥.....المطلب الرابع: الخلط بين السنة والبدعة
- ٤٦٧.....المطلب الخامس: التنافس بين الأمراء الأيوبيين
- ٤٦٧.....أولاً: النزاع بين الأمراء الأيوبيين
- ٤٧١.....ثانياً: موقف العلماء والدعاة من النزاع بين أبناء البيت الأيوبي
- ٤٧٦.....المطلب السادس: الترف
- ٤٧٨.....المطلب السابع: الجوائح
- ٤٨١.....المبحث الثاني: معوقات خارجية

الفصل السادس

نتائج الدعوة وعوامل نجاحها في عهد الدولة الأيوبية

- ٤٨٧.....المبحث الأول: نتائج الدعوة في عهد الدولة الأيوبية
- ٤٨٨.....المطلب الأول: تصحيح المسار العقدي
- ٤٩٠.....المطلب الثاني: دخول الكثير من غير المسلمين في الإسلام
- المطلب الثالث: تغير نظرة بعض النصارى للإسلام والمسلمين وتأثرهم بعبادات المسلمين وأخلاقهم
- ٤٩٣.....
- ٤٩٧.....المطلب الرابع: وحدة العالم الإسلامي
- ٤٩٨.....المطلب الخامس: انحسار المدّ الصليبي
- ٤٩٩.....المطلب السادس: رعاية شؤون الحرمين
- ٥٠١.....المطلب السابع: ازدهار الحركة العلمية
- ٥٠٣.....المبحث الثاني: عوامل نجاح الدعوة في عهد الدولة الأيوبية
- ٥٠٤.....المطلب الأول: صدق اللجوء إلى الله تعالى وشكره على الفتح

- أولاً: أمثلة على الاستعانة بالله واللجوء إليه في الملمات والشدائد ٥٠٥
- ثانياً: أمثلة على شكر الله تعالى على ما أنعم به ٥٠٩
- المطلب الثاني: الاهتمام بالعلم ٥١٢
- أولاً: اهتمام ملوك بني أيوب بالعلم ٥١٣
- ثانياً: اهتمام العلماء بالعلم ٥٢١
- ثالثاً: اهتمام العلماء بالمذاهب الأربعة ٥٢٥
- رابعاً: اهتمام النساء بالعلم ٥٢٨
- خامساً: اهتمام الملوك بالعلماء ٥٢٩
- سادساً: اهتمام الدولة الأيوبية بالأطباء ٥٣١
- المطلب الثالث: الإصلاحات ٥٣٦
- أولاً: إصلاحات الأيوبيين ٥٣٧
- ثانياً: من أهم البلاد التي حظيت باهتمام الأيوبيين ٥٤١
- ١ - الإسكندرية ٥٤١
- ٢ - القاهرة ٥٤٢
- ٣ - بلاد الشام ٥٤٣
- ٤ - بلاد الحرمين ٥٤٣
- ٥ - بيت المقدس ٥٤٤
- المطلب الرابع: تعيين الولاة ٥٤٧
- المطلب الخامس: الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٥٠
- أولاً: اهتمام الملوك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٥١
- ثانياً: اهتمام العلماء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٥٢
- المطلب السادس: صلاح البطانة ٥٥٤
- المطلب السابع: الأخذ بأسباب القوة والحنكة العسكرية ٥٥٨
- المطلب الثامن: الشورى ٥٦٥
- أولاً: أبرز المستشارين في الدولة الأيوبية ٥٦٧
- ثانياً: مجالس الشورى في الحرب ٥٦٩



- المطلب التاسع: علو همة الداعية..... ٥٧٦
- الخاتمة..... ٥٨١
- أولاً: ملخص الدراسة..... ٥٨١
- ثانياً: أهم النتائج..... ٥٨٥
- ثالثاً: أهم التوصيات..... ٥٨٦
- الفهارس..... ٥٨٩
- ١ - فهرس الآيات القرآنية..... ٥٩١
- ٢ - فهرس الأحاديث النبوية..... ٦٠٣
- ٣ - فهرس الأعلام..... ٦١١
- ٤ - فهرس المصادر والمراجع..... ٦٣١
- ٥ - فهرس الموضوعات..... ٦٤٣

* * *

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com